

متجر
التحف القديم
تشارلز ديكنز

- ♦ المؤلف: تشارلز ديكنز
- ♦ العنوان: متجر التحف القديم
- ♦ ترجمة: ريهام سمير سعد
- ♦ الطبعة الأولى 2021
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٠ / ١٧٣٧٦

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 283 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٢٧٨٧ ٠١١١١٦

تشارلز ديكنز

متجر التحف القديم

رواية

ترجمة

ريهام سمير سعد

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : متجر التحف القديم - الجزء الثاني

ترجمة: ريهام سمير سعد

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17376 / 2020

الترقيم الدولي 4 - 283 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز

الفصل السابع والثلاثون

على غرار سلوكيات الرجل الأعزب المبهمة -الذي لديه مخزون وفير من مؤن مختلفة، لم تنفذ طوال هذه الأيام، كان يعد كل يوم أصنافاً مختلفة- كان لديه ولع واهتمام استثنائي لا مثيل له بعرض بانش. إذا تسلل لأذنه صوت بانش، ولو كان على مسافة بعيدة جداً من بيفيس ماركس، وكان الرجل الأعزب في سريره نائماً، ينهض من فوره، ويسارع في ارتداء ملابسه، قاصداً مصدر الصوت بأقصى سرعة لديه، ويصل في التو إلى موكب طويل من المتكاسلين، يتوسطه المسرح ومالكيه. في إحدى الأيام القريبة، نُصب المسرح أمام منزل السيد براس مباشرة، فأطلّ الرجل الأعزب من فوره من نافذة الطابق الأول، لكن الترفيه، المصحوب بصوت الصراخ وعزف الناي ودقات الطبل، ما لبث أن تسبب في إصابة كافة الجمهور الرصين في هذا الشارع الهادئ الساكن بالذعر المفرط. ربما كان من المتوقع -حين الانتهاء من العرض- أن ينفذ الجمع، ويمضي كل حي في سبيله، ويتفرق

الجمهور عن مؤيدي العرض، لكن العكس تمامًا هو ما حدث؛ نظرًا لأن الخاتمة كانت سيئة مثلها كمثل العرض كله؛ لأن الميت في النهاية لم يكن الشيطان، فدعا الرجل الأعزب من فوره محرك الدمى وشريكه إلى غرفته، حيث نعمًا بالوفير من النبيذ القوي من مخزونه الخاص، ثم تكلموا في أحاديث طويلة، لا يمكن لأي بشري أن يفهم من مضمونها شيئًا. لكن سر هذه النقاشات -على كل حال- لم يكن له أي أهمية. ومن الجدير معرفة أنهم أثناء ما كانوا ماضيين في فعلهم، كان الجمهور لا يزال محتشدًا حول المنزل، وقد أمسى الفتيان يدقون على الطبول بقبضات أيديهم، مقلدين صوت بانث بأصواتهم الناعمة، وأمسّت نافذة المكتب مطموسة الملامح بسبب الأنوف المسطحة الملتصقة بها، وأمسى ثقب المفتاح يلمع مع تبدل أعين الناظرين من خلاله، كلما كان الرجل الأعزب أو أي من ضيفيه ينظر من النافذة، أو كلما ظهر أنف أي منهم واضح للعيان، ارتفعت صيحة لاعنة من الجمهور المُقصى، عاوين صارخين مشددين على أنهم لن يتحركوا إلى أي مكان آخر، ولن يقبلوا أي تعزية، حتى يتم تسليمهم العارضين. باختصار يكفي أن نعرف أن ييفيس ماركس أحدث انقلابًا بهذه التحركات الشعبية، وأن السلام والهدوء قد تلاشيا من ضواحيها.

وسط هذه المستجدات الطارئة، لم يكن هناك من هو أكثر سخطًا من السيد سامبسون براس؛ لأنه بأي حال من الأحوال لن يتحمل خسارة نزيل مربح، اعتبر أنه من الحكمة تحمل إهانة النزيل وعدم إظهار أي استياء، ما دامت أمواله تُغني، وعمد إلى مضايقة وإبعاد تلك التكتلات

الجماهيرية التي طوقت منزله، واحتشدت أمام بابه، من أجل الانتقام والأخذ بالثأر، بأي وسيلة متاحة أمامه، والتي اقتصرت على تقطير الماء القذر فوق رؤوسهم من أصائص غير مرئية لهم، ورشقهم بالحجارة وبشظايا من القرميد والهاون من فوق سطح المنزل، ورشوة سائقي الحناطير، كي يقتحموا صفوفهم فجأة من كل حذب وصوب. ربما في بادئ الأمر قد تتفاجأ قلة من غير المفكرين؛ بأن السيد براس نفسه، الرجل النبيل المهني، لم يجزّم طرفاً أو أطراف الخصومة قانونياً، وأنه أحكم إلى إثارة أعمال الشغب، وحرّض عليها، ساعتها سيكون من الجيد لهم بما يكفي أن يتذكروا أن الأطباء نادراً ما يتناولون وصفاتهم الطبية، وأن رجال الدين لا يلتزمون دائماً بما يعظون به، لذا يخجل المحامون من اللجوء إلى القانون في شؤونهم الخاصة.. بل يدرسونه ويعرفون ثغراته، حتى يكون لهم سلاحاً حاداً في القضايا الملتبسة، ومصدراً للشراء في العمل، وغالباً لأنه مميز بحقوقه التبعية التي تمكنهم من التعجيل بالإجراءات بدلاً من اتخاذها دائماً مع الشخص الصحيح.

قال السيد براس بعد ظهر أحد الأيام: «ها نحن مجدداً! لقد مضى يومان على عدم وجود بانش. كم آمل أن يصفعهم جميعاً في النهاية».

ردت عليه الأنسة براس: «لماذا تراودك تلك الآمال؟ ما الضرر الذي يتسبب فيه؟».

صاح براس، وقد وضع قلمه في قنوط شديد: «الأمزجة المتعددة! تكون زميلاً حسناً، ثم تتحول إلى حيوان متعجرف!».

قالت سالي في صرامة: «قل لي ما الضرر الذي يتسبب فيه؟».

صاح براس: «ما الضرر! أتقولين ما الضرر! أليس الصخب المستمر والصيحات العالية بجانب أذن المرء ضرراً؟ أليس إلهاء المرء عن ممارسة عمله وكزه على أسنانه من شدة غيظه وغضبه ضرراً؟ ألا يكمن الضرر في أن المرء كاد أن يصيبه العمى ويختنق؟ أليس زحام الطريق الرئيس الذي يمر منه الملك، بمجموعة محتشدة من الغوغاء الصارخين العوائين الذين خُلقت حناجرهم من .. من ..».

قال سوفييلر مقترحاً: «من النحاس».

قال المحامي: «نعم بالتأكيد من النحاس!». ثم رمق كاتبه ملياً، ليؤكد لنفسه أنه اقترح هذه الكلمة بحسن نية، ودون قصد السخرية من اسمه، ثم تابع قائلاً: «أليس هذا ضرراً؟».

توقف المحامي عن التذمر للحظة؛ ليسترق السمع، متبيناً أنه صوت مألوف، أسند رأسه على راحة يده، ورفع عينيه إلى السقف، وقال متمتماً بصوت خافت: «مرة ثانية!».

انطلق الرجل الأعزب بالأعلى إلى النافذة مباشرة.

كرر براس قوله: «مرة ثانية! إذا كان بإمكانني الحصول على استراحة وأربعة خيول أصلية؛ تشق زحام ماركس، وتفرق الحشود، سأدفع ثمانية عشر بنساً عن نفس راضية، دون تذمر أبداً!».

سُمع صوت الصرير البعيد مجدداً. فُتح باب مسكن الرجل الأعزب. نزل الدرج مندفعاً، ومن ثم خرج إلى الشارع مباشرة، مر أمام النافذة، لم يكن معتمراً أي قبعة، ويتجه إلى المكان الذي صدر منه

الصوت .. قاصداً - بلا شك - تلبية نداء الغريبين .

تمتم سامبسون، وهو يدس أوراقاً في جيبه: «أود فقط لو أعرف مَنْ كانوا أصدقاءه.. لو زادوا العمولة الصغيرة فقط في مقهى نزل (جراي)، ومنحوني الوظيفة، سأكون راضياً، حتى إذا خلت الغرف السكنية كلها، لفترة من الوقت، وفي جميع المناسبات».

مع نطقه هذه الكلمات، اعتمر السيد براس قبعته، وقد أمالها على عينيه حاجباً عنها الرؤية، كما لو كان لا يود بتاتاً إلقاء ولو نظرة على هذه الزيارة المروعة، ثم انطلق من المنزل على عجل وسارع إلى الخارج.

لأن السيد سوفييلر بطبيعة حاله يفضل تلك العروض، ملأ الحماس صدره يريد أن يدلف إلى النافذة؛ كي يشاهد عرض بانش، حتى إن لم يكن هذا سبباً رئيساً، فأن تنظر من النافذة إلى أي شيء مهما كان، أثناء وقت العمل أفضل كثيراً من العمل، كأنك قد وجدت مخرجاً أخيراً لتلوذ بالفرار، من هذا المنطلق، إثر حماسه المتأجج، وبعد مجهود مضمّن تمكن من بعث حس التشويق في نفس زميلته الكاتبة، مقنعاً إياها بجمال منظرهم وبتلقيها متعة مضاعفة، فقاما عن كرسيهما، ودلف مع الأنسة سالي إلى النافذة في وئام تام ساد بينهما، واستقرا في مكانيهما، لكن العديد من السيدات والسادة الشباب من العاملين في احتضان الرضع، قد تمركزوا بكل ارتياح على حافة النافذة، كأنه مجلس لمنصب شرفي، ومعهم رعاياهم، متأقلمين تماماً مع ما تسنح به الظروف.

تغبش الزجاج، وغمم الغبار الرؤية، وفقاً للعرف الودي الذي نشأ بينهما، فك عقدة وشاح الأنسة سالي البني، وخلعه ومسح به الزجاج،

ثم نفّض عنه الغبار، وسلمه لها حينما انتهى، أخذته منه، وأعادت ربط وشاحها الجميل مجدداً على رأسها في هدوء تام ولا مبالة واضحة، عاد المستأجر، لكنه لم يعد منفرداً، عاد وفي عقبه رجلاً الاستعراض، وجمهورٌ حافلٌ من المتفرجين. سرعان ما اختفى العارض وراء الستائر، وتمركز شريكه إلى جانب المسرح، يحملق في المتفرجين بقسمات وجه غمرتها على نحو ملحوظ، صارت أكثر وضوحاً عندما نفخ لحن رقصة البوق البريطانية في آلة موسيقية ذات صوت عذب تُدعى: هرمونيكا، ظلت تعبيرات الحداد ملازمة لنصف وجهه الأعلى كما هي دون أدنى تغيير على الإطلاق، أما الجزء الآخر من الفم والذقن فغلبت عليه التشنجات الحية؛ فقد طُوّعا قسراً.

انقشعت الحالة الدرامية التي غمرت المتفرجين، وارتدوا إلى حالتهم الطبيعية. كانت الضجة التي سادت وسط الجموع ما زالت رائجة، عندما استدعى المستأجر رجُلَي العرض كعادته إلى سكنه أعلى الدرج، فور تعافيه من حالة اختطاف الأنفاس، وبعد أن صاروا أحراراً قادرين على التحدث والحركة.

صاح من النافذة في رجُلَي العرض فقط: «أنتما الاثنان.. أريد أن أتحدث معكما، اصعدا معاً». تحضر السمين القصير من فوره، ممثلاً إلى دعوته.

قال القصير: «هيا يا تومي».

رد الآخر: «لا أتحدث، قل له ذلك. لأي شأن سأذهب إليه وأتحدث؟».

رد القصير: «ألا ترى أن الرجل الأعزب قد حضر لنا قنينة فاخرة وحرص الكؤوس؟».

رد الآخر وقد غلبه الحماس المفاجئ: «ألم تستطع قول ذلك منذ البداية؟ هيا! ماذا تنتظر؟ هل ستجعل الرجل النبيل ينتظرنا طوال اليوم؟ أليس لديك أي أخلاق حميدة؟».

مع هذا الاحتجاج الموبخ، دفع السيد ذو ملامح الحداد والتعبيرات الكثيبة، الذي لم يكن سوى السيد توماس كودلين، صديقَه وأخاه في العربة السيد هاريس، أو كما يدعونه القصير أو مستدق الساق؛ وسبقه إلى سكن الرجل النبيل الأعزب.

قال الرجل الأعزب: «الآن يا رجال! لقد أدیتما العرض بشكل رائع. هيا! قولاً لي ماذا تتناولان؟ قل للرجل القصير خلفك أن يغلق الباب».

قال السيد كودلين، ملتفتاً إلى صديقه في تجههم بين: «ألا تستطيع إغلاق الباب خلفك؟ لأنه وفقاً لما أظن، يجب عليك أن تعرف بمفردك أن الرجل النبيل يريد الباب مغلقاً، دون أن نخبرك.. أليس كذلك؟».

أطاعه القصير، وأخذ يرمقه خلصة، فقد أمسى صاحبه (غريب الأطوار) أكثر من المعتاد، متمنياً ألا يتواجد في الحي أي حليب؛ فمزاجه كافٍ كي يعكر صفاءه، ولو من على هذا البعد.

أشار الرجل الأعزب إلى زوجين من الكراسي، مشدداً على

جلوسهما بإيماءة مؤكدة، مستنكرًا أنهما لم يجلسا من تلقاء نفسيهما. تبادل السيد كودلين والسيد القصير النظرات، يساورهما الشك والتردد، لكنهما جلسا في النهاية -على حافة الكرسيين اللذين أشار إليهما- ممسكين بقبعتيهما بإحكام، بينما ملأ الرجل الأعزب كأسين من القنينة الفاخرة الموضوعة بجانبه على الطاولة، وقدمهما إليهما بشكل لائق.

قال مضيفهما: «إن وجهيكما قد لفحته الشمس، هل كنتما تسافران؟».

رد السيد القصير بإيماءة مُثَبِّتة وتبعها بابتسامة. ثم أضاف السيد كودلين إيماءة مؤكدة، وتبعها بتأوه قصير، كما لو كان يشعر فعليًا بثقل المسرح فوق كتفيه وهو مسافر.

استأنف الرجل الأعزب: «أحسب أنكما تنتقلان بين المعارض والأسواق والسباقات وهلم جرا.. أليس كذلك؟».

قال القصير: «بالضبط يا سيدي.. إننا ننتقل تقريبًا في جميع أنحاء غرب إنجلترا».

قال المضيف من فوره في عجالة: «لقد تحدثت مع رجال لهم نفس حرفتكما، من الشمال والشرق والجنوب، لكنني لم ألتق بأي أحد من الغرب من قبل».

قال القصير: «دائمًا ما تكون جولتنا الصيفية المعتادة في الغرب يا سيدي، لذلك نحن هنا. إننا نطوف في شرق لندن في الربيع والشتاء، ثم نطوف في غرب إنجلترا في الأوقات الصيفية. لقد مرت علينا أوقات

عصية، وهطلت على رأسينا الأمطار، وغرست في الوحل أقدامنا، دون أن نكسب بنسًا واحدًا، لذلك أتينا إلى الغرب».

- دعني أعيد ملء كأسك مرة ثانية.

قال السيد كودلين فجأة من تلقاء نفسه، منحياً القصير جانباً: «إنني ممتن كثيراً لك يا سيدي، إنني حقاً كذلك.. لكنني أود أن أقول إنه أنا من يعاني هنا، أنا من يقع عليه العبء طوال السفر، وطوال الإقامة في النزل. سواء أكانا في بلد أم بلدة، سواء أكان الجو جافاً أم ممطراً، سواء أكان الطقس حاراً أم برداً، كودلين فقط هو من يعاني. لكن توم كودلين ليس بشكّاء بكّاء رغماً عن كل الظروف والتداعيات. أوه، كلاً البتة! من الممكن أن يشتكي القصير، إنه أمر وارد، لكن كودلين إذا تدمر، يقول كلمة واحدة فقط وعندئذ تكون الكلمة بالقدر الكثير.. أوه! دعك منه في الحال يا عزيزي، لا تُعِره انتباهاً أو أذناً. إنه ليس بالمكان اللائق للتدمر، هذا غير وارد قطعاً».

عقب القصير مقطب الوجه، وبمنظرة متجهمة: «إن فائدة كودلين لا تنكر حقيقةً، لكنه لا يخلو من عبثه، لا يبقى متيقظاً دائماً. أحياناً يغشاه النوم في أوقات لا يفترض فيها النوم أبداً، كما تعرف! أتذكر السباقات الأخيرة يا تومي!».

قال كودلين: «ألا تتخلى عن تضخيم الأمور يا رجل؟ يبدو الأمر كما لو كنت نائماً بينما تجمع خمسة قروش وعشرة بنسات أثناء العرض الواحد مثلاً.. أليس كذلك؟ لقد كنت أحضر لعملي، ومن المستحيل على المرء أن يبقي عينيه على عشرين مكاناً مرة واحدة،

أتحسبني طاووسًا، يوجد في ظهري أعين كما في ريش ذيله، ليس في مقدوري أكثر مما يمكنك فعله. إذا لم أكن كفؤًا لمراقبة الرجل العجوز والطفلة، فأنت أيضًا لم تكن كفؤًا لذلك، لذلك لا توجه أصابع الاتهام ضدي؛ لأن الملامة تليق بك تمامًا كما تليق بي».

قال القصير: «من الأحرى بك أن تصرف نظرًا عن هذا الموضوع يا نوم؛ لأن ما لا يليق هنا هو أن نتحدث عن هذا الآن، أخرجو على أن أقول إن هذا الموضوع غير سائق للرجل النبيل».

رد السيد كودلين: «إذا كان الأمر كذلك، لِمَ طرحته من الأساس؟ لكنني أستمح الرجل النبيل عذرًا نيابة عنك، نيابةً عن رجل طائش يحب أن يسمع نفسه يتحدث، دون أي دراية عن ماذا يتحدث، يتحدث غير عابئ بما يقول».

منذ بداية هذا الجدل، كان المضيف جالسًا في سكينه تامة، ينظر إلى أحدهما، ثم ينظر إلى الآخر، كما لو كان متأهبًا ينتظر أن تتاح له الفرصة كي يطرح عليهما بعض الأسئلة، أو أن يعودا إلى موضوعهم الأساسي الذي عدلوا عنه تمامًا. لكنه انطلاقًا من النقطة التي اختصت السيد كودلين بالذكر، وأتُّهم فيها بالنعاس، أظهر اهتمامًا متزايدًا بجدا لهما، الذي قد وصل آنذاك إلى ذروته.

قال: «إنكما الرجلان اللذان أريدهما، إنكما من بت أبحث عنهما، وأفتش وراءهما! قولاً لي أين ذاك الرجل العجوز وتلك الطفلة اللذان تحدثتما عنهما؟».

قال القصير، وقد تملكه التردد، ينظر مباشرة إلى صديقه: «ماذا تقول يا سيدي؟».

- الرجل العجوز وحفيدته اللذان سافرا معكما.. أين هما؟ قولاً لي، سيكون الأمر مجدياً، إذا تحدثتما، سيكون مجدياً أكثر مما يفوق توقعاتكما. لقد قلت إنهما رحلا عنكما، في أرض السباقات، كما فهمت من حديثك. لقد تُتبع أثرهما إلى ذلك المكان، ثم تواريا عن الأنظار، ولم يعد بالإمكان اقتفاء أثرهما. أليس لديك أي فكرة أو أي اقتراح حول كيفية الوصول إليهما؟

صاح القصير، ملتفتاً إلى صديقه، وتعتلي وجهه نظرة مشدوّهة: «هل كنت أقول لك دائماً إنني متأكد من أن هناك لغزاً وراء سفرهما، وإن أمرهما مريب؟».

رد السيد كودلين: «لقد قلتَ فعلاً! هل كنتُ أقول لك دائماً إن هذه الطفلة المباركة هي أكثر الأطفال الذين رأيتهم إثارة للاهتمام على الإطلاق؟ هل كنتُ أقول لك إنني أحبها، وإنني شغوف بها؟ أوه! تلك المخلوقة العذبة، أحسب أنني أسمع صوتها الآن. إنها تقول: إن صديقي هو كودلين. تقول والدموع تنهمر من عينيها: إن صديقي هو كودلين، وليس القصير. - تقول: إن القصير شخص جيد، ليس بيننا أي عداوة، يحسب له أنه لطيف، وأكاد أجزم بذلك. - تقول: لكن كودلين، على الرغم من أنه يعلم بوجود أموالني، لن ينظر إليها البتة».

كرر السيد كودلين تلك الكلمات بعاطفة متأججة، يمسح أنفه في طرف كم معطفه، ويهز رأسه من جنب إلى آخر متحسراً، تاركاً الرجل

الأعزب يصارع أفكاره، ويواجه حقيقة أنه منذ اللحظة التي غابت فيها صغيرته العزيزة، لم يعد يعرف راحةً للبال، ولا سعادةً للقلب.

قال الرجل الأعزب، وهو يسارع الخطى في الغرفة ذهابًا وإيابًا: «يا رحمة السماوات! بعد أن وجدت أخيرًا هذين الرجلين، أكتشف أنهما لن يدلاني على شيء ولن يساعداني بأي معلومة! كم كنت أود البقاء هائمًا، أعيش يومًا بيوم على أي أمل، وألا أعتمد عليهما، بدلًا من أن تتبعثر أفكاري وتندثر توقعاتي هكذا».

قال القصير: «مهلاً! انتظر لحظة! الرجل الذي يُدعى جيري.. أتذكر الرجل الذي يُدعى جيري يا توماس؟».

رد السيد كودلين: «أوه! لا تتحدث معي عن جيري.. كيف لي أن أكثرث بجيري ولو بمثقال ذرة، حينما أفكر في تلك الطفلة المحببة؟ تقول: إن كودلين هو صديقي، كودلين الجيد العزيز العطوف، الذي يُكنُّ لي الخير دائمًا! أنا لا أخاصم القصير، ولكنني مقربة إلى كودلين. ثم قال الرجل بشكل عكسي كأنه يراجع أفكاره: لكنها ذات مرة دعنتني (بابا كودلين) أعتقد أنني حتمًا أخفقت في شيء ما».

التفت القصير عن صديقه الأناني، متجهًا إلى مَنْ عرفاه قريبًا: «إن هذا الرجل الذي يُدعى جيري يا سيدي، المعروف بمالك الكلاب الراقصة، أخبرني ذات مرة أنه بمحض الصدفة وهو سائر في طريقه، رأى الرجل العجوز في رفقة معرض من معارض أعمال الشمع المتنقلة، غير المعروفة له. منذ أن هربا منا لم نسمع عنهما أي شيء سوى هذا، وهذا قد حدث في البلدة، حيث رأهم هناك، في الواقع ساعتهما لم أتخذ

أي إجراء، ولم أَسْعَ للاستدلال على مكانهما.. لكنني أستطيع الآن، إذا أردت ذلك».

قال الرجل الأعزب بنفاد صبر: «هل هذا الرجل في المدينة؟ هيا رد سريعاً».

رد السيد القصير من فوره: «لا! ليس في المدينة، لكنه سيأتي غداً، وسيقيم في منزلنا».

قال الرجل الأعزب: «إِذْنُ أحضره إلى هنا.. خذ هذا (السفرن) جزاءً لما قلت. إذا وجدتهما بفضلك، وبفضل خدماتك، فهذا الجنيه الذهبي لن يكون إلا مقدمة لعشرين جنيهاً غيره. عد لي غداً، وتذكر ما أطلبه منك جيداً، رغم أنني لا أحتاج أن أوصيك بذلك؛ لأنك حتماً ستفعل من أجل مصلحتك. الآن، أعطني عنوانك، واتركاني».

أخذ العنوان، غادر الرجلان، رحلت معهما الجماهير، وظل الرجل الأعزب على مدار ساعتين كاملتين، يمشي في الغرفة دون هواة، فوق رأسه السيد سوفييلر والأنسة سالي براس المتعجبين.



الفصل الثامن والثلاثون

كيت! حريُّ بنا أن نقول إننا سنلتفت نحو هذا الخصوص أولاً، ليس لأن لدينا وقتاً مستقطعاً، كي نتابع مصيره الذي كُتب عليه، بل لأن ضرورات هذه المجازفات تكيف نفسها مع طبيعتنا وأهوائنا، مثلما تطالبنا بحتمية متابعة المسار الذي طالما نرغب في اتباعه. كيت! في حين أن الأحداث التي عُولجت في الفصول الخمسة عشرة الأخيرة لا تزال قيد التقدم، يُفترض أن الوقت قد حان، ليتعرف القارئ تدريجياً على السيد والسيدة جارلاند والسيد هاويل وباربرا، ليأخذ بعين الاعتبار أنهم مع تقدم الأحداث سيصبحون أصدقاءه المقربين، وستكون فيلا هاويل في بلدة فينتشلي منزله الخاص.

البقاء.. يمكن للكلمات أن تُكتب، ثم تُطوى في غياهب النسيان، لكنني إذا ما تطرقت لنقل أي فكرة تفيد أن كيت على الرغم من رغد المعيشة وراحة الإقامة في مسكنه الجديد، نسيَ أجره الزهيد، وأثاث مسكنه القديم، فإن الكلمات قد ضلَّت مسعاها، وشرعت في ارتكاب الظلم. مَنْ كان يعصف ذهنه من التفكير فيمن تركهم وحدهم في بيته

القديم، حتى إذا كانوا أمًا وطفلين صغيرين مثل كيت؟ مَنْ كان بمثابة الأب المتباهي من كل قلبه والمتميم بكل حركات الرضيع الساحرة، ليراه طفلًا أعجوبة، مثل كيت؟ مَنْ كان لا يسأم الحديث مطلقًا مع باربرا في أوقات الليل عن كل ما يخص جايكوب الصغير؟ هل كانت هناك أم مثل أم كيت كما كانت في عين ابنها، هل وُجد في الفقر راحة أبدًا كما وُجد في فقر أسرة كيت؟ إذا ما سُرد الواقع من خلال رؤية كيت بتلك الكلمات، هل ستكون الكلمات اهتدت إلى مسعاها؟

اسمحوا لي أن أترث في هذه الجزئية -ولو للحظة- كي أشير إلى أن مودة وحب أهل البيت إذا كانت تحمل معاني بهية، فإنها بهية فعلاً في الفقر. من الممكن أن تكون الروابط التي تربط الثري والمتفاخر ببيته أصلها زائف، أما تلك التي تربط رجلاً فقيراً بموقده البسيط، فهي الحقيقية التي لا يمكن أن تشوبها شائبة، وتحمل شهادة السماء. من الوارد أن يحب الرجل ذو النسب والحسب الأبهة الفاخرة والأراضي الواسعة، التي يحملها له إرثه كأنها جزء لا يتجزأ منه، كأنها أنصبة تذكارية لولادته ولمصدر قوته، فيكون ارتباطه بها ارتباط فخر وثروة وانتصار، أما العلاقة التي تنشأ بين الرجل الفقير ومسكنه الذي يأويه -الذي كان على الأغلب ملكاً لغرباء من قبله، ومن الممكن بين ليلة وضحاها أن يسكنه الغرباء مجددًا- فهي علاقة ذات جذر متين متأصل تشعب في أعماق تربة صالحة. خُلقت مقدسات منزله من لحم ودم، لا تتزين بسبائك من ذهب أو فضة أو أحجار نفيسة، ليس لديه أي ممتلكات سوى تلك العواطف التي تغمر قلبه، حينما يرتبط ارتباطاً

وثيقاً بالأرض العارية والجدران المتصدعة، بصرف النظر عن الثياب
الرثة ومرارة العيش، والكدح المضني والأجر الزهيد؛ لأنَّ مَنْ ألقى في
قلبه حبه لبيته هو خالقه، فيصير بيته المتصدع مكاناً مهيباً.

ماذا لو كان بإمكان مَنْ يتحكمون في مصائر الأمم أن يتذكروا
هذا، أن يفكروا فقط في هؤلاء المكروبين في الفقر وكم من الصعب
أن يكمن في قلوبهم حبههم لبيوتهم الذي تنبثق منه فضائلهم الأهلية،
بينما يعيشون وسط جماعات دنيئة تستحق الازدراء، حيث تندثر
الفضائل الاجتماعية أو لا تتواجد على الإطلاق، أن يلتفتوا عن
الشوارع العريضة والمنازل الفخمة؛ ويكرسوا جهودهم لتحسين
المساكن الموحشة التي يقبع فيها الفقر المدقع ويهيم في طرقها..
فكم من أسطح منخفضة كانت أقرب إلى السماء من القبب
المتباهية لدور العبادة، التي ترتفع في تفاخر وسط الذنوب والجرائم
والأمراض الفتاكة؛ كي تسخر منها بشكل مغاير. تنتشر هذه الحقيقة
يوماً وراء يوم، وتعلن على مدار أعوام بأصوات جوفاء في بيوت
العمل والمستشفيات والسجون. ليس الأمر بالهين - ليس احتجاجاً
على عمل شاق - ليست راحة وصحة الناس التي ربما تُزهق في ليالي
الأربعاء مسألة بسيطة؛ لأن حب الوطن، ينبثق من حب البيوت،
وحينئذ وجب السؤال، مَنْ هم الوطنيون الصادقون، الذين يُعوّل
عليهم في وقت الحاجة؟ هل هم مَنْ يبجلون الأرض، ممتلكين
أخشاب الوطن وأنهاره ويابسته وكل ما ينتجون؟ أم أولئك الذين
يحبون بلدهم، ولا يمتلكون موضع قدم وسط رحابها الشاسعة!

لم يكن كيت على أي دراية مطلقًا بمثل تلك المسائل، كان كل ما يعرفه هو أن منزله القديم كان مكانًا مقفرًا فقيرًا، وأن البيت الجديد الذي سكن فيه لا يشبهه البتة، وأنه لا يزال يتذكره باستمرار في رضاه الممنون ويقلق حنون، وغالبًا ما يبعث رسائل مطوية إلى والدته، ويفرق معها شلنًا أو ثمانية عشر بنسًا، أو أي مال آخر مهما كان قليلًا، استطاع أن يحصل عليه بسبب سخاء السيد هاويل. في بعض الأحيان، حينما كان يتواجد في الحي، ويكون لديه متسع من الوقت، يعرج نحو والدته، التي لا يسعها الفرح متهللة في مرح واعتزاز بابنها، تعلقو أصدقاء صخب سرور ورضى جايكوب الصغير والرضيع، فضلًا عن التهنئات الحارة التي شاعت في الأفق في الساحة بأكملها، ممّن سمعوا بآذان متلهفة عن فيلا هاويل، التي لا يمكن قول الكثير عن بهائها وسحرها.

على الرغم من أن كيت حاز على أعلى درجات التفضيل عند السيدة العجوز والسيد النبيل العجوز والسيد هاويل وباربرا، من المؤكد أن أيًا من أفراد الأسرة لم يُبد له هذا القدر من المحابة الملحوظة مثل المهر العنيد، الذي يُعتبر الأكثر تعنتًا وتشبثًا بالرأي على وجه الأرض كلها، فقد كان بين يديه الأكثر وداعةً والأسهل انقيادًا بين الحيوانات جميعها. صحيح أنه ومن أجل الانتساق الدقيق علينا أن نشير إلى أنه حين أصبح مطيعًا مع كيت، وبات صعب المراس بالكلية مع أي شخص آخر - كما لو أنه قد حسم أمر وجوده في الأسرة رغم أي صعوبات أو اعتراضات - لم يتخلّ تمامًا عن سلوكه المعتاد، حتى بعد أن صار تحت إشراف من فضّله على الجميع، كان يستعرض أحيانًا تصرفات عجيبة متنوعة أو بعض الوثبات

إلى جانب أنه أصبح في وقت قصير أعجوبة مثالية في جميع الأعمال الخاصة بالحظيرة، سرعان ما جعل من نفسه بستانياً على نحو مقبول للغاية، وخدمًا نشيطاً داخل المنزل، ومساعدًا لا غنى عنه للسيد هابيل، ما برح يقدم له يوماً بعد يوم إثباتاً لثقتهم فيه واستحسانه له. علاوة على ذلك، كان السيد ويزردن - كاتب العدل - ينظر إليه بعين رؤوفة، حتى السيد تشوكستر كان يتلطف أحياناً ويومئ له بإيماء خفيفة، أو يشير له بالشكل المتعارف عليه لاتخاذ الهدف نصب الأعين وهي الإشارة التي تعني: «أراقبك»، أو يحييه ببعض التحيات الأخرى التي تجمع بين المزاح والمحابة.

۲۳

صاح السيد تشوكستر، مخاطبًا كيت: «أوقف العربية أيها الصبي! إنك مطلوب في الداخل».

قال كيت مترجلًا من العربية: «تُرى هل نسي السيد هابيل شيئًا؟».

رد تشوكستر: «لا تسأل أي سؤال أيها الصبي.. ادخل وستعرف! ووووعا!!!! إذا كان المهر ملكًا لي، فسوف أكسره».

قال كيت: «يجب عليك أن تكون معه في غاية اللطف، وإلا ستجده مزعجًا، مفتعلًا للمشاكل.. من الأفضل ألا تشد أذنيه، من فضلك! إنه لا يحب ذلك مطلقًا».

لم يرد السيد تشوكستر بأي تعقيب على هذه التوجيهات، سوى بزفرة غير ودية من أنفه في غطرسة عالية، نافخًا الهواء كما لو كان (طفلًا صغيرًا) محتجًا، ثم طلب منه أن يذهب ويعود مرة أخرى بأقصى سرعة لديه. امتثل (الطفل الصغير).. وضع السيد تشوكستر يديه في جيبه، وحاول أن يبدو كما لو كان غير مكترث على الإطلاق بالمهر الذي كان يسترخي بمحض الصدفة.

نظف كيت حذاءه بعناية فائقة - لم يكن قد فقد تبجيله لهيبة رزم الأوراق والعلب الصفيح بعد - طرق باب المكتب، الذي فُتح بسرعة شديدة من قبل كاتب العدل نفسه.

قال السيد ويزردن: «أوه! ادخل يا كريستوفر».

سأل رجل عجوز ذو بنية متينة، كان متواجدًا في الغرفة: «هل هذا هو الفتى؟».

قال السيد ويزردن: «نعم إنه الفتى.. إنه يعمل لدى موكلي السيد جارلاندا. إن لدي سببي الخاص لأصدق أنه فتى حسن يا سيدي، ولعلك تصدق ما يقوله. دعني أولاً أقدم السيد هاويل جارلاندا يا سيدي.. إنه رب عمله الشاب، وتلميذي النجيب، وصديقي العزيز.. أعز أصدقائي يا سيدي». كرر كاتب العدل ما قاله ثانية، ساحباً وشاحه الحريري، ولوح به حول وجهه.

قال الرجل الغريب: «لي الشرف يا سيدي».

رد السيد هاويل في لطف: «ولي أيضاً يا سيدي، بكل تأكيد.. هل كنت تريد التحدث إلى كريستوفر يا سيدي؟».

- نعم أردت التحدث إليه، إذا سمحت بالطبع!

- على الرحب والسعة.

همّ السيد هاويل وكاتب العدل أن ينصرفا، لكن الغريب قال من فوره إثر ذلك: «إن أمري ليس سرّاً، أو ينبغي عليّ أن أقول: لا حاجة للأسرار هنا.. إن الأمر يخص بائع التحف القديمة، الذي عاش معه، إن أمره يهمني بشدة. لقد كنت مغترباً عن هذه البلد لسنوات عديدة.. لذلك أرجو منكما أيها السيدان أن تعذراني، إذا كنت في هيئة غير مناسبة أو إذا اقترفت أي سلوك خاطئ».

رد كاتب العدل وكذلك السيد هاويل: «لا داعي للمعذرة أبداً يا سيدي.. على الإطلاق».

قال الرجل الغريب: «لقد سألت في الحي الذي سكنه سيده القديم،

وعرفت أن هذا الفتى كان يقوم على خدمته. فوصلت إلى البيت الذي تسكن فيه والدته، فدلّني على هذا المكان، باعتباره أقرب مكان من الممكن أن أجده فيه. هذا هو السبب الذي أتيت من أجله إلى هنا هذا الصباح».

قال كاتب العدل: «إنني ممتن لأي سبب جعلني أنال شرف زيارتك يا سيدي».

رد الرجل الغريب في صرامة قائلاً: «يا سيدي! إنك تتحدث كأبسط رجل في العالم، وأحسب أنك أفضل حالاً كثيراً من ذلك. لذا أرجو منك ألا تقلل من هيبتك الحقيقية كي تقول لي مجاملات ليس لها أي معنى».

تنحى كاتب العادل وقال: «أمم! إنك تتحدث صريح يا سيدي».

رد الرجل الغريب قائلاً: «وتاجر صريح.. قد يكون غياي الطويل وقلة خبرتي هما ما يقوداني إلى الشدة، لكن إذا كان المتحدثون الصرحاء في هذا الجزء من العالم نادرين، فإني أعتقد أن التجار الصرحاء لا يزالون أكثر ندرة. إذا كان حديثي سيء إليك يا سيدي، أحسب أن تعاملني - كما آمل - سوف يعوضك».

بدا السيد ويزردن مستاءً نوعاً ما من الأسلوب الذي يتبعه الرجل العجوز في إجراء الحوار، أما بالنسبة إلى كيت، فقد بات فاغر الفم، ينظر إليه مشدوهاً، يتساءل ما بال الرجل العجوز يتحدث مع كاتب العدل نفسه بهذه النبرة، فبأي نبرة سوف يتحدث معه. مع ذلك، التفت

إلى كيت على عجل، لم يكن هناك أي قسوة أو حدة بادية عليه، لكن ذلك لم يُغْنِ عن وجود بعض الانفعال المضطرب، وقال له:

«يا أيها الفتى! إذا كنت تعتقد أنني أسعى وراء ما أطلبه لأي غرض آخر غير أنني أريد خدمة مَنْ أبحث عنهما وأردهما إلى جادة الصواب، ستكون اقترفت بدورك خطأ فادحًا، وتسعى إلى تضليل نفسك. لذا أرجو منك ألا تكون مُضللًا، وثق في قلبي». ثم أضاف بعد أن التفت مجددًا إلى كاتب العدل وتلميذه قائلاً: «في الواقع، إنني في موقف لا أحسد عليه، ولا يُحمد عقباه، وليس متوقعًا على الإطلاق. لقد أتيت إلى هذه المدينة من أجل هدف عزيز على قلبي، أتوقع عدم مواجهة أي صعوبة أو عقبة في طريقي لبلوغ مقصدي. لكنني فجأة وجدت نفسي مقيّدًا متوقفًا عن تنفيذ مخططي؛ بسبب لغز غامض لا يمكنني حله. على الرغم من كل الجهد الذي بذلته لأفك شفرات اللغز، والتي كانت تمضي بي إلى شفرات أكثر غموضًا وتعقيدًا، وأخشى أن أثير جلبة في هذه المسألة، فيلجأ مَنْ أتبعهما من فورهما إلى الابتعاد أكثر عني. أوكد لكم أنكم إذا مددتم لي يد العون، فلن تأسفوا أبدًا على فعلكم، إذا علمتم فقط مدى احتياجي لمساعدتكم، ومقدار الحمل الذي ستخففونه عن عاتقي».

وجدت البساطة التي بدت في هذا الاستئمان والاتكال مكانها في صدر حسن المحيا كاتب العدل، الذي اعتمد الرد من فوره وقال بالروح نفسها، إن الغريب لم يخطئ مقصده، وإنه إذا أراد أن يكون في خدمته، فسيكون على أهبة الاستعداد، وسوف يفعل ما في وسعه من توه، دون أي تقصير أو تأخير.

كان تعرّض كيت لهذا الاستجواب، ووضّعه تحت أعين الرجل الغريب المرتقبة، سبباً رئيساً ساقه إلى تذكر سيده القديم، والطفلة، وطريقة حياتهما التي غمرتها الوحدة، وعاداتهما التي كفا عنها، وعزلتهما الموحشة. ما جعله يسترجع كافة الأسئلة والأجوبة المبهمة بشأن الغياب الليلي للرجل العجوز، وبقاء الطفلة بمفردها، والوحدة التي صارعتهما في تلك الأوقات، ومرضه وشفائه، وحياسة كويليب للمنزل، ومن ثمّ اختفائهما المفاجئ. لذا أبلغ كيت الرجل، أن بيتهما صار للإيجار، وأن اللوحة المعلقة على الباب تفيد بإحالة جميع المستفسرين إلى السيد المحامي سامبسون براس في بيفيس ماركس، الذي ربما يعلم منه بعض التفاصيل الإضافية.

قال الرجل هازئاً رأسه: «إنها لا تُسمّى إحالة المستفسرين.. إنني أعيش هناك».

صاح السيد ويزردن في دهشة، يريد معلومة مؤكدة من الرجل فسأله: «أتعيش في سكن السيد براس المحامي!».

كانت الإجابة: «آه! لقد ولجت إلى مسكنه في أحد الأيام، خاصةً بعد أن رأيت تلك اللوحة. بالنسبة لي يهمني إلى حد ما أين أعيش، كثيرًا ما صاحبني أمل يائس بأن بعض المعلومات الاستخباراتية التي لن تصلني إذا كنت في أي مكان آخر، ستتوافد على مسامعي ما دمت هناك.. نعم! إنني أعيش في سكن براس نفسه.. بؤس! أليس كذلك؟».

قال كاتب العدل، هازئاً كتفيه: «إن ما سأقوله هو رأي خاص.. لكنني أحسب أنه يجب أن يُنظر إليه على أنه شخصية مريبة مشكوك في أمره».

قال الآخر مرددًا: «مشكوك في أمره؟ إنني سعيد أن أسمع عن أي شكوك تمسه. أحسب أنني حسمت هذا الأمر منذ فترة طويلة. لكن.. هل تسمح لي أن أتحدث معك بكلمة أو بأخرى على انفراد؟».

وافق السيد ويزردن على مطلبه، دخلا إلى مقصورة الرجل حسن المحيا الخاصة، وحظيا بمحادثة انفرادية لمدة ربع ساعة، ثم عادا إلى المكتب مجددًا. كان الرجل الغريب قد ترك قبعته في غرفة السيد ويزردن، بدا عليه أنه أنشأ معه علاقة ودية في هذا الفاصل الزمني القصير.

قال، وهو يضع في يد كيت كراون (ربع جنيه إسترليني)، وينظر مباشرة نحو كاتب العدل: «لن أحتجرك أكثر من ذلك في هذا الوقت، حريٌّ بنا أن نتقابل مرة أخرى. لا تقل كلمة عن هذا لأي أحد، باستثناء سيدك وسيدتك بالطبع».

قال كيت متلعثمًا: «وأمي يا سيدي.. أظن أنها ستكون مسرورة بمعرفة ذلك».

- مسرورة بمعرفة ماذا؟

- أي شيء.. أن لا ضرر قد أصاب الآنسة نيل.

- هل ستكون فعلاً؟ حسنًا! يمكنك إخبارها إذا كان بإمكانها كتمان السر، وإذا كانت لن تنبس بحرف إلى أي مخلوق آخر. لا تنس هذا أبدًا.. كن حذرًا.

قال كيت: «سأخذ حذري يا سيدي. شكرًا لك يا سيدي. صباحك خير يا سيدي».

لم ينتهِ الأمر عند ذلك، بل كان الرجل حريصًا يساوره القلق، يريد أن يؤكد عليه ألا يخبر أحدًا بما دار بينهما، لذلك تبعه إلى الباب لتكرار تحذيره، وفي تلك اللحظة يحدث أن تلتفت أعين السيد ريتشارد سوفييلر نحوهما، فيرى صديقه الغامض وكيت معًا.

أن يقع هذا الحادث بهذه الطريقة، فإن أبلغ ما يُقال: إنها كانت صدفة إلى حد بعيد.

كان السيد تشوكستر الرجل النبيل صاحب الذوق الرفيع والروح الراقية، واحدًا من أتباع جماعة «أبوللو المجيدة»، التي كان السيد سوفييلر رئيسها الثابت. حينها كان السيد سوفييلر يمر في الشارع؛ لتنفيذ بعض المهام التي كلفه بها المحامي السيد نحاس (براس)، رأى على قارعة الطريق واحدًا من الأخوية المجيدة يحدق باهتمام في مهر، فعبر إليه الطريق كي يقدم له تحية ودية، نصت عليها الأخوية الأبدية، من خلال العرف المتداول فيما بينهم، الذي يحتم عليهم الهتاف وتحية أتباعها. بالكاد ألقى عليه التحية، ثم استطرد في كلامه بحديث عام عن الوضع الحالي، متفقدًا أحوال الطقس وما إلى ذلك، فيرفع عينيه، وإذا به يبصر الرجل النبيل من بيفيس ماركس يخوض محادثة جادة مع كريستوفر نابلز.

قال ديك: «مهلاً! من هذا؟».

رد السيد تشوكستر: «لقد أتى هذا الصباح، كي يرى مديري، ولا أعرف ما هو غير ذلك، فإني لم أسمع عنه ولم أره منذ خلقت البرية».

قال ديك: «لكنك على الأقل تعرف اسمه.. أليس كذلك؟».

وقبل أن يعرف رد السيد تشوكستر، قال في نبرة عالية مقتدٍ بأبوللو المجيدة أنه: «مبارك للأبد»، إذا عرف.

قال السيد تشوكستر، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعره: «إن كل ما أعرفه يا رفيقي العزيز، أنه سبب وقوفي هنا لمدة عشرين دقيقة كاملة، وأني أكرهه كراهية مهلكة لا تفنى، كراهية تكفي من الآن حتى الفناء، إذا كان في عمري ما يكفي».

بينما كانا في منتصف كلامهما، كان موضوع حديثهما الرئيس -الذي لم يَخطُ إلى الخارج، ولم يعرف عن وجود ريتشارد سوفييلر شيئاً- دخل إلى المنزل مرة أخرى، وعرج كيت نحوهما، منضماً إليهما، فأعاد عليه السيد سوفييلر تساؤله المطروح، لكن دون تحقيق نجاح أفضل.

قال كيت: «إنه رجل لطيف للغاية، وهذا كل ما أعرفه عنه».

تفاقم غضب السيد تشوكستر، لكن دون أن يخص سبباً معيناً بالذكر، قال على وجه العموم، كأنه افتراضٌ يُسلم به، أنه من المفروض كسر رؤوس المتكبرين، وقرص أنوفهم. بعد مرور لحظات قليلة، دون أن يعبر عن تأييده له في هذا الصدد، وتجهمه في أفكاره الغامضة، سأل السيد سوفييلر عن أي الطرق سيسلك كيت، وبمجرد إعلامه، أعلن أن هذا الطريق هو طريقه أيضاً، وفرض عليه أن يوصله، متعدياً على حقه في القبول أو الرفض. كان من دواعي سرور كيت أن يرفض هذا

الشرف المعروض عليه، لكن السيد سوفييلر جلس واستراح بالفعل على المقعد المجاور له، غير تارك له فرصة الرفض بأي حال، بخلاف حملته على النزول قسراً، بالتالي، اندفع بالعربة في تهور - تهور شديد في الواقع - ليقطع وداع السيد تشوكستر للرئيس الدائم، علاوة على أنه أراد أن يسبب إزعاجاً للأخير، بجعل مسامير قدمه تُدعس من انطلاقة المهر الجامح.

أما بالنسبة إلى ويشكر نفسه، فقد كان ضجرًا؛ سئم الوقوف، بدا السيد سوفييلر لطيفًا بما فيه الكفاية، فصار يحمسه وينشطه عن طريق صافرات عالية، وصيحات حماسية متنوعة، ظلت تتتابع طوال الوقت في حدة وسرعة أكبر، لدرجة أنها شابعت الحديث، كادت أن تثير جماع أي مهر، ولأنه المهر معروف السلوك، صار ساخطًا غاضبًا من توجيهات السيد سوفييلر، زائد في نزواته، مبيّنًا انجذابًا شديدًا لكل أعمدة المصابيح وعجلات العربات، وأظهر رغبة قوية في الركض على طوار الطريق، وسحج نفسه عن طريق الركض إلى الجدران القرميدية. لكن الأمر لم يكن على النحو نفسه، حينما وصلوا إلى المزرعة، حيث دخلت العربة من مدخل صغير للغاية، فقد سحبها المهر بدافع أن يأخذه إلى حجيرته المعتادة، حيث وجد السيد سوفييلر وقتًا للحديث.

قال ريتشارد: «إنه عمل شاق عليك.. أتريد شرب بعض الجعة؟».

رفض كيت في البداية، لكنه أذعن مع الوقت، وقد أرجأ حديثهما إلى حين بلوغهما حانة مجاورة.

قال ديك، ممسكًا بكأس الجعة المزبدة: «لنشرب في صحة

صديقنا، ما اسمه؟ ذاك الرجل الذي كنت تتحدث معه هذا الصباح،
أتعرف.. إنني أعرفه.. إنه رفيق جيد، لكنه غريب الأطوار.. رجل نبيل
غريب الأطوار جدًا.. ما اسمه؟».

شرب كيت النخب، ولم ينطق بكلمة.

قال ديك: «إنه يعيش في مسكني.. أو كي أكون دقيقًا، إنه يعيش في
السكن الذي يمتلكه صاحب العمل، الذي أعمل لديه ك..، كشريك
إداري.. إنه شخص حسن، لكن من الصعب بل من المستحيل معرفة
أي معلومة منه.. لكننا نحبه.. نحبه فعلاً».

قال كيت، وهو يهم بالرحيل: «يجب أن أرحل يا سيدي، بعد
إذنك».

رد داعيه: «لا تكن متعجلًا يا كريستوفر.. ما زلنا سنشرب نخب
والدتك».

- شكرًا لك يا سيدي.

قال السيد سوفييلر: «إن والدتك يا كريستوفر أم مثالية.. من
يلتقنا حينما نسقط، ويُقبَّل موضع الألم، كي يسكن؟ إنها الأم. المرأة
الساحرة.. إنه رفيق سخي. يجب أن نقصده، لكي يقدم أي مساعدة
لأمك.. قل لي هل يعرفها يا كريستوفر؟».

هز كيت رأسه بالنفي، ملقيًا نظرة خاطفة على السائل، ثم شكره،
وانطلق قبل أن ينطق معه بكلمة أخرى.

فكر السيد سوفييلر مليًا، وقال كأنما يحدث نفسه: «همف! إن الأمر

مريب.. لا شيء له صلة بمنزل براس إلا وكان مبهمًا غامضًا، تغمره
الألغاز. على كل حال سادع تحرياتي لنفسي. أحسب أنني أحوز على
ثقة كل منهم وأي منهم حتى الآن، لكن الوقت قد حان لتدبير شؤوني
الخاصة، ولأقوم ببعض المصالح التي تخدمني. إن الأمر غريب..
غريب ومريب حقًا!«.

بعد أن غرق في تفكيره، واعتلت أمارات الحكمة وجهه لبعض
الوقت، انتشل نفسه من أفكاره، وشرب بعض البجعة، ثم استدعى صبيًا
صغيرًا، كان يحدق فيه بنظراته، ويراقبه طوال تلك المدة، وسكب في
كأسه القطرات القليلة المتبقية، باعتباره يريق شيئًا عديم النفع، ثم أمره
بأن يحمل الكأس الفارغة وتحياته إلى الساقى، علاوةً على ذلك أوصاه
بأن يعيش حياة رصينة معتدلة، يمتنع عن شرب جميع المشروبات
الكحولية، بعد تقديم هذه النصيحة الأخلاقية -التي كانت أفضل كثيرًا
من النصف بنس- وضع الرئيس العظيم لجماعة أبوللو المجيدة يديه
في جيبه، وشق طريقه مبتعدًا، لكنه لا يزال يفكر.



الفصل التاسع والثلاثون

على الرغم من انتظار كيت للسيد هاويل طوال ذلك اليوم وحتى المساء، إلا أنه قرر أن يبقى بعيداً عن منزل والدته؛ كي لا يفسد مفاجأة ملذات الغد، حتى يراهم في أقصى درجات بهجتهم، لأن الغد هو اليوم العظيم الذي طال انتظاره طوال حياته؛ لأن الغد هو نهاية ربع المدة الأولى؛ لأن الغد هو يوم استلام ربع مرتبه السنوي للمرة الأولى - ستة جنيهات، أي ثلاثون شلناً بالتمام والكمال؛ لأن الغد سيكون نصف اليوم كاملاً إجازة من العمل، من أجل الترفيه فقط، سيعرف جايكوب معنى المحار، وسيشاهد العرض أخيراً.

كان الأمر أشبه بأنك إذا ما أردت شيئاً بشدة، فستكاتف الأمور جميعها على تسخيره لك، فقد تكاتفت الأحداث كلها لصالح هذه المناسبة.. لم يقتصر الأمر فقط على أن السيد والسيدة جارلاندا أخبراه أنهما قررا عدم خصم تكلفة ملبسه من راتبه -الهائل- بل أنهما قررا أيضاً التكفل دون انقطاع بمصاريف ملابس أنيقة وقيمة له.. لم يقتصر أيضاً على الزيادة التي أضفاها الرجل الغريب على راتبه، بإعطائه خمسة

شلنات دفعة واحدة، كأنها منحة إلهية مثالية، فقد كانت ثروة بذاتها.. لم يقتصر الأمر على هذه الأحداث، التي لا يمكن لأحد أن يحصل عليها مرة واحدة، أو أن تصور له في أكثر أحلامه جموحاً.. بل كان ذلك اليوم كذلك هو آخر يوم في الربع السنوي لباربرا أيضاً، علاوة على ذلك، كان نصف ذلك اليوم إجازة لها أيضاً، تماماً مثلما كان الحال مع كيت، وقد قررت والددة باربرا أن تقيم نوعاً من الاحتفالات، وتشرب الشاي مع والددة كيت؛ كي توطد العلاقات، ولترعى التعارف.

في وقت مبكر من صباح اليوم، نظر كيت من النافذة، يتابع سير السحب على وجه العموم، ويتبين على وجه الخصوص ما إذا كانت باربرا تطل من نافذتها، إذا لم تكن قد استيقظت إلى وقت متأخر من الليل؛ ترتب وتكوي الأقمشة، وتزخرفها بقطع الشاش، وتحيكها مع قطع أخرى، لتفصل زياً رائعاً، لملابس اليوم التالي، لكنهما كانا مستيقظين، فقد كان ذلك اليوم المشهود لهما، تناولا القليل في وجبة الإفطار، وأقل من القليل في الغذاء، حتى غمرهما الحماس، عندما دخلت والددة باربرا في مظهر منتعش، دل على صفاء الجو واعتدال الطقس في الخارج - لكن ذلك لم يُغنِ عن مجيئها ممسكة بمظلة كبيرة جداً، فقد يصعب على الناس أمثال والددة باربرا أن تفوت الخروج في العطلات من دونها - حينما دق الجرس، صعدا من فورهما في أوج حماستهما؛ لاستلام راتبهما الربع السنوي بالعملات الإنجليزية الفضية والذهبية.

حسناً! ألم يكن السيد جارلاند لطيفاً حينما قال: «ها هو راتبك يا كريستوفر، لقد استحقته عن جدارة»؟ ألم تكن السيدة جارلاند عطوفة

حينما قالت: «ها هو راتبك يا باربرا، إنني سعيدة بك جدًّا؟» ألم يوقع كيت باسمه على قسيمة الاستلام بخط عريض؟ ألم تكن باربرا ترتجف حينما كانت تكتب اسمها؟ ألم يكن من الجميل رؤية كيف سكبت السيدة جارلاند لوالدة باربرا كأسًا من النبيذ؟ ألم تتحدث والدة باربرا قائلة: «هذا نخب سيدتي، فإنك حقًا سيدة كريمة، ونخبك يا سيدي، فإنك خير الرجال النبلاء، ونخب حبي لك يا باربرا، ونخبك أيضًا يا كريستوفر؟» ألم تكن تشربه لمدة طويلة كما لو كان قدحًا كبيرًا، ألم يكن شكلها أنيقًا جدًّا، حينما كانت تقف مرتدية قفازها؟ ألم يكن في تلك الأجواء الكثير من الضحكات العالية والأحاديث المتداولة بينهم، كما لو كانوا يشاهدون كل هذه الأحداث من فوق الأريكة؟ ألم يكونوا مشفقين على مَنْ في أعمالهم ولم يأخذوا ذاك اليوم عطلة؟

ووالدة كيت.. ألم يتصور أحد أنها ستظهر في حلية حسنة، وتبدو في رونق السيدات فعلاً - لأول مرة طوال حياتها-؟ لقد كانت مستعدة تمامًا لاستقبالهم، حضّرت لوازم الشاي في حرص تام - وبقلب دافئ كما لو أنها ملكت العالم وما فيه، ألم يكن جايكوب والرضيع في حالة مثالية؟ ألم تبدُ ملابسهما رائعة كما لو كانت جديدة بالضبط، رغم أننا نعرف أنها قديمة بما يكفي! ألم تقل بعد خمس دقائق من استقرارهم في جلستهم، إن والدة باربرا كانت مثلما توقعت تمامًا؟ ألم تقل والدة باربرا إن والدة كيت كانت الصورة الواقعية لما تصورته في مخيلتها؟ ألم تُلقِ والدة كيت على والدة باربرا العديد من عبارات المديح لباربرا؟ ألم ترد والدة باربرا على والدة كيت بالعديد من عبارات الإطراء على

كيت؟ ألم تكن باربرا نفسها مولعة بجايكوب الصغير؟ ألم يكن أي طفل يتباهى ويستعرض مهاراته أمام الغرباء إذا أراد، مثلما فعل ذلك الطفل، أو يكون صداقات؟

قالت والدة باربرا: «وكلتانا أرملة أيضًا.. أحسب أننا خلقنا لتعرف كل واحدة منا الأخرى».

ردت السيدة نابلز: «لا شك لديّ في ذلك.. لكن يا لها من خسارة لأننا لم نتعارف منذ مدة طويلة».

قالت والدة باربرا: «لكننا تعرفنا في النهاية، وإنه حقًا لمن دواعي سروري، ويرجع الفضل في ذلك إلى ابنك وابنتي.. هذا أمر مؤكد. أليس كذلك؟».

أيدت والدة كيت ما قالته، وأعطتها موافقتها الكاملة على ما ذكرت، وبتركهما التأثير، وتعقبهما الأسباب، كان من الطبيعي أن يصل بهما الحديث إلى زوجيهما المتوفين، وتخليد ذكراهما، متحدثتين عن حياتهما، وموتهما، ومراسم دفنهما، قارنتا بين الأحداث، واكتشفتا ظروفًا متشابهة وأخرى متباينة في دقة عجيبة، فقد كان والد باربرا أكبر من والد كيت بأربع سنوات وعشرة أشهر، بينما توفي أحدهما يوم الأربعاء والآخر توفي يوم الخميس، وكان كلاهما وسيماً، تمتعا بحسن المنظر بشكل ملحوظ، وكانت هناك العديد من المصادفات غير العادية غير ذلك. ألقت تلك الذكريات ظلالها على سطوع بهجة العطلة، لذلك غير كيت مجرى الحديث، وشرع في التحدث عن مواضيع عامة، سرعان ما عادوا إلى بهجتهم،

مثلما كانوا في بداية جلستهم. على غرار الأحاديث العامة، حدثهم كيت عن البيت القديم، وعن نيل ذات الجمال الاستثنائي الفريد - تحدث عنها قرابة الألف مرة من قبل مع باربرا - لكن الكلمة الأخيرة التي قالها، قد ضلت مسعاها، ولم يجد منهم رد الفعل الذي كان يفترض، حتى والدته - التي بدت بمحض الصدفة تنظر إلى باربرا في التوقيت ذاته - قالت إن الأنسة نيل بلا شك جميلة جدًا، لكن العديد من الآنسات الصغيرات جميلات أيضًا مثلها، وعقبت باربرا من فورها أنها تظن ذلك فعلاً، وأنه من الواضح أن اعتقاد السيد كريستوفر يجب أن يحتمل الخطأ.. لكن كيت اندهش كثيرًا من ردود أفعالهن؛ لا يستطيع تحديد سبب وجيه إزاء تشكيكهن في كلامه. علاوةً على أن والدته باربرا أضافت قائلة: إنه من الشائع أن يتغير شكل الفتيان والفتيات في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة تقريبًا، على الرغم من تمتعهم بجمال ساحر من قبل، يكبرون ويصيرون عاديين، ثم دعمت حقيقة ما قالتها بالعديد من الأمثلة قوية الحجة، إضافةً إلى أنها قد أتت على ذكر أن أحد الشباب - قد اختص باربرا بالاهتمام - وأنه كان بنّاءً، يتمتع بسميزات عظيمة، لكن باربرا لم يكن لديها أي شيء تقوله - على الرغم من أن كل شيء كان ممتازًا - وقد ظنت أن عدم اكتمال هذا الأمر مؤسف حقًا. حينها قال كيت إنه يظن ذلك أيضًا، وبدا أنه صادقٌ ويعني ما يقوله، لكن سرعان ما صار مشدوهاً لا يعرف لماذا صمتت باربرا فجأةً، ولماذا نظرت إليه والدته كما لو كان من المفروض ألا يتلفظ بأي كلمة مما قاله أبدًا.

على كل حال، بات الوقت مناسباً كي يحددوا عن تلك الأحاديث، ويتأهبوا من أجل العرض، الذي يستلزم الذهاب لمشاهدته تحضيرات كثيرة، فمثلاً سوف يأخذون معهم القبعات والشالات، والوشاحين المكتنزين، أحدهما بالبرتقال، والآخر بالتفاح، الذي استغرق ربطهما وقتاً طويلاً؛ فلم تكف الفاكهة عن السقوط منه والدحرجة إلى أركان الغرفة. في النهاية، صار كل شيء جاهزاً، فانطلقوا من فورهم، حملت والددة كيت رضيعها، الذي كان متيقظاً بشكل مريب، وأمسك كيت يد جايكوب الصغير، الذي رافق باربرا ممسكاً يدها بيده الأخرى، جعلت حالة اللثام التي بدت عليهم الوالدين اللتين سارتا خلفهم، تعلنان أنهم يبدون كما لو كانوا أسرة صغيرة بالضبط، ذلك ما جعل وجه باربرا يحمر خجلاً، وتقول: «لا داعي لهذا الكلام الآن من فضلك يا أمي!». لكن كيت قال لها ألا تُعير حديثهما انتباهاً، لكنها في الحقيقة لم تكن بحاجة إلى ذلك؛ إذ عرفت إلى أي حد فكرة الحب بعيدة تماماً عن أفكار كيت. مسكينة باربرا!

وصلوا في النهاية إلى مكان العرض، الذي كان في مدرج (أستلي).. بعد وصولهم بدقيقتين تقريباً، لم يكن الباب قد فُتح بعد، تتجمهر أمامه تكتلات بشرية لا حصر لها، لدرجة أن جايكوب الصغير صار شبه مسطح بين الناس، وتعرض الطفل إلى العديد من الارتجاجات والارتطامات كالتي يتلقاها الغوّاصون، وأُطيح بمظلة والددة باربرا إلى مسافة عدة ياردات، ثم أُعيدت إليها مرة أخرى من فوق أكتاف الناس، أما كيت فقد سدد ضربات لرأس رجل بالوشاح الذي حمل في

داخله التفاح؛ لأنه تعرّض لوالدته بعنف غير ضروري، باختصار كان المكان كله يعج بالفوضى والضجة العارمة. لكنهم في النهاية تخطوا مكان الدفع والتزاحم، وتسلموا في أيديهم التذاكر. حينما دخلوا إلى المدرجات، وجدوا مقاعدهم في مواقع مميزة جدًا، لم يكن ليحصلوا على أفضل منها، ولو أتيح لهم أن ينتقوها، ويحجزوها مسبقًا.. بدا كل هذا لهم على أنه مزحة مرحة، وجزءًا أساسيًا من الترفيه.

يا إلهي! يا إلهي! كيف يمكن وصف هذا المكان! كيف يمكن وصف مدرج أسلي! مع الطلاء المذهب، والمرايا، ورائحة الخيل التي تفوح من أرجاء المكان، والتي تضيئي شعورًا بأن العجائب آتية، والستائر المسدلة التي توارى خلفها كل ما هو رائع وغامض ومثير للفضول، والنشارة البيضاء النظيفة المثورة على أرض السيرك، والجماهير الحاشدة التي أتت واتخذت أماكنها، والعازفين الذين باتوا ينظرون نحوهم في فتور وهم يضبطون آلاتهم الموسيقية، كما لو كانوا لا يريدون بدء العرض، وعلى علم بأحداثه مسبقًا! كيف يمكن وصف التوهج الذي انعكس على الجميع بالتزامن مع الإنارة التدريجية لصف طويل من الأضواء الساحرة، كيف يمكن وصف الإثارة المتأججة حينما قُرِع الجرس، وبدأت الموسيقى تُعزف مع تأثيرات قوية من قرع الطبول، ورنين آلة المثلث! ربما قالت والدة باربرا لوالدة كيت: إن مدرجات العرض كانت مكانًا رائعًا للمشاهدة، متعجبةً من أنها لم تكن أعلى من المقصورات.. ربما قالت باربرا: إنها تشعر بشعور غريب لا تعرف إذا كانت تريد الضحك أم البكاء بسبب الفرحة العارمة التي تخالجها.

كيف يمكن وصف العرض نفسه؟ كيف يمكن وصف الخيول؟
التي سلم جايكوب الصغير بأنها خيول حية من أول وهلة، لكنه لم يقتنع
بواقعية السيدات والسادة بأي حال من الأحوال، فلم يكن قد رأى أو
سمع عن مثل تلك العروض من قبل على الإطلاق، كيف يمكن وصف
صوت دوي إطلاق الرصاص! الذي طرفت له عينا باربرا لا إرادياً،
والسيدة البائسة التي جعلتها تبكي، والرجل الطاعني الذي جعلها
ترتجف خوفاً، والرجل الذي تغنى مع الخادمة وأرقص الجوقة الذي
جعلها تضحك، والمهر الذي وقف على قائمته الخلفيتين حينما رأى
القاتل ولم يعد يمشي على قوائمه الأربعة مرة أخرى حتى أخذ إلى
الاحتجاز، والمهرج الذي غامر بالمزاح مع الرجل العسكري الذي كان
يرتدي حذاء ذا رقبة عالية، والسيدة التي قفزت من فوق تسعة وعشرين
شريطاً ثم نزلت بأمان على ظهر الحصان، كيف يمكن وصف أن كل
شيء كان باعثاً على السرور رائعاً مذهشاً! صفق جايكوب الصغير
إلى أن احمرت راحتا يديه، صاح كيت: «عرض رائع». بما تضمنه من
عروض ثلاثية، ضربت والدة باربرا بمظلتها على الأرض مراراً وتكراراً
في ابتهاج، حتى كادت أن تهترئ ويظهر منها نسيجها القطني.

على الرغم من تلك الأجواء الفاتنة المبهجة، ما زالت أفكار باربرا
تحوم حول ما قاله كيت وقت شربهم الشاي، لدرجة أنهم حينما غادروا
العرض، جاءت إلى جانبه، تعتلي وجهها ابتسامة متكلفة، وسألته في
قلق هستيري: هل جمال الأنسة نيل يضاهي جمال السيدة التي قفزت
فوق الشرائط!

قال كيت: «جمالها يضاهي جمال السيدة! بل قل لي ضعف جمالها».

قالت باربرا: «أوه.. كريستوفر! إنني متأكدة أن هذه السيدة هي أجمل مخلوقة على الإطلاق».

رد كيت: «هراء! إنها جميلة بما يكفي.. لا أنكر ذلك، لكن بارتدائها تلك الملابس ووضعها تلك المساحيق.. فكري فقط كيف يمكن لتلك الأشياء أن تغير من شكلها الطبيعي. إنكِ تبدين أجمل منها كثيرًا يا باربرا».

نظرت باربرا إلى الأسفل وقالت: «أوه.. كريستوفر».

قال كيت: «إنكِ فعلاً جميلة.. في أي وقت.. وكذلك والدتك».

مسكينة باربرا!

ما قيمة كل هذا -على الرغم من أنها أشياء مهيبة- إلى جانب الإسراف الاستثنائي الذي تلاها، حينما ذهب كيت إلى مطعم المحار، دخل جريئاً واثق الخطى، كما لو كان يعيش هناك، ولم تمضِ مجرد وهلة فائتة حين نظر إلى طاولة البيع، أو الرجل الذي يقف وراءها، اقتاد صحبته إلى مقصورة -كانت مقصورة خاصة، مجهزة بستائر حمراء، ومفرش طاولة أبيض، وحامل توابل كامل- استدعى رجلاً ذا شارب كثيف، كان يعمل نادلاً، قال - قال لكريستوفر نابلز-: «تفضل يا سيدي»، فأمره بإحضار ثلاث دستات من المحار كبير الحجم، وأن يكون سريعاً! نعم! لقد أوصى كيت ذلك الرجل أن يكون سريعاً، وما

حدث بعد ذلك لم يقتصر على تأكيد الرجل على أنه سوف يكون سريعاً، بل نفذ كلامه بالفعل، وأحضر معه العيش الساخن، والزبد الطازج، وأكبر محار قد سبقت رؤيته. ثم قال كيت لهذا الرجل: «وأريد قدحاً من الجعة». -دون أي كلمة إضافية- وبدلاً أن يرد عليه الرجل ويقول: «هل تقول لي هذا الكلام يا سيدي؟». قال: «قدحاً من الجعة يا سيدي! أمرك يا سيدي». ثم خرج وجلبه له، ووضعه في دورق صغير على الطاولة، يشبه ما تحمله كلاب المكفوفين في أفواهها في الشارع، لوضع نصف بنس بداخله، أعلنت كلتا السيدتين -والدة كيت ووالدة باربرا- بمجرد أن التفت عنهما، أنه أروع وأنبل الشباب الذين رأينهم على الإطلاق.

انكبوا على تناول عشائهم في نهم، لكن باربرا -الحمقاء باربرا- أعلنت أنها لا تستطيع أن تأكل أكثر من محاريتين، وأنها ستضغط على نفسها لأكلهما كاملتين أكثر من أن يمكن لأحد أن يتخيل، قبل أن تلتهم أربعة من المحار، على الرغم من أن والدتها ووالدة كيت أكلتا بشكل طبيعي جداً، ضاحكتين مستمتعتين، مثل كيت تماماً، الذي ضحك وسرّ بسبب سرورهما، وهو يأكل بانسجام شديد. لكن المعجزة العظيمة لتلك الليلة كان جايكوب الصغير، الذي أكل المحار كأنه وُلد وتربى وهو يعمل في تحضيره -يرش الفلفل والخل بدقة متناهية رغم صغر سنه- وقد بنى مغارة على الطاولة بالأصداف. بالإضافة إلى الرضيع أيضاً، الذي لم تغمض له عين طوال الليل، لكنه جلس حسن التصرف تماماً، بخلاف أنه حاول أن يحشر برتقالة كبيرة داخل فمه، وبات يحملق

في أنوار الثريا، ويحدق في وهج الشعلة دون أن يحرك جفنًا، جالسًا في حضن أمه، ينقش على وجهه الرقيق لوحات من لصق الأصداف به، بالدرجة التي تجعل قلبًا من حديد يفتن به! باختصار، لقد كان عشاءً مثاليًا، حينما طلب كيت مشروبًا دافئًا كي يختتموا به جلستهم، ويذهب إلى السيد والسيدة جارلاند، كانوا أسعد ستة أشخاص في جميع أنحاء العالم.

لكن لكل شيء نهاية، وللسعادة أيضًا نهايتها.. -أو من هنا تأتي بدايات السرور في الأساس- أمسى الوقت متأخرًا، فقرروا جميعًا توجيه وجوههم إلى منازلهم. لذلك، بعد أن حاد كيت ووالدته قليلًا عن مسار بيتهما؛ لمرافقة باربرا ووالدتها إلى منزل صديقتها، حيث ستقضيان الليل، غادراهما أمام الباب، مع موعد مبكر بالعودة إلى فينتشلي في صباح اليوم التالي، وخطط كثيرة تخص الربع السنوي التالي. حمل كيت على ظهره جايكوب الصغير، مدَّ يده إلى أمه، وأعطى قُبلة للرضيع، وساروا جميعًا إلى المنزل، تغمرهم نشوة الفرح.



الفصل الأربعون

مع هذا الشعور المبهم من الأسف التي تبعثه العطلات في صباح اليوم التالي لها، خرج كيت مع شروق الشمس إلى التزاماته وواجباته اليومية، تتغمده متع ليلته الماضية، وتنعشه النسمات الصباحية، ذهب ليلتقي بباربرا ووالدتها في المكان المحدد. حينما كان يتحضر للمغادرة، كان حريصًا جدًا ألا يوقظ أيًا من طفلي الأسرة الصغار؛ فقد كانا لا يزالان يستريحان حتى الآن من إرهاق غير اعتيادي، ترك كيت أمواله على رف المدفأة، مع نقش بالطباشير؛ ليلفت انتباه والدته إلى مكانها، وأبلغها أن تلك الأموال لها من ابنها المطيع، ثم رحل بقلب أثقل من جيوبه، لكنه خالٍ من أي غصّة.

يا لهذه العطلات! لماذا تترك في أنفسنا شعورًا بالأسف؟ لماذا لا نستطيع إقصاء ذكراها في ذاكرتنا إلى الماضي، لأسبوع واحد أو لأسبوعين، فتصبح على مسافة مريحة من الذاكرة، يُنظر إليها بلا مبالاة هادئة أو بجهد غير جهيد! لماذا تتوافد ذكراها على بالنا، كمداق خمر الأمس، فتتنزل علينا بالكسل والصداع، أو لماذا لا نجعل منها أهدافًا حسنة للمستقبل، لكن عادة ما يستمر أثرها حتى وقت الغداء فقط، أو ما يقرب من ذلك!

مَنْ سيتعجب أن باربرا كانت تعاني من الصداع، وأن والدته باربرا كانت إلى حد ما منزوعة، وأنها استخفّت بعرض (أسلي)، فقد ظنت أن المهرج كان عجوزاً على أن يقدم عرض ليلتهم الماضية؟ لكن كيت لم يكن مندهشاً مما قالت على الإطلاق. لطالما كانت تراوده هواجس - بسبب بصيرته الواهجة - حيال فكرة أن الممثلين المتلونين بشخصيات عكس واقعهم قد فعلوا نفس ما فعلوه الليلة الماضية ليلالٍ كثيرة سابقة، ثم يعيدونه الليلة مرةً أخرى، ثم في الليالي القادمة كلها، ربما لأسابيع أو حتى لشهور - وذلك على الرغم من عدم حضوره حينذاك - وأن الاختلاف سوف يقتصر على الأيام، بين الأمس واليوم. وكذلك نحن، إما ذاهبون إلى عرض، وإما عائدون منه إلى المنزل، وتتابع الأيام.

على غرار أن الشمس نفسها تبتغ باهتةً، ثم ينساب نورها في إشراق تام على الأفق مع تقدم ساعات النهار، كانوا كذلك، فبدأوا تدريجياً في استجماع نشاطهم، يتذكرون ما حدث أكثر فأكثر بروح سعيدة مشرقة، يسيرون ويتحدثون ويضحكون حتى وصلوا إلى فينتشلي بقلوب تغمرها البهجة، حينها أعلنت والدته باربرا أنها لم تكن أقل إرهاقاً أو أفضل حالاً أبداً من ذلك الوقت. قال كيت إنه كذلك فعلاً. أما باربرا، فعلى الرغم من أنها كانت صامتة طوال الطريق، قالت: إنها تشعر بالمثل أيضاً. مسكينة باربرا الصغيرة! لقد كانت هادئة جداً.

لقد وصلا المنزل في توقيت مناسب، لدرجة أن كيت قد أنهى تنظيف المهر، وجعله في أناقة أحصنة السباقات، قبل أن ينزل السيد جارلاند لتناول الإفطار، دائماً ما يكون الكد في العمل والانضباط

والسلوك القويم أفعالاً يمجدها السيد والسيدة جارلاند والسيد هابيل .
في تمام الساعة المحددة -أو على وجه أدق في تمام الدقيقة والثانية
المحددة، فقد كان رمزاً للانضباط والالتزام بالمواعيد- خرج السيد
هابيل، ليستقل حافلة لندن، وذهب السيد العجوز وكيث إلى العمل في
البستان.

لم تكن أيام عمل كيث في البستان هي الأقل متعة من بين وظائفه؛
فقد كانت بمثابة احتفال عائلي صغير، فقد اعتادت السيدة العجوز أن
تجلس وتضع على طاولة صغيرة سلة مشغولاتها، واعتاد السيد العجوز
أن يساعد كيث بفعل أو بآخر بجهد عظيم، يحفر ويشذب ويقطع
بجلد كبير، واعتاد ويشكر أن يقف في حقله المعشوشب، يتابعهم جميعاً
بنظراته في تأمل ساكن. وفي اليوم المذكور، كان عليهم تقليم كروم
العنب، فتسلق كيث إلى منتصف سلم قصير، وبدأ في التقطيع والدق،
بينما وقف السيد العجوز، يتابع فعله بشغف كبير، ويعطيه المسامير
وخرقات الأقمشة حينما يطلب منه. بينما قامت السيدة ويشكر بفعلها
المعتاد.

قال السيد جارلاند: «حسناً يا كريستوفر! أظن أنك أنشأت صداقة
جديدة.. ها! أليس كذلك؟».

نظر كيث إلى أسفل السلم، وقال: «أستمحيك عذراً يا سيدي!».

قال السيد العجوز: «لقد سمعت في المكتب من السيد هابيل أنه
أصبح لديك صديق جديد.. أليس كذلك؟».

- أوه! نعم يا سيدي.. لقد تصرف معي على نحو راقٍ يا سيدي.

رد السيد العجوز، تعتلي وجهه ابتسامة صافية: «إنني سعيد لسماعي ذلك.. أيفترض أنه سيعاملك برقي أكثر يا كريستوفر فيما بعد».

قال كيت، بينما يدق بقوة على مسمار متصلب: «في الواقع يا سيدي.. أعتقد أنه كذلك فعلاً، لكن ما يهم أنني لا أحتاج إليه في شيء يا سيدي، أنا متأكد من ذلك».

قال السيد العجوز: «أحسب أنه متلهف إلى أن يأخذك لخدمته الخاصة.. خذ حذر! كن حذرًا حيال ما تفعله، وإلا سقطت وأصبحت نفسك».

توقف كيت عن عمله لوهلة، ونظر إلى أسفل السلم، مثل بعض المهرجين البارعين، وصاح: «يأخذني لخدمته الخاصة يا سيدي؟ لماذا يا سيدي؟ أعتقد أنه لن يكون جادًا حينما يقول ذلك».

قال السيد جارلانند: «أوه! لكنه جاد في الواقع! وقد أخبر السيد هاويل بذلك».

قال كيت مدمدماً، وهو ينظر بأسف إلى سيده وسيدته: «لم أسمع بهذا مطلقاً.. إنني أتعجب من مطلبه فعلاً يا سيدي».

قال السيد جارلانند: «اسمعني يا كريستوفر.. إن هذا الحدث هو نقطة فاصلة وفي غاية الأهمية بالنسبة إليك، لذلك يجب عليك أن تفكر ملياً، وتأخذ كل شيء بعين الاعتبار. إن هذا الرجل النبيل بإمكانه أن يعطيك ما لا أكثر مما أعطيه لك.. آمل أن أكون الأكثر لطفًا والأكثر

ثقةً في المعاملات المتعددة التي تجمع الخادم بسيده، لكنه بالتأكيد يا كريستوفر سيعطيك ما لا أكثر».

قال كيت: «حسنًا يا سيدي! لكنني لا أظن..».

قال السيد جارلاندا: «تمهل للحظة.. ليس هذا كل شيء. أعلم أنك كنت خادمًا مخلصًا لأرباب عملك القدامى -وفقًا لما أفهم- وأعلم أن هذا الرجل النبيل يسعى إلى الوصول إليهم بكل الوسائل المتاحة له، وأن هدفه الرئيس هو إيجادهم، لذلك لا يساورني أي شك أنك ستحصل على مكافأتك الخاصة حينما تكون في خدمته. علاوةً على أن..»، أضاف السيد العجوز مشددًا على كلامه: «علاوةً على أن السعادة ستغمرك حينما تصير مرة أخرى على تواصل بأولئك الذين يتبين لي أنك مرتبط بهم بشدة، ومهتم كثيرًا بأمرهم. يجب أن تأخذ كل هذا بعين الاعتبار يا كريستوفر وتفكر فيه مليًا، يجب أن تتمهل وألا تتعجل في خيارك».

شعر كيت بوخزة لحظية حادة، وعانى من ألم مفاجئ، كي يثابر على قراره الذي حسمه، بمجرد أن طاف ذاك الحوار الأخير بين أفكاره، وجعل خواطر تحقيقه لكل آماله وأحلامه تتوافد إلى ذهنه. لكنه في غضون دقيقة، لملم من شتات نفسه، وقال للسيد النبيل: إنه يجب أن يبحث عن خادم آخر، بل يجب أن يجده أولاً.

التفت كيت مرة أخرى بعد نصف دقيقة من الدق المتواصل، وقال: «ليس من حقه البتة أن يعتقد أنني سأذهب لأكون في خدمته.. هل يظن أنني غبي؟».

قال السيد جارلانند بجدية: «أحسب أنه سيظن ذلك فعلاً يا كريستوفر؛ إذا رفضت عرضه».

قال كيت بحسم: «إذن، دعه يظن يا سيدي، ما لي أكرث بما يظن؟ لماذا يجب عليّ أن أهتم بما يفكر أو يظن يا سيدي، حينما أكون على ثقة تامة، إنني سأكون غيباً فعلاً، بل سأكون أسوأ من غيبي يا سيدي، إذا ما رحلت عن ألطف سيد وأكرم سيدة - كانا ولا يزالان - معي، من التقطاني من الشوارع طفلاً فقيراً جائعاً - بل أكثر فقرًا وجوعاً مما تتصوران - يا سيدي، لن أذهب إليه أو إلى غيره!». التفت إلى سيدته فجأة وقال: «لكن الآنسة نيل إذا عادت، من الممكن حينئذ أن يختلف الوضع، فإذا أتت واحتاجت إلى خدماتي، سأتي إليك يا سيدتي وأطلب منك السماح لي بالعمل لديها في وقت ما أو الآخر حينما أفرغ من عملي هنا، رغم أنني أظن أنها حينما تعود هذه المرة، ستكون غنية مثلما اعتاد أن يقول سيدي القديم دائماً، ستصبح سيدة شابة غنية، وما بالها أن تحتاجني ثانية؟». أضاف كيت وهو يهز رأسه في كمد: «.. لا لا! إنها لن تحتاجني مرة أخرى على الإطلاق.. فليباركها الرب، أمل ألا تحتاج أحداً قط، ولو أنني أتوق إلى رؤياها في الوقت ذاته!».

وهنا دق كيت مسماراً بعنف في الحائط، بعنف أشد من الضروري بمراحل، ثم نظر إليهما ثانية.

قال كيت: «والمهر يا سيدي! ويشكر يا سيدتي! الذي سهل الآن، لأنه يعرف أنني أتحدث عنه يا سيدي.. هل تتوقعان أنه سوف يدع أحداً يقترب منه غيري يا سيدتي؟ البستان يا سيدي! السيد هابيل يا سيدتي!

هل سيبتعد عني السيد هابيل يا سيدي؟ هل هناك أحد سيهتم بالبستان مثلي يا سيدتي؟ إن قلب أُمي لينفطر يا سيدي، حتى جايكوب الصغير أحسب أنه سيبيكي كثيرًا يا سيدتي إذا علم أن السيد هابيل سيبتعد عني قريبًا، بعد أن وعدني في ذاك اليوم أنه يأمل أن نكون معًا لسنوات قادمة...».

لا نعلم طول المدة التي كان سيستغرقها كيت واقفًا على السلم، يلتفت من سيده إلى سيدته، ويحدثهما عن الشأن نفسه، لولا التفاته إلى شخص غير مقصود.. لو لم تكن باربرا قد أتت في تلك اللحظة؛ لتبلغهم أن رسولًا قد أتى من مكتب كاتب العدل، ومعه رسالة، سلمتها من فورها إلى سيدها، بينما وقف كيت مشدوها، ينعكس على مظهره كله هول المفاجأة.

قال السيد العجوز بعد أن قرأها مباشرة: «أوه! اطلبي من الرسول أن يحضر إلى هنا». التفتت باربرا من توها لتلبية أمر سيدها، نظر إلى كيت وقال: إنهما لن يمضيا قدمًا في حديثهما، وإن كيت لا يمكن له أن يكون غير راغب في الرحيل عنهما، أكثر من رغبتهما في رحيله، وذلك كان بالخبر الذي تردد صداه على مسامع السيدة العجوز، وتأثر له وجدانها.

أضاف السيد جارلانند، وهو ينظر إلى الرسالة التي يمسكها بيده قائلاً: «وفي الحين ذاته يا كريستوفر، إذا أراد الرجل النبيل أن يستعيرك الآن أو في أي وقت، لمدة ساعة أو أكثر، أو ليوم كامل، يجب علينا أن نوافق على إقراضك له، ويجب عليك أن تدعن لمطلبه.. أوه! ها هو السيد الشاب. كيف حالك يا سيدي؟».

كانت هذه التحية موجهة إلى السيد تشوكستر، الذي أتى متبختراً، وقبعته مائلة على جانب رأسه، وشعره طويل من ورائها.

رد هذا السيد قائلاً: «أتمنى أن تكون في حالة جيدة يا سيدي.. أتمنى أن تكوني في حالة جيدة يا سيدتي. إنها مقصورة ساحرة يا سيدتي. إنها بلدة لطيفة يا سيدي بكل تأكيد».

قال السيد جارلاند: «أحسب أنك تريد أن تأخذ كيت معك حين عودتك!».

رد الكاتب: «إن هناك عربة أجرة تقف في الخارج لهذا الغرض، ولون الحصان رمادي غامق يا سيدي، إذا كنت مهتماً بالخيل أو بجمعها».

مع رفضه لتفقد اللون الرمادي الغامق، بناءً على إقراره بأنه على دراية سيئة بمثل هذه الأمور، دعا السيد جارلاند السيد تشوكستر لمشاركته مأدبة خفيفة فقد اقترب وقت الغذاء. جاء قبول هذا الرجل للدعوة بسهولة؛ فقد تم تحضير المقبلات الباردة، ومن حولها الجعة والنيبذ من أجل إنعاشه في سرعة مهولة.

أثناء تلك المأدبة، أظهر السيد تشوكستر كافة مهاراته لإبهار مضيفيه، وإثارة إعجابهما، ليشهدا بالتفوق العقلي الذي يتمتع به ساكنو المدينة، ومن هذا المنطلق، قاد الحوار نحو الفضيحة التي حدثت في يومهم هذا، فطالما اعتبره أصدقاؤه بارعاً في هذا الصدد. وهكذا، صار في وضع يسمح له بربط كافة الظروف الدقيقة للخلاف

القائم بين (نبيل ميزلر) و(اللورد بوبي)، الذي بدأ من زجاجة شمبانيا تنازعا عليها، وليس من فطيرة حمام، كما ورد خطأً في الصحف، إضافة إلى أن اللورد بوبي لم يقل لنبيل ميزلر: «إن واحدًا منا نحن الاثنين قد روى تلك الكذبة، ولست أنا القائل». وما ذكر خطأً من قبل السلطات نفسها: «يا ميزلر، إنك تعرف أين ستجدني، سحقًا! أيها السيد، اعثر عليّ إذا أردتني...». مما أدى بطبيعة الحال إلى تغيير مجرى أحداث هذا الموضوع المثير للفضول، وساقه إلى منحى آخر تمامًا. كما أنه أطلعهم على المبلغ المحدد الذي اعتمده الدوق (ثيجيري) لـ (فيوليتا ستيتا) في الأوبرا الإيطالية، الذي اتضح أنه مستحق الدفع كل ثلاثة أشهر وليس كل ستة أشهر، مثلما فُرض على العامة فهمه -أو كما أعلن عنه بوحشية- واتضح أنه كان مقصودًا غير شامل المجوهرات أو العطور أو مسحوق الشعر لخمسـة أجراء، أو تغيير قفازات وصيف مرتين يوميًا. بعد أن حث السيد والسيدة على ألا يشغلا عقليهما بهذه النقاط الشيقة؛ لأنهما من الممكن بكل بساطة أن يعتمدا على أن كلامه هو الصحيح، أمتعهما بمحادثة مسرحية وبمنشور محكمة، حتى اختتم حديثه الذكي الساحر القائم عليه بذاته، دون مساعدة من أحد على الإطلاق، الذي استمر لمدة ساعة إلا ربع الساعة دون انقطاع.

قال السيد تشوكستر وهو يقف برشاقة: «يجب على الفرس أن يلتقي بريح الطريق ثانية، ويجب عليّ الرحيل، آسف على العجلة».

لم يقدم السيد جارلاند، أو حتى السيدة جارلاند أي اعتراض على رحيله، بل كانا يشعران -دون أدنى شك- أن رجلًا مثله، يكاد المرض

ذاته أن يفر من حيز أفعاله، وبالتالي، لم تمضِ سوى لحظات قليلة، حتى صار كل من السيد تشوكستر وكيت في طريقهما نحو المدينة، حيث جلس كيت بجانب الحوذي، وجلس السيد تشوكستر منفردًا في الداخل، واضعًا أحد زوجي حذائه خارج النافذة الأمامية.

حينما وصلا إلى منزل كاتب العدل، دخل كيت إلى المكتب، وحثه السيد هاويل على الجلوس والانتظار إلى أن يأتي السيد النبيل الذي استدعاه، فقد غادر، وربما سيأتي بعد وقت طويل. وبالفعل كان ذلك ما حدث، وتأكدت التوقعات، فقد تناول كيت العشاء، وشرب الشاي، وقرأ جميع البنود السهلة في قائمة القانون، ودليل البريد، وغشيه النوم مرات عدة، قبل أن يدخل الرجل النبيل الذي رآه سابقًا، ويبدو عليه أنه في عجلة مهولة من أمره.

اقترب الرجل النبيل فور دخوله من السيد ويزردن، وحازا على اجتماع مغلق لبعض الوقت، ثم استدعيا السيد هاويل للأخذ برأيه في أمر ما، وقبل أن تكثر الأسئلة داخل عقل كيت، ويتعجب من أمر استدعاء هذا الرجل النبيل له، ومن أجل أي سبب كان حضوره، طلبوا منه أن ينضم إليهم أخيرًا.

قال الرجل النبيل، ملتفتًا إليه مباشرة فور دخوله إلى الغرفة: «يا كريستوفر! لقد وجدت سيدك القديم وسيدتك الصغيرة».

قال كيت، وقد لمعت عيناه بالبهجة: «حقًا يا سيدي! هل وجدتهما حقًا؟ أين هما يا سيدي؟ كيف حالهما يا سيدي؟ هل هما.. هل هما على مقربة من هنا؟».

أجاب الرجل النبيل، هازئاً رأسه: «لا. إنهما بعيدان جداً عن هنا. لكنني سوف أذهب إليهما الليلة؛ لأعيدهما. وأريد منك أن تأتي معي».

صاح كيت، متهللاً من المفاجأة: «أنا! أنا يا سيدي؟».

قال الرجل الغريب، ملتفتاً إلى كاتب العدل في تمعن: «المكان! كم يبعد المكان الذي أشار إليه مالك الكلاب؟ كم يبعد عن هنا؟ ستين ميلاً؟».

- يتراوح ما بين الستين والسبعين ميلاً.

- همف! أحسب أننا لو مضينا في طريقنا الآن، سوف نصل في وقت مناسب من صباح الغد. لكن السؤال الوحيد الآن، إنهما لا يعرفاني، وأظن أن الطفلة -باركها الرب- ستعتقد أن أي غريب يقترب منهما يريد أن يقضي على حرية جدّها، لذلك هل يكون من الأفضل أن أصطحب معي هذا الفتى الصغير، الذي يعرفانه، وسيتذكرانه بسهولة تامة، كضمان لهما على أن نواياي حسنة؟

رد كاتب العدل: «ليس أكيداً! لكن خذ كريستوفر بأي حال من الأحوال».

قال كيت، وقد استمع إلى هذا الحديث بإنصات تام: «أستميحك عذراً يا سيدي! إذا كان هذا هو سبب أخذك لي، فأحسب أنه سيضر أكثر مما ينفع، إن الأنسة نيل تعرفني، وتثق فيّ، أنا متأكد من هذه تماماً، لكن بالنسبة إلى سيدي القديم.. لا أعرف أيها السادة، ولا أحد يعرف، لماذا شدد على عدم ظهوري أمام عينيه بعد مرضه، لقد أخبرتني الأنسة نيل

نفسها بذلك، وأوصتني بعدم الاقتراب منه، فلا أذهب لأراه، ولا أدعه يراني مرة ثانية. إنني أخشى يا سيدي، إذا ذهبت معك يا سيدي، أن أفسد كافة الأمور التي تسعى من أجلها. إنني أفندي العالم بأسره كي أذهب معك يا سيدي، لكن من الأفضل ألا تصطحبني معك يا سيدي».

صاح الرجل باندفاع عنيف: «صعوبة أخرى! هل يوجد رجل جاذب للصعوبات مثلي؟ ألا يوجد أي شخص.. أي شخص على الإطلاق، يثقون فيه؟ ولو شخص بمفرده كما كانت حياتهما، ألا يوجد أي أحد بإمكانه أن يخدمني في غرضي؟».

قال كاتب العدل: «هل يوجد أحد تعرفه يا كريستوفر؟».

رد كيت: «لا يا سيدي! لا أعرف أحدًا.. بلى بلى يا سيدي.. أمي يا سيدي».

قال الرجل الأعزب: «هل يعرفانها؟».

- يعرفانها؟ لطالما كانت تردد عليهما. كانا لطيفين معها، مثلما كانا معي تمامًا. باركك الرب يا سيدي! إنها تتوقع أنهما سيعودان إلى بيتها في أحد الأيام.

قال السيد نافد الصبر، ملتقطاً قبعته: «قل لي أين هذه المرأة؟ لماذا ليست هنا؟ لماذا السيدات دائمًا بعيدات في أكثر الأوقات احتياجًا لهنَّ؟».

مع تلفظه بآخر كلمة، كان الرجل الأعزب قد انطلق من توه إلى خارج المكتب، عازمًا على أن يصطحب والدته كيت معه، وإن وصل

به الأمر إلى أخذها عنوة، والزج بها إلى العربة، وإرغامها بالقوة على الجلوس، لكن بعد جهود متضامنة من السيد هاويل والسيد كاتب العدل لوقف هذا النوع غير المألوف من الاختطاف، كتبوا جماعه باعتراضهما، وأقنعاه أن يفوض كيت ليتبين احتمالية قدرتها واستعدادها للقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة بمجرد إعلامها.

أثار ما حدث بعض الشكوك في خاطر كيت، وخلف الرجل الأعزب في مظهر يجتاحه العنف، وجعل السيد كاتب العدل والسيد هاويل يتكاتفان من أجل ذكر العديد من الخطب المهدئة. لكن في نهاية الأمر، وبعد تفكير من كيت، وموازنة الأمر كله في ذهنه، وتدبره بعناية، وعدهم بالنيابة عن والدته، أنها ستكون جاهزة في غضون ساعتين فقط، للذهاب في هذه الرحلة، ولتأدية ما يلزم عليها فعله تمامًا، وأنها من الممكن أن تكون مستعدة ومؤهلة لمهمتها قبل انتهاء المدة المحددة.

بعد أن أقر كيت بهذا التعهد، الذي كان على الأغلب تعهدًا جريئًا، وليس من السهل العدول عنه، لم يهدر كيت وقتًا، واتخذ من توه إجراءاته للتنفيذ الفوري.



الفصل الحادي والأربعون

انطلق كيت من فوره، يعبر الشوارع المتكدسة، يشق صفوف الناس، يندفع عبر الطرقات المزدحمة، يخترق الممرات والأزقة، دون أن يتوقف أو يحيد جانباً، حتى وصل إلى متجر التحف القديم، فتوقف طبقاً لعادته، وربما ليلتقط أنفاسه أيضاً.

لقد كانت ليلة خريفية، بدا البيت القديم فيها مقفرًا كثيلاً أكثر من أي وقت مضى، زادته حمرة الشفق كآبةً ووحشةً. كانت النوافذ مكسورة، تهتز البقايا المهشمة داخل إطاراتها، ويقف البيت حائلاً منيعاً مظلمًا، يقسم أضواء الشارع الساطعة إلى مسارين طويلين، ويستقيم وسطهما باردًا معتمًا خاويًا، في مشهد بائس تداخل بعنف مع رؤى الصبي المشرقة التي كان يبينها في خاطره لساكنيه القدامى، فعصف بذهنه، وغمره بخيبة الأمل وفجعة المصائب. لطالما اعتاد كيت على رؤية النيران المشتعلة في المداخل الفارغة، يضيء نورها ويتلألأ منعكساً على النوافذ، ينتقلان فيه جيئةً وذهاباً، يعلو صدى أحاديثهما المبهجة في الأفق، اعتاد أن يراه بالصورة التي تنسجم مع آماله الجديدة،

التي هي قيد التحقيق. على الرغم من أنه لم يكن يتوقع أن يرى البيت بشكل مختلف عن صورته الواقعية - ويعرف تمامًا أن هذا لا يمكنه أن يحدث - لكنه حينما وقف أمامه ورآه على هذا الحال وهو في خضم أفكاره المشرقة متعاشياً مع تصوراتهِ الشغوفة، ثبُتت عزيمته، وحُجِّمَت تصوراتهِ، واندثرت إشراقة أفكارهِ، وخيم عليها الظلام الحزين.

لكن كيت - لم يكن لحسن حظه - متعلماً أو متأملاً بما يكفي ليرى نذر الشر من على تلك المسافة البعيدة، لم يكن ثاقب النظر، لم يتمتع بقوة بصر أو بصيرة تدعم رؤياه في هذه الناحية، لم ير سوى بيت موحش يغشاه الظلام الدامس، زعزع أفكارهِ وتصوراتهِ جميعها. تمنى لو لم يمر أمامه قط، على الرغم من صعوبة معرفته ما الحكمة، انطلق مجدداً، يضاعف من سرعته؛ ليعوض الدقائق القليلة التي أهدرها سدى.

قال كيت مخاطراً نفسه، فور اقترابه من مسكن والدته الفقير: «ماذا سأفعل إذا وجدتُها بالخارج، ولم أتمكن من العثور عليها؟ أحسب أن هذا الرجل نافذ الصبر سيتخذ إجراءاته التي قال عنها حينما كان ثائراً. إنني متأكد بما فيه الكفاية أن النور مطفاً والباب موصد...»، ثم أضاف في حرص بالغ وهو يطرق الباب: «الآن يا ربي! أرجو منك أن تسامحني على قلبي، لكن الأمر إذا كان متعلقاً بتلك الكنيسة، فكم أود لو كانت.. لو كانت مقصاة عن هنا تماماً».

لم تتلقَ الطريقة الثانية أي استجابة من أحد داخل المنزل، بل تسببت في جعل امرأة كانت تمر في الطريق تتساءل من الطارق؟ وما الشيء الذي تريده السيدة نابلز؟

قال كيت: «إنه أنا.. إنها في.. في الكنيسة وفقًا لما أظن.. أليس كذلك؟». ثم ذكر مترددًا شيئًا عن اجتماعات دينية سرية غير قانونية بغیضة، مشددًا على ما لفظه بمرارة لاذعة.

أومأت الجارة بالإيجاب.

قال كيت: «أخبريني أين هي! إننا في خضم مسألة مهمة ملحة، يجب عليّ العثور عليها في التو واللحظة، يجب عليّ إخراجها من هذا المكان، ولو كانت في منبر الوعظ».

لم يكن من السهل بتاتًا أن يستدل كيت من أحد على مكانها بالضبط؛ فلم يكن أي من الجيران يتردد عليها، أو منضماً إلى تلك الجماعات، كانت مجرد قلة قليلة منهم ولا يعرفون شيئاً أكثر من الاسم. لكن الثروة مع إحداهن، مع شرب كوب مهدئ من الشاي -فاقت أهميته ولاءها- جعلها تفصح عن أنها رافقت السيدة نابلز إلى الكنيسة خلال مناسبة أو مناسبتين، وأدلت بالمعلومات اللازمة، فانطلق كيت من جديد، فور حصوله عليها.

ربما كانت تلك الكنيسة الصغيرة أكثر قرباً، وربما كانت في طريق أكثر استقامة، ولو أن الكاهن رئيس هذه الجماعة في هذه الحالة سوف يخسر توريته المفضلة عن الطرق المتعرجة التي مكنته من تشبيهها بالجنة الفردوسية نفسها، وسوف يتناقض بالكلية مع الكنيسة الأبرشية التي يؤدي إليها الطريق العام مباشرة.

من منظور ما، لم تكن تسميتها مضللة قط، فقد كانت كنيسة صغيرة

جداً - كنيسة ذات الأبعاد الأصغر أبداً- بها عدد مقاعد صغير، ومنبر وعظ صغير، فيه رجل صغير - كان إسكافياً في الأصل، وبينهم كان رجل دين - يتحدث بصوت مقياس تردده صغير، يلقي خطبة، اشتملت على مواعظ صغيرة، استندت إلى حالة الحاضرين، الذين إذا تم حساب عددهم الإجمالي لن يكون غير عدد صغير، مقارنة بالعدد الأصغر لمستمعيه؛ لأن الأغلبية كانوا نياماً.

كان من بينهم والده كيت، التي جاهدت بصعوبة بالغة من أجل إبقاء عينيها مفتوحتين بعد إرهاق الليلة الماضية، فقد شعرت بمدى ثقل جفنيها، اللذين زادا ثقلاً وتضاعفت قوة إغلاقهما بسبب خطبة الواعظ، لم تجد مفرّاً من الاستسلام أخيراً للنعاس، وأن تخر نائمة، ورغم ذلك لم تكن نائمة بعمق، كانت تصدر من وقت إلى آخر أنيناً خافتاً، غير مسموع، بدا كما لو كان اعترافاً بمذاهب وتعاليم الواعظ. والرضيع الذي احتضنته بين ذراعيها، سرعان ما أصبح نائماً مثلها، وجايكوب الصغير، الذي احتجزته طفولته عن إيجاد أي شيء مثير للاهتمام في هذه التغذية الروحية المطولة بقدر ما وجده في المحار، سرعان ما كان نائماً بعمق ثم مستيقظاً في كامل انتباهه بالتناوب، محصوراً بين رغبته الشديدة في الهجوع، وفزعه من أن تتم الإشارة إليه في تلك الخطبة.

حدث كيت نفسه: «حسنًا! الآن بت هنا...». ثم أردف قائلاً بينما كان يتسلل نحو المكان الأقرب من والدته، أمامها وفي الجهة الأخرى: «.. لكن كيف لي أن أصل إليها كي أقنعها بالخروج معي؟ أشعر كما لو

كنت على بعد عشرين ميلاً. إنها لن تستيقظ أبداً حتى ينتهي كل شيء وينفض الجمع.. إن الوقت يمر! يا ليتة يعدل عن خطبته هذه لمدة دقيقة فقط، أو يا ليتهم يشرعون في الغناء!«.

لكن هناك احتمال ضئيل يذهب إلى استمرار هذا الحدث لبضع ساعات متتالية. بدأ الواعظ يخبرهم عن مقصده في إقناعهم قبل أن يستطرد في حديثه وإقناعهم، وكان جلياً أنه إذا أوفى بنصف وعوده فقط ولم ينكثها ولو أنكر النصف الآخر، لكان جيداً على الأقل في هذا الوقت.

في خضم يأسه وقلقه، جال كيت بعينه في الكنيسة، وحدث أن عينيه وقعتا على مقعد صغير أمام مكتب الكاتب، لم يصدق ما رآته من أول وهلة، فقد بيتنا له أن ما رآته قد كان.. كويليب!

فرك عينيه مرتين أو ثلاث مرات؛ يتحقق مما أبصرتاه، لكنهما لاتزالان تصران على أنه كويليب نفسه، يجلس واضعاً يديه على ركبتيه، وقبعته بينهما على مسند خشبي، تعلو وجهه القبيح ابتسامته السمجة المعتادة، يثبت عينيه صوب السقف. من المؤكد أنه لم يلتفت إلى وجود كيت أو والدته؛ بدا غير واعٍ بوجودهما على الإطلاق، لكن كيت رغمًا عن ذلك لم يستطع إزاحة فكرة أن تركيز هذا الشرير الضئيل الخبيث مسلط عليهم تمامًا، وليس على أي شيء آخر.

بات مشدوهاً من ظهور كويليب بين المترددين على هذه الكنيسة الصغيرة، غير قادر على محو ظنونه في أن وجوده فقط يعتبر نذير شؤم، ويهدد بالمتاعب والانزعاج، لكنه اضطر إلى قمع صراع أفكاره

المشوشة؛ كي يتخذ التدابير اللازمة لإخراج والدته من هذا المكان، بينما كان المساء يزحف، والوضع يزداد جدية وخطورة. لذلك، في المرة التالية التي استيقظ فيها جايكوب الصغير، عزم كيت على لفت انتباهه الشارد، لم يكن ذلك بالمهمة الصعبة؛ كانت عطسة واحدة كفيلة بإتمام المهمة، ومن بعدها يتمكن من الإشارة إليه بأن يوقظ والدته.

لكن لسوء الحظ، كان الواعظ في الآن ذاته، في خضم شرحه لإحدى النقاط الرئيسة في خطابه، فإذا به ينحني بالكلية على منبر الوعظ، لدرجة أنه لم يتبقَّ منه سوى ساقيه في الداخل، ملوحًا بإشارات عنيفة بيده اليمنى، مثبتًا نفسه بيده اليسرى، يحدق، أو بدا كأنه يحدق مباشرة في عيني جايكوب الصغير، يهدده بإيماءاته الصارمة، ونظراته التي يتطاير منها الشرر، حينها بدا للطفل، أنه -الواعظ- لو حرك طرفًا واحدًا، حرفيًا وليس مجازيًا (سينقض عليه أو سيسقط فوقه)، في غمرة خوفه مما يحدث حوله، مشتتًا من ظهور كيت المفاجئ، مسحورًا من نظرات الواعظ، جلس جايكوب الصغير مغلوبًا على أمره باستقامة، غير قادر على الحركة بتاتًا، يريد أن يجهش في البكاء بشدة، لكنه خائف من فعله ذلك، ينظر بعينيه الطفوليتين إلى تحديق القسيس فيه، بالدرجة التي تجعلهما تبدوان كما لو كانتا ستنقلعان من تجويفهما.

قال كيت محدثًا نفسه: «لا بد لي من القيام بذلك علنًا، لا بد أن أفعل ذلك». حينها خرج مباشرة من الصف الذي كان يقف فيه، واتجه مباشرة إلى صف والدته، لكنه التزم الهدوء أيضًا، كما لو أن السيد سوفيلر يرمقه بنظراته، إذا كان حاضرًا، (طَوَّق) الطفل دون أن ينبس ببنت شفة.

همس كيت: «هووش! تعاليّ معي يا أمي. أريد أن أخبرك بشيء عاجل».

قالت السيدة نابلز: «أين أنا؟».

رد ابنها في تجهم: «في هذه الكنيسة المباركة».

صاحت السيدة نابلز، وقد راقّت إليها الكلمات: «طوبي لك حقاً! أوه! لا يسعني أن أقول لك إلى أي مدى ازدادت معرفتي الدينية هذه الليلة يا كريستوفر!».

قال كيت في عجل: «نعم نعم أعرف يا أمي، هيا بنا الآن.. إن الجميع ينظرون إلينا. لا تصدري أي صوت.. أحضري جايكوب.. هيا بنا!».

بينما تحرك كيت ليهم بالمغادرة، صاح الواعظ: «ابق.. ابق أيها الشيطان».

قالت والدته هامسةً: «إن هذا الرجل النبيل يوصيك بأن تبقى يا كريستوفر».

صاح الواعظ عاوياً مرة أخرى: «ابق، ابق أيها الشيطان!». ارتفع صوته، مشيراً نحو الصبي: «لا توسوس للمرأة، لا تغوها لتكن لك آذانٌ مصغيةٌ، بل أنصتْ إلى صوته الذي يدعو. إن لديه حملاً من بين القطيع! يريد أن يأخذ الحمل بعيداً، حملاً قيماً، يريد أن يذهب به نائياً، مثل ذئب في ليل دامس، يستدرج الحملان المطيعة».

من المرجح أن يكون كيت هو أكثر الأشخاص لطفاً في العالم،

لكن وضعه في هذا الحالة، والحديث إليه بتلك الطريقة، علاوةً على ما تثيره الظروف الأخيرة من مشاعر مضطربة داخل نفسه، جعله يلتفت إلى منبر الوعظ، حاملاً الطفل بين ذراعيه، ويرد عاليًا: «لا! لن أفعل.. إنه أخي».

صاح الواعظ: «إنه أخي!».

قال كيت بسخط: «لا إنه ليس أخاك. كيف تجرؤ على أن تدعي شيئًا كهذا؟ علاوة على ذلك، لا تنعني بأسماء من فضلك؟ ماذا اقترفت كي تفعل كل ذلك؟ لم أكن سأقدم لأخذه، إلّا إذا كنت مضطراً بكل تأكيد، ومن الأحسن لك أن تتصرف بناءً على هذا القول. لقد أردت إتمام ذلك في هدوء تام، لكنك لم تدعني. الآن يا سيدي! ولك كل الخير، أريد منك أن تصرف الشيطان وتسمح لهم بالانصراف، وأن تدعني وشأني من فضلك».

بمجرد أن أنهى كيت قوله، سار إلى خارج الكنيسة، تتبعه والدته وجايكوب الصغير، لكنه لم يستوعب ما حدث، إلّا حينما وجد نفسه في الهواء الطلق، بينما تعرض ذاكرته ومضات باهتة لرؤيته للناس يستيقظون وعلامات الدهشة بادية على وجوههم، ورؤيته لكويليب ماكثاً دون حراك طوال فترة تدخله، وعلى نفس الحال ذاته، مثبتاً عينيه صوب السقف، أو ربما كان يسجل أدق وأصغر الملاحظات والمستجدات التي تدور حوله دون أن تطرف له عين.

قالت والدته، واضعة وشاحها على عينيها: «أوه! ما الذي فعلته للتو يا كريستوفر؟ لن يمكنني الذهاب إلى هناك مطلقاً بعد الآن.. مطلقاً».

- إنني سعيد وفخور بما فعلت يا أمي . ما الخطأ في شعورك بالقليل من السعادة في ليلة أمس ، كي تصور لك نفسك أنه من الضروري عليك القدوم إلى هنا الليلة كأن السعادة ذنب تكفرين عنه فترغمين نفسك على الشعور بالحزن؟ هل هذه هي الطريقة التي تلجئين إليها. إذا شعرت أنك سعيدة أو مسرورة، تأتين إلى هنا، مع هؤلاء، كي تكوني آسفة على سعادتك. عار عليك يا أمي .. عار عليك.

قالت السيدة نابلز: «صه! وانتبه إلى كلامك يا عزيزي.. أنا أعرف تمامًا أنك لا تعني ما تقول، لكن قولك مغموس في الآثام».

قال كيت مدمدماً: «لا أعني ما أقول؟ لا يا أمي، أنا أعني كل حرف فيه! إنني لا أصدق يا أمي أن النفس غير المؤذية السعيدة ذات السلوك الطيب تقترف من الآثام أكثر مما تقترفه أطواق القمصان مثلاً، وأصدق أن هؤلاء الأشخاص سيكونون عقلانيين وعلى صواب في قمع الآخرين، إذا كان الرحيل عمّن هم في حاجة ماسة إلينا صواباً.. هذا ما أوّمن به يا أمي. لكنني لن أُلَظ بأي كلمة أخرى تخص هذا الموضوع، إذا وعدتيني أن تكفي عن البكاء، احملني أنتِ الرضيع، إنه خفيف الوزن، وأعطيني جايكوب، بينما نمضي في طريقنا الطويل -وحرّياً بنا أن نسرع- سأخبرك بالأخبار التي حملتها إليك، وأظن أنها ستدهشك حقاً، بل أكاد أجزم أنها ستدهشك حقاً. ها هنا نحن.. إنكِ تنظرين إلى الكنيسة كما لو كنتِ لن تأتيها مجدداً، وكم آمل أن يحدث هذا بالطبع مرة أخرى.. احملني الرضيع يا أمي، أما أنتِ يا جايكوب، فتعال يا صغير لأحملك على كتفي، تشبث برقبتي جيداً، وحينما يدعوك كاهن هذه

الكنيسة بالحمل الصغير، أو يقول: إنك أخوه، قل له: إن هذا هو أكثر ما قاله صواباً من بين كل ما قاله على مدار اثني عشر شهراً كاملاً، وإنه إذا أراد بعضاً من لحم الحمل لنفسه، والقليل من صلصة النعناع، عليه ألا يكون حاداً، وألا يزيد من المرارة - حينها سأتمنى له كل الخير - هذا ما يجب عليك قوله له يا جايكوب».

على هذا الحال ونفس المنوال، بين الحديث الذي يحمل بين طياته كلاماً جاداً، وبين الحس الفكاهي، الذي يروّج به عن نفس والدته وأخويه ونفسه، معتمداً على روح الدعابة التي تمتع بها، قادهم كيت نحو طريق المنزل في خفة ونشاط، وروى ما حدث في منزل كاتب العدل، وذكر الغرض الأساسي الذي من أجله اقتحم قداسة الكنيسة الصغيرة.

لم تكن دهشة والدته قليلة، حين علمها بالمهمة التي تُساق إليها، سقطت في غمرة تشوش أفكارها، فقد كان شرفاً عظيماً وفخراً كريماً لها أن تركب في عربة خاصة، وفي الآن ذاته كان أمراً مستحيلاً أن تترك طفليها وراءها. بالإضافة إلى أن ملابسها الأساسية كانت تُغسل، ولا بدّل لها في خزانة السيدة نابلز من الأساس، لكنّ هذا الاعتراض وكثيراً غيره، استطاع كيت أن يجعلها تتخطاها، بمقارنة كل اعتراض اختلقته بالسعادة التي ستعم على الجميع حين عودة نيل، وكم ستكون مسرورة حينما تعيدها معها، ويتوجها الانتصار.

قال كيت حينما وصلوا إلى المنزل: «هيا يا أمي! إن لديك كل ما تحتاجينه في الصندوق، ليس لدينا سوى عشر دقائق فقط، ونرحل من هنا مباشرة».

أحسب أن توضيح كيف وضع كيت في هذا الصندوق شتى أنواع اللوازم، التي قد يحتاجها المرء في حالات الطوارئ، مقص منه كل ما ليس له قيمة كبرى.. وكيف أقنعها الجيران أنهم سيأتون للاطمئنان على الأطفال.. وكيف بكى الرضيع وارتفعت صرخاته بشكل مأسوي في بادئ الأمر، ثم علت ضحكاته حينما وُعد بشتى الألعاب المستحيل منها وغير الوارد.. وكيف لم تتركهم والدته كيت دون أن تغمرهم بالقبلات.. وكيف لم يستطع كيت أن يوقف انزعاجه من تقبيلها له، سوف يستهلك وقتاً طويلاً، ونحن في غنى عن إضاعته.

لذا، حينما انتهت كافة تلك الأمور، يكفي أن نقول: إنهما في غضون دقائق قليلة بعد انتهاء مهلة الساعتين، وصل كيت ووالدته أخيراً أمام باب مكتب كاتب العدل، فقد كانت العربة في انتظارهما بالفعل. قال كيت صراحةً، وقد أذهلته الاستعدادات: «حسنًا! أربعة أحصنة يا أمي! إنك قادرة على إتمام مهمتك يا أمي.. ها هي أمي يا سيدي. إنها على أهبة الاستعداد».

رد الرجل النبيل: «هذا جيد.. لا ترتجفي يا سيدتي، سيتم الاعتناء بك على أكمل وجه، أين صندوق الملابس الجديدة ولوازمهما التي سيحتاجان إليها؟».

قال كيت: «ها هي يا سيدي.. إن كل شيء جاهز يا سيدي».

قال الرجل الأعزب: «إذنْ هيا بنا». وبناء عليه، مد يده إلى والدته كيت؛ ساعدها في الصعود إلى العربة بكامل الوقار الذي يمكنك أن تتخيله، ثم اتخذ مقعده بجانبها.

أُتخذت إجراءات الرحيل، أُغلق الباب، دُورت العجلات، وانطلقا في طريقهما يهتزان من تأرجح العربة، لكن والدة كيت مالت إلى خارج إحدى النوافذ، تلوح بمنديل جيبيها، وتصرخ بالعديد من الوصايا والتوصيات على جايكوب الصغير والرضيع، لم يسمع أحد منها كلمة واحدة.

وقف كيت في منتصف الطريق، ينظر إليهما، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.. لكن مشهد رحيلهما عن ناظره لم يكن السبب، بل ما تصوره في مخيلته حين عودتهما. تحدث إلى نفسه: «لقد رحلا خلصة دون أن يتحدثا مع أحد، أو يودعا أي أحد بأي كلمة، والآن سيعودان، بعربة يجرها أربعة أحصنة، مع صديقهما الرجل النبيل الغني، فقد انتهت مشاكلهما كلها! وربما ستنسى أنها علمتني أن أكتب...».

بغض النظر عن المدى الذي سرح فيه كيت بأفكاره، إلا أنه استغرق وقتاً طويلاً في التفكير، بينما يقف محدقاً في شرود في ضوء المصابيح، واستغرق وقتاً أطول ناظرًا على مرمى بصره حيث اختفت العربة تمامًا، دون أن يعود إلى المنزل، حتى استدعاه كاتب العدل والسيد هابيل عدة مرات، بعد أن بقي بالخارج طوال تردد صدى أصوات العجلات في الأفق، وحتى انقطاعها تمامًا، متسائلين عن سبب بقائه في الخارج طوال تلك المدة.

الفصل الثاني والأربعون

حريُّ بنا أن نترك كيت بعض الوقت، هائمًا في توقعاته، شاردًا في أفكاره، ونعود مجددًا لمتابعة مصائر نيل الصغيرة، ونستأنف السرد من النقطة التي توقفنا عندها، منذ بضعة فصول سابقة.

في إحدى جولاتها الليلية، حينما كانت تتبع الشقيقتين لمسافة غير قصيرة، جاش في صدرها إثر تعاطفها معهما، ومعرفتها بمحتئهما التي شابها جزءًا من وحدتها الروحية، شعور بالراحة والعزاء، جعل من لحظاتها التي تقضيها بقربهما فرحة عميقة تكمن في صدرها، ومع ذلك كانت السعادة الرقيقة التي وهبتها إياها من النوع الذي يسبب وجوده أو غيابه قلقلة الدمع.. في إحدى جولاتها الليلية، في ساعة الشفق الهادئة، أثارت السماء والأرض ونسمات الهواء وتموجات المياه وأصوات رنين الأجراس البعيدة في نفس الطفلة المنعزلة عواطف دافئة، وألهمتها أفكارًا مريحة، لكنها لم تكن مشابهة لتلك الخاصة بعالم الأطفال أو أفراحه السهلة.. في إحدى تلك النزعات، بينما كانت تقتفي أثر سعادتها الوحيدة، معفاة من الرعاية، تلاشت آخر خيوط الضوء وزحف سواد الليل، واختفت الآفاق تحت جُبح الظلام، هامت تلك المخلوقة

الصغيرة في الظلام، تشعر بالرفقة المؤنسة الساكنة في الطبيعة، في وقت كان فيه صخب الألسنة ووهج الأنوار هما العزلة حقًا.

عادت الشقيقتان إلى البيت، بينما ظلت هي وحيدة. رفعت عينيها إلى النجوم اللامعة، تسبح بعينيها في الأفق، تنظر إلى عوالم الهواء الواسعة، تنفرس في منظر السماء، ترى نجومًا جديدة تتلألأ في الفضاء، تواصل النظر، تجد أخرى، ومن ثمَّ أخرى، حتى رأت فلَكًا كاملاً لامعًا، بريقه وهاج، يرتفع أكثر فأكثر في فضاء لا آخر له، عدد أجرامه لا نهاية له مثل توهجه المتواصل ووجوده الحتمي. مالت نحو النهر الهادئ، رأت انعكاس النجوم لامعًا بنفس الدرجة المهيبة، يتلألأ سابقًا مع أمواج المياه، أبصرت بريقه فوق أعلى قمم الجبال، وعلى الأرض حيث كُتب فناء البشر، وعلى عمق مليون قامة من المياه.

جلست الطفلة أسفل شجرة في هدوء، صامته تخمد صوت أنفاسها، شاردة في سكون الليل، وشتى عجائبه المرافقة له. لكن المكان والوقت انعكسا على روحها، أيقظا بداخلها أفكارًا، ربما تدبرتها بأمل - قليل من الأمل، ربما باستسلام - حيال الماضي والحاضر، وماذا خبأته لها الدنيا من قبل. تفكر فيما تعيشه هي والرجل العجوز من افتراق تدريجي، يصعب عليها تحمله أكثر من أي حزن أو ألم سابق. بات كل مساء، أو حتى في النهار غائبًا، ووحيدًا، على الرغم من أنها كانت تعرف أين يذهب ولماذا - أو كانت على يقين بسبب استنزافه المتواصل لحقيبتها الصغيرة ونظرات عينيه الباهتتين الذابلتين - كان يتهرَّب من

كل الاستعلامات، ويلتزم بتحفظات صارمة، لدرجة أنه كان يتجنب وجودها.

جلست تفكر في ذلك التغير في كبد، لا ترى شيئاً سواه؛ ممتزجاً مع كل ما أحاط بها، حتى دق جرس الكنيسة معلناً أن الساعة التاسعة مساءً. قامت أثناء تردد صوت الجرس، لتعود على عقبيها، منغمسة في تفكيرها، متجهة صوب المدينة.

عبرت في طريقها جسراً خشبياً صغيراً، يوجد على طرفه الآخر مرج، حينما وصلت عنده رأت ضوءاً ضارباً إلى الحمرة، فتطلعت إليه في انتباه، فتبين لها مما رآته أنه معسكر للعجر، فقد أشعلوا النيران في إحدى الأركان، على مقربة من الطريق، وكانوا من حولها جالسين وراقدين. لقد كانت بريئة جداً على أن يملكها أي خوف منهم، لذا لم تحدّ عن مسرها - في الواقع إذا أرادت لم تكن لتفعل ذلك إلا بقطع مسافة طويلة جداً - عجلت من سرعتها قليلاً، واستكملت طريقها.

حينما وصلت إلى المكان، دفعها فضولها على استحياء، أن تقترب أكثر وتنظر مباشرة إلى النيران. لكن أحداً ما كان يحول بينها وبين النيران، ويعترض ضوءها، لكن ما صورته لها ظنونها جعلها تتوقف فجأةً. بدت كما لو كانت تفكر بينها وبين نفسها، ونطمئنها أن ما تتصوره لا يمكن أن يكون حقيقة، ربما سعت إلى إرضاء نفسها عن طريق تعمد إقناعها بأنه ليس الشخص الذي افترضته، واستكملت طريقها مرة أخرى.

لكن في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها، استؤنفت المحادثة - التي

تجري على مقربة من النيران- لم تكن كلمات المحادثة مفسرة لها، لكن الصوت كان مألوفاً لها مثل صوتها.

التفت ونظرت خلفها. كان من رآته سابقاً جالساً، لكنه الآن واقف، ينحني قليلاً إلى الأمام، متكئاً على عصا بكلتا يديه. لم يكن مظهره أقل ألفة لها من صوته.. لقد كان جدّها.

لأول وهلة أرادت مناداته، ثم تساءلت في الوهلة الثانية عما يفعله، ومن هم رفاقه، ولأي غرض يجتمعون. نجحت مخاوفها المبهمة من السيطرة عليها، فإذ بها تستسلم للميل القوي الذي أثارته بداخلها، فاقتربت من المكان، ولكنها لم تقترب من الحقل مباشرة، بل تسالت من وراء السياج.

تمكنت بهذه الطريقة من التقدم بضع أقدام من النيران، تختبئ بين القليل من الشجيرات؛ تستطيع أن تسمع وترى كل ما يدور حولها، دون أن تُرى وتتعرض لخطر كبير.

لم يكن هناك نساء أو أطفال، كما كانت ترى في معسكرات الغجر، التي مروا بها في طريقهم سابقاً، كان هناك رجل غجري واحد، يقف طاوياً ذراعيه على صدره، يستند إلى شجرة على مسافة قصيرة، ينظر إلى النيران، ثم ينظر أسفل رموشه السوداء إلى ثلاثة رجال آخرين، يستمع إلى حديثهم، باهتمام منقوص. كان جدّها واحداً من بين هؤلاء الثلاثة، أما الآخرون، فكانوا أول لاعبي بطاقات عرفتهما، اللذين رأتهما لأول مرة في البيت العام في الليلة العاصفة، الرجل الذي دعوه بإسحاق ليست ورفيقه صاحب الصوت الأَجَش. وإلى جانبهم، وجدت واحدة من

الخيمات الغجرية المنخفضة المقوسة، التي تعود إلى هؤلاء الرجال، لكنها بدت إما مطروحة جانباً، وإما فارغة.

نظر الرجل ذو البنية القوية إلى الأعلى بعد أن كان ناظرًا إلى الأرض، حيث يرقد في راحة تامة، نحو وجه جدها مباشرة، وقال: «حسنًا! هل ستذهب الآن؟ لقد كنت في عجلة من أمرك منذ دقيقة فائتة. هيا اذهب، إذا أردت. إنك تملك حرية التصرف أيها السيد.. أتمنى هذا بكل تأكيد!».

قال إسحاق ليست، بينما كان يجلس القرفصاء، مثل الضفدع، على الجهة المقابلة للنيران، وقد ثمل لدرجة أنه بدا كأنه يحرق في ما حوله في آن واحد بعينيه الحولاء: «لا تغضبه.. إنه لم يقصد أي إساءة». قال الرجل العجوز، وهو يقلب بصره من جانب إلى آخر: «إنكما تبقينيني فقيرًا، وتنهبانني، علاوةً على أنكما تجعلان مني تسليتكما، وتسخران مني.. إنكما تدفعانني إلى الجنون بأفعالكما».

تناقض تردد ووهن الطفلة ذات الشعر الرمادي تمامًا، مع النظرات الماكرة الحادة لأولئك الذين كان يقف بين أيديهم، فقد ارتعد قلب المستمعة الصغيرة. لكنها على الرغم من ذلك، فرضت على نفسها الحضور، حتى ينتهي الأمر؛ لتكون على مرأى ومسمع من كل كلمة.

قال الرجل ذو البنية القوية، بينما نهض قليلًا من اضطجاعه، متكئًا على مرفقه: «ندفعك إلى الجنون! ماذا تقصد! نبقيك فقيرًا.. ألم تكن لتبقينا نحن فقراء، إذا استطعت! أليس كذلك؟ هذا هو حالك، مثلك

مثل اللاعبين المنتحبين الضعفاء مشيري الشفقة. عندما تخسر، تلتزم بدور الضحية، لكنني لم أرَ حينما تربح، تنظر إلى الخاسرين الآخرين على هذا النحو.. تنهباني!». صاح الرجل، وقد علا صوته: «نهبك! سحقا يا رجل! كيف لك أن تحدثنا بتلك اللهجة غير اللائقة! ماذا تقصد بتوجيهك إلينا كلمة كالنهب! هاه؟».

استلقى المتحدث مرة أخرى على طول جسده، بعد أن ركل بقدميه ركلة أو ركلتين قصيرتين، نمّتا عن غضب شديد، وعبرتا عن سخط غير محدود. كان من الواضح أنه تعمد التمر في حديثه على الرجل العجوز الواهن، وبدعم من صديقه متصنع السلام، لغرض معين، فقد تبادلوا النظرات جهراً مع أحدهما الآخر، ومع الغجري، الذي ابتسم مؤيداً لما يفعلانه بابتسامة، لم يستطع التقليل منها، حتى كشفت عن أسنانه البيضاء اللامعة.

وقف الرجل العجوز بينهما عاجزاً لبعض الوقت، لكنه قال في النهاية، ملتفتاً إلى خصمه:

«إنك نفسك كنت تتحدث عن النهب الآن. وأنت تعرف ذلك. لذا لا تكن عنيفاً معي، كما كنت. قل لي هل من الممكن؟».

رد الآخر: «لا نهب بين الشراكة الحالية! إنه الشرف بين.. بين السادة يا سيدي». وقد تبين أنه كان قريباً جداً من وضع نهاية غريبة لجملته، لكنه لم يفعل.

قال إسحاق ليست: «لا تكن قاسياً معه يا جول.. إنه قد شعر

بالأسف بما فيه الكفاية على اقترافه تلك الإساءة. ها هنا نحن.. تابع ما كنت تقول.. تابع».

صاح السيد جول: «إنني حمل وديع ظريف ذو قلب طيب، على أن أجلس هنا، واستقطع من أوقات حياتي، لأقدم النصيحة، وأعلم أنكم لن تفعلوا بها، وأنني في آخر المطاف لن أتلقي سوى السخرية مقابل تكبدي العناء معكم.. لكن هكذا تغدو حياتي، فلا تنفع خبرة التجارب مع قلبي العامر بالطيبة».

احتج إسحاق ليست من فوره وقال: «لكنني قلت لك: إنه آسف.. أليس كذلك؟ وقلت لك: إنه يتمنى لو تتابع قولك».

قال الآخر: «هل يتمنى ذلك فعلاً؟».

جلس الرجل العجوز، وبات يهز نفسه للأمام وإلى الخلف، وقال متنهداً: «آه! إنه من العبث الجدال معكم.. لست قادراً.. لست قادراً.. البتة.. تابع.. تابع».

قال جول: «حسنًا.. سأتابع حديثي، من النقطة التي توقفت عندها، وجعلتك تفر من مكانك. إذا كنت مقتنعاً أن الوقت قد حان ليحالفك الحظ، - كما هو الأمر بالتأكيد - واكتشفت حينها أنك لا تملك ما يكفي كي تجرب حظك.. وما أقوله، تعرف أنه صحيح، تعرف أنه لن تتوافر معك الأموال الكافية التي تتيح لك الاستمرار لفترة أطول في الجلسة.. ساعد نفسك بما يترأى لنا أنه لم يوجد في طريقك بمحض الصدفة، بل وجد لهذا الغرض بالتحديد. أو أقول لك شيئاً.. خذها على سبيل

الاستعارة، وحينما تكون مقتدرًا، يمكنك إرجاعها مرة أخرى».

تدخل إسحاق ليست في الحديث: «بالأكيد! إذا كانت هذه السيدة الطيبة التي تملك أعمال الشمع، لديها المال، وحينما تخلد إلى فراشها تحتفظ به في الصندوق، ولا تغلق الباب لارتياها من نشوب حريق، فإن العملية برمتها أسهل ما تكون.. إنها.. إنها (العناية الإلهية). أحسب أن هذا هو التعبير الصحيح والأقرب في هذه الحالة، لقد تربيت على التقوى الدينية».

قال صديقه: «إنك ترى يا إسحاق». ثم اقترب أكثر من الرجل العجوز، بينما أشار إلى صديقه العجزي ألا ينضم إليهم، وبدأت عليه أمارات التحمس وقال: «إنك ترى يا إسحاق أن الغرباء يتوافدون ويرحلون على مدار الساعة يوميًا، ولن يكون احتمالًا بعيدًا أن أحد هؤلاء الغرباء، قد اختبأ أسفل سرير السيدة الطيبة، أو احتجز نفسه داخل الخزانة، ستكون الاشتباهات لا حصر لها، ستكون التوقعات بلا أدنى شك بعيدة كل البعد عن الفاعل الأساسي.. علاوةً على أنني سأجعله يأخذ بثأره مقابل كل فاردنغ سيجلبه، مهما كان المبلغ».

قال إسحاق ليست مجادلًا: «لكن.. هل يمكنك ذلك؟ هل معك ما يكفي؟».

أجاب الآخر بازدراء: «معي ما يكفي! فلتنظر يا سيدي - أخرج لي الصندوق من بين القش!».

كان هذا الطلب موجهًا إلى الرجل العجزي، فحبًا على أربع، إلى

داخل الخيمة المنخفضة، وبعد قليل من التفتيش والخشخشة، عاد ومعه الصندوق، فتحه مَنْ كان يتحدث بمفتاح كان يرتديه حول رقبته.

قال: «هل ترى هذا؟». وأخذ يجمع النقود في يده، ويحررها كي تسقط مرة أخرى في الصندوق، متخللة ما بين أصابعه، مثل الماء. تابع قوله: «هل تسمع؟ هل تعرف صوت صلصلة الذهب؟ هيا أعدّه.. لا تتحدث معي ثانية بهذا الشأن يا إسحاق، حتى تمتلك صندوقًا خاصًا».

احتج إسحاق ليست في تواضع ملحوظ، مبينًا أنه لم يشكك أبدًا في رصيد رجل نبيل وخاصة إذا كان مشهورًا بتعامله النزيه مثل السيد جول، وأنه عندما ألمح إلى ما يحتويه الصندوق، لم يكن من أجل إخماد شكوكه، التي لا تساوره من الأساس، بل من أجل أن يستمتع برؤية هذا المشهد المفعم بالثراء، الذي قد يراه البعض متعة وهمية لا أساس لها، لكنه بالنسبة إلى شخص في ظروفه يراه مصدرًا للسعادة العارمة، فقد يشعر أنها تنتقل من مكانها الآمن، إلى جيوبه الخاصة.

على الرغم من أن السيد ليست والسيد جول كانا يتحدثان إلى أحدهما الآخر، كان من المثير للفضول أن كليهما كانا ينظران بحدة إلى الرجل العجوز، الذي أبقى عينيه مصوبتين على النيران، جالسًا في الحال ذاته، يستمتع بشغف إلى حديثهما، كما أوضحت حركات رأسه التلقائية، وتعبيرات وجهه غير الإرادية من وقت إلى آخر، طوال فترة حديثهما.

قال جول، بينما استلقى مرة أخرى بلا مبالاة بينة: «إن نصيحتي واضحة.. وقتلتها بالفعل. إنني أتصرف كصديق. لماذا يجب عليّ أن أساعد رجلًا وأرشدته إلى الطريق الذي ربما يريح به كل ما أملك،

ما دمت لا أعتبره صديقي؟ إنها حماقة، إنني أجزم أنها حماقة بالكلية، أن تشغل عقلك برفاهية الآخرين.. لكن هذا هو نهجي، ولا أستطيع أن أحمده، لذا لا تلمني يا إسحاق ليست».

رد من وجه إليه الكلام: «ألومك! لن أفعل، ولو كان ذلك مقابل العالم بأسره يا سيد جول. إنني أتمنى حقاً أن أكون متسامحاً مثلك.. وأحسب أنك قلت: إنه يمكنه إرجاعه مرة أخرى.. لكن ماذا لو خسر ال...».

قال جول: «لا يجب أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار أو تفكر في شأنه».

- لكن دعنا نفترض أنه فعل - ليس هناك ما هو أقل احتمالاً، بناء على ما أعرفه عن الفرص - لكن على كل حال، أن تخسر أموال الآخرين أفضل كثيراً من أن تخسر أموالك الخاصة.. أليس كذلك؟

صاح إسحاق ليست في انتشاء: «آه! نشوة الربح! سعادة التقاط الأموال.. أحبائي اللامعين المشرقين بإطلالة ذهبية.. تأخذها وتزج بها إلى جيوبك! لذة أن تنتصر في النهاية.. التفكير في أن المرء لم يتوقف ويلتفت ليعود مجدداً، وأنه لم يمضِ إلا نصف الشوط ليلتقي بها! إنها سعادة التقاط الأم... لكنني أحسب أنك لن تذهب من الأساس أيها العجوز! أليس كذلك؟».

قال الرجل العجوز: «سأفعلها». وقد قام وسار خطوتين أو ثلاث خطوات باندفاع ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى على عجل: «سأحصل عليها كلها، سأحصل على كل بنس».

صاح إسحاق، وقد نهض من فوره، وصفعه بقوة على كتفه: «هذه

هي الشجاعة.. إنني أحترمك لمحافظتك على تلك الروح الشبابية بداخلك. ها ها ها! أحسب أن جول يشعر بالندم الآن لأنه قدّم إليك النصيحة. لقد عكسنا الأماكن، وجعلناه هو في موضع السخرية ها ها ها!«.

قال الرجل العجوز بحماس، وهو يشير إليه بيده المجدعة: «إنه يعطيني فرصة الأخذ بالثأر.. تذكر.. تذكر.. إنه يقارع عملات ضد عملات، ويراهن على آخر قطعة في الصندوق، بغض النظر عما إذا كان محتواه قليلاً أم كثيراً.. تذكر ذلك!«.

رد إسحاق: «أنا شاهد.. وسأحكم بينكما بالعدل».

قال جول في نفور متكلف: «لقد تلفظت بكلمتي، ولن أنقضها أبداً.. متى ستبدأ هذه الجولة؟ أتمنى أن تكون منتهية.. الليلة!«.

قال الرجل العجوز: «يجب أن أحصل على المال أولاً.. وأظن أنني سأفعل ذلك غداً..».

قال جول مجادلاً: «ولماذا لن تفعل الليلة؟».

قال الرجل العجوز: «أمسى الوقت متأخراً الآن.. علاوة على أنني مضطرب يتدفق الدم إلى وجهي. يجب أن يتم ذلك بهدوء وثبات. إذن.. ليلة غد».

قال جول: «إذن فلتكن ليلة غد.. ولننعم بالراحة. أطيب الأمنيات لأفضل رجل! فلنشرب نخبنا!».

أحضر الغجري ثلاثة أكواب من الصفيح، وملاًها حتى الحافة بنبيد

البراندي. لكن الرجل العجوز قبل أن يشرب، التفت عنهم وتمتم إلى نفسه بكلمات. تردد على أذن المستمعة اسمها مرتين مع آمنيات أخرى قيلت بإخلاص، وقد بدت عليه آلام التضرع والتوسل الشديد.

صاحت الطفلة: «كن رحيماً بنا يا رب! وساعدنا في هذه الساعة العصبية! ماذا عليّ أن أفعل كي أحميه!».

استطردوا في باقي محادثتهم بنبرة صوت خافتة، كانت محادثة موجزة بما فيه الكفاية، مقتصرةً على النقاط التي تتعلق بتنفيذ الخطة، وأفضل الاحتياطات الواجب اتخاذها، لإبعاد الشكوك عنهم. حينما انتهوا، صافحهم الرجل العجوز، ثم انسحب من مجلسهم.

تابعوا انحناء جسده، وانحناءه في مشيته، تابعوه وهو ينسحب عنهم ببطء بخطى واهنة، وحينما أدار رأسه إلى الخلف كي ينظر إليهم، لوحوا له بأيديهم، صائحين ببعض العبارات التحفيزية الموجزة. لم يتغير فعلهم، يراقبونه وهو يتعد عنهم تدريجياً، يتابعونه بأعينهم حتى غيبه الطريق، حينها نظروا إلى بعضهم، وتعالت قهقهات ضحكاتهم.

قال جول، بينما يدفع يديه بالقرب من النيران: «إذن! تم الأمر أخيراً. لقد تطلب إقناعه أكثر مما كنت أتصور. لقد مضت ثلاثة أسابيع كاملة، منذ أن وضعنا هذه الفكرة في رأسه. ثرى ما الذي سيجلبه لنا في النهاية بحسب ما تظن؟».

رد إسحاق ليست قائلاً: «بغضّ النظر عما سيجلبه لنا.. سيتم تنصيبه بيني وبينك».

أوماً الرجل الآخر برأسه، وقال: «يجب علينا فقط أن ننهي هذا الأمر بسرعة، ونقطع صلتنا به، وإلا سيشتبهون فينا. السرعة هي نهجنا».

وافق ليست والعجري على ما قاله. حينها شرع ثلاثتهم في تسليّة أنفسهم على حساب ضحيتهم، ثم حادوا عن الموضوع؛ كأي موضوع تحدثوا عنه بإسهاب، وشرعوا في الحديث عن موضوع آخر، لكنهم تكلموا بلغة غير مفهومة للطفلة. حينما رأتهم الطفلة شغوفين منتبهين جدًّا إلى حديثهم، اعتبرت أن هذا الوقت هو أفضل وقت للهروب دون أن يلاحظها أحد منهم، فتسللت مبتعدة بخطوات بطيئة وحذرة للغاية، تبقى على مقربة من السياج، تتخفى في ظل الأجمات، تسلك دربًا بينها أو بين الخنادق الجافة، حتى تمكنت أخيرًا من الخروج إلى قارة الطريق، بعيدًا عن مرمى أبصارهم. حينها هربت بأقصى سرعتها إلى البيت، ممزقة تنزف من جروح الأشواك والورد البري، لكن ما كان أكثر تمزقًا هو قلبها، بمجرد أن وصلت إلى غرفتها، ارتمت على سريرها مشتتة، تصارعها الأفكار.

كانت أول فكرة طرأت على عقلها هي الرحيل، الرحيل الفوري، انتشاله من هذا المكان، فقد بات لها الموت على قارة الطريق، أفضل من أن يتعرض إلى هذه الإغراءات الرهيبة مرة أخرى. لكنها سرعان ما تذكرت أن الجريمة لن تتم حتى الليلة التالية، وأن هناك وقتًا كافيًا كي تتحرى الدقة في تفكيرها، وتصل إلى حل سليم يرشدها إلى ما ستفعله بالضبط. لكن خوفًا مفزعًا خيم على قلبها فجأة؛ فربما يرتكب جريمته في التو واللحظة، حينها تملكها ارتياح سماع الصيحات واختراق

الصرخات لسكون الليل، وتمكنت منها أفكار، ارتعد لها قلبها، فماذا لو أُغري وسيق لإتمام فعلته، ومن ثمَّ اكتُشف متلبسًا، ومضى في صراع مباشر مع السيدة. كان ضربًا من المستحيل أن تتحمل الطفلة كل تلك المخاوف الجمة. انسلت إلى الغرفة التي بها المال، فتحت الباب، ونظرت.. فليُحمد الرب! لم يكن هناك، وكانت السيدة نائمةً بعمق.

عادت إلى غرفتها، وحاولت أن تعد فراشها للنوم. لكن من يستطيع النوم؟! النوم! من يستطيع أن يرقد حتى في سلام، وهذا الرعب مخيم على قلبه؟ ما كانت تصارعه من أفكار، بات أضعافًا مضاعفة. بعد أن ارتدت نصف ملابسها، وبشعر أشعث، انطلقت من توها إلى جانب الرجل العجوز، أمسكت رسغه، وأيقظته من نومه.

استيقظ العجوز فزعًا من نومه، مثبتًا نظريه على وجهها الشاحب، وصاح: «ماذا حدث؟».

قالت الطفلة وهي في حالة لا تنتج إلا عن المخاوف التي طغت عليها: «لقد راودني حلم مريع.. مفرع.. حلم رهيب. لقد رأيته مرة في السابق. إنه الحلم الذي يحدث فيه أن أرى الرجل ذا الشعر الرمادي الذي يشبهك، في غرف مظلمة ليلاً، يسرق أموال النائمين.. انهض.. انهض!».

انتفض الرجل العجوز من موضعه، وارتجف كل مفصل في جسده، وأطبق على يديه مثل من يدعو.

قالت الطفلة: «ليس من أجلي هذه المرة.. ليس من أجلي.. بل

تضرع إلى السماوات؛ كي تحمينا من تلك الشرور! كان الحلم أقرب إلى الواقع. لا يمكنني النوم. ولا يمكنني البقاء هنا، ولا يمكنني تركك بمفردك تحت هذا السقف، فقد تجتاح مثل تلك الأحلام سلامنا. انهض! يجب أن نرحل من هنا».

نظر إليها كما لو كانت روحًا ملائكية -ربما كانت فعلاً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى - وأخذ يرتجف أكثر فأكثر.

قالت الطفلة: «ها انهض! ليس لدينا وقت لنضيقه.. لن أهدر دقيقة واحدة.. هيا! ارحل بعيداً معي!». .

تمتم العجوز: «الليلة؟».

ردت الطفلة: «نعم، الليلة.. لأن مساء الغد سيكون وقتاً متأخراً جداً على الرحيل. سيرادوني الحلم مرة أخرى، بل سيكون أشد فزعاً. لن يحمينا سوى الرحيل. انهض!». .

نهض الرجل العجوز من فراشه، ووجهه مندى بعرق الخوف البارد. انحنى صوب الفتاة، كما لو كانت رسولاً ملائكيًا بُعث له؛ كي يقوده أينما يشاء، واستعد لاتباعها. أمسكت يدهُ واقتادته إلى الطريق. حينما مرا أمام باب الغرفة التي كاد أن يسرقها، ارتجف جسدها ونظرت إليه. يا له من وجه شاحب رأته، ويا لها من نظرة قابلت عينيها!

قادته إلى غرفتها، وهي لا تزال ممسكة بيده، كما لو كانت تخشى أن تفقده بين لحظة وأخرى، جمعاً أغراضها معاً، وعلقت سلتها على ذراعها. أخذ الرجل العجوز محفظته من يدها، وحمل على كتفه

أغراضه -التي أحضرتها له- ثم اقتادته ليمضيا في طريقهما.

عبر الأزقة، والدروب الضيقة، والطرق الملتوية، سارت أقدامهما المرتعشة بسرعة كبيرة. وصلا إلى التل، المتوج بالقلعة الرمادية القديمة، أكملتا دربهما بشق الأنفس بخطوات سريعة، دون أن ينظرا إلى الخلف ولو لمرة واحدة.

حينما اقتربا من أطلال الجدران، كان القمر نورًا بازغًا على مجدها، وعمرها المهيّب، من بين تلك الجدران المزينة باللبلاب والطحالب، من بين تموجات العشب، نظرت الطفلة من خلفها إلى المدينة النائمة في عمق ظلال الوادي، نظرت إلى النهر المتلائيّ بمسار ضوء متعرج، والتلال البعيدة، حينما فعلت ذلك، احتضنت اليد التي أمسكتها، بشدة أقل، أجهشت في البكاء، وارتمت في حضن جدّها.



الفصل الثالث والأربعون

سرعان ما انقضى ضعفها اللحظي، استجمعت الطفلة شتات نفسها، بمجرد أن تذكرت الدافع وراء قرارها، الذي يجعلها تثابر حتى الآن، ويحتم عليها أن تضع صوب عينيها فكرة أنهما يفران من الخزي والجريمة، تذكرت أن الحفاظ على جدها يعتمد بالكلية على ثباتها وحدها، دون أي إرشاد أو كلمة أو نصيحة أو مؤازرة من أحد، قادتة إلى الأمام، ودون أن تنظر مرة أخرى إلى الخلف.

بينما كان ذلك هو حالها، كان جدها خاضعًا مغلوبًا، بدا محنيًا لها، ينكمش على نفسه ويتقلص حجمه أمامها، كما لو كان في حضرة مخلوق أسمي، لدرجة أن الطفلة نفسها راودها شعور جديد، ارتقى بطبيعتها، وأمدّها بالقوة والثقة اللتين لم تعرفهما من قبل. صارت واعية أن المسؤولية لم تعد مقسمة بينهما بعد الآن، وأن العبء كله يقع على كاهلها وحدها، وأنها من الآن فصاعدًا عليها أن تفكر وتدبر لكليهما معًا. حدثت نفسها: «يجب عليّ أن أحميه من كل خطر وضيق، يجب أن أتذكر هذا دائمًا».

ربما في أي وقت آخر كان تذكرها لهجر الصديقة التي أوتهما في منزلها، وحت عليهما باللفظ الأسري، دون قول كلمة تبرير واحدة -ظاهريًا ما هما إلا مذنبين بالخيانة والنكران- أو حتى رحيلها عن الشقيقتين، كفيل بجعل روحها تجيش حزنًا وندمًا. أما الآن، فأمست لا تأخذ شيئًا بعين الاعتبار، حتى تلاشت جميع اهتماماتها الأخرى بين الدروب المستجدة لحياة الترحال الوحشية المليئة بالاضطرابات، والمحاطة بالريبة، والمليئة بالشكوك والمخاوف، فقد باتت حالتها الميؤوس منها حافزها ودافعها.

حينما أرخى الليل سدوله، وانساب ضوء القمر الباهت، وعكس شحوبًا خاصًا على الوجه الناعم، الذي بدت عليه أمارات التفكير والحذر الرصين مختلطًا برعونة الشباب وسحر الجمال وهدوء الرحمة، حينما تلاً ضياؤه على الأعين اللامعة، والروح الياقة، والشفاه التي تزم على بعضها بعزيمة عالية وشجاعة منبثقة من القلب، والجسد الهزيل الذي صار بالنسبة لحمله واهنًا، روى حكايتها الصامتة، لكنه رواها لدفقات النسيم البارد، التي تموج في الأفق؛ فربما تنتزع همومها، وتحملها معها إلى وسادة أم نائمة، فتبعث كأحلام مشوشة عن طفولة تتلاشى في إزهارها، وتستريح هي في النوم الذي لا يعرف الأرق.

أدبر الليل، وهبط القمر، وخفت النجوم وبهت الضوء، ظهر النهار ببطء، باردًا مثل جسديهما. ومن وراء التل البعيد، لاح ضوء النهار، وأشرقت الشمس المجيدة، مزينة الأطياف الوهمية المتجسدة في الركام الضبابي، فتظهر الأرض من أشباح الليل إلى أن يسدل أستاره

مرة أخرى. حينما اعتلت السماء، وشاع الدفء في بوارقها المبهجة، كشفت عن نومهما في غير راحة، إلى جوار جدول مائي.

ظلت نيل ممسكة بذراع الرجل العجوز، تراقبه أثناء نومه، بأعين لا تكل. لكن التعب هزمهما في النهاية، وخارت مستسلمة إلى النوم بعد مضيّ فترة طويلة، استرخت قبضتها، فأحكمتها، ثم استرخت مرة أخرى أخيرة، وناما جنبًا إلى جنب.

استيقظت على أصوات مبهمة تداخلت مع أصوات أحلامها. حينما فتحت عينيها، بدا أنّ رجلاً أخرق الهيئة فظ المظهر، يقف إلى جوارهما، واثنين من رفاقه يحملقان إليهما من قارب ثقيل طويل، يرسو على مقربة منهما، عند الجدول المائي، حيثما كانا نائمين. لم يكن للقارب مجداف أو شراع، بل كان مسحوبًا بحصانين، استراحا على الطريق، بينما أرخى حبلهما في الماء.

قال الرجل بفضفاضة: «مرحبًا! ما الخطب هنا؟».

قالت نيل: «لا شيء يا سيدي، إننا فقط نائمان.. لقد كنا نمشي طوال الليل».

قال الرجل الذي دنا منهما وبادر بالكلام: «أمم! مسافران غريبان مشيا طوال الليل.. واحد منهما كهل عجوز على هذا الفعل، والأخرى صغيرة هزيلة على تلك المشقة. إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

تلعثمت نيل، لم تكن تعرف ماذا تقول، لكنها أشارت مجازفة تجاه الغرب، ساعتها استفسر الرجل إذا كانت تقصد بلدة معينة، ثم ذكر

اسمها. حينها خشت نيل من كثرة الاستجواب، لذلك كي تتجنبه قالت:
«نعم! هذا هو المكان بالضبط».

كان السؤال التالي: «ومن أين أتيتما؟». بدا لنيل أن هذا السؤال أكثر سهولة للإجابة عليه، ذكرت من فورها اسم القرية التي يسكن فيها صديقهما مدير المدرسة؛ لاحتمال غير وارد أن تكون معروفة لهؤلاء الرجال، ولتمنع إثارة المزيد من التحقيقات.

قال الرجل: «حسنًا! لقد ظننت أن أحدًا قام بخطفك ويسيء معاملتك.. هذا كل شيء، يومك سعيد».

بعد رد التحية، والشعور بالراحة فور رحيله، تبعته نيل بناظريها، وهو يمتطي أحد الحصانين، ويتحرك القارب. لم يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا، حينما توقفوا مرة أخرى، وأشاروا إليها.

قالت نيل، بينما ركضت نحوهم: «هل دعوتُموني؟».

قال أحد من كانا في القارب: «يمكن أن تأتي معنا إذا كنتِ تريدين؛ إننا ذاهبون إلى نفس المكان الذي أشرتِ إليه».

ترددت الطفلة لوهلة. لكنها فكرت -مثلما فكرت بخوف شديد مرات عديدة سابقة- أن الرجال الذين رأتهم مع جدها، ربما يقتفون أثرهما، ويزحفون خلفهما بكل توق؛ طلبًا للغنيمة، وأنها إذا ذهبت مع هؤلاء الرجال، ربما سيضلون سبيلهم خلفهما، وتُمحى آثار تواجدهما في ذلك المكان، لذا حسمت قرارها، وقبلت العرض.

اقترب القارب من البر مرة أخرى، قبل أن يتيح لها الوقت فرصة

التدبر في الأمر ثانية، كانت هي وجدها على متن القارب، يبحران بسلاسة في القناة.

لمعت أشعة الشمس فوق المياه، وأكسبتها بريقاً لامعاً، ظللتها الأشجار أحياناً، وأفسحت لها مكاناً ممتداً في أحيان أخرى، تسارع التيارات المتدفقة من تموجاتها، وتزيد التلال المشجرة والأراضي المزروعة والحقول المغطاة حولها من بهائها. من وقت لآخر، كانت تلوح لهم قرية، من بين الأشجار المتشابكة، فيبصرون أسطح مبانيها البسيطة، وأسقفها المبنية من القش، ونهايات الأسقف المحدبة (الجميلون)، وأكثر من مرة، كانت تظهر لهم مدينة، على مرمى أبصارهم، فيرون إلى قمم كنائسها الشامخة التي تلوح في الأفق بين الدخان، ومصانعها العالية، وورشها التي علت الكثير من المنازل.. كشف لهم طول الوقت الذي يستغرقه القارب لقطع تلك المسافة، كم كانوا يسافرون ببطء. امتد طريقهم -في أغلب الأحيان- بين الأراضي المنخفضة والسهول غير المطوقة. لم يقطع أي شيء مسارهم الرتيب المعزول عدا تلك الأماكن النائية، وبعض الرجال العاملين في الحقول، أو من انحنوا فوق الجسور التي مروا من تحتها لرؤية القارب.

في وقت متأخر من الظهيرة داهم الإحباط نيل؛ حينما توقفوا عند رصيف ما، وعلمت أنهم لن يصلوا إلى وجهتهم حتى اليوم التالي، ساعتها كان من الأفضل لها، إذ لم يكن معها من المؤن ما يكفي، أن تشتريها من المكان الذي توقفوا فيه. لم يكن معها غير القليل من البنسات، لكنها على أي حال تفاوضت معهم بالفعل من أجل الحصول

على الخبز، وعلى الرغم من ذلك، كان لزامًا عليها أن تقتصد وتتوخى الحذر؛ فقد كانا في طريقهما إلى مكان غريب بالكلية، دون أي موارد، يجهلان ما سوف يلاقياه هناك. لذا، كان رغبةً صغيرًا وقطعة من الجبن هما ما استطاعت دفع ثمنهما، عادت بهما إلى القارب مرة أخرى، وجلست في مكانها، وبعد مرور نصف ساعة، عاد الرجال الآخرون -كانوا في الحانة يتناولون مشروبًا- من أجل استكمال الرحلة.

أحضروا معهم الجعة والمشروبات الروحية، إضافة إلى الكميات الوفيرة التي شربوها في الحانة، سرعان ما خروا سكارى في حالة عدوانية. ارتعدت نيل، وتجنبت المقصورة الصغيرة، التي كانت مظلمة وقذرة، رغم دعوتهم لها ولجدها للجلوس فيها، بقيت في الهواء الطلق، تجلس إلى جانب العجوز، تستمع إلى مضيفيهما العدوانيين بريبة وانتباه، وتزداد خفقات قلبها، متمنية أن تكون على شاطئ الجدول مرة أخرى سالمة، ولو توجب عليها أن تسير طوال الليل.

في الحقيقة، لقد كانوا أفظاظًا متبحرين صاخبين للغاية فيما بينهم، بخلاف ما كانوا مع الراكبين، فقد كانوا معهما متحضرين بما يكفي. لكن شجارًا عنيفًا نشب بين الرجل الذي كان يوجه القارب، وصديقه الذي كان في المقصورة؛ بسبب خلافهما على من اقترح تقديم بعض الجعة إلى نيل أولاً، حينما اشتدت المجادلة، ووصلت إلى حدة العراك، سددا إلى بعضهما ضربات يردعها خوفهما الكامل من إثارة استيائهما، ومن الرعب غير القابل للوصف الذي ألقي في نفسها، وانتفضت له أطرافها، لكنهما نفّسا عن نفسيهما، عوضًا عن تسديد الضربات، بتوجيه

شتائم مقذعة، لحسن حظ الطفلة لم تفهم منها شيئاً. لكن نزاعهما قد انتهى، وسُوي الخلاف أخيراً، لصالح الرجل الذي خرج من المقصورة، وسدد ضربة موجعة لرأس الآخر أولاً، وأخذ الدفة من بين يديه، دون أن يشير أي بلبلة، أو يظهر أثر العراك عليه، أو على صديقه، الذي بدا قوي التحمل، ومعتاداً على مثل هذه الترهات؛ فسرعان ما استلقى كما كان، معلقاً كعبيه إلى الأعلى، وفي غضون بضع دقائق غط في نومه بعمق.

بحلول هذا الوقت، هبط الليل مرة أخرى، على الرغم من أن الطفلة شعرت بلسعات البرد تتسلل إلى جسدها، فلم تكن ترتدي سوى الرث الخفيف من الملابس، انتزعها أفكارها المضطربة من معانيتها وارتجافها الجسدي، وألقت بها في معاناة أخرى من العصف الذهني، الذي أبقى عقلها شاردًا مشغولاً؛ يخطط لمجرى حياتهما القادمة، وكيفية تدبير معيشتهم وقوت يومهما. لكن الدافع نفسه الذي حثها على المواصلة في الليلة السابقة، استحثها الآن على تحمل المشقة وتكبد العناء. وكانت الراحة الوحيدة التي عرفتها خلال ذلك الوقت، هو أن جدها نائم إلى جوارها في أمان، ولم تُرتكب الجريمة، التي ساقه جنونه إليها. كيف وجدت كل عقبة وكل حدث مر في حياتها القصيرة المترعة بالعراقيل سبيلاً إلى عقلها دفعة واحدة، بينما كانا في طريق سفرهما! حوادث طفيفة لم تفكر فيها من قبل ولم تكن تذكرها حتى وقتها الحالي، وجوه لم ترها سوى مرة واحدة ونسيتها منذ تلك المرة، كلمات لم تلتفت إليها حينما قيلت، مشاهد منذ سنة ماضية تمتزج مع مشاهد أمسها وتنشأ بينهما صلة، أماكن مألوفة تلوح من بين الظلام،

حينما تقترب منها، تتكشف لها، فتجدها بعيدة كل البعد، وغير مألوفة على الإطلاق.. في بعض الأحيان، حينما كانت تنتقل من مكان إلى آخر، كان يطغى على عقلها تشوش غريب له صلة بمكان وجودها، أو المكان الذي كانت ذاهبة إليه، والأشخاص الذين كانت برقتهم، لكن خيالها الآن يفيض عليها بملاحظات وتساؤلات مسموعة لأذنيها، كي تبدأ، وتتجاوب، وتُستحث على الرد.. هيمنت على عقلها الخيالات والتناقضات، وهيمن على إحساسها الاضطراب والانفعال المرتبط بتغير المكان، وراحت الطفلة سحينة عقلها وإحساسها.

في خضم كل هذا، تنهت من شرودها، حيث فقد نفسها تقابل وجهًا لوجه الرجل الذي حُسم العراك لصالحه، وظل على سطح القارب، حينها كان الرجل منتشيًا بالسكر، يباعد ما بين شفثيه غليون صغير، غلفه بخيط للحفاظ عليه أطول مدة ممكنة، طلب منها أن تهديه أغنية.

قال هذا الرجل: «إن لديك صوتًا عذبًا، وعينين صافيتين، وذاكرة قوية.. بالنسبة إلى الصوت والعينين، فأنا لدي أدلة بينة، أما الذاكرة، فإن حكمي عليها نابع من رأيي الخاص. وأنا لا أخطئ أبدًا. دعيني أسمع أغنية الآن».

ردت نيل: «أخشى أنني لا أتذكر أي أغنية يا سيدي».

قال الرجل في رصانة، وهو على علم بأن لا شجار سينشب حول هذا الموضوع: «هيا! إنك تتذكرين سبعا وأربعين أغنية.. سبعا وأربعين أغنية. دعيني أسمع واحدة منها.. دعيني أسمع أفضلها. هيا! أغنية واحدة من أجل هذه اللحظة».

لم تكن نيل على علم بنتائج رفضها، أو عواقب غضبه، لذا بصوت مرتجف أرغمت نفسها على تنفيذ طلبه، غنت له نيل المسكينة أغنية قصيرة، تعلمتها في أوقات أخرى كانت حينها سعيدة، وقد بدا عليه استحسان نغمة صوتها على أذنيه، حينما انتهت من الغناء، طلب منها بنفس اللهجة الرصينة، أن تشجيه بأغنية أخرى، كان يتبع غناءها كالجوقة، لكن دون لحن أو كلمات على الإطلاق، فشابهه صوته صوت الزئير، ومع ذلك أضفى بصورة أو بأخرى طاقة مدهشة نابضة بالحماس. أيقظ الصخب الرجل الآخر، الذي جاء إلى سطح القارب مترنحًا، وهز خصمه القديم بيديه، مقسمًا أن الغناء هو مصدر فخره ومتعته وسعادته الرئيسة، وأنه لم يتمنَّ أبدًا ترفيهًا أفضل من ذلك. جاء الطلب الثالث، أكثر إلحاحًا من الاثنين السابقين، شعرت نيل بأنها مضطرة للامتثال، وهذه المرة لم تكن الجوقة مكونة من الرجلين اللذين كانا على سطح القارب، بل انضم إليهما الرجل الثالث، الذي كان يمتطي ظهر الحصان، وعلى الرغم مما يفرضه موقعه عليه، فلا يستطيع الانضمام إليهم، غنَّى كلما تغنَّى صديقه، وامتزج صوته بصوتهما، وتعايش مع الأجواء. وعلى هذا النحو، ودون توقف سوى للحظات قليلة، ومع إعادة غناء الأغاني نفسها مرارًا وتكرارًا، أدخلت الطفلة المثقلة بالهموم المرهقة على قلوبهم السرور طوال الليل، أما عن ساكني الأكواخ، فقد نهضوا فزعين من نومهم العميق، بسبب أصوات الجوقة النشاز التي حملتها الرياح، منتفضين مع علو أصواتهم، وقد اختفت رؤوسهم أسفل ملابس النوم.

بنزغ الفجر، وأتى معه ضوء الصباح، لكن الضوء لم يلبث في الأفق، إلا وساق معه مُزناً ممطرةً. ولأن الطفلة لم تتحمل رائحة المقصورة التي لا تُطاق، وكنوع من الاعتراف بمجهودها، قاموا بتغطيتها بقطع من قماش الشراع، وأطراف من القماش المشمع، أبقتها جافة إلى حد ما، وأوت جدها أيضًا. مع تقدم اليوم، ازداد انهيار المطر. وعندما حلت الظهيرة، وبلت السماء بشكل ميؤوس منه وبغزارة أشد من أي وقت سبق، لا تبشر بأي بصيص من أمل لتوقف ذلك الوابل.

مع مرور الوقت كانوا يقتربون تدريجيًا من المكان المقصود. صارت المياه أعلى كثافة وأكثر قذارة، أبحرت الزوارق إلى جانبهم، تمر بهم بشكل متكرر.. ظهرت الطرق المرصوفة برماد الفحم، والبيوت المغطاة بالقرميد، التي تميز بعض المدن الصناعية الكبرى، أما الشوارع والبيوت العشوائية المتناثرة والدخان المتصاعد من الأفران، فدلّت على أنهما كانا بالفعل في الضواحي. الآن، أعلن انتهاء رحلتهم بعد ظهور الأسقف المكدسة وأوتاد المباني المتزاحمة، التي تنتفض مع تشغيل المحركات، وتهتز مع اهتزازاتها، وترد على هديرها الصاخب بصوت مكتوم، وكذلك ظهور المداخل الطويلة التي تنثر ضبابًا أسود، وتعلق فوق أسطح المنازل ركامًا من رمالٍ كثيفٍ، وتثقل الهواء بغيوم كثية لا تتلاشى، ودوي رنين المطارق على الحديد، وصخب الشوارع المكدسة وعجيج الحشود، الذي ازداد تدريجيًا وامتزج بباقي الأصوات، حتى بات من المستحيل تمييز صوت واحد.

وَجَّه القارب إلى الرصيف حيث مكانه. وسرعان ما انهمك الرجال.

بعد أن انتظرت الطفلة وجدها عبثاً كي يشكراهم على توصيلهما،
ويسألهم إلى أي مكان يجب عليهما أن يتجها، مرا عبر حارة قدرة في
شارع مزدحم، وسط ضجيجهِ وصخبهِ، تحت وابل من المطر المنهمر،
غريبين، مشوشين، مرتبكين، كما لو كانا يعيشان قبل ألف سنة،
وبمعجزة ما، بُعثا من رقادها، ووُضعا في هذا المكان.



الفصل الرابع والأربعون

يتدافع المارة، كلُّ يدفع الآخر، يسرون على عجل وسط التيارات الصاخبة، وفي اتجاهات متعاكسة، دون توقف، دون أن يظهر عليهم أي كلل، منكبين على إتمام شؤونهم الخاصة، لا يشتهم صوت قعقات العربات، ولا قلقلة أحمالها المكدسة، لا يربكهم انزلاق قوائم الخيول على الأرصفة الزلقة المبللة، ولا هدير المطر المتساقط في غزارة، حينما يرتطم بالنوافذ، والمظلات، لا يهتمون لأمر السابلة المتدافعين دون هواده، لا يكثرثون لضجيج أو جلبة الشارع الغاص بالبشر، في حين استحوذت على الغريبيين المسكينين حالة من الذهول، يقفان خائري القوى وسط الزحام، مرتبكين من تكدس الناس حولهما، دون أن يكونا جزءاً منه، ينظران إلى الجميع، ويغمرهما الأسى، يشعران وسط تلك الحشود بعزلة، لا مثل لها يضاهيها سوى ظمأً بَحَّار غرقت سفينته، يصارع وسط عباب موج المحيط، أصاب العمى عينيه الحماويين من النظر إلى الماء الذي يغمره من كل جانب، دون أن يجد قطرة واحدة تروي جفاف حلقه، وتبرد لهيب لسانه.

أويا إلى ممر منخفض للاحتماء من ماء المطر، يراقبان وجوه من يمرون بهما، يتوقان لإيجاد أي بصيص أمل، يرتقبان أي دعم. مرت بهما وجوه عابسة، وأخرى باسمة، من يتمتمون متحدّثين إلى أنفسهم، ومن يشيرون بإيماءات غير واضحة، لتوقعهم حديثاً سيخوضون فيه قريباً، رأوا وجوهاً اعتلتها أمارات المكر ونية المساومة والتآمر، وأخرى مفعمة بالقلق، وأخرى تنبض بالحماسة، وأخرى بليدة كثيبة، رأوا ملامح كأن النجاح عليها مكتوب، وأخرى مثقلة بالهزيمة. بدا الأمر كما لو كانا حائزين على ثقة جميع من يمرون أمامهم، يقفان في هدوء، يدققان النظر في وجوههم التي تلوح أمامهما ثم ترحل عنهما. في الأماكن المزدحمة، حينما يكون لدى المرء ما يكثر به، ويشعر باطمئنان أن كل امرئ آخر لديه ما يصب اهتمامه عليه، ينضح وجهه بكمائن نفسه وحقيقة شخصيته. في الشوارع العامة وردحات الاستقبال في المدينة، حيث يذهب الناس ليروا الآخرين ويراهم الآخرون، حينها تصدر التعبيرات نفسها، وتكرر مئات المرات على وجوههم. ربما وجوه أيام العمل هي الأصدق، والأقرب لحقيقة المرء؛ لأنها تتكشف بوضوح بيّن.

سقطا هائمين وسط هذا النوع من التجريد، حيث ينعزل كل واحد عن الآخر وينحصر تفكيره في ذاته. استمرت الطفلة تحديق في المارة باهتمام عجيب، واكبه نسيان مؤقت لحالتها. لكن البرد والثياب المبللة، والجوع، واحتياج جسدها المُلح إلى النوم والراحة، وعدم وجود مكان تلجأ إليه، أو تسند رأسها الموجوعة عليه، سرعان ما اجترت عليها

أفكارها من النقطة التي كانت قد ضلت فيها السبيل عن بالها. لم يتبين أن أحداً لاحظ وجودهما ممن كانوا يمرون بهما، حتى مَن تجرأت على مناداتهم. بعد مرور بعض الوقت، غادرا المكان الذي ارتكنا إليه ليحميهما من الطقس، واختلطا مع الحشد.

زحف الليل. ولا يزالان هائمين مشردين، يسيران في كل اتجاه، دون وجهة محددة، قل عدد السابلة، لكن شعور العزلة نفسه لا يزال قابعا في صدورهم، واللامبالاة ذاتها تحيط بهم من كل اتجاه. ساقتهما أضواء الشوارع والمحلات إلى شعور أكثر وحشة، أبعد عنهما أي أمل في تلقي المساعدة، وأنذر بقرب حلول الظلام الحالك. باتت الطفلة في أمس الحاجة للثبات ورباطة الجأش لتمضي خطوة للأمام، مع ارتجاف جسدها من البرد والرطوبة، والإعياء الذي استحوذ عليها، والغُصص المميّنة التي نالت من القلب.

لماذا أتيا إلى هذه المدينة الصاخبة، تاركين وراءهما الأماكن الريفية المسالمة؟! على الأقل كانت معاناة الجوع والعطش هناك أقل وطأة من صراعهما البائس هنا! لم يكونا سوى ذرة أمام ركام جبل من شقاء، زاد من معاناتهما ويأسهما أضعافاً مضاعفة.

لم يكن على الطفلة أن تتحمل المصاعب المتراكمة بسبب حالتها المعدمة فقط، بل لزم عليها أن تتحمل عتاب جدها، الذي بدأ يدمدم متذمراً بسبب رحيلهما بعيداً عن مسكنهما الأخير، ويطالب بالراح بالعودة إليه. كانت الطفلة مفلسة تماماً، لم يتبقَّ معها بنسٌ واحدٌ، ولم يُلحْ لهما أي أمل، أو أي لمحة تشير إلى الفرج، فعادا على عقيبهما

إلى الرصيف عبر الشوارع الموحشة المكتسية بظلام الليل؛ آملين أن يجدا القارب الذي أتيا به، ويُسمح لهما بالنوم على متنه تلك الليلة. لكن خيبات المسعى تتوالى عليهما تباعاً؛ وجدا البوابة مغلقة، وبعض الكلاب التي أجبرهما نباحها على التراجع.

قالت الطفلة بصوت واهن، بينما كانا عائدين من نكبتهما الأخيرة: «يجب علينا أن ننام هذه الليلة في العراء يا عزيزي، وغداً سوف نستجدي طريقنا إلى أي ركن هادئ، ونحاول كسب قوت يومنا من أي عمل بسيط».

رد الرجل العجوز بشراسة فظة: «لماذا جئتِ بي إلى هنا؟ إنني لا أطيق هذه الشوارع المزدحمة التي لا نهاية لها. لقد أتينا من مكان هادئ. لماذا أجبرتني على المغادرة؟».

ردت الطفلة في صرامة لحظية، تلاشت مع انهماك دموعها: «بسبب ذلك الحلم الذي أخبرتك به، لا أكثر.. لذا يجب علينا أن نعيش بين الفقراء، وإلا سيراودني الحلم المفزع مرة أخرى.. يا جدي العزيز! إنك عجوز وضعيف، وأنا أدرك ذلك، ولكن انظر إليّ. إنني لا أشكو مطلقاً ما دمت لا تفعل.. لكنني حقاً متعبة، ولديّ ما أعانيه».

وقعت عينا العجوز على الطفلة، كما لو كانت تلك أول مرة ينظر إليها، فصاح قابضاً على يده، وهو يحرق في وجهها الشاحب المضطرب، وثيابها الملطخة من السفر، وكدمات قدميها المتورمتين، قائلاً: «آه! طفلة مسكينة بلا مأوى، يتيمة بلا أم، مرتحلة من مكان لآخر! هل الشقاء الذي تكبدته في رعايتها هو ما ساقها إلى هنا في النهاية!

هل كنت رجلاً سعيداً من قبل، وفقدت سعادتي وكل ما أملك من أجل هذا!«.

قالت الطفلة بفرحة افتراضية، بينما مضيا يبحثان عن ملاذ آمن: «إذا كنا في القرية الآن، كان يجب علينا أن نبحث عن شجرة قديمة سامقة، تفرد لنا أغصانها، كما لو كانت تريد احتضاننا، وتهتز لنا فروعها المورقة كأنها تغني تهويده النوم.. علينا أن نفكر فيه بينما هو مطلع علينا.. أرجوك يا ربي! أن نكون هناك عاجلاً.. غداً أو بعد غد.. نكون على أبعد مسافة ممكنة.. وفي هذه الأثناء دعني أقول.. إنه أمر جيد أننا جئنا إلى هنا؛ وأمسينا متخفين وسط زحام وسرعة هذا المكان.. إذا أراد أي شخص فظ اللحاق بنا، لن يتمكن أبداً من اقتفاء آثارنا. وهو أمر مريح. وها هنا مدخل قديم.. مظلم للغاية، لكنه جاف إلى حد ما، ودافئ أيضاً، على الأقل لن تهب الرياح هنا.. ما هذا؟».

علت صرخة دعر غير مكتملة، من الظلام؛ حيث ظهر أحد ما فجأة من وسط الظلام، في المكان الذي كانا على وشك اللجوء إليه، وظل واقفاً ثابتاً، ينظر إليهما.

قال: «تحدثني مرة أخرى.. هل أعرف هذا الصوت؟».

قالت الطفلة في خوف: «لا! إننا غريبان.. وليس معنا أي أموال للإقامة في سكن، لذا كنا سنستريح هنا».

لم يكن في هذا المكان الذي بدا أنه فناء، سوى مصباح واحد على مسافة بعيدة منهما، وكان نوره خافتاً للغاية، لكنه كان كافياً لإظهار

كم كان فقيرًا ومتسخًا. اقتادهما ذلك الشخص، وفي الوقت ذاته، لم يُبَدَّ عليه أي نية للاستفادة منهما أو الاختباء منهما. كان هذا الشخص رجلاً، ملابسه مهلهلة، تلتطخ لونه بالدخان، ربما مقارنة بلونه الطبيعي، بدا شاحبًا أكثر مما كان عليه حقًا. كان من البديهي أن يكون لونه شاحبًا وباهتًا، فوجنتاه المقعرتان، وعظام وجهه البارزة، وعيناه الغائرتان، ليست سوى مظهرٍ أكيدٍ يشهد بما يكفي على طول مرضه. كان صوته أجشَّ طبيعيًا، ليس غليظًا وحشيًا، على الرغم من أن وجهه قد ظلل عليه شعر داكن طويل، إلى جانب الصفات المذكورة بالفعل، كانت تعبيرات وجهه بينة، لا يضرر شرًا أو سوءًا.

قال: «كيف سول لكما عقلكما أن تأتيا إلى هنا كي تستريحا؟». ثم نظر إلى الطفلة باهتمام بالغ وأضاف قائلاً: «هل أتيتما إلى هنا في هذا الوقت من الليل لأنكما تريدان مكانًا للراحة؟».

أجاب الجد: «إن مصائبنا هي ما اضطرنا إلى ذلك».

قال الرجل، ولا يزال ناظرًا إلى نيل، لكن نظرتة أمست أكثر جدية: «هل تعرف كم هي مبتلة، وأن الشوارع الموحشة الزلقة بالخارج ليست مكانًا آمنًا لها؟».

قال: «إنني أعرف ذلك، وآمل أن يساعدني الرب.. ما عساي أن أفعل!».

نظر الرجل إلى نيل نظرة عطوفة، ولمس ملابسه بكل لطف، فقد كانت مياه المطر تقطر من أطرافها. قال بعد لحظة صمت: «حسنًا!

يمكنني أن أوفر لكِ الدفء، دون أي شيء آخر». ثم أشار إلى المدخل الذي أتى منه، وقال: «إن المسكن الذي أملكه يوجد في هذا المنزل، لكنني أحسب أن المكان هناك أكثر أمنًا وسلامًا عليها من هنا. على الرغم من أن النيران توجد في مكان قاس، لكن يمكنكما قضاء الليل بأمان إلى جانبها، إذا وهبتماني ثقتكما. هل تلاحظان كيف يزداد الضوء الأحمر وهجًا؟».

رفعا أعينهما، ورأيا وهجًا ساطعًا في السماء المظلمة، والانعكاس الخافت لبعض النيران البعيدة.

قال الرجل: «إنها ليست بعيدة، هل عساي أن أصطحبكما إلى هناك؟ كنتما ستنامان على الطوب البارد، والآن بات بإمكانني أن أوفر لكما سريرًا من الرماد الدافئ.. وأحسب أن لا شيء أفضل».

دون أن ينتظر منهما أي رد أكثر مما أدلى به مظهرهما، أخذ نيل بين ذراعيه، ودعا الرجل العجوز إلى أن يتبعهما.

حملها بين ذراعيه بحنان، وبسهولة أيضًا، كما لو كانت طفلًا رضيعًا، وسار بخطى رشيقة ثابتة، يقودهما عبر الطريق الذي بدا من حاله، أنه أفقر وأكثر أحياء المدينة بؤسًا ووحشة.. أحيانًا كان يعرج جانبًا في سيره؛ ليتجنب أوكار الكلاب التي غمرتها المياه، ويتفادى مياه المزاريب الجارية، لكنه -بغض النظر عن هذه العوائق- حافظ على مساره، يشق طريقه في ثبات دون أن يحيد عنه. وهكذا، ساروا في صمت تام، لما يقرب من ربع الساعة، فقدوا فيها الوهج -الذي أشار إليه سابقًا- خلال سيرهم في الطرق المظلمة والضيقة التي سلكوها،

لكنهم حينما اقتربوا من المكان المقصود، بزغ الوهج مرة ثانية، منبعثاً من مدخنة عالية لمبنى قريب منهم.

قال الرجل، بينما وقف أمام الباب ليُنزل نيل ويأخذ بيدها: «هذا هو المكان، لا تخافا شيئاً، لن يصيبكما أحد هنا بأي أذى».

في الواقع، حمل هذا الضمان ثقة قوية، حفزتهما على الدخول، لكن ما رأياه في الداخل لم يقلل من تخوفاتهما أو ريبتهما. كان المبنى شاهقاً ضخماً، تدعمه أعمدة من الحديد، له منافذ تهوية سوداء كبيرة في الجدران العلوية، بداخله تتردد أصدااء رنين المطارق وأصوات تغيّط الأفران، التي تتداخل مع صوت صفير معدن ساخن أحمر عند وضعه في الماء، ومع مئات الأصوات الأخرى الغريبة التي من المرجح أنها لم تُسمع من قبل قط في أي مكان آخر، في هذا المكان المعتم، كانوا يتحركون مثل الأشباح بين اللهب والدخان، كومضات خافتة سريعة، يمججون ويعذبون بالنيران المشتعلة، يبدو المكان كأنما يحتوي على أسلحة دامية خطيرة، تكاد ضربة خاطئة واحدة من أي منها أن تسحق جماجم بعض العمال، كان بعض منهم يكدحون كالعمالقة، وبعض آخر يستريحون على أكوام من فحم أو رماد، من كدهم، وقد توسّخت وجوههم جميعاً بالدخان، وبعض آخر، يفتحون أبواب الفرن الملتهبة، ويسكبون الوقود على اللهب، فتتلقى النار وتستعر، وتعلو للقائه، والتهامه. وبعض آخر يطرقون على صفائح كبيرة متوهجة، ينبعث منها حرارة لا تحتمل، وضوء من أعماقها خافت يشبه الحمرة المتأججة في أعين الوحوش الضارية.

من بين تلك المشاهد المربكة، والأصوات المفزعة، قادهما دليلهما عبر جزء مظلم من ذلك المبنى، إلى فرن لا تهدأ ناره ليلاً ونهاراً، ثم تجمعوا في النهاية، بسبب حركات شفّيته، فلم يكن بإمكانهما سوى رؤيته يتكلم، دون أن يسمعه. حينها انسحب الرجل الذي كان يراقب النار، فقد أنهى مهمته في الوقت الحالي في سرور، وتركهما مع صديقهما، الذي بسط ليل عباءة على كومة من الرماد، وأراها أين يمكن لها أن تعلق ملابسها حتى تجف، ثم أشار لها وللرجل العجوز أن يرقدا ويناما. أما هو، فاتخذ مجلسه أمام باب الفرن على حصيرة متينة، وأسند ذقنه على راحة كفه، يراقب الشعلة وهي تلمع من بين الكوات الحديدية، والرماد الأبيض بينما يتهاوى في حفرة مضيئة حارة أدناه.

امتزج دفء سريرها -على الرغم من بساطته وقساوته- بإرهاقها التي رزحت تحت وطأته، وتبدلت ضجة المكان إلى صوت خافت يقع على أذن الطفلة المتعبة، فلم يمضِ الوقت الطويل حتى هداها ذلك المزيج إلى النوم. رقد الرجل العجوز إلى جوارها، ومع احتضان يدها له، نامت الطفلة في سبات عميق.

لم يكن الليل قد انقشع، حينما استيقظت، لم تكن تعرف كم مضى من الوقت، أو إذا كانت قد نامت وقتاً طويلاً أو قصيراً. لكنها وجدت نفسها محمية من تيارات البرد القارسة، التي يمكن أن تتدفق إلى داخل المبنى، ومحمية أيضاً من الحرارة الحارقة، ببعض ملابس العمال، حينها نظرت نظرة خاطفة على صديقهما، ورأته لم يبرح مكانه، يجلس جلسته نفسها، يحملق في النار بعينين ثابتتين في جدية، هادئاً ساكناً، بدا

كما لو كان لا يتنفس حتى. لم تكن الطفلة قد تيقظت بعد، محجوزة في حالة بين النوم والاستيقاظ، وقد نظرت مطولاً إلى هيئته الهامدة؛ لدرجة أنها خافت أن يكون قد مات، وهو جالس. نهضت من توها بهدوء، واقتربت منه، وغمرت بالهمس في أذنه.

تحرك، ونظر إلى المكان الذي نهضت منه، كما لو كان يطمئن نفسه أن الطفلة هي مَنْ تقف فعلاً بالقرب منه، ثم نظر إلى وجهها محتاراً، وعلى وجهه علامات الاستفهام.

قالت: «لقد خشيت أن تكون مريضاً، كل الرجال هنا يحدثون جلبة، وأنت هادئ للغاية».

رد عليها قائلاً: «إنهم يدعونني وشأني، فهم أعلم بحالي. يسخرون مني، لكنهم لا يؤذونني فيها. انظري إليها.. إنها صديقتي».

قالت الطفلة: «النار؟».

أجاب الرجل: «إنها حية طوال ما أنا حي، نتحدث ونفكر معاً طوال الليل».

نظرت إليه الطفلة في لمحة خاطفة وهي في أوج دهشتها، لكنه كان قد التفت بعينه عنها، وصوبَهما في اتجاههما السابق، متأملاً في شروود كما كان من قبل.

قال: «إنها مثل الكتاب بالنسبة لي.. الكتاب الوحيد الذي تعلمت قراءته طوال حياتي، يروي لي حكايات قديمة. إنها الموسيقى، التي أستطيع أن أميزها من بين آلاف الأصوات، موسيقى لها أصوات مختلفة

وسط أجيجها، وصور مختلفة أيضًا. إنك لا تعلمين عدد الوجوه الغريبة والمشاهد المختلفة التي أتعبها في الجمرات الحمراء الساخنة. هذه النار.. إنها ذاكرتي، أرى فيها حياتي بأكملها».

انحنى الطفلة لتستمع إلى كلماته، لكن ما لا يمكن إغفاله، ذكر كم كانت عيناه تبرقان وهو يتحدث مستغرقًا في تأمله.

قال وهو يبتسم ابتسامة مستترة: «نعم! لقد كانت على الحال نفسه، حينما كنت طفلًا، كنت أحبو حولها، إلى أن أنام. إن أبي رأى ذلك بنفسه».

سألت الطفلة: «أليس لديك أم؟».

- لا، لقد كانت ميتة. تكذب النساء في أعمالهن. لقد ظلت تعمل إلى آخر أنفاسها، عملت حتى الموت، لقد أخبروني بذلك، وكما قالوا حينها، وكما ظلت النار تقول لي الأمر نفسه منذ ذلك الحين. أحسب أنها كانت الحقيقة. ودائمًا ما آمنت بذلك.

قالت الطفلة: «هل أصبحت تأتي إلي هنا بعد ذلك؟».

رد قائلاً: «صيفًا وشتاءً.. في بادئ الأمر، كان مجيئي سرًا، لكنهم بعد أن اكتشفوا الأمر، سمحوا لي بالبقاء. حينها كانت النار جليستي، من ترعاني.. هذه النار نفسها. إنها لا تُخمد أبدًا».

قالت الطفلة: «هل أنت مولع بها؟».

- بالطبع أنا كذلك. لقد مات أمامها. رأيته يسقط.. هناك.. حينما يحترق هذا الرماد، أتذكره، لكنني أتساءل، لماذا لم تساعدته؟

سألت الطفلة: «هل أنت هنا منذ ذلك الحين؟».

- منذ ذاك اليوم الذي جئت فيه لرؤيته، لكنني أغيب أحياناً، وكم يكون الجو قارساً في ذلك الحين! على الرغم من أنها مشتعلة طوال الوقت، حينما أعود إليها أرى لهيبها يتقافز، ووهجها يعلو، كما اعتادت أن تفعل في أيام لعبنا معاً. ربما تخمنين من هيئتي التي تنظرين إليها، أي نوع من الأطفال كنت، لكنني.. على الرغم من كل الاختلافات التي بيننا، لقد كنت طفلاً حينما مات، وحينما رأيتك الليلة في الشارع، ذكرتيني بنفسني، وكيف كنت بعد وفاته، وجعلتيني أرغب في إحضارك هنا إلى جانب النار. لقد تذكرت تلك الأوقات القديمة كلها مرة أخرى، حينما رأيتك نائمة هنا بجوارها. الآن يجب أن تعودني إلى النوم. هيا نامي مرة أخرى أيتها الطفلة المسكينة، نامي في سلام!

وبتلك الكلمات، اقتادها إلى أريكتها الخشنة، وغطاها بالملابس التي وجدت نفسها ملتحفة بها حينما استيقظت، ثم عاد إلى كرسيه مرة أخرى، لا يتحرك مطلقاً إلا لإطعام الفرن، يمكث دون حراك كالتمثال. ظلت الطفلة تتابعه لبعض الوقت، لكنها سرعان ما استسلمت لنعاس مريح، أتاها في مثل هذا المكان المقفر الكئيب، وعلى كومة من الرماد، لقد نامت في سلام تام كما لو كانت تلك الغرفة غرفة في قصر، وكان سريرها سريرًا من الريش الناعم.

حينما استيقظت مرة أخرى، كان ضوء النهار يتخلل من شقوق الجدران، وتسقط أشعته مائلة، جاعلة المبنى يبدو أكثر قتامة مما كان عليه في الليل. كانت القعقة لا تزال مستمرة والجلبة مدوية، والنييران

المستعرة أشد توهجًا من ذي قبل، فلم يتباين النهار عن الليل سوى ببعض الراحة والقليل من الهدوء.

قسّم صديقهما فطوره، بينه وبينهما - كان عبارة عن القليل من الخبز الجاف والقهوة غير الكافية - وسألهما إلى أين كانا ذاهبين. أخبرته أنهما يبحثان عن مكان بعيد عن الريف وعن المدينة وحتى بعيد عن القرى، وبكلمات متلعثمة، استفسرت عن أفضل طريق يجب عليهما سلوكه. قال هازًا رأسه: «إنني أعرف القليل عن الريف، إننا نقضي عمرنا أمام أبواب الفرن، ونادرًا ما نخرج لنلتقط أنفاسنا. لكنني أحسب أن هناك أماكن مناسبة».

قالت نيل: «وهل هي بعيدة عن هنا؟».

- نعم بالتأكيد. كيف يكون الريف قريبًا من هنا، كيف سيبقى لونه أخضر ومنعشًا؟ لكن الطرق مقفرة أيضًا، على امتداد أميال وأميال، تشتعل بنيران مثل نيراننا.. إنه طريق مظلم مقفر، طريق سيجعلك ترتعدن من الخوف في الليل.

قالت الطفلة في شجاعة، فقد لاحظت أن العجوز يستمع إلى حديثه بنفس قلقه: «إننا هنا، وعلينا أن نستمر ونمضي قدمًا».

«ستجدين أشخاصًا فظين.. طرقًا لم تُمهّد لأقدام صغيرة كقدميك.. مسارات موحشة مغمّة قابضة للصدر.. أليس هناك سبيل لتعودا من حيث أتيتما أيتها الطفلة؟».

صاحت الطفلة، واندفعت إلى الأمام: «لا لا يوجد.. إذا كان

بإمكانك أن توجهنا، فمن فضلك افعل ذلك. إذا لم يكن بإمكانك، فاستسمحك لا تثبط عزيمتنا. إنك لا تعرف مدى الخطر الذي نتجنبه، وكم سيكون صواباً وصحيحاً إذا ابتعدنا عنه قدر إمكاننا، إلا إذا كنت تحاول منعنا؛ لأنني متأكدة أنك لا تقصد».

قال حاميهما الغريب وهو ينظر إلى الطفلة وجدها، الذي نكس رأسه ونظر إلى الأرض: «حاشا وكلا، إن كان الأمر كذلك! سأوجهكما من الباب، وهذا أفضل ما أستطيع فعله، رغم أنني أود فعل المزيد».

سار معهما إلى الباب، وأشار لهما إلى أي الطرق عليهما أن يسلكاه كي يغادرا المدينة. وأي المسارات عليهما أن يسيرا فيها. أملى عليهما التعليمات، وأسهب فيها مطولاً، وبمباركات حميدة كثيرة رددتها الطفلة، أرغمت نفسها على الرحيل، وألا تبقى لتستمع إلى المزيد.

قبل أن يصلا إلى زاوية الممر، جاء الرجل يركض خلفهما، أتاها، وأمسك بيدها، قابضاً عليها، وترك شيئاً في قبضتها.. لقد كانا بنسين قديمين معوجين عليهما طبقة من الرماد. من يدري أنهما كانا يلعبان في أعين الملائكة، كهدايا ذهبية دُونت على القبور؟

وهكذا.. ابتعدا عن بعضهما، تقتاد الطفلة من ترعاه بعيداً عن الذنب والعار.. ويتجه العامل إلى المكان الذي نام فيه ضيفاه، يتعلق بشغف جديد، ويقرأ حكاية جديدة من نيران الفرن.

الفصل الخامس والأربعون

في جميع رحلاتهما السابقة، لم يُصابا بالسأم، ولم يتوقا أبدًا إلى هذا الحد إلى الحرية، ويشتاقا لهواء الريف الطلق النقي مثل الآن. حتى في ذلك الصباح العصي على النسيان، حينما هجرا بيتهما القديم، ملقين بأنفسهما تحت رحمت عالم غريب، راحلين عن الأشياء الخرقاء الغريبة التي عرفاها وأحباها، تاركين كل شيء وراءهما.. حتى وإن كانا يرغبان حينها في عزلة المروج المنعشة، والتلال والحقول، مثلما يرغبان بها الآن، بعد أن أحاطت بهما الضوضاء، وطوقتهما القذارة، وخنقهما ركام الضباب الملوث، في المدينة الصناعية التي تعج بالبؤس، والتعاسة المحيطة بهما من كل اتجاه، كأنها تحتجزهما داخلها، تقصي أي أمل، وتجعل الفرار مستحيلًا.

تحدثت الطفلة إلى نفسها: «نهارين وليلتين.. لقد قال نهارين وليلتين يجب أن نمضيهما في هذا المسار. أوه! إذا ما بقينا على قيد الحياة ووصلنا إلى الريف مرة أخرى، ونجونا من هذا المكان الموحش الرهيب -الأقرب إلى أن يكون مكانًا للرقاد فيه من أجل الموت- سأشكر ربنا على رحمته الشاملة بقلب ممتن!».

آزرت الطفلة نفسها كي تقدر على مواصلة مهمتها بجسارة، وعلى إتمام هذه الرحلة الأخيرة بخواطر كهذه، أخذت تترد في بالها، وبتصميم مبهم على السفر كل هذه المسافة الطويلة، بين الجداول والجبال، حيث يسكن الفقراء البسطاء الكادحون، مَنْ يكرسون أنفسهم بروح متواضعة للعمل في المزارع، لتوفير ضرورات معاشهم وقوت يومهم يوماً بيوم، بعيداً عن الرعب الذي فرامنه.. دون أي مورد سوى هبة الرجل المسكين لها، دون أي دافع سوى المتدفق من قلبها، وإحساسها بأن ما فعلته هو الحق والصواب.

قالت، وهما يشقان طريقهما بين الشوارع في شقاء: «أخشى أننا اليوم سنكون بطيئين في سيرنا يا عزيزي؛ قدماي متقرحتان، وأشعر بالألم في كامل أوصالي من رطوبة الأمس. علمت أن هذا ما سيحدث عندما نظر إلينا وأخبرنا بالمدة التي سوف نقضيها على هذا الطريق».

قال جدها بشفقة، وهو في حالة يُرثى لها فعلاً: «لقد أخبرنا أن هذا الطريق مقفر كتيب.. ألا يوجد طريق آخر؟ ألن تسمح لي بالذهاب في طريق آخر غير هذا؟».

قالت الطفلة في صرامة: «إن هذا الطريق الشاق، هو ما سيجعلنا نتمكن من العيش في سلام في نهاية المطاف، فلن نرغم على ارتكاب الأذى وإلحاق الضرر أو نُغوى من أجل ذلك. إننا سنسلك الطريق الذي سيفضي بنا إلى تحقيق هذه الغاية، ولن نحيد عنه مطلقاً، وإن كان أسوأ مئات المرات مما تدفعنا مخاوفنا إلى توقعه. لن نفعل ذلك قط يا عزيزي.. أليس كذلك؟».

أجاب الرجل العجوز، بصوت مرتعش فضلاً عن رعشة جسده:
«بلى! لن.. لن نحيد عنه مطلقاً.. هيا لنكمل سيرنا، إنني مستعد.. إنني
مستعد تمامًا يا نيل».

سارت الطفلة بصعوبة أكبر من التي مهدت لرفيقها أن يتوقعها، فلم
تكن الآلام التي أصابت مفاصلها، وقرت على تعذيبها، آلاماً محتملة،
ومع كل جهد تبذله، كانت تشتد وطأتها. لكنها لم تنتزع منها أي
شكوى، أو تطفئ عليها مظاهر المعاناة، وعلى الرغم من أن المسافرين
تقدما ببطء شديد، إلا أنهم استمروا في طريقهما ولم يتوقفا. فالرحيل
عن المدينة، والتخلص من أجوائها مع مرور الوقت، جعلهما يشعرا
أنهما يسيران في الدرب الصحيح، إلى مبتغاهما.

مرّا بضاحية طالت مسافتها، كانت منازلها مبنية من الطوب
الأحمر، وبها بعض البقع الزراعية، لكن عادم ودخان المصنع فحّم
أوراقها المنكمشة، وأذبل أزهارها، وأفسد نباتها بالهواء الساخن
للأفران والأتانيين التي يتصاعد منها الصهد، فأفت، وبدت أقفر وأكثر
إزعاجاً من المدينة ذاتها.. تخطيا الضاحية المنبسطة الطويلة الواسعة،
ووصلا بخطوات بطيئة إلى منطقة لا تسر، حيث لا يُرى في أرضها
الجدباء الوخيمة أي عشب ينمو، ولا يظهر أي برعم يبشر بقدوم الربيع،
فلا يمكن لأي شيء أخضر أن يعيش سوى على أسطح المياه الراكدة،
المترامية هنا وهناك على جانب الطريق الأسود.

توغلا أكثر فأكثر تحت ظلال هذا المكان السوداوي المشؤوم، وقد
استحوذ تأثيره الكئيب المظلم على روجيهما، وألقى في نفسيهما بكآبة

مغمة قابضة للصدر. على كل جانب، وعلى امتداد مرمى بصريهما، ولمسافات بعيدة، لاحت المداخل الطويلة، مكدسة جنباً إلى جنب، تعيد مشهداً لا نهائياً من الحزن الغائم نفسه، والقبح المقيت ذاته، تجسد رعب الأحلام السوداوية القمعية، تنفخ وباء دخانها، تحجب الضوء، تفسد الهواء وتملاً ذراته بغم أسود. وعلى أكوام رماد على جانبي الطريق، غير محاطة سوى بألواح خشبية خشنة أو بكِنان أصابها العفن، وجدت محركات غريبة تهتز في مكانها وتتولى كمخلوقات تتعذب، تصدر سلاسلها الحديدية صليلاً مفاجئاً، كأنها تصرخ مع دوامات دورانها السريعة من وقت لآخر كما لو كانت تتعذب عذاباً أليماً لا نهاية له، وترتجف لمعاناتها الأرض. ظهرت منازل مفككة هنا وهناك، تتداعى على الأرض، غير راسخة لكنها مدعومة بحطام منازل أخرى قد انهارت، غير مسقوفة، بلا نوافذ، وخيمة، فحم لونها، لكنها لا تزال مسكونة. الرجال والنساء والأطفال، كانوا شاحبين، مهلهلين في ملابسهم، يراقبون المحركات، ويسعرون نيرانها، يتسولون على الطرقات، ويمشون نصف عراة في منازل لا أبواب لها. تتابع ظهور الوحوش الضارية، كانت في كامل وحشيتها واهتياجها، تعوي بصرخات ذعر تدور وتحور حول نفسها، ولا يزال من الأمام ومن الخلف وعن اليمين وعن اليسار أبراج من الطوب، بدت أن لا نهاية لها، لا تتوقف عن نفث الهباب الأسود قط، تنسف كل شيء الحي والجامد، تطمس ملامح اليوم، وتزيد على كل تلك الأهوال سحابة كثيفة داكنة.

ماذا عن الليل في هذه البقعة المفزعة! الليل.. تبدل الدخان بنيران مشتعلة، وعكست المداخل وهج شعلاتها، وبرقت الأماكن التي ظهرت قباباً مظلمة طوال النهار بالوهج الأحمر، وماجت الأجساد في الداخل ذهاباً وإياباً بين جدرانها المتصدعة كفريسة بين فكين مشتعلين، ينادي كل منهم على الآخر بصياح أجش.. الليل.. تعالت ضوضاء الآلات الغريبة وصخبها بسبب الظلام، وبدت الناس من حولهما أكثر وحشية وهمجية، خرجت جماعات من العمال العاطلين على الطرقات، تجمهروا تحت ضوء الشعلات حول قاداتهم، الذين أخبروهم بلهجة صارمة من بطشهم، يستحثونهم بالصيحات المفزعة والوعيد والتهديد، وحينما اشتاط غضب بعض الرجال وجن جنونهم، وانطلقوا مسلحين بسيوف وشعلات، غير مكترئين للإحاح ودموع السيدات، وهن تحاولن ردعهم، مندفعين إلى مهام الأهوال والدمار؛ كي لا يحل الخراب الكلي. الليل.. عندما أتت العربات مهتزة، مليئة بنعوش ذميمة - فقد حامت الأمراض المعدية والموت حول كل ما كان حي من بشر وزرع - بكى الأيتام، وصرخت السيدات متفجعات، وتبعنهم في أعقابهم. الليل.. خرج البعض يطلبون لقمة عيش، وخرج آخرون للشرب لإغراق همومهم، وعاد آخرون إلى بيوتهم بأقدام متقرحة، وأعين بكت دماً. الليل.. الذي بدت صورته مناقضة لرحمات السماء التي تنزلها على الأرض، فلا يحل السلام، ولا يسود الهدوء، ولا تنقشع الظلمات، ولا تظهر أي علامة لنوم هانئ مبارك.. من يملك الجرأة ليخبر طفلة صغيرة مرتحلة عما تخبئه أهوال الليل!

استلقت الطفلة في العراء، لا يفصل بينها وبين السماء شيء، لا تعباً لحالها، ولا تخاف على نفسها، تجاوزت تلك الأمور؛ تكثرث لأمر العجوز فقط، وباتت تدعو له. واهنة مستنزفة القوى، شعرت بآلام جسدها، ولم تلتفت إليها، ظلت هادئة ساكنة، لا تشتكي، لم تفكر البتة في حاجاتها، بل ظلت تدعو خالقهما بأن يُسَخِّرَ له أحداً ليداويه. حاولت أن تتذكر الطريق الذي أتيا منه، وتنظر في الاتجاه الذي ناما فيه ليلتهما الماضية، حيث كانت النيران مشتعلة. لقد نست أن تسأل ذاك الرجل الطيب عن اسمه - أن تسأل صديقهما - الذي تذكرته وهي تدعو، بدا لها أنه من غير الامتنان إذا لم تلتفت لتنظر صوب المكان، الذي كان يراقبه. في ذلك اليوم لم يتناولا سوى رغيف بينس واحد. لقد كان بالقدر القليل، لكن الجوع نُسي في راحة بال غريبة تسلمت إلى حواسها. استلقت، في لطف شديد، وعلت وجهها ابتسامة هادئة، ثم نامت في سبات عميق. لم يكن نومًا أكثر مما كان مهبطًا لأحلام سارة، لكن، لماذا كانت أحلامها كلها طوال الليل عن الطالب الصغير؟ أتى الصباح. مضت أكثر وهنًا، خائرة القوى بالكلية، حتى السمع والرؤية كانا يشكلان مشقة، ولم تتذمر الطفلة بعد.. ربما ما كانت ستقول أي شكوى أيضًا، حتى وإن لم يكن من يحفزها على الصمت، وسببه الأساسي، مسافرًا إلى جانبها. شعرت باليأس حول خروجهما معًا من هذا المكان المشؤوم، وبات لديها قناعة تعسة أنه من شدة مرضها، ربما ستموت، وعلى الرغم من ذلك لم يتتابها القلق أو الخوف.

لم تدرك فقدانها للشهية حتى أنفقا آخر بنس كان معها لشراء

رغيف آخر، ومنعها إعيائها من تذوقه. أما جدها، فأكل بنهم شديد، وسُرَّتْ لرؤيته. لم يطرأ تغيير أو تحسن على طريقهما خلال هذا اليوم، كأن مشاهد الأمس تتكرر مرة ثانية. كان الهواء الملبد الكثيف الصعب تنفسه ذاته، والأرض القاتمة الدقعاء ذاتها، ويداهمها البؤس نفسه، والضيق وآلام المصائب نفسها. بدت الأشياء من حولهما معتمة، قلَّت الضوضاء، وصار المسار وعراً والطرق أكثر تعرجاً، تتعثر خطواتها بين الحين والآخر، لكنها سرعان ما تحث نفسها على الاستكمال، كما كانت تحاول بشق الأنفس منع نفسها من السقوط. طفلة مسكينة! ترى أن السبب قدماها المترنحتان.

مع حلول الظهيرة، اشتكى جدها بمرارة من الجوع. اقتربت من فورها من أحد الأكواخ الضنكة المتواجدة على جانب الطريق، فتح رجل هزيل الباب، وقال: «ما الذي تريدينه من هنا؟».

- صدقة.. لقمة من الخبز.

رد الرجل الهزيل بفضاظة، مشيراً إلى حزمة ما مكومة على الأرض: «هل ترين ذلك؟ إنه طفل ميت. أنا وخمسائة رجل آخر سُرحنا من العمل منذ ثلاثة أشهر. وهذا هو طفلي الثالث الذي يموت، الثالث والأخير. هل تظنين أن لديَّ صدقة لأخرجها، أو لقمة لأوفرها؟».

تقهقرت الطفلة إلى الوراء، وأغلق الباب أمام وجهها. لكن بدافع من الضرورة الملحة، طرقت على باب آخر، كان كوخ أحد الجيرة، وبطريقة خفيفة من يدها، فُتح الباب.

كان من الواضح أن أسرتين فقيرتين تعيشان معاً في هذا الكوخ، فقد جلست امرأتان في مكانين مختلفين من الغرفة وحولهما أطفالهما، وفي المنتصف كان يقف رجل مهيبٌ بزي أسود، تبين أنه دخل للتو، وقد حمل على ذراعه ولدًا.

قال: «خذي يا امرأة ابنك الأصم الأكم. يجب أن تشكريني على إعادته لك. أحضروه لي هذا الصباح بتهمة السرقة، وأؤكد لك، أنه إذا كان طفلًا آخر، لكنت اتخذت إجراءات أخرى قاسية. لكنني تعاطفت مع حالته، واعتقدت أن تعليمه لم يكن حسنًا، لذا أعدته إليك، من الأفضل لك أن تعتني به في المستقبل أكثر من ذلك».

قالت السيدة الأخرى، وهي تقوم على عجل، وتقف قبالة: «وماذا عن ابني؟ ألن تعيده إليّ يا سيدي؟ لقد احتُجز بسبب نفس الجريمة!». سأل الرجل بصرامة: «هل هو أصم وأكم؟».

- ألم يكن كذلك؟

- أنت تعلمين أنه لم يكن كذلك.

صاحت السيدة: «بل كان.. كان كذلك من مهده. أصم وأكم وأعمى. أتقول: إن ابنها لم يكن تعليمه جيدًا! وأين تعلم ابني؟ قل لي أين يستطيع أن يتعلم؟ مَنْ كان هنا ليعلمه جيدًا ويحسن تعليمه، وأين هو من الأساس كي يتعلم؟».

قال الرجل: «مهلاً يا امرأة! إن ابنك لديه كل حواسه».

صاحت الأم: «حسنًا! لقد كان.. وبسبب ذلك، كان من السهل أن

يضل. إذا أنقذت هذا الولد لأنه لا يعرف الصواب من الخطأ، فلماذا لم تنقذ صغيري الذي لم يعلم الفرق أبدًا؟ لكم الحق أيها السادة في معاقبة ابنها، الذي حجب عنه الرب الكلام والأصوات، مثلما لكم الحق في معاقبة ابني، الذي تحجبونه عني بأنفسكم. كم عدد البنات والأولاد.. آه! وكم عدد الرجال والنساء أيضًا، الذين أحضروهم إليك، ولم تشفق على حالهم، وكانوا ضُمًّا بكمًا في عقولهم، وساءت أعمالهم بسبب ذلك، وعُقبوا على ذلك، معاقبة جسدية ونفسية، بينما أنتم أيها السادة تتجادلون فيما بينكم، وتقررون مَنْ يُرد إلى أهله ويستحق التعلم وَمَنْ لا؟ كن رجلًا عاديًا، ورد إليَّ ابني يا سيدي».

قال الرجل، وهو يخرج علبة السعوط: «إنكِ متبجحة بائسة.. وأنا آسف لك».

ردت السيدة: «أنا بائسة، وقد جعلتني كذلك فعلًا. رد إليَّ ابني، كي يعمل من أجل هؤلاء الأطفال الذين لا عون لهم. كن رجلًا عاديًا يا سيدي، وكما رحمت هذا الولد، ارحم ابني، ورده إليَّ!».

رأت الطفلة وسمعت ما يكفي، لتتأكد من أن هذا ليس مكانًا تطلب فيه الصدقات، فاقترادت الرجل العجوز بهدوء إلى الخارج، وواصلت رحلتها.

على الرغم من تمادي فقدان الأمل ووهن القوى أكثر فأكثر، مضت الطفلة في طريقها بقرار ثابت، ترفض إفشاء أي كلمة أو التנהد بأي أنين يكشف وهنها، كانت تجبر نفسها على استكمال الطريق طوال هذا اليوم العصيب، دون أن تتوقف باستمرار للراحة كما اعتادت؛ تريد أن تعوض

ولو بالحد القليل عن وتيرة خطواتها البطيئة وخطواتها المتعثرة. هبط المساء، لكنهما لم يتوقفا، لا يزالان يسافران بين الأراضي المقفرة والمظاهر البائسة، حتى وصلا إلى بلد مزدحمة.

كانت شوارعها مظلمة، فاقدة للروح، لا تُحتمل. بعد أن طلبا الإغاثة طارقين بعض الأبواب، وتم صدهما، اتفقا على الخروج إلى الطريق العام بأسرع ما يمكنهما، ويجربان ما إذا كان سيرأف أي من سكان البيوت المعزولة بحالتهم المنهكة، ويشعر بالشفقة تجاههما.

كانا يجران أرجلهما عبر الشارع الأخير، حينها شعرت الطفلة أن الوقت الذي تخور فيه قواها كافة، ولا تستطيع الصمود أكثر من ذلك قد اقترب. ظهر أمامهما في هذا المنعطف مسافر مترجل يسير في الاتجاه نفسه الذي يسيران فيه، ويحمل حقيبة سفر على ظهره، يتوكأ في سيره على عصا سميكة، ويمسك في يده الأخرى كتاباً يقرأ منه.

لم يكن من السهل مطلقاً اللحاق به، والتماس مساعدته؛ فقد بدا لهما أنه يسير بسرعة، على الرغم من أنه كان على مقربة منهما. بعد فترة، صادف أنه توقف، لينظر متمعناً إلى بعض المقاطع في كتابه. لاح بصيص من الأمل، أسرع الطفلة من خطواتها، تاركة جدها بالخلف، واقتربت من الغريب دون أن تلفت انتباهه بصوت وقع أقدامها، حينها قالت بضع كلمات بصوت واهن، تتوسل إليه مساعدتهما. أدار رأسه، قبضت الطفلة على يديها معاً، وصرخت صرخة مفاجئة، وسقطت فاقدة للوعي عند قدميه.

الفصل السادس والأربعون

لقد كان المعلم الطيب. لم يكن من قابلاه في طريقهما رجلاً غريباً.. لقد كان المعلم الطيب نفسه. استطاع بالكاد أن يتحرك؛ صار مشدوهاً بالكلية لرؤية الطفلة التي تعرفت عليه من فورها، توقف لوهلة، صامتاً مرتبكاً من هذا الظهور غير المتوقع، لكنه تلقائياً ودون أي حضور ذهني مال من فوره على الفتاة ليرفعها من على الأرض.

سرعان ما استعاد وعيه الذهني، فألقى في الحال بعضاه وكتابه، وخر على ركبتيه إلى جانبها، يحاول إعادة وعيها لها ولو بأبسط الطرق، بينما وقف جدها لا حول له، قابضاً على يديه، يناشدها بالطف العبارات كي تنهض وتحدث معه، ولو بكلمة واحدة.

رفع المعلم رأسه، ونظر إلى وجهه، وقال: «إنها متعبة للغاية.. لقد تماديت في إنهاك قواها أكثر من اللازم أيها الصديق».

قال الرجل العجوز: «لم أفكر أبداً في مدى ضعفها وإعيائها حتى هذه اللحظة، ولم ألحظ كم كانت ضعيفة ومريضة قط».

بنظرة نصفها عتاب ونصفها شفقة، رمق المعلم الرجل العجوز، ثم حمل الطفلة على ذراعيه، وطلب منه أن يجمع محتويات سلتها

الصغيرة التي انفرطت على الأرض، وأن يتبعه مباشرة، كي يبعدها عن هذا المكان بأقصى سرعة لديهما.

لاح على مرمى البصر نزل صغير، بدا أنه يوجه خطواته نحوه، مندفعًا إلى الداخل فور وصوله. سارع بحمولته الفاقدة للوعي نحو المطبخ، وناشد جميع مَنْ كانوا هناك -حُبًّا في الرب- أن يفسحوا الطريق؛ ليضعها على كرسي أمام النار.

فور دخول المعلم، قام كل مَنْ كان هناك في ارتباك عارم، وهموا بفعل ما يفعله الناس عادة في مثل هذه الظروف. نادوا جميعًا من أجل احضار أفضل علاج لدى الآخر والآخرى، دون أن يتحرك المنادون لإحضار أي شيء، صاحوا جميعًا من أجل إفساح المجال لمرور الهواء، لكنهم يستثنون المجال الذي يشغلونه بأنفسهم وفي نفس الوقت، مطوقين أساس التعاطف، متعجبين لماذا لم يفعل أي شخص آخر ما لا يبدو أنهم سيفعلونه قط.

على أي حال، كان لدى مالكة النزل استعدادًا فعالًا ونشاطًا أكثر من أي واحد منهم، فاتخذت رد فعل سريع مدركة حيثيات الموقف، فسرعان ما أتت مهرولة، ومعها القليل من نبيذ البراندي الساخن والماء، تتبعتها خادمتها، تحمل الخل والنشادر وبعض المقويات الأخرى، وباستخدامها كما ينبغي، تعافت الطفلة إلى الحد الذي مكناها من شكرهم جميعًا رغم صوتها الخافت، ومدت يدها بصعوبة بالغة إلى المعلم، الذي وقف إلى جوارها بوجه كانت سيماء القلق الشديد. دون حملها على قول أي كلمة أخرى، أو تكبد عناء تحريك

ولو إصبع، حملتها السيدة على الفور إلى السرير، وغطتها لتدفأ جيداً، غسلت قدميها الباردتين، ولفتهما بقماشة قطنية ناعمة، ثم أرسلوا بسرعة رسولاً إلى الطبيب.

حضر الطبيب بأقصى سرعة، أحمر الأنف، يتدلى من صدريته الستان السوداء المضلعة مجموعة كبيرة من الأختام، اتخذ مقعده بجوار نيل المسكينة، أخرج ساعته، واستشعر نبضها. نظر إلى لسانها، ثم استشعر نبضها مرة ثانية، وبينما كان يفعل ذلك، علق عينيه على كأس النبيذ نصف الفارغة في ذهول عميق.

قال الطبيب بعد مدة: «يجب أن نعطيها ملعقة صغيرة من نبيذ البراندي الساخن والمياه بين الحين والآخر».

قالت مالكة النزول مبتهجة: «هذا ما فعلناه بالضبط يا سيدي!».

قال الطبيب، وقد مر بطست حمام القدم الموضوع على الدرج: «ويجب أيضاً أن..». تمهل للحظة ثم تابع الطبيب بصوت وسيط الوحي: «يجب أيضاً أن نضع قدميها في مياه ساخنة، وأن نلفهما بقماش قطني..». ثم أكمل في جدية بالغة: «ويجب أيضاً أن نجعلها الآن تأكل شيئاً بسيطاً للعشاء.. جناح فرخة مشويّاً..».

صاحت مالكة النزول: «أوه! باركنا يا رب! إنه يُحضّر يا سيدي على النار في هذه اللحظة في المطبخ».. كان الأمر بالفعل كذلك؛ لأن المعلم أوصى بتحضيره لها، وقد أوشك على النضج، ربما لو كان الطبيب قد حاول أن يشم رائحته، لتبين الأمر، أو ربما قد فعل.

قال الطبيب في صرامة وهو يقوم: «يمكنك بعد ذلك أن تقدمي إليها كأسًا من نبيذ البورت الساخن، إذا كانت تحب النبيذ...».

قالت مالكة النزل مقترحة: «ونقدم نخبًا يا سيدي؟».

قال الطبيب، بنبرة رجل يتكرم بتقديم تنازل، أو يهبههم امتيازًا جليلاً: «ونخبًا.. لكن على أن يكون من الخبز، خذي الأفضل من بينه.. إذا سمحتِ يا سيدتي».

مع تلك الوصايا التي أخبرهم بها بتوانٍ، مشددًا على قوله، غادر الطبيب، تاركًا مَنْ في المنزل كلهم يشيدون بحكمته وسداد رأيه الذي طابق رأيهم إلى حد بعيد. أثنى الجميع على الطبيب بعد مغادرته، قائلين جميعًا: إنه كان طبيبًا ذكيًا حقًا، ويعرف تمامًا تشخيص حالة الناس.. ربما وضع لهم سببٌ أو آخر لافتراضهم أنه حقًا كذلك.

أثناء تحضير عشاءها، نامت الطفلة نومًا رحيماً، لكنهم اضطروا إلى إيقاظها؛ حينما صار العشاء جاهزاً. بمجرد أن أبدت عدم ارتياحها فور علمها أن جدها بالأسفل، واضطربت كثيراً عندما ظنت أنهما افترقا، صعد لها، وتناول معها العشاء. حينما لاحظوا أنها لا تزال مضطربة، أعدوا فراشاً لجدها في غرفة داخلية، حيث سكن بها الآن. لحسن الحظ أن مفتاح تلك الغرفة كان في جانب الباب المطل على غرفة نيل، عندما نزلت مالكة النزل من عندها، أعادته إليه، ثم عادت إلى سريرها بخطوات هادئة وقلب ممتن.

جلس المعلم لفترة طويلة، يدخن غليونه، إلى جانب نيران المطبخ،

الذي بات شاغراً من الناس، يفكر وتعلو وجهه أمارات السعادة؛ ممتناً للفرصة التي أحضرته في الوقت المناسب لمساعدة الطفلة، ويتفادى بقدر الإمكان الاستجواب الفضولي لمالكة النزل؛ فقد كان لديها حب استطلاع كبير للتعرف على كافة تفاصيل حياة نيل وتاريخها. أما المعلم المسكين، فكان طيب القلب، لديه خبرة ضئيلة بأساليب المكر والدهاء، التي لا يمكن أن تفشل في تحقيق مسعاها مع شخص مثله، وفي الخمس دقائق الأولى فقط، لكن ما حدث أنه لم يكن على دراية بما كانت تأمل في معرفته، لذا أخبرها بهذا بمنتهى الصراحة. كانت مالكة النزل بأي حال راضية عن هذا التصريح، الذي اعتبرته تهرباً بديعاً من سؤالها، وأرجعت هذا إلى أن لديه أسبابه بالطبع. حاشا وكلا أن ترغب في التطفل على شؤون نزلائها الخاصة، وأن هذا ليس من شأنها بتاتاً، غير أن لديها شؤوناً أخرى كثيرة لتهتم بها. لقد سألت سؤالاً عفويّاً متحضرّاً؛ لأنها كانت متأكدة أن الإجابة التي ستلقاها ستكون عفوية متحضرة أيضاً. لذا كانت راضية.. راضية تماماً. ربما كان من الأفضل لها إذا قال مباشرة إنه لم يختَر أن يكون صريحاً لأن ذلك كان ل يبدو بسيطاً مفهوماً. على أي حال، لم يكن لديها الحق أن تشعر بالإهانة بالطبع. لقد كان أفضل من يحكم على الأمر، وكان له الحق في أن يقول ما يرضيه، ولا أحد يستطيع أن يجادل هذا ولو للحظة. يا إلهي الكريم! لا أحد على الإطلاق.

قال المعلم الدمث: «إنني أؤكد لك أيتها السيدة الطيبة أنني أخبرتك بالحقيقة الواضحة. كما أتمنى أن أكون مصوناً، كما أخبرتك الحقيقة».

ردت مالكة النزل بدعابة نمطية جاهزة: «إذن لماذا! إنني أعلم أنك جاد، وأعتذر أنني أزعجتك، لكن الفضول هو لعنة جنسنا، كما تعرف.. هذه هي الحقيقة».

وجد مالك النزل صعوبة في فهم ما قالت، لأنه وفق اعتقاده، ظن أن تلك اللعنة تشمل أحياناً الجنس الآخر، لكن رد المعلم منعه من الإدلاء بأي ملاحظة تخص هذا الصدد، إذا كان لديه نية ليقدم على فعله من الأساس..

قال المعلم: «إذا سألتني لمدة ست ساعات متواصلة، سأكون مرحباً بك، وسأجيبك بكل صبر إذا ما تمكنت من ذلك؛ جزاءً لعطف قلبك الذي أظهرته الليلة.. لذا، أرجو منك أن تعني بها في الصباح، وتخبريني باكرًا عن حالتها، وللإيضاح، فأنا المسؤول عن تكاليفنا نحن الثلاثة».

وهكذا، فض مجلسهم على نحو ودي -ربما لم يكن أقل ودية بسبب هذا المنعطف الأخير- ذهب المعلم إلى سريره، وانتقل المضيف والمضيضة إلى سريرهما أيضاً.

جاء التقرير الموصى به في الصباح الباكر، أفاد بأن الطفلة أصبحت في حال أفضل، لكنها لا تزال ضعيفة، تحتاج إلى الرعاية القصوى، والراحة الكاملة لمدة يوم على الأقل، قبل أن تتمكن من استكمال رحلتها. استقبل المعلم تلك الأخبار بصدر منشرح، وقال: إنه كان سيحل عندهم لمدة يوم.. لكنه بناءً على ما حدث برمته سينتظر ليومين.. وسيدفع التكلفة كلها بكل ترحيب. حينما علم أن المريضة ستبقى يقظة

حتى المساء، حدد ساعة معينة لزيارتها في غرفتها، ثم خرج ومعه كتابه، ولم يعد حتى حان الموعد.

حينما تُركا على انفراد، لم تستطع نيل منع نفسها من البكاء، وبمجرد أن رأى المعلم وجهها الشاحب ومظهرها الواهن، اغرورقت عيناه بالدموع وأجهش في البكاء، في الوقت الذي كان يردد فيه بكل عفوية وحيوية مدى حماقة هذا الفعل، وأنه من السهل جدًا تجنبه، إذا ما حاول أحدهما.

قالت الطفلة: «على الرغم من كل هذا اللطف الذي يحيط بي، إلا أنه يجعلني غير سعيدة؛ لأنني أشعر أننا نشكل عبئًا ثقیلاً عليك. كيف لي أن أشكرك؟ إذا لم أكن قد قابلتك على هذه المسافة البعيدة من بيتك، كنت على الأغلب قد مت، وتُرك هو بمفرده».

قال المعلم: «إننا لا نتكلم عن الموت، أما بالنسبة إلى تشكيلكما عبئًا، فممنذ أن نمت في كوشي المتواضع، وينهال عليَّ الرزق».

صاحت الطفلة مهللة: «فعلًا!».

رد صديقها: «أوه! فعلًا.. لقد عُينت كاتبًا ومعلمًا في قرية تبعد عن هنا كثيرًا.. وتبعد كثيرًا أيضًا عن القرية القديمة إذا كنت تتذكرينها.. والآن صرت أحصل سنويًا على خمسة وثلاثين جنيهاً إسترلينيًا. أتصدقين! خمسة وثلاثين جنيهاً إسترلينيًا!».

قالت الطفلة: «إنني سعيدة جدًا.. سعيدة جدًا جدًا».

أكمل المعلم وقال: «كان حريٌّ بي أن أمضي الآن في طريقي. لقد

وفروا لي حنطورًا، علاوة على توفير أجرة العربات العمومية على طول الطريق.. فليباركهم الرب، إنهم لا ييخلون بشيء مطلقًا. لكنني وصلت مبكرًا جدًا عن الوقت الذي كنت أتوقع وصولي خلاله إلى هناك، فتوفر لي الكثير من الوقت، لذا قررت أن أمشي بدلًا من ذلك. كم أنا سعيد حقًا أنني فعلت ذلك بالأمس!».

- يجب أن نكون نحن السعداء!

قال المعلم، وهو يتحرك على كرسيه باضطراب: «نعم نعم! بالتأكيد! هذا صحيح تمامًا. لكن.. أين كنت ذاهبة، ومن أين كنت آتية، ماذا فعلت منذ أن تركتني، ماذا كنت تفعلين قبل ذلك؟ أخبريني! أخبريني الآن. إنني أعلم القليل عن الدنيا، وربما تكونين جديرة بنصحي في شؤوني أكثر من كوني مؤهلًا لتقديم النصيحة لك.. لكنني صادق للغاية، ولدي سببي لحبك -أحسب أنك لم تنسيه-. إنني شعرت منذ ذلك الوقت، كما لو أن حبي لعزيزي المتوفي نُقل إليك بينما كنت تقفين إلى جوار سريره. إذا كان..». نظر إلى الأعلى وأكمل قائلاً: «.. إذا كان هذا هو الخلق الجميل الذي ينهض من الرماد، فاجعل سلامه يأتيني بالخير ويدوم معي، لأستطيع أن أكتنف هذه الطفلة الصغيرة في رقة وحنان!».

مع بساطة المعلم الأمين ولطفه الخالص، والجدية الحنونة التي تمثلت في حديثه وتصرفاته، والحقيقة الموثقة في كل كلمة وكل نظرة، صار محط ثقة الطفلة، فلا يمكن لأبعد درجات الغدر والرياء أن تغير من رأيها شيئًا أو أن تخطر على بالها قط. لقد أخبرته، أخبرته

بكل شيء.. أخبرته بأنهما ليس لديهما أي أصحاب أو أقارب.. أنها هربت مع الرجل العجوز؛ كي تحميه من منزل أودى به إلى الجنون ومن المآسي التي خشاها.. أخبرته أنهما كانا يسافران الآن؛ كي تحميه من شرور نفسه.. وأنها تأمل اللجوء إلى أي مكان بعيد وبسيط، حيث لا تجد الفتن التي نالت منه سابقاً مدخلاً إليه، حيث لا يوجد لأحزانها وأهوالها وكرباتها الأخيرة مكانٌ.

سمع المعلم كلمات الطفلة مشدوهاً غارقاً في الذهول. تحدث إلى نفسه قائلاً: «هذه الطفلة! هل هذه الطفلة محفوفة بالأهوال والمخاطر وكل تلك الشكوك، وتكافح الفقر المدقع والمعاناة المستنزفة وحدها بمثابرة بطولية، ولا يدعمها شيء سوى العاطفة القوية ورجاحة الإدراك! حقاً! لا يزال العالم مليئاً ببطولة كهذه. ألم أكن قد تعلمت بعد، أن أقسى التجارب وأكربها محناً هي تلك التي لم تُورَّخ أبداً في أي سجل، ويعاني أصحابها يومياً! هل يجب عليّ أن أندesh لسماع قصة هذه الطفلة!».

وإن كثر فكره وزاد قوله، فلن يهتم. استخلص في النهاية أن نيل وجدّها يجب أن يرافقه إلى القرية، حيثما كان متجهًا، وأن لزاماً عليه أن يسعى ليجد لهما مسكناً بسيطاً، يمكنهما العيش فيه. قال المعلم في مودة جياشة: «من المؤكد أننا سننجح، إن الفكرة جيدة للغاية ولا يمكن أن تفشل».

رتبا للمضيّ قدماً في رحلتهم مساء اليوم التالي، فالعربة التي ستقطع جزءاً من مسافة طريق سفرهم نفسه، سوف تتوقف مساءً عند النزول؛ من

أجل تغيير الخيول، وحينها إذا ما دُفعت إكرامية بسيطة للسائق، سيجد لنيل مكاناً شاغراً في الداخل. حان الوقت، وسرعان ما أبرموا اتفاقاً مع السائق فور وصول العرب، منطلقين في الوقت المناسب. جلست الطفلة في الداخل، على المقاعد الأكثر نعومة، منعمة بالراحة، وجلس جدُّها والمعلم إلى جانب السائق، وخرجت مالكة النزل ومالك النزل وجميع الأشخاص الطيبين لتوديعهم، صائحين بتمنياتهم الطيبة.

يا لها من طريقة فاخرة مريحة هادئة مُنوعة للسفر! حيث تستلقي كأنك داخل جبل يتحرك في تودة، تستمع إلى رنين أجراس الخيول، ولسعات سوط السائق العرضية، وقعقة العجلات الكبيرة للعربة وهي تدور في سلاسة، وخشخشة السرج، وتمر ليالي المسافرين المبهجة أسرع مع قليل من سهيل الخيول الهادئ.. تجتمع السعادة كلها أسفل سقيفة سميكة، بدت مصممة خصيصاً لتمهد لها سبيلاً لاستمتاع مشجع على الخمول، إلى أن تنام المستظلة بها! تنام ولكن فكرة مبهمة تبقى داخل رأسها المهتز إلى الأمام والخلف على الوسادة، تُهدّد دون تعب يصيبها أو مشكلة تعكر صفو بالها، تستمع إلى كل تلك الأصوات الحالمة، فتستكين حواسها.. يتبع الغفوة استيقاظ هادئ بطيء، تجد نفسها تنو إلى ستارة تتطاير مع النسمات، نصف مفتوحة، ترى السماء اللامعة الباردة البعيدة، ونجومها المنيرة التي لا تعد ولا تحصى، وفي الأسفل، ترى فانوس السائق يتراقص كـ(فانوس جاك)^(١) على المستنقعات والأهوار، وعلى الجانب، ترى

(١) رمز لعيد القديسين.

أشجارًا مترافعة قاتمة، وفي الأمام ترى الطريق يرتفع ثم يرتفع ويرتفع أكثر، حتى يصل إلى نقطة عالية، تصور لها أن لا طريق بعدها، وأن ما بقي هو السماء.. تمر بنزل، يتوقفون عنده، يساعدونها للنزول من العربة، ومن ثمَّ تذهب إلى غرفة تدفئها النيران والشموع، تطرف عيناها كثيرًا، لكنها تنسجم مع إحساسها بأن الليلة كانت باردة، تتلف إلى الراحة مستشعرة أن الليلة باتت أكثر برودة مما كانت عليه! يا لرحلة العربة من رحلة ممتعة!

تستعد للرحيل مجددًا، مفعمةً بالنشاط، ولا تمر اللحظات حتى تمضي ناعسةً. تستيقظ من قيلولة عميقة، بسبب برق يخترق السماء كمذنب الطريق السريع، مع المصابيح البراقة وصوت الحوافر الصاخب، ورؤى حارس يقف إلى الخلف، ليبقي قدميه دافئتين، ورجل مغطى بالفرو، برق بصره، يبدو مخدرًا وحشيًا.. يتوقفون عند بوابة الرسوم، يجدون أن الرجل قد أوى بالفعل إلى فراشه، فيستمر الطرق على بابه، حتى يجيب من غرفة علوية صغيرة بصيحة مكتومة من تحت ملابس نومه، ثم يشتعل ضوء خافت، يدلف إلى الأسفل، يذهب الرجل مرتجفًا متدثرًا بغطاء الليل، ليفتح البوابة على مصراعيها، متمنيًا لو أن جميع العربات على الطريق لا تأتي إلا مع حلول الصباح.. تفصل اللسعات الباردة بين آخر الليل ووجه الصباح، ينتشر حيز اتساع الضوء في الأفق، يتبدل من الخيط الرمادي إلى الأبيض، ثم من الأبيض إلى الأصفر، ثم من الأصفر إلى الأحمر المتوهج.. يرتفع النهار، يجلب معه البهجة والحيوية كلها، يتواجد الرجال والخيول على الأرض المحروثة،

والطيور على الأشجار والأجمات، والصبية في الحقول المنزوية، يخيفونها بالخشخشات.. ويتبعه الوصول إلى المدينة، يتكدس الناس في الأسواق، تشغل الحناطير والعربات ساحة الحانة، يقف التجار على أبواب متاجرهم، يعرض الرجال الأحصنة للبيع جاعليها تركض ذهابًا وإيابًا أمام أعين الناظرين، تغوص الخنازير في الوحل وتنخر، تخرج ويتعلق في قوائمها خيوط قدرة، تجري إلى محلات العقاقير، فيطردها الصبية بالمكانس.. يغير سائقو الليل الخيول، يظهر الركاب غير مبتهجين، باردين، قبيحين، ساخطين، طال شعرهم، كمّن لبثوا الليلة الواحدة كأنها ثلاثة أشهر.. لكن سائقو العربات على النقيض منتعشين يبدون في هيئة جميلة وأنيقة.. يحدثون الكثير من الضجة، الكثير من التحركات، يمورون هنا وهناك، يفتعلون مجموعة متنوعة من الحوادث.. متى يمكن للمرء أن يجد رحلة فيها هذا الكم من المتع والمسرات، كرحلة في العربة!

في بعض الأحيان، كانت نيل تسير لمسافة ميل أو ميلين، حينما كان يجلس جدها في الداخل، أو يأخذ المعلم مكانها ليسترىح قليلًا، وقد لازمتها سعادة تامة، وصلوا إلى مدينة كبيرة، وتوقفت العربة لقضاء ليلتهم. مروا بكنيسة كبيرة، وفي شوارع يتكدس فيها عدد هائل من البيوت القديمة، مبنية من نوع ما من الطين أو من الجص، مخططة بخطوط سوداء عريضة، أكسبتها مظهرًا لافتًا وأكثر قدمًا، كانت أبوابها مقنطرة ومنخفضة، كان بعضها له رُتج بلوطية، ومصاطب غريبة، اعتاد أن يجلس عليها القاطنون السالفون في الأمسيات الصيفية. كانت

النوافذ مزينة بألواح زجاجية صغيرة لامعة، بدت كما لو كانت تطرف وتغمز للسابلة، براقه كما لو كانت عيناً أصابها العمى. اجتازوا مسافة طويلة من طريق سفرهم، وتخلصوا من الدخان والأفران، باستثناء مرة واحدة أو مرتين على حدة، رأوا مصنعاً راسخاً وسط الحقول، عاليًا وتعتليه النيران كبركان محترق. حينما عبروا تلك المدينة، وصلوا ثانية إلى ريف، وأمسوا يقتربون أكثر فأكثر من وجهتهم.

لم تكن بذلك القرب المتصور، لكنهم على أي حال، قضوا ليلة أخرى في الطريق، لا يعني أن القيام بذلك كان فعلًا ضروريًا، لكن المعلم حينما اقتربوا وكانوا على بعد أميال قليلة من قريته، شعر ببعض الحرج بسبب مظهره؛ لكونه معلمًا جديدًا، لم يرغب في الدخول إلى القرية، متعللاً حذاءً مغبرًا، مرتديًا ملابس غير مهندمة بسبب السفر. لقد كان صباحًا خريفياً صافياً، حينما وصلوا إلى مكان ترقيته، توقفوا لتأمل جماله.

صاح المعلم مبتهجًا، ولكن في صوت خافت: «انظري هنا! هذه هي الكنيسة، وهذا المبنى القديم المجاور لها، إنه مبنى المدرسة، يجب عليّ أن أذهب كي أؤدي القسم. خمسة وثلاثون جنيهاً سنوياً وفي هذا المكان الجميل!».

لقد أُعجبوا بكل شيء، الرواق الرمادي القديم، والنوافذ المحصنة بالقضبان العمودية، وشواهد القبور الجلييلة المنتشرة في الساحة الخضراء للكنيسة، والبرج العتيق، ودوارة الرياح، والأسقف البنية للأكوخ، وعلية الحظيرة، والمساكن التي تنبثق من بين الأشجار،

والتيارات المتدفقة من طاحونة المياه البعيدة، وجبال (ويلز) الزرقاء اللائحة في الأفق. لقد سئمت الطفلة أماكن الكد المظلمة البائسة، لكن أحلامًا تخص هذا المكان راودتها، على فراشها من الرماد، ووسط الفطائع الدنيئة التي أجبرت على خوضها خلال طريقها، راودتها رؤى عرضت لها مشاهد مماثلة -جميلة بالفعل، لكنها لم تكن أجمل من الواقع- حتى وإن كادت تتلاشى وتتباعد عن ذهنها مع طول المسافة وعتمتها، وإن قلت احتمالية رؤيتها لها، كانت في المرات التي تتذكرها، تزداد حبًا وتوقًا إليها أكثر فأكثر.

وبعد مدة، طال فيها تأملهم مبتهجين، كسر المعلم حاجز الصمت وقال: «يجب أن أترككما في مكان ما لبضع دقائق.. إن لديّ رسالة لتقديمها، وطلبات لأقوم بها، كما تعرفان. تُرى أين يمكن لي أن أصطحبكما؟ إلى نزل صغير بالجوار مثلاً؟».

ردت نيل: «دعنا ننتظر هنا. إن البوابة مفتوحة. سنجلس في رواق الكنيسة حتى تعود».

قال المعلم، وهو يتجه نحو الرواق: «إنه مكان جيد أيضًا». أنزل عن عاتقه حقييته، وضعها على مقعد حجري، وقال: «كونا متأكدين أنني حينما أعود إليكما، سأحمل أخبارًا سارة.. لن أغيب لوقت طويل!».

وهكذا، ارتدى المعلم زوجًا جديدًا أنيقًا ونظيفًا من القفازات، كان يحمله معه في لفافة صغيرة في جيبه طوال الطريق، ومضى سريعًا، مفعمًا بالنشاط والحماس.

راقبته الطفلة من الرواق، حتى غيبتة أوراق الأشجار المتشعبة عن ناظرها، خرجت تمشي الهوينى، بتؤدة ورفق إلى فناء الكنيسة القديم.. رصينة هادئة، لكن صوت خشخشة أوراق الشجر المتساقطة في مسارها التي تجرفها ملابسها المتدلية، جعل صوت وقع قدميها صامتًا، وبدا كأنه انتهاكٌ لصمتها. كان المكان روحانيًا عتيقًا، بُنيت الكنيسة قبل مئات السنين، يتبين أنه كان لها صلة ذات مرة بدير رهينة للربان أو الراهبات، فلا تزال أطلال الحوائط، وبقايا المشربيات، وجذيد الجدران السوداء قائمة.. بينما انهارت وسقطت أجزاء أخرى من المبنى القديم، ومن ثمّ دثرت في أرض فناء الكنيسة المعشوشب حيث نما عشبها في غزارة، كما لو كانت تطالب بمكان للدفن أيضًا، وتسعى إلى مزج رمادها مع رماد البشر. إلى جانب سنوات الموت التي تحملها شواهد القبور، وإعمار جزء من الخراب عن طريق استنزاف بعض الآلام لجعله صالحًا للسكنى في الأوقات المعاصرة، كان هناك مسكنان صغيران، نوافذهما غائرة، وباباهما من خشب البلوط، خاويان، يتحللان، يشيع فيهما العفن، مهجوران.

عند هذين المسكنين انصب انتباه الطفلة تمامًا وانحصر. لا تعرف لماذا! ربما تكون الانطباعات التي تخلفها الكنيسة والأطلال والقبور القديمة متشابهة - على الأقل - في أفكار الغرباء، لكن منذ الوهلة الأولى، التي استقرت فيها عينا الطفلة على هذين المسكنين، لم تستطع أن تحيد بصرها نحو أي شيء آخر. حتى بعد أن طافت في الحظيرة، وعادت إلى الرواق، جلست في تدبر منتظرة صديقها، واتخذت موضعها، ولا تزال تنظر إليهما، لقد شعرت كما لو أنها مسحورة بتلك البقعة.

الفصل السابع والأربعون

مضت والددة كيت والرجل الأعزب إلى المسار المنشود على عجل؛ خشية أن يكون التاريخ عارماً بالتقلبات، وخشية ترك مَنْ يسعيان إليهما محفوفين بأهوال الخطوب، تصارعهما حالة من عدم اليقين وتساورهما الشكوك.. سرعان ما رحلت والددة كيت والرجل الأعزب في عربة يجرها أربعة خيول من أمام باب بيت كاتب العدل - كما شهدناهما - وسرعان ما تركا المدينة خلفهما.

مضى القليل، ولم تعد المرأة الطيبة محرجة من مستجدات وضعها، لكن حالة الهلع التي كمنت في صدرها بسبب جايكوب الصغير أو الرضيع، أو كليهما معاً؛ خشية أن يصيبهما أي مكروه، أو أن تشتعل فيهما النيران، أو أن يسقطان من على الدرج، أو أن يحتجزان وراء الأبواب، أو أن يحرقان قصبتيهما الهوائية بماء مغلي، في محاولة منهما لريّ عطشهما شاربين من فوهات غلايات الشاي، كُبتت في صمت غير مريح، تلاقت عيناها مع أعين رجال بوابات الرسوم، وسائقي العربات العمومية، وغيرهم، حينها شعرت بمهابة جديدة لوضعها، بدت لنفسها

مثل شخص في حالة حِداد في جنازة، ليس منكوبًا بشدة لفقدان الراحلين، يتعرف على معارفه اليومية من نافذة عربة الحِداد، لكنه مقيد بالحفاظ على الجدية اللائقة بالحِداد، والظهور في حالة لا مبالية بجميع الأشياء الخارجية.

كي تظل غير مباليٍّ وأنت برفقة الرجل الأعزب، فمن الأخرى بك أن تكون متنعمًا بأعصاب فولاذية، فلا يبقى داخل العربة وقتما تتوقف، ولا يهدأ وقتما كانت الخيول تسحبها. هكذا كان الرجل الأعزب، لم يجلس أبدًا في الوضع نفسه لمدة دقيقتين متواصلتين، يحرك يديه ورجليه باستمرار ويطوِّح بهما، يسحب إطار النافذة إلى الأعلى، ويدعه يسقط بشدة فجأةً، يدفع رأسه إلى خارج نافذة، ثم سرعان ما يسحبها إلى الداخل، ليدفعها خارج النافذة الأخرى. حمل أيضًا في جيبه (علبة أعواد ثِقَاب) مجهولة للكل ولسبب مبهم غير معروف، وبمجرد أن أغمضت والدة كيت عينيها - كان متأكدًا من ذلك تمام التأكد - سحبها بحركة خاطفة، ثم صدر صوت خشخشة ثم أزيز، لقد كان الرجل الأعزب يختبر جودة ساعته بشعلة من النار، تاركًا الشرر يتساقط بين التبن، كما لو أن لا شيء يضاهي إمكانياته في شواء نفسه ووالدة كيت، وهما على قيد الحياة، قبل أن يتمكن سائقو العربة من إيقاف خيولهم. كلما توقفوا لتبديل الأحصنة أو الراحة، كلما كان يسارع إلى ساحة النزول دون أن ينتبه إلى خطواته أو أن يتمهل، ينطلق مثل سهم ناري مفرق، يخرج ساعته إلى جانب الضوء، وسرعان ما يضعها مرة أخرى، ناسيًا أن ينظر إليها، باختصار لقد ارتكب العديد من

الأمور المتطرفة المتهورة، جعلت والددة كيت تخاف من مغبة أفعاله. حينما تصبح الخيول مهيئة لاستكمال الرحلة مرة أخرى، يعود فاعراً فاه كالمهرج، ولا يسعهم أن يمضوا ميلاً واحداً، حتى يُخرج ساعته وعلبة أعواد الثقاب معاً، فتستيقظ والددة كيت فرعة، دون أمل في أن يغمض لها جفن مرة أخرى، أو حتى تُطرف عينها مع هذا الرجل.

بعد واحدة مناقب الرجل الأعزب، التف بحدة إلى والددة كيت وقال: «هل أنت مرتاحة؟».

- بالطبع يا سيدي.. شكراً لك.

- هل أنت متأكدة؟ ألا تشعرين بالبرد؟

قالت والددة كيت: «إلى حدٍّ ما يا سيدي».

صاح الرجل الأعزب، وهو ينزل أحد الألواح الزجاجية الأمامية: «علمت ذلك! إنها تريد بعضاً من الماء ونبذ البراندي! بالطبع إنها كذلك. كيف أنسى هذا الأمر؟ أيها الصاح! توقف عند النزول التالي، واطلب كأساً من نبذ البراندي الساخن والماء».

كان من غير المجدي بتاتاً أن تعترض والددة كيت على أنها في حاجة إلى شيء من هذا القبيل. فقد كان الرجل الأعزب متشدد الرأي عنيداً، حينما كاد يستنفذ جميع أنماط التعبير عن عدم راحته وملله، يخطر في باله بإصرار أن والددة كيت تريد نبذ البراندي والماء.

ظلا على هذا الحال طوال سفرهما حتى قارب الوقت منتصف الليل، فتوقفوا لتناول العشاء، حينها طلب الرجل الأعزب جميع الطعام

الصالح للأكل الذي اشتمل عليه النزل، ولأن والدته كيت لم تأكل كل شيء قُدِّم إليها، أخذ فعلها على محمل أنها مريضة، ودار في رأسه فكرة أن علة قد أصابتها بكل تأكيد.

قال الرجل الأعزب الذي لا يفعل أي شيء، سوى الحركة المفرطة، والمشى جيئةً وذهاباً في أنحاء المكان: «إنكِ واهنة! أستطيع أن أعرف أن بك علة، إنكِ واهنة وشاحبة».

- شكراً لاهتمامك يا سيدي! لكنني في الواقع لست كذلك.
- لا تكابري! أعرف تمامًا أنك كذلك. أنا متأكد. انتشلت سيدة مسكينة من بين أحضان أسرتها في لمح البصر، وتصبح واهنة أكثر فأكثر أمام عينيَّ مع مرور كل لحظة.. أي رفيق جيد أكون! قل لي، كم طفلاً لديك يا سيدتي؟
- اثنان يا سيدي بالإضافة إلى كيت.
- هل جميعهم أولاد يا سيدتي؟
- نعم يا سيدي.
- هل تم تعميدهم؟
- معمودية خاصة قصيرة إلى الآن يا سيدي.
- حسناً! أنا عرابهما من هذه اللحظة.. تذكرني هذا دائماً، إذا سمحت بالطبع يا سيدتي. يفضل أن تشربي بعض النبيذ الساخن.
- في الواقع، لا أستطيع أن أرتشف ولو قطرة يا سيدي.

قال الرجل الأعزب: «يجب عليك. أعلم أنك تريد ذلك.. كان يجب عليّ أن أفكر في هذا من قبل».

وفي الحال سارعت يده إلى الجرس، طالبًا نبيذًا ساخنًا بمحض السرعة وبشكل متهور، كما لو كان في حاجة ماسة إليه، لإفاقة غريق، أرغم الرجل العجوز والدة كيت على أن تتجرع كأسًا دهاقًا، ساخنة ملتهبةً، درجة حرارتها عالية، لدرجة أن الدموع تساقطت على وجنتيها، ثم زج بها في عجالة إلى العربة مرة أخرى، فبات من غير المستحيل بعد تأثير المهدئ المريح، أن تصبح غير مكترثة لأفعاله الماجنة أو حركته المفرطة، وتنام من فورها. لكن هذا لم يكن التأثير السعيد لهذه الوصفة ذات الفعالية المؤقتة، على الرغم من أن المسافة كانت أبعد، ووقت الرحلة كان أطول مما ظنه الرجل الأعزب، لم تستيقظ حتى يوم الوصول، ارتفعت أصوات الثرثرة على رصيف المدينة.

صاح رفيقها، وقد أنزل جميع أطر النوافذ: «هذا هو المكان! قدنا إلى معرض أعمال الشمع».

انصاع الحوذي الجالس على العربة في التو، لامسًا طرف قبعته، نخس حصانه بالمهماز؛ ليركض نحو الوجهة المقصودة، خبّت الأربعة خيول في طريقها ببراعة، مندفعة عبر الشوارع بضوضاء لفتت أنظار عدد غير قليل إليها، وإلى أبواب العربة ونوافذها، حاجبة الأصوات المنضبطة لدقات ساعات المدينة المعلننة أن الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً. اقتادتهم العربة حتى وصلوا إلى باب أحاط به الناس، وتكتلوا أمامه، وتوقفت.

قال الرجل الأعزب، دافعاً رأسه إلى الخارج: «ما هذا؟ هل هناك أمر ما؟».

صاحت أصوات عديدة: «إنه حفل زفاف أيها السيد، حفل زفاف، مرحى مرحى!».

ارتبك الرجل الأعزب حينما ترجل من العربة بمساعدة الحوذي، ثم ساعد والده كيت على النزول، ماداً إليها يده، ووجد نفسه في وسط حشود صاخبة، يتقافزون مهللين في مرح، وصار على مرأى ومسمع منهم وهم يصيحون: «إنه حفل زفاف آخر!».

قال الرجل الأعزب، وهو يخترق التكتلات المحتشدة مع العروسة المزعومة: «من الواضح أن العالم قد جُن جنونه، قفي هنا، ودعيني أترك الباب».

لطالما كان أي شيء مصدر للجلبة والصخب مُرضياً الجمهور. ارتفعت أيادٍ متسخة كثيرة مباشرة للطرق على الباب بدلاً منه، نادراً ما تجد لقارع باب مثل هذه القوة، أو تجده قد صمم ليصدر أصواتاً تؤدي إلى الصمم، كذلك القارع وفي هذه الحالة بالذات. بعد تقديم كافة الخدمات التطوعية، تقهقر الحشد إلى الوراء بشكل خجول، مفضلين ترك الرجل الأعزب يتحمل عواقب فعلهم بمفرده.

قال رجل ذو عقدة كبيرة بيضاء في قطبة العروة، وهو يفتح الباب في إطلالة غير مبالية للغاية: «ماذا تريد الآن أيها السيد؟».

قال الرجل الأعزب: «مَن كان يتزوج هنا يا صديقي؟».

- أنا!

- أنت! تتزوج من بحق الشيطان؟

رد العريس، وهو يرمقه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه: «بأي حق تسأل؟».

صاح الرجل الأعزب: «بأي حق!». جذب ذراع والدته كيت ناحيته، قابضاً عليها، كان من الواضح أن هذه المرأة الطيبة كانت على وشك الهروب: «حق تحلم به. اشهدوا أيها الناس الطيبون، إذا كان هذا الصباح يتزوج من قاصر.. لا لا هذا مستحيل. أين الطفلة، أين الطفلة التي معك هنا أيها الرفيق الطيب. تُدعى نيل. قل لي أين هي؟».

عندما طرح هذا السؤال، ثم رددته من بعده والدته كيت، سُمعت صيحة عالية من غرفة مجاورة، وأتت سيدة تهرول نحو الباب، مرتدية فستاناً أبيض، ثم احتمت بذراع العريس.

صاحت السيدة: «أين هي؟ ما الأخبار التي جئت بها إلى هنا؟ ماذا حدث لها؟».

تراجع الرجل الأعزب من مكانه، محدقاً في وجه السيدة جارلي التي أتت للتو بمظهر يختلط فيه الخوف بخيبة الأمل، تلتهمه الشكوك - يذكر أنها تزوجت هذا الصباح بجورج المتفلسف، ملقنين بالسيد سليم الشاعر في آلام القنوط والحقن الأبدي.

قال متلجلجاً في النهاية: «لقد.. لقد سألتكِ أين هي؟ فما الذي تقصدينه بكلامكِ؟».

صاحت العروس: «أوه! اسمع يا سيدي، إذا كنت قد أتيت إلى هنا لتفعل لها أي خير، فلماذا لم تكن هنا منذ أسبوع؟».

قال الشخص الذي وجهت إليه الكلام، وقد شحب وجهه وبهت: «إنها.. إنها ليست.. إنها لم تمت؟».

- لا! ليس الأمر بهذا السوء.

صاح الرجل الأعزب في وهن: «أشكرك يا رب! دعيني أدخل».

تراجعا إلى الخلف، سامحين له بالدخول، وأغلقا الباب.

قال، ملتفتاً إلى الزوجين حديثي الزواج: «أريد منكما أيها الزوجان الطيبان أن تعرفا، أن حياتي ليست عزيزة على نفسي، مثل حياة الشخصين الذي أسعى إليهما. إنهما لن يعرفاني، ملامحي غير مألوفة بالنسبة لهما، لكنهما إذا كانا هنا معاً أو أحد منهما، فخذني معك هذه السيدة الطيبة، ودعيهما يريانها أولاً؛ فكلاهما يعرفانها. إذا كنت تحببنيهما بسبب اعتبار مخطيء أو خوفاً عليهما، فاحكمي على نواياي فعلاً، بعد أن يتعرفا عليها، ويؤكدان على أنها صديقتهما الوديدة القديمة».

صاحت العروس: «لطالما قلت ذلك! لطالما عرفت أنها ليست طفلة عادية! للأسف يا سيدي! ليس بيدنا أي حيلة لمساعدتك، فإن كل ما في وسعنا، قمنا به بالفعل، لكن عبثاً وهباءً».

بعد هذا القول، آمنا له، وتحدثنا معه دون تمويه أو إخفاء، قالاً له كل ما عرفاه عن نيل وجدها، منذ لقاءهما الأول حتى اختفائهما المفاجئ، مضيفين أنهما قاما بكل الجهود الممكنة لتتبعهما -ذلك كان بالأمر

الصحيح تمامًا - لكن دون جدوى، وأنهما في بادئ الأمر، كانا في حالة زعر شديد، خوفًا على سلامتهما، إضافة إلى الشكوك التي ساورتهم، والارتياح الذي تمكن منهما؛ إزاء ما قد يتعرضان إليه من خطر في يوم واحد عقب رحيلهما المفاجئ. لقد أسهبا في التفكير طويلاً في بلاهة الرجل العجوز العقلية، وفي عدم الارتياح والقلق المتواصل الذي شهدته الطفلة دائماً، حينما كان يتغيّب مع رفقاءه الذين داوم على رفقتهم، وفي الاكتئاب المتزايد الذي تسلب إليها تدريجياً، وأمراضها صحياً ونفسياً على حد سواء. لا يعرفان إذا كانت قد افتقدت الرجل العجوز ليلاً، وكانت تعرف أو خمنت اتجاه خطواته، فخرجت تسعى إليه، أم إذا كانا قد غادرا المنزل معاً، لم يكن لديهما دليل حاسم. بات من المؤكد بالنسبة إليهما أن احتمالية السماع عنها أو رؤيتهما مرة أخرى، قد تلاشت، وأن رحيلهما سواء كانت بدايته الرجل العجوز أو الطفلة، هو رحيل أبدي، ولا يوجد أي أمل لعودتهما.. استمع الرجل الأعزب إلى كل هذا، محبطاً يغمره الغم والأسى. وقد ذرف دموعاً لا نهاية لها، حينما تحدثا عن الجسد، وبدا كأن الألم قد انتزع قلبه.

دون إطالة في هذه الجزئية من روايتنا، واختصاراً لقصة طويلة، دعوها تُكتب بإيجاز.. قبل انتهاء لقاءهما، اعتبر الرجل الأعزب أن ما قيل له هو الحقيقة الكاملة مستدلاً بالبراهين الكافية، وقد أصر على مجازاة العروس والعريس خيراً؛ اعترافاً بلطفهما مع الطفلة يتيمة الأصدقاء، لكنهما على أي حال رفضا قبول ذلك. في النهاية، رحل الزوجان السعيدين في عربة كبيرة؛ ذاهبين في نزعة إلى الريف لقضاء

شهر العسل، بينما وقف الرجل الأعزب ووالدة كيت أمام باب العربة،
يغمرهما الحزن.

قال الحوذي: «إلى أين سنذهب يا سيدي؟».

قال الرجل الأعزب: «من الممكن أن تقودني إلى.. تقودني إلى...».
لم يكن سيضيف قائلاً: «النزل». لكنه قال ذلك من أجل والدته كيت، لذا
ذهبوا إلى النزل.

سرعان ما انتشرت الإشاعات في الساحات وترددت، أفادت أن
الفتاة الصغيرة التي كانت تعرض أعمال الشمع، ابنة أناس عظماء،
وأنها اختُطفَت من والديها منذ كانت في المهد، وأنهما يبحثان عنها
الآن ويقتنيان أثرها. شاعت الآراء، وانقسمت حول ما إذا كانت ابنة
أمير، أم دوق، أم إيرل، أم فيكونت، أم بارون، لكن الجميع اتفقوا وأقروا
بصحة رأي واحد، وهو أن الرجل الأعزب هو والدها.. وتهافتوا جميعاً
ليلقوا نظرة عليه، على الرغم من أن أنفه النبيل هو الشيء الوحيد الذي
كان مرئياً للعيان، بينما كان جالساً في عربته التي تجرها أربعة خيول.

تُرى أي مقابل كان من الممكن أن يُقدم، وأي غم كان من الممكن
أن ينكشف عنه، إذا ما عرف أن الطفلة والجد في تلك اللحظة كانا
يجلسان في رواق الكنيسة في صبر، منتظرين عودة المعلم!



الفصل الثامن والأربعون

راجت الشائعات بين الناس، وانتقلت من شخص إلى آخر، وصار خبر الرجل الأعزب ومهمته مشاعاً على ألسنة الناس، يتناقلونه فيما بينهم في سرعة خارقة -ربما لم تشبه هذه الشائعة أي شائعة أخرى، عكس ما ذكر في المثل الذي يذهب إلى أن الحجر غير الراكد، لا يُكسى بالطحلب؛ لأنه في الواقع قد جمع الكثير من الطحالب أثناء طوافه - بمجرد أن ترجل الرجل الأعزب أمام باب النزل، تطلعوا إليه في مشهد حماسي فائن، كان كافياً جداً لإثارة الإعجاب، اجتمعت حشود كبيرة من العاطلين عن العمل، ممن سُرحوا بعد إغلاق معرض أعمال الشمع وإتمام مراسم الزواج، معتبرين أن وصوله ليس إلّا جزءاً من عناية إلهية وسعت كل شيء، مشيدين بقدومه مهللين فرحين، تغمرهم بغتة فرحة شاملة.

لم يكن هذا الإحساس العام ينتاب كافة الموجودين؛ فقد شاع الاكتئاب في نفس أحدهم، وساء به الحال وأمسى منكسراً من الحزن، شاردًا في خيبة أمله، صامتاً منزوياً على نفسه، ترجل الرجل الأعزب من

العربة، ومد يده للحوذي في أدب مغتم، إلا أنه أثار إعجاب الناظرين بشدة. مد إليها ذراعه لتستند عليها، ومن ثمّ تأبط ذراعها، ورافقها إلى النزل، بينما هرول العديد من الندل النشطاء أمامهما كما لو كانوا فريق مناوشات؛ يفسحون لهما الطريق، ويرشدونهما نحو الغرفة المجهزة لاستقبالهما.

قال الرجل الأعزب: «ستؤدي أي غرفة الغرض، احرص على أن تكون قريبة فقط، هذا كل شيء».

- إنها بالقرب من هنا يا سيدي، تفضل معي في هذا الطريق.

* * *

بينما كانا على أول الدرج، تردد صوت شخص، على مقربة من الباب، يقول: «هل الغرفة نالت إعجاب السيد النبيل؟». ثم فُتح الباب لوقتته، واندس منه رأس، وقال صاحبها: «إنه مرحب به كالزهور في شهر مايو، كالفتح في عيد الميلاد المجيد. هل أعجبت بالغرفة يا سيدي؟ اجعلني أنال شرف الدخول. قدّم إليّ معروفًا يا سيدي، واسمح لي».

صاحت والدّة كيت، متراجعة في صدمة شديدة: «ارحمني يا رب! من هذا!».

من المؤكد أن لديها سببًا ليجتاحها الذهول بهذا الشكل، ذلك لأنّ من أتى مُقدّمًا ترحيبًا كريمًا، لم يكن سوى دانيال كويليب. كان الباب الذي أقحم منه رأسه قريبًا جدًّا من حافظ اللحوم، وبينما كان يقف منحنيًا في أدب غير معتاد، غريبًا تمامًا عنه، مقدّمًا على فعله بكل

ارتياح، كأن هذا الباب باب منزله الخاص، فسد لحم الضأن والدجاج البارد كله، كأنه شبيه روح شيطانية شريرة تسكن الأقبية، تأتي من تحت الأرض لتلحق الأذى.

قال كويليب: «هل ستجعلني أنال هذا الشرف يا سيدي؟».

رد الرجل الأعزب: «أفضل البقاء بمفردي».

قال كويليب: «أوه!». ثم اندفع إلى الخارج مرة أخرى على نحو عنيف، صافعاً الباب الصغير بصوت مدوّ، كالذي يصدر من جوف الساعة الهولندية عندما تدق.

همست والددة كيت: «كيف وصل إلى هنا، لقد تركته في الكنيسة الصغيرة ليلة أمس يا سيدي!». «».

قال رفيق سفرها: «فعلاً! أيها النادل، متى جاء هذا الشخص إلى هنا؟».

- لقد أتى في العربة الليلية هذا الصباح يا سيدي.

- أوف! ومتى سيرحل؟

- لا أستطيع أن أجيبك بمعلومة مؤكدة يا سيدي. حينما سألته مسؤولة خدمة الغرف يا سيدي، عما إذا كان يريد سريرًا، لوى قسمات وجهه بأشكال غريبة، وأراد تقبيلها.

قال الرجل الأعزب: «استدعه كي يأتي إلى هنا. أخبره أنني سأكون ممتنًا، إذا تبادلنا أطراف الحديث معًا. استدعه ليأتي في الحال، أكلامي مسموع؟».

حذق الرجل مليًا وبإمعان تام، طوال تلقيه تلك التعليمات؛ لأن الرجل الأعزب لم يكن مذهولًا كما كانت والدته كيت فور رؤية القزم فقط، بل وقف دون أي خوف منه، ممتعًا يصارع آلامًا، لإخفاء كراهيته ونفوره. على أي حال، غادر منصاعًا، وعاد على الفور، يقتاد من أمر بإحضاره.

قال القزم: «خادمك يا سيدي.. لقد قابلت رسولك في منتصف الطريق. فقد ظننت أنك ستقبل تحياتي في آخر المطاف. أتمنى أن تكون في حال جيد. أتمنى أن تكون في أفضل حال».

ساد الصمت لوهلة، ظل خلالها القزم واقفًا في صمت، وقد تغضن جبينه، وضاعت عيناه، في انتظار الرد. ودون تلقيه أي رد، التفت لتوه نحو معارفه المألوفة.

صاح: «أوه! والدته كريستوفر نفسها! يا لك من سيدة عزيزة! امرأة فاضلة، أنعمت بابنها الأمين! كيف حال أم كريستوفر؟ هل حسن تغير الهواء والمناظر من حالتها؟ كيف حال عائلتها الصغيرة أيضًا؟ وكريستوفر بالأخص؟ هل هم منعمون؟ هل هم مكرمون؟ هل يُنشؤون على أن يكونوا مواطنين صالحين؟».

حينما تحدث السيد كويليب كان يرفع صوته تدريجيًا مع كل سؤال متتال، لدرجة أنه حينما أنهى حديثه كان صوته أشبه بصوت نعيق حاد، وبدا وجهه في مظهر لهائه المعتاد، سواء أكان ذلك مظهره الطبيعي أم مظهرًا متكلفًا، كان التأثير سيان في محو كافة تعبيرات وجهه، بالدرجة التي جعلت وجهه خاليًا تمامًا من أي دلالة على مزاجه أو حالته.

قال الرجل الأعزب: «يا سيد كويليب!».

وضع القزم يده خلف أذنه الطويلة المرفرفة؛ متظاهراً بالانتباه الشديد.

- تقابلنا نحن الاثنان من قبل...

صاح كويليب، وأوماً برأسه: «بالتأكيد! أوه! لقد تقابلنا بكل تأكيد يا سيدي. ولي كل الشرف والامتنان.. كلاهما، يا أم كريستوفر، كلاهما.. الشرف والامتنان.. لا يجب نسيانهما بهذه السرعة، تحت أي ظرف من الظروف!».

- ربما تتذكر ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى لندن، ووجدت المنزل الذي ذهبت إليه، خاليًا ومهجورًا، ووجهني إليك بعض الجيران، ومن ثمَّ انتظرتك دون كلل أو توقف للراحة أو تناول أي وجبة خفيفة؟ قال كويليب، متشاورًا مع نفسه، في فعل أشبه بمحاكاة حديثه مع صديقه سامبسون براس: «كم كان ذلك فعلاً اندفاعيًا، ومع ذلك يا له من إجراء جاد مفعم بالحيوية!».

قال الرجل الأعزب: «ووجدتك على نحو غير مسؤول حائزًا بالكلية على ممتلكات كانت مؤخرًا لرجل آخر، وكان يُنظر إلى هذا الرجل الآخر قبل وقت استحواذك على ممتلكاته، على أنه رجل ثري، وفي لمح البصر، تدهور به الحال ليمضي شحاذًا، ويطرد من بيته وموطنه».

رد كويليب قائلاً: «إن لدينا مذكرة تثبت حالة ما فعلناه، أيها السيد الجيد.. هاه! إن لدينا مذكرة تثبت أحقية ما فعلناه. فلا تقل: إننا أرغمناه

على فعله. لقد رحل من تلقاء نفسه.. اختفى في الليل يا سيدي».

قال الرجل الأعزب حائقًا من شدة غضبه: «لا يهم! ما يهم الآن أنه رحل».

قال كويليب في نفس رباطة الجأش الساخرة: «نعم، لقد رحل. لقد رحل دون أدنى شك. لكن السؤال الذي طُرح في ذلك الوقت، ولا يزال مطروحًا حتى وقتنا الحالي.. إلى أين رحل؟».

قال الرجل الأعزب مظهرًا احترام شديد له: «ما أتعجب منه الآن، أن مَنْ كان حينها نافرًا بكل وضوح، لا يريد الإدلاء بأي معلومات.. بتاتًا.. ويتهرب بمنتهى الشفافية، مستندًا إلى كل أساليب المكر والخداع.. يلاحق خطواتي الآن؟».

صاح كويليب: «أنا ألاحقك!».

رد سائله، وهو تجتاحه حالة من القلق الشديد: «نعم! أأست كذلك! ألم تكن على بعد ستين ميلًا منذ سويغات قليلة، في الكنيسة التي تؤدي فيها هذه السيدة الصالحة صلواتها؟».

قال كويليب، ولا يزال في ثبات تام، دون أن يحرك طرفًا: «هل كانت هناك أيضًا؟ حريٌّ بي أن أقول، دون أدنى قصد مني أن أكون فظًا، لماذا لا يكون أنت مَنْ يلاحق خطواتي! نعم، لقد كنت في الكنيسة. ما الذي يفيد ذلك! ماذا بعد! لقد قرأت في الكتب التي كان يستخدمها المسافرون قبل أن ينطلقوا في رحلاتهم، أنهم يذهبون إلى الكنيسة، للتوسل وتقديم الصلوات من أجل عودتهم

سالمين. رجال حكماء! الرحلات محفوفة بالمخاطر.. خاصة خارج
العربة. ربما تنحرف العجلات، فيثور دعر الخيول، ويقود الحوذي
العربة على نحو متهور، وتنقلب العربة. دائماً ما أذهب إلى الكنيسة
قبل أي رحلة سفر، في الواقع.. إنه آخر إجراء أتخذه في مثل هذه
المناسبات».

ما كان واقعياً فعلاً، أن كويليب كذب في حديثه، وفي كل ما ادعاه
في حماسة متفاقمة، فلم يكن حديثه بحاجة إلى دهاء بالغ كي يُكتشف
كذبه، على الرغم من أنه قد عانى كثيراً، لئلا يُفتضح أمره ويتكشف عن
طريق صوته، أو ملامح وجهه، أو حركات جسده، ربما بدا كأنه متشبث
بالحقيقة في ثبات مشهود.

قال الرجل الأعزب التعيس: «إن كل هذا يقودني إلى الجنون يا
رجل! ألا تأخذ مهمتي على عاتقك بشكل مبالغ فيه، لسبب خاص بك؟
ألا تعرف السبب الرئيس الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا! ألا تعرف
في صحبة مَنْ جئت إلى هنا! إذا كنت لا تعرف حقاً، هل يمكنك ألا
تُلقي الضوء عليه؟».

هز كويليب كتفيه، ورد مستهجنًا: «هل تراني مشعوذاً يا سيدي!
لأنني إذا كنت كذلك، ربما أعرف الغيب، وأعرف طريق صنع
ثروتي».

رد الآخر، مرتعياً على الأريكة نافد الصبر: «آه! أحسب أننا قلنا ما
احتجنا إلى قوله، لذا حباً في الرب، اتركنا وشأننا، إذا سمحت».

قال كويليب: «عن طيب خاطر، وبكل امتنان.. يا أم كريستوفر!
لك مني خالص تحياتي.. وداعاً! رحلة ممتعة.. رحلة عودة ممتعة أيها
السيد.. احم!».

مع كلمات الوداع تلك، وبابتسامة اعتلت وجهه من غير الممكن
وصفها البتة، لكنها -على نحو تقريبي- بدت كمفاومة لكل كُشْر
الوحوش التي من الممكن أن يقلدها البشر أو القردة، رجع القزم بتوانٍ
رهيب، وأغلق الباب خلفه.

عاد إلى غرفته، جلس على الكرسي، واضعاً يديه على خصره وقال:
«مرحي.. مرحي! هل أنت هناك يا صديقي؟ فعلاً!».

يغالي في الضحك، تنفرج شفتاه في سعادة عارمة، يعوض نفسه
عن تسخير وجهه من أجل رسم ملامح ضبط النفس الذي لازمه مؤخراً،
يلوي قسمات وجهه، راسماً على وجهه أكثر التعبيرات التي يمكن
تصورها قبلاً، يهز نفسه في الكرسي إلى الأمام والخلف، ويحتضن
ساقه اليسرى في الآن ذاته، غارقاً في تأملات، قد تبدو ضرورية لربط
فحوى الأمور ومرباها.

أولاً، استعرض لفترة وجيزة كافة الظروف التي قادت به إلى تلك
البقعة بالتحديد. منذ أن قصد مكتب السيد براس مساء أمس، في غياب
هذا الرجل النبيل وشقيقته المتعلمة، وانفرد بلقاء السيد سوفييلر، الذي
تصادف أن كان يتجرع في اللحظة نفسها كأساً من نبيذ الجين الساخن
والماء في رحاب القانون، لكن الحال الذي كان عليه يبين فرط قيامه
بري نفسه، وكمخلوق من طين يروي نفسه بالمسكرات، ويفرط فيها،

لا يسعه سوى أن يصبح ليناً هشاً، غير متماسك ضعيفاً، ينهار في أماكن غير متوقعة، وينزلق، يحافظ على شكله ولكن بصورة مائعة، لا يُظهر أي قوة أو صلابة، لذا راح السيد سوفييلر -المخلوق الطيني- بعد أن أفرط في الشرب، في حالة مرتخية زلقة، لدرجة أن الأفكار الكثيرة التي كانت تهيمن على عقله، باتت فوضوية وخسرت استقلاليتها، وتداخلت ببعضها. لم يكن من غير الشائع بالنسبة للمخلوق الطيني في هذه الحالة -كي يللم شتات نفسه، ويعلي من شأنه في خضم تلك التدايعات- أن يعتمد اعتماداً كلياً على إبراز تبصره وحصافته، والسيد سوفييلر.. كان أكثر من يُقدّر تمكنه في هذا الصدد، لذا بعبارات كثيرة، انتهز الفرصة ليتحدث عن اكتشافاته الذاتية الغريبة الخاصة بالرجل الأعزب القاطن بالأعلى، متلاعباً بالكلمات، معقّباً أن لسانه لن ينزلق بالأسرار، وأنه سيحتفظ بتلك الاكتشافات داخل قرارة نفسه، ولن ينسب بنت شفة، ولو عذبه أو حرضه أو حتى داهنوه. أمام هذا التصميم، أعرب السيد كويليب عن أقصى درجات موافقته له، وفي الآن ذاته قام بتحفيز السيد سوفييلر لما هو على النقيض تماماً من ذلك، دافعاً إياه للبوّح بالمزيد من التلميحات، ولم يمضِ الكثير، حتى أذاع أن الرجل الأعزب قد شوهد على اتصال بكيت، وأن هذا هو السر الذي لن يبوح به أبداً.

فور إلمامه بتلك المعلومة، استنبط كويليب مباشرة أن الرجل الأعزب الساكن أعلى الدرج، هو الشخص نفسه الذي انتظره سابقاً، وبمجرد أن أكد لنفسه صحة استنباطه بطرحه المزيد من الاستفسارات، فلم يكن من العسير مطلقاً أن يصل في النهاية إلى استنتاج مفاده أن

غاية وهدف اتصاليه بكيه محوره سيده القديم والطفلة. حينها داهمه الفضول الشديد كنار متأججة في صدره؛ يريد أن يعرف الإجراءات التي سيتخذها، فقرر أن يسرع إلى والده كيته؛ باعتبارها أقل الأشخاص قدرة على مقاومة مهاراته في الخبث، وأسهل من يمكن خداعها لتبوح بما تعرف، فسرعان ما يصل إلى مسعاه.. وهكذا، غادر متعجلاً، تاركاً السيد سويفلر، وهروول من فوره إلى بيتها. حينما وصل، كانت المرأة الطيبة خارج المنزل، استفسر من جارتها - كما فعل كيت نفسه بعد ذلك بوقت قصير - ومن ثمّ اتجه إلى الكنيسة، ليتربص بها، بعد الانتهاء من صلاتها.

لم يتعد جلوسه في الكنيسة ربع الساعة، كان خلالها مثبّتاً ناظريه على السقف، لكنه ضاحك متهمك في داخل قرارة نفسه على مزحة وجوده هناك، حتى ظهر كيت نفسه. وب نظرة خاطفة، وفي يقظة حيوان الوشق، استدلل القزم على أن كيت جاء من أجل مهمة ما. كما شاهدناه في وضع ثابت، وفي مظهر غير مكترث البتة، متظاهراً بتعبير مجرد، كان على مرأى من كل تفصيلة في سلوك كيت، وحينما انسحب مع عائلته، انطلق خلفه. وظل يتتبعهم، حتى وصلوا في النهاية إلى منزل كاتب العدل.. علم بوجهة العربة من أحد الحوذين، وعلم أيضاً أن عربة الليل السريعة ستنتقل من المكان نفسه، ودون أي توائن، وفي خضم تلك الأمور، وفي الساعة نفسها، انطلق مباشرة إلى مكتب العربات دون إثارة الكثير من اللغط، حاجزاً مقعداً له على السطح. بعد الانتقالات والتنقلات، والمرور بعربته مرات ومرات، أو حدوث العكس في

مختلف الأوقات، بسبب اختلاف طول وقصر فترات التوقف، أو السرعات، وصلاً إلى المدينة في الآن ذاته تقريباً. راقب كويليب عربته عن كثب، اختلط بالعامية ممن أثاروا جلبية الشائعات، علم بسبب وجود الرجل الأعزب ومهمته التي يسعى وراءها، وفشله في مسعاه، وبعد أن صار على معرفة بكافة الأمور، أسرع، ووصل إلى النزل قبله، ومن ثم أجرى المقابلة التي لم يفت عليها لحظات وذكّرت مفصلة، ذهب ومن ثم ارتكن إلى الغرفة الصغيرة، التي استعرض فيها سريعاً الأحداث كافة. قال مكرراً، وهو يقضم أظافره في نهم وحماس: «أنت هناك.. أليس كذلك يا صديقي؟ أمسيت مشتتاً به، ونُحيت جانباً، أظن أن كيت هو الوكيل السري.. أليس كذلك؟ أخشى أنه يجب التخلص منه. إذا كنا تواصلنا معهم هذا الصباح..». وقف لوهلة مفكراً وقال: «..لقد كنت على وشك إثبات ادعاء جيد. كنت على وشك تحقيق ربحي. لكنّ هؤلاء المنافقين الكادحين، الصبي وأمه.. يجب أن أستدرج هذا الرجل الأعزب المنفعل إلى عشي مثل صديقنا العجوز.. مثل صديقنا المُشترَك العجوز، ها ها ها! ونيل ذات القوام الممشوق، ذات البشرة الوردية. في أسوأ الأحوال، ستكون فرصة ذهبية، لا يمكن إضاعتها. دعنا نعرّ عليهم أولاً، وبعدها سأجد طرقاً وثغرات استنزف بها أموالك المفرطة يا سيدي، بينما تتوفر قضبان السجن ومزاليجه وأقفاله، لتحفظ صديقك هذا وتصونه في أمان تام». دهق كأساً من نبيذ البراندي، وقال وهو يمتط شفتيه: «كم أكره أناسك الأعفاء متبعي الفضائل. آه! كم أكرههم جميعاً!».

لم يكن هذا ادعاءً فارغاً، بل نبأً متعمداً يعبر عن مشاعره الحقيقية.. بالنسبة إلى السيد كويليب، الذي لم يحب أحداً قط، صار شيئاً فشيئاً يكره تقريباً كل مَنْ كان دانيّاً أو قاصياً أو على صلة قريبة أو بعيدة بعمله المفلس.. لقد كره الرجل العجوز نفسه؛ لأنه تمكن من خداعه ومراوغته وتملص من يقظته.. والطفلة، لأنها كانت سبب تبكيت وإشفاق السيدة كويليب المستمر.. والرجل الأعزب، بسبب نفوره واشمئزازه الذاتي منه.. وكيت ووالدته -على نحو بشع- بسبب ما ذكر أنفأ. وعلاوة على ذلك سيادة الشعور العام بمناهضته لهم، الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ من رغبته النهمّة في إثراء نفسه مستغلاً تلك الظروف المتغيرة، لقد كرههم دانيال كويليب جميعاً حقاً، لقد كره كل واحد منهم.

في هذا المزاج اللطيف، أفعم السيد كويليب نفسه بالحيوية، وأنشأها بالكراهية، وتجرع المزيد من نبيذ البراندي، غيّر مكان مجلسه، وانسل إلى حانة مغمورة؛ يستجوب الجميع بطرق مأكرة ملتوية، مستفسراً بكل الطرق الممكنة عن أي معلومة من الممكن أن ترشده إلى العثور على الرجل العجوز وحفيده. لكن كل ذلك راح سدى. لم يتمكن من الوصول إلى أي أثر أو دليل.. لقد غادرا المدينة ليلاً، لم يرهما أي أحد، لم يقابلهما على الطريق أحد، لم يتعرف أي حوذي عربة أو حنطور أو أي مسافر على وصفهما، لم يختلط بهما أحد، ولم يسمع عنهما أي أحد. اقتنع أخيراً أن محاولاته في الوقت الحاضر ميؤوس منها تماماً، لذا كلّف اثنين أو ثلاثة نوافض؛ يتجسسون على الطريق، يبعثون له بأي معلومة، وغمرهم بالوعود بمكافآت كبيرة في

حال إرسالهم له أي معلومة، ثم عاد إلى لندن في عربة اليوم التالي .

كان من دواعي سرور السيد كويليب، حينما اتخذ مكانه في العربة على السطح، أن يجد والدته كيت، تجلس بمفردها داخلها، لذا بسبب كونها بمفردها، إضافة إلى السعادة الروحية التي استمدتها في غضون الرحلة، تمكّن من إمطارها بسيل من الترويع والمضايقات غير المألوفة للبشر.. على سبيل المثال كان يميل على جانب العربة رأسًا على عقب، مغامرًا بحياته، يحملق إليها بعينين جاحظتين، بدّوا أكثر رعبًا من وجهه المقلوب، يراوغها من شباك إلى آخر وبالوضع نفسه، ينزل برشاقة وسرعة وقتما قاموا بتغيير الخيول، كي يقحم رأسه من النافذة أحول العينين وينظر إليها شزّرًا، فتتنفض السيدة نابلز مروعة، وترزح تحت تأثير عذاب مرير، لدرجة جعلتها غير قادرة البتة على مقاومة إيمانها بأن ما فعله السيد كويليب بذاته ما هو إلا تمثيل وتجسيد لنزغات شيطانية كالتى كان تُحجّم بالقوة في الكنيسة الصغيرة، وأن قوى الشيطان عادت بسبب ترديها وذهابها إلى سيرك أسلي وأكلها للمحار، وصارت طليقة منتشرة.

بعد أن أبلغ كيت برسالة مفادها عودة والدته، ذهب لانتظارها في مكتب العربات، وقد كان ذهوله عارمًا؛ فور رؤيته لشيطان مألوف ينظر شزّرًا متلفئًا وراء الحودوي، غير مرئي لأعين الجميع باستثناء عينيه.. إنه الوجه المعروف لكويليب.

قال القزم بصوت أشبه بالنعيق من سطح العربة: «كيف حالك يا كريستوفر؟ كل شيء على ما يرام يا كريستوفر، إن أمك في الداخل».

همس كريستوفر: «لماذا وكيف أتى إلى هنا يا أمي؟».

ردت السيدة نابلز، وهي تترجل من العربة بمساعدة ابنها: «لا أعرف كيف جاء أو لماذا يا عزيزي.. لقد خارت قواي وتجمدت أوصالي وكدت أن أفقد حواسي السبع في هذا اليوم المبارك».

صاح كيت: «هل هو السبب؟».

ردت والدته: «لن تصدق، لن تصدق بتاتاً.. لا توجه إليه أي كلمة، أنا لا أصدق أنه بشر مثلنا. صه صه! لا تلتفت، كما لو كنت أتحدث عنه بالفعل.. إن عينيه تقدحان شرراً، إنه يحدق في وجهي بأعين مستعرة كفانوس العربة.. إن هذا مرعب شنيع حقاً!».

على الرغم من أمر والدته له، استدار كيت من فوره لينظر إليه. حينها كان السيد كويليب يرنو في هدوء وسكينة إلى النجوم، هائماً في تأمل السماء.

صاحت السيدة نابلز: «أوه! إنه أكثر المخلوقات حدقا.. على كل حال، هيا بنا، ولا تتحدث إليه قط».

- حاضر يا أمي، سأفعل ذلك.

تأثر السيد كويليب في البداية، لكنه سرعان ما نظر حوله مبتسماً.

قال كيت: «هل يمكنك أن تترك أمي وشأنها! هلاً تفعل ذلك؟ كيف تجرؤ على مضايقة امرأة مسكينة مثلها، وتدفعها إلى القلق والارتباب، كما لو لم يكن لديها ما يكفي ليثقلها همّاً، غيرك. ألا تخجل من نفسك أيها الوحش الضئيل؟».

قال كويليب في باله مبتسمًا: «وحش! ألم أكن القزم الأكثر قبحًا ممَّن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد.. صرت وحشًا.. آه! يا للزمن العجيب».

أكمل كيت، وهو يحمل الصندوق على كتفه: «إذا أظهرت لها أيًا من أفعالك الوقحة مرة أخرى.. اسمعني يا سيد كويليب، أنا لن أخوض ثانية في هذا الكلام بعد الآن. لكنك ليس لديك أي حق لتفعل ذلك، إننا لا نتدخل في شؤونك، ولا نريد أن نتعامل معك من الأساس، ولن نفعل قط! وليست هذه المرة الأولى لفعلك القبيح، لذا إذا أظهرت لها أيًا من أفعالك الوقحة، أو أثرت ذعرها أو قلقها مرة أخرى، ستضطرنني إلى ضربك بعنف، وسأكون أسفًا على إبراهيمك ضربًا، بسبب حجمك الضئيل».

لم يتفوه كويليب بأي كلمة، لكنه مشى على مقربة من كيت لدرجة أن عينيه كانتا على مسافة بوصتين أو ثلاث بوصات من وجهه، ينظر إليه بثبات دون أن يطرف له جفن، ثم ابتعد لمسافة دانية دون أن يحيد ببصره، ثم اقترب منه مرة أخرى، ثم ابتعد، وداوم على فعله لنصف دسنة من المرات، مثل رأس وهمي شبحي. وقف كيت في مكانه متأهبًا لأي هجوم فوري، لكنه لم يستقبل أي مردود بعد تلك الإيماءات، مجرد أن طقطق أصابعه ثم رحل، اقتادته والدته من فورها بأسرع ما يمكنها، لكنها حتى وإن كانت في خضم الحديث عن أحوال جايكوب الصغير والرضيع، كانت لا تزال تتلفت حولها في ارتياب؛ لتعرف ما إذا كان كويليب يتبعهما.

الفصل التاسع والأربعون

ربما بعد وقت طويل، وفرت والدة كيت على نفسها عناء النظر إلى الخلف، فلم يكن هناك أبعد من نية السيد كويليب في مطاردتهما، أو اللحاق بها هي وابنها، أو حتى استئناف الشجار الذي تجنبا به مبتعدين. مضى في طريقه، يصفر من وقت إلى آخر، يتغنى ببعض الألحان، بوجه هادئ ورباطة جأش غير متناهية الثبات، يمشي مهرولاً إلى بيته، يتمتع نفسه برؤية مخاوف وهلع السيدة كويليب، التي لم تسمع عنه أي خبر لمدة ثلاثة أيام وليلتين كاملتين، دون إخطار مسبق أو تنبيه عن غيابه، متخيلاً كم أدى ذلك إلى ارتباكها وهلعها، وتسبب في إصابتها بنوبات إغماء مستمرة، وأطاح بها في قلق وحزن واضطراب.

كانت تلك الاحتمالية طريفة ومفعمة بروح الدعابة، ملائمة تماماً لحس القزم الفكاهي، ومسلية له لأبعد الحدود، سار ضاحكاً مقهقهة حتى سالت دموع عينيه على وجنتيه، لأكثر من مرة، حينما كان يجد نفسه في شارع جانبي، يعبر عن سعادته بصرخة مدوية، ينتفض لها ويفزع كل مار بمفرده، فيسير أمامه ساكن النفس، منعماً نفسه بالحيوية والسرور لمظهرهم المذعور، ويزداد مرحة، ويكمل سيره سعيداً مبتهجاً بشكل ملحوظ.

في هذه الحالة من دقائق السعادة التي غمرت روحه، وصل السيد كويليب إلى تاور هيل، حينما رشق ببصره في نافذة غرفة الجلوس في منزله، وجد ضوءاً يشع منها على غير المعتاد في منزله الكئيب. اقترب في توانٍ، واسترق السمع في اهتمام بالغ، حتى تمكن من سماع عدة أصوات تتبادل أطراف الحديث في جدية، حينها لم يستطع تمييز صوت زوجته وحماته فحسب، بل ميز أصوات ألسنة رجال.

صاح القزم الغيور: «ها! ما هذا! هل تستقبلان زواراً وقتما أكون بالخارج!».

أتى الرد على هيئة سعال مختنق من العلية. تحسس جيوبه بحثاً عن المفتاح، لكنه نساه، فلم يجد أي وسيلة متاحة أمامه، سوى الطرق على الباب.

قال كويليب، بينما كان يختلس النظر عبر ثقب المفتاح: «ضوء في رواق البيت، وطريقة خافتة، ومعدرة يا سيدتي، سألاحقك وأتجسس عليك خفية دون أي وعي منك. سو هو^(٢)!».

لكن طريقة خافتة لم تتلقَ أي انتباه أو رد من الداخل. وبعد طريقة ثانية بالمطرقة، لم تكن أعلى من الأولى، فُتح الباب بكل تودة وروية من قبل صبي رصيف الميناء، كمنه كويليب من فوره بيد، وسحبه عنوةً إلى الشارع باليد الأخرى.

همس الصبي: «إنك تخنقني يا سيدي.. اتركني، هلاًّ تفعل».

(٢) صبيحة الصيد أو القنص عند الإنجليز.

قال كويليب ممتعضاً بنفس طبقة الصوت: «مَن بالأعلى أيها الكلب؟ قل لي. وإياك أن ترفع صوتك فوق صوت أنفاسك، وإلا خنقتك فعلاً وبكل جدية».

لم يقل الصبي شيئاً، لكنه ضحك ضحكة مختنقة، مشيراً إلى النافذة، في استمتاع شديد، حينها أمسك كويليب بحلقه، عازماً على أن ينقل تهديده إلى مرحلة الفعل ويخنقه حتى الموت، ربما حقق تقدماً كبيراً في هذا الصدد، وكان على وشك الاقتراب من النهاية، لكن الصبي تملص من قبضة يده برشاقة، وحصن نفسه بالابتعاد، وبعد محاولات عابثة للإمساك به من شعر رأسه، اضطر سيده بعد استنزاف كافة المحاولات إلى اللجوء إلى الحوار.

قال كويليب: «حسنًا! هل ستجيبني؟ وتخبرني بما يحدث بالأعلى؟».

رد الصبي: «إنك لا تدع أي شخص يتكلم. على العموم.. إنهم ها ها ها! إنهم يحسبونك.. إنهم يحسبونك ميتاً ها ها ها!».

صاح كويليب: «ميتاً». عبر عن نشوته بضحكة خبيثة: «لا! قل أمراً آخر. هل هم؟ هل هم حقاً يا كلب؟».

رد الصبي الذي كانت في طبيعته الكيد الخبيث وهو الأمر الذي كان أكبر سبب فيه سيده، وقال: «إنه يحسبون أنك.. أنك غرقت. لأن آخر مرة رآك أحدهم فيها، كنت على حافة الرصيف، لذا يعتقدون أنك سقطت. ها ها ها!».

أضافت احتمالية تأدية دور المتجسس في هذه الظروف العظيمة، وخيبة أملهم جميعاً بعد أن يظهر ثانية حيّاً، سروراً، انبسطت له أساريره، وأوحت له بأكبر ضربة حظ، وأكثر الفرص مواتية. لم يكن أقل قهقهة من مساعده حامل البشارة، فوقف كلاهما لبضع ثوانٍ، يضحكان ويلهثان ويهزان رأسيهما، إلى جانب العمود، كزوجين لا مثيل لهما من الأوثان الصينية.

قال كويليب، بينما يتجه نحو الباب على أطراف أصابع قدميه: «لا كلمة، لا صوت، لا صرير، ولا حتى خطوة على شبكة عنكبوت.. غرقت يا سيدة كويليب! غرقت!».

فور ما انتهى من كلماته، أطفأ الشمعة، خلع حذاءه، وتلمّس طريقه صعوداً أعلى الدرج، تاركاً صديقه الصغير المبتهج في نشوة شقلباته البهلوانية على الرصيف.

كان باب غرفة النوم المطل على الدرج مفتوحاً، فانسل عبره السيد كويليب إلى الداخل، وثبت وراء الباب الواصل بين هذه الغرفة وغرفة الجلوس، حينها كان ذلك الباب مُوارباً من أجل التهوية، ويصدر عنه صوت صرير معتاد، فاستفاد كويليب بالدرجة القصوى من شتى الظروف السانحة لأغراض التجسس، متزوداً بسكين الجيب، فلا يكون على مسمع فقط، بل يكون على مرأى ومسمع مما يتم في الغرفة المجاورة بكل وضوح.

أجال البصر في ذلك المكان، فرأى السيد براس جالساً على الطاولة، ومعه قلمه وقبينة حبر وأوراق، وقارورة نبيذ الروم المسكر -قارورته

الخاصة- ونبذ جامايكا والماء الساخن والليمون العطر، ومكعبات السكر الأبيض، وكل المستحضرات الملائمة في وفرة، لكن من بين كافة تلك المروحات، لم يحز شيئاً انتباهه، فقد دهق كأساً من نبيذ البنش الساخن ذي الرائحة الكريهة، كان في تلك اللحظة يقلبه بالمعلقة، غارقاً في التفكير في ادعاء وإِه لندم عاطفي، يقاوم لكن على نحو ضعيف فرحة مباحة ومتعة مريحة. على الطاولة نفسها، كانت تجلس السيدة جينيون، متكئة على كلا مرفقيها، لم تعد ترتشف بالمعلقة من كؤوس الآخرين بشراهة خفية، بل كانت تتجرع بعمق رشفة بعد رشفة من قدح يخصصها وحدها. أما ابنتها فتستلقي على كرسي مريح، تهدئ من حالها بكأس أصغر من المشروب نفسه، لم يكن التراب على رأسها، والخيش على ظهرها، متفجعة نادمة حزينة، بل كانت في هيئة أنيقة محتشمة. كان حاضراً أيضاً رجلان من الميناء وبينهما ماينة معينة تدعى (ماينة السحب)، حتى هذين الاثنين ضيِّفاً بقنينة زجاجية، وجلسا يشربان في استمتاع نهم، كان لهما أنفان حمراوان، ووجهان مملوءان بالبثور، ومظهر مؤنس مخمور، زاد حضورهما -بدلاً من أن ينتقص- من مظهر راحة لا جدال فيه، بدا أنه هو السمة المميزة لذلك التجمع.

قال كويليب مغمغماً: «لو بإمكانني فقط أن أدس السم في شراب الرم والماء لسيدتي العزيزة العجوز، حينها يمكن أن أموت سعيداً».

قال السيد براس، كاسراً حاجز الصمت، ورفع عينيه إلى السقف، متنهداً: «آه! مَنْ يعرف! ربما ينظر إلى الأسفل نحونا الآن! مَنْ يعرف ربما يتفقدنا بناظريه من.. من مكان أو آخر، ويتأملنا بأعين يقظة! آه! يا ربي!».

هنا، توقف السيد براس عن الحديث ليشرب نصف كأسه، ثم أكمل، وهو ينظر إلى النصف الآخر، وتعتلي وجهه ابتسامة كاسفة.

قال المحامي، هازأ رأسه: «أستطيع أن أجزم أنني أرى عينيه تتلألآن أسفل مشروبي الكحولي - متى يمكننا أن نراه مرة أخرى؟ أبداً أبداً! دقيقة نكون هنا». - حمل قدحه أمام عينيه: «والدقيقة الأخرى نكون هناك». بلع محتوياته، وضرب نفسه بعنف شديد أسفل صدره بقليل: «في قبر صامت. لذا أعتقد أنه لزام عليّ أن أشرب نبذ الرم من أجل أن يرقد في سلام! - آه يا ربي! يبدو كأنه حلم».

ومن أجل اختبار حقيقة موقفه مما قاله، دفع السيد براس قدحه نحو السيدة جينيون لتملأه مرة أخرى، ثم التفت إلى البحارين الحاضرين.

- إذنُ باء البحث بالفشل؟

- تمامًا يا سيدي. لكنني أود أن أقول إن جسده إذا طفا على سطح الماء في أي مكان، فسيصل إلى الشاطئ في مكان ما حول غريتتش غداً، وفقاً لحركة المد والجزر.. هاه! أليس كذلك يا رفيقي؟

أيّد الرجل الآخر كلامه، مضيفاً أنه يترقب أي خبر يصل إليه من المستشفى، فالعديد من المتقاعدين متأهبين لاستقباله وقتما يصل.

قال السيد براس: «إذنُ ليس في اليد حيلة سوى الاستسلام.. لا شيء سوى الاستسلام والانتظار. سنشعر بالراحة إذا عثرنا على جثته، راحة حزينة».

صدّقت السيدة جينيون على كلامه في عجل قائلة: «أوه! قطعاً

وبلا شك.. إذا حدث وعثرنا على جثته، سنكون متأكدين من موته تمام التأكد».

أمسك السيد سامبسون براس بقلمه، وقال: «فيما يتعلق بالإعلان الوصفي، إنه لمن دواعي سروري أن أذكر قسمات وجهه. فيما يتعلق بوصف ساقيه...».

قالت السيدة جينيوين: «مقوستان بكل تأكيد». قال السيد براس بنبرة مخادعة: «هل تعتقدين أنهما كانتا مقوستين؟»، «إنني أعتقد أن بإمكانني رؤيتهما في الشارع متباعدتين للغاية، في سراويل قطنية، منكمشة إلى حد ما، ودون زُنَّار. آه! يا لحياتنا التي امتلأت بدموع الوداع.. ها هل سنكتب مقوستين؟».

عقبت السيدة كويليب في حسرة: «أعتقد أنهما كانتا كذلك». قال براس الذي كان يكتب بينما يتحدث: «حسنًا فلتكونا مقوستين.. إذن، رأس ضخيم، جسد قصير، ساقان مقوستان...». قالت السيدة جينيوين مقترحة: «مقوستان جدًّا».

قال براس في ورع: «حسنًا يا سيدتي.. لن نقول مقوستين جدًّا.. دعينا لا نذكر سيئات الميت. لقد رحل يا سيدتي، فلن تكون رجلاه محور تساؤل قط يا سيدتي.. سنكتفي بقول ساقين مقوستين يا سيدة جينيوين».

قالت السيدة العجوز: «حسنًا حسنًا.. ظننت فقط أنك تريد الحقيقة كما هي، هذا كل شيء».

قال كويليب مغمغماً: «تسلم عيناك.. كم أحبك! ها هي مرة أخرى،
ألا تفعل شيئاً سوى تجرع نبذ البنش!».

قال المحامي، وهو يضع قلمه، شارباً محتويات قدحه: «هذه
المهمة تبدو كما لو كانت تستحضره أمام عيني مثل شبح والد هاملت،
في الملابس التي كان يرتديها في أيام العمل. معطفه، وصدريته، وحذاءه
وجواربه، وسرواله، وقبعته، وفطنته وحسه الفكاهي، وشجاعته،
ومظلمته.. يتوارد كل شيء أمامي كالرؤى التي كنت أراها في شبابي..
وملابسه الكتانية». نظر السيد براس إلى الحائط مبتسماً: «ملابسه
الكتانية التي امتازت دائماً بلون خاص، فقد كان هواه وسحره.. كيف
أرى ملابسه الكتانية أمام عيني الآن!».

قالت السيدة جينيون نافذة الصبر: «أعتقد أنه من الأفضل أن تُكمل
أيها السيد».

صاح السيد براس: «معك حق يا سيدتي.. معك حق! يجب ألا
تخور قوانا مع مرارة غمنا. أخشى أن أزعجك بالمزيد من ذلك قليلاً يا
سيدتي.. إن السؤال المطروح الآن.. ماذا عن أنفه».

قالت السيدة جينيون: «منخار أفطس مفلطح».

صاح كويليب، محرّكاً رأسه بعنف، لاكمًا أنفه بقبضة يده:
«معقوف! إنه معقوف أيتها العجوز الشمطاء. هل ترينه؟ هل تدعيه
أفطس؟ هل تجرأت؟ هاه؟».

صاح براس من منطلق عادته القوية: «أوه! مرحى، مرحى! ممتاز!

كم هو مثالي! إنه أكثر رجل.. أكثر رجل غريب الأطوار على نحو مميز!
كم هو مفعم بطاقة مذهلة حينما يفاجئ الناس على حين غرة!». .

لم يكتثر كويليب مطلقاً بأي من تلك الإطراءات، ولا حتى بالنظرة
المريبة الخائفة التي اعتلت وجه المحامي تدريجياً، ولا بصرخات
زوجته وحماته، ولا حتى هرولة الأخيرة من الغرفة، أو إغماء الأولى.
فقد ثبت ناظره على سامبسون براس، دون أن يحيد عنه ولو لوهلة..
شرب محتويات قدحه كاملاً، وزاد عليه ملء قدحين آخرين، ثم أمسك
بزجاجته، وتأبطها، وحدجه بأكثر النظرات شزراً، حينها انتفض من
فوره، وقام عن الطاولة، ليلوذ بالفرار.

قال كويليب: «لا! ليس بعد يا سامبسون.. لا! ليس بعد!». .

صاح براس، مستعيداً بهجته إلى حد ما: «أوه! هذا جيد جداً في
الواقع! ها ها ها! أوه! جيد لأبعد الحدود! لا يوجد رجل آخر على قيد
الحياة يمكنه أن يتم الأمر بنجاح هكذا. أصعب موقف للقيام به. يا لها
من نفحات فكاية، دقائق فكاية عظيمة!». .

قال القزم، هازئاً رأسه: «عمت مساءً.. ليلة سعيدة».

صاح المحامي، متراجعاً نحو الباب: «ليلة سعيدة يا سيدي! ليلة
سعيدة.. وأي ليلة سعيدة.. سعيدة بسبب هذه المناسبة يا سيدي.. إنها
المتعة! ها ها ها! أمر مترف، مترف للغاية وبشكل ملحوظ!». .

انتظر كويليب حتى تلاشى هتاف السيد براس مع طول المسافة -
حيث ظل يهتف ويمدح طوال فترة نزوله الدرج - ومن ثمّ اتجه صوب

الرجلين، اللذين كانا مشدوهين، وتعلو وجهيهما أمارات الغباء، وقد
تجمدت أوصالهما من الذهول، وعقدت الدهشة لسانيهما.

قال القزم، وهو يمسك الباب مفتوحًا في صبر تام: «هل كنتما
تنقبان في النهر طوال اليوم أيها السادة؟».

- وبالأمس أيضًا يا سيدي.

- أوه! يا لنفسي العزيزة! ربما عانيتما كثيرًا. صليًا كثيرًا لتجدنا..

لتجدنا الجثة. عمتما مساءً!

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، وقد بدا أنهما ليس لديهما أي دافع
مطلقًا للجدال حول تلك النقطة في ذلك الحين، لذا هرولا مسرعين إلى
خارج الغرفة.

على إثر التصفية السريعة، أوصد كويليب الأبواب، بينما لا يزال
يتأبط القنينة، وكتفاه مرفوعتان، وبأيدي مطوية على صدره، وقف ينظر
إلى زوجته الغافلة كالكابوس المترجل.



الفصل الخمسون

عادةً ما تُناقش الخلافات الزوجية من قبل الطرفين المعنيين في شكل حوار، وتتولى السيدة إدارة نصفه على الأقل. لكن السيد والسيدة كويليب كانا استثناءً من القاعدة العامة.. جاءت التعقيبات التي أفادت بها مقتصرة على مناجاة طويلة من السيد، وربما القليل من الملاحظات الاعتراضية التي قالتها السيدة، لكنها لم تكن أكثر من كلمات أحادية المقطع، قيلت بصوت مرتجف وعلى فترات متباعدة، وبنبرة خاضعة ذليلة. خلال هذا الوضع الراهن، لم تجرؤ السيدة كويليب على الصمود لفترة طويلة في مواصلة دفاعها الوديع؛ لأنها بمجرد أن استعادت وعيها وتعاقت من نوبة الإغماء، جلست في صمت دامعة، تستمع في خنوع إلى لوم سيدها ومولاها.

جاء ذلك، تحدث السيد كويليب بأقصى سرعة وبحركة مفرطة، مفتعلاً الكثير من الإيماءات المشوهة بملامحه والحركات المرعبة بأطرافه، لدرجة جعلت زوجته -على الرغم من اعتيادها الجيد على مهارته وكفاءته في هذه النواحي- انكمشت في نفسها في فزع، تتملكها حالة من التأهب الهلوع. لكن نبذ جامايكا والرم وحرارتهما العالية،

وانتشاء بتخييب الآمال، وإحباط الجميع، هداؤا من احتياجه العنيف،
وقلّلوا من حنقه الشديد، رَوّح عن نفسه وانتشى، فاعترته روح الفكاهة،
ووصل ببطءٍ إلى نقطة عندها ظل في مزاج حسن.

قال كويليب: «إذن لقد ظننت أنني كنت ميتاً، ورحلت عن الدنيا،
أليس كذلك؟ لقد ظننت أنك أصبحت أرملة ها؟ ها ها ها! أيتها المرأة
المغناج».

ردت زوجته: «نعم، هذا ما حدث بالضبط.. لكن يا كويليب.. أنا
أسفة للغاية!».

صاح القزم: «بالطبع أسفة! مَنْ يشك في ذلك! مَنْ يشك في أنكِ
أسفة! مَنْ يشك في أنكِ أسفة للغاية!».

قالت زوجته: «أنا لا أقصد أنني أسفة أنك أتيت إلى المنزل حيّاً
ومنعمًا بالصحة.. أنا أسفة؛ لأنه كان لزاماً عليّ أن أتمسك بإيماني
بعودتك. إنني سعيدة لرؤيتك يا كويليب، إنني سعيدة فعلاً».

في الحقيقة، بدت السيدة كويليب سعيدة فعلاً لرؤية سيدها
بقدر فاق كل التوقعات، برهنت على صدق إحساسها بدرجة كبيرة
من الاهتمام بسلامته، وبكل الأفعال التي تُؤخذ بعين الاعتبار على
محمل أنها غير قابلة للتفسير. أما بالنسبة إلى كويليب، فلم تترك هذه
السلوكيات أي انطباع في نفسه، أكثر من أنه طقطق أصابعه بالقرب
من عيني زوجته، تعتلي وجهه ابتسامات متنوعة، تتراوح بين الانتصار
والسخريّة والتهكم.

سألت المرأة الشابة المسكينة وهي تشهق أثناء بكائها: «كيف ابتعدت طوال هذه الفترة دون أن تقول لي أي كلمة، أو تدعني أسمع أي خبر عنك، أو أعرف أي شيء حيالك؟ كيف يمكن أن تكون قاسيًا إلى هذا الحد يا كويليب؟».

صاح القزم: «كيف أكون قاسيًا إلى هذا الحد! قاسٍ! لأنني كنت في مزاج حسن، مثلما أنا في مزاج حسن الآن، وأحب روح الدعابة. ثم إنه بإمكانني أن أكون قاسيًا وبقا أشاء. على أي حال، سأرحل مرة أخرى».

- لا! ليس مجددًا!

«بلى! مجددًا ومجددًا! وسأرحل الآن! ومباشرة. أعني أنني سأرحل لأعيش في المكان الذي يحلو لي، ويدلني عليه الهوى.. سأعيش عند رصيف الميناء.. في بيت الحوسبة.. وأكون عازبًا مرّحًا. لقد كنت أرملة في الظن..»، صاح القزم: «تَبًّا! سأكون عازبًا في الواقع».

قالت زوجته، وهي تشهق منتحبة: «لا يمكن أن تكون جادًا يا كويليب».

قال كويليب، مبتهجًا لخطته: «بلى! دعيني أخبرك بالأمر الواقع! سأكون عازبًا، شيطانًا عازبًا يفعل ما يحلو له دون أي عواقب، وسأجعل من بيت الحوسبة شقة عزوبية، وخلال ذلك الوقت، أريدك أن تقتربي من هناك إذا كنتِ تجرئين. آه! وخذي بعين الاعتبار أيضًا أنني لن أتردد عليك في ساعات محددة مرة أخرى، بل سأتي في غير الأوان؛ لأنني سأتجسس عليك، وسأتي وأذهب مثل الخلد أو حتى ابن العرس. يا توم

سكوت! أين أنت يا نوم سكوت؟».

صاح الصبي، بينما دلف كويليب إلى النافذة: «أنا هنا يا سيدي».

قال القزم: «حسنًا! انتظر عندك أيها الكلب لتحمل حقيبة السيد العازب.. احزميها يا سيدة كويليب، واطرقي باب عزيزتي الشمطاء لتساعدك، هيا! اترقي عليها الباب. مرحبًا أيتها العجوز! مرحبًا!».

مع هذا الهمس، أمسك السيد كويليب بمذكبي النيران، وسارع نحو باب غرفة نوم السيدة الطيبة، يطرق عليه بعنف، حتى استيقظت السيدة في فزع يتعذر وصفه، تعتقد أن صهرها الودود الظريف جاء عازمًا على قتلها؛ لتسوية الأمر، وللأخذ بثأر ساقيه التي شوهت وصفهما. هيمنت الفكرة على عقلها، ورزحت تحت تأثيرها، فلم يفت على استيقاظها لحظات، حتى صارت تصرخ بشدة، مهرولة نحو النافذة، وكانت ستقفز منها في لمح البصر، نحو منور مجاور، لولا أن ابنتها أسرع لتحررها من الأوهام، وطلبت منها مساعدتها. بعد أن اطمأنت السيدة جينيوين إلى حد ما عندما عرفت نوع المساعدة التي طُلب منها تقديمها، خرجت عليهما في مبدلها، باتت الأم وابنتها على حد سواء، ترتجفان من الرعب والبرد، فقد غسق الليل الآن وصار في جوفه الأخير، انصاعتا لتوجيهات كويليب في التو واللحظة، في صمت مطيع. ماطل في استعدادات رحيله قدر ما تمكن؛ ومن أجل بث راحة أكبر فيهما، ظل الرجل النبيل غريب الأطوار طوال الوقت يراقب حزم ملابسه، وبعد أن أضاف بيديه، صحنًا وسكينًا وشوكة وملعقة وفنجان شاي وطبق الفنجان وغيرها من الأغراض الصغيرة المنزلية على الشاكلة نفسها، شد حزامًا على حقيبتة،

ومن ثمَّ حملها على كتفه، ومضى في طريقه دون أن ينطق بأي كلمة أخرى، متأبطاً قنينة **الرم** -التي لم ينزلها قط طوال تلك المدة ولو لمرة واحدة- ويشدد عليها بإحكام أسفل ذراعه. فور وصوله إلى الشارع، سلَّم حملة الثقيل لتوم سكوت، كي يبقى تحت رعايته، متناولاً جرعة من شراب قنينته المسكر من أجل انتشائه الخاص، وصفع الصبي صفعه خفيفة على رأسه من أجل تسلية نفسه، وهكذا، اتخذ كويليب الطريق نحو الرصيف في تأنٍّ وتروٍّ، حتى وصل قرابة الساعة الثالثة أو الرابعة فجرًا.

قال كويليب، حينما وصل إلى بيت الحوسبة الخشبي، وفتح الباب بمفتاح كان معه: «حجيرتي ومستكنِّي! يا له من مستكنٍّ دافئ محجوب عن الأنظار، أنيق ومريح! أيقظني الساعة الثامنة صباحًا أيها الكلب».

ودون ذكر المزيد من عبارات الوداع أو الخوض في نقاش، انتشل الحقيقية، أغلق الباب فور دخوله، صعد على المكتب، ولف نفسه باستدارة مثل القنفذ، في ذريعة قديمة، وسرعان ما نام.

في الصباح، وفي الوقت المحدد بالضبط أيقظ، ولكن بصعوبة شديدة، بسبب ما تعرض له آنفًا من مشقة في الأيام السابقة. حينما استيقظ كويليب أمر توم سكوت، بأن يشعل النيران في الساحة باستخدام حطام أخشاب المراكب، وأن يعد له الإفطار والقهوة، ومن أجل أن يجهز مائدة أفضل للإفطار، أعطاه القليل من المال، ليشتري اللفائف الساخنة، والزبد، والسكر، وسمك الرنجة المدخن، وغيرها من مواد التدبير المنزلي، وفي غضون دقائق قليلة، كانت وجبته موضوعة على

الطاولة يتصاعد منها البخار. تلذذ كويليب بهذه الراحة الثرية المترفة، واستمتع بطعامه الشهى، وأصبح راضيًا تمامًا مع هذا النمط الحر الهمجي من الحياة - لطالما عاشه وتعايش به، وقتما تسنح له الفرص، كلما شاء أن ينتفع بها أو أن يغتنيها، فقد كان بالنسبة له بمثابة حرية سائغة من القيود الزوجية، ووسيلة لإبقاء السيدة كويليب ووالدتها في حالة من الاهتياج والترقب المستمر - بعد أن أنهى وجبته، كرّس نفسه لتحسين مأواه، لجعله أكثر راحة ورحابةً.

وبناءً عليه، انطلق إلى مكان مجاور، تبع فيه المحلات البحرية أراجيح شبكية، فاشترى له أرجوحة مستعملة، وجعلها تتدلى من سقف بيت الحوسبة على غرار فعل الملاحين. إضافة إلى أنه نصّب مدخنة صدئة على موقد سفينة قديم في حجيرته المتعفنة نفسها؛ لتنقل الدخان عبر السقف.. وهكذا، وبعد أن انتهى من هذه الترتيبات، وقف متفحصًا إياها، تغمره فرحة شاملة.

قال القزم، وهو يرمق تجهيزات إقامته بنظرة غرامية: «أصبح لديّ منزل ريفي، بمعزل عن الناس مثل روبنسون كروز^(٣)، مسكن منفرد، في منطقة معزولة، على جزيرة مقفرة، أصبح بإمكانني أن أكون لوحدي تمامًا، حينما يكون لديّ عمل لأنجزه، أصبح بإمكانني أن أكون آمنًا وفي منأى عن الجواسيس ومسترقّي السمع. لا يتواجد أحد بالقرب مني هنا، سوى الفئران، وهي رفقة سرية متخفية. سأكون مرحًا مثل الشاب الغرير

(٣) رواية للكاتب دانيال ديفو، عبارة عن سيرة ذاتية تخيلية، تحكي عن شاب انعزل في جزيرة وحيدًا دون أن يرى أحدًا من البشر.

بين هؤلاء النبلاء. حاليًا حريُّ بي أن أبحث عن شخص يمكنه اكتساب حب كريستوفر وأوسوس له، لأدفع به إلى الهلاك.. ها ها ها! العمل.. العمل، يجب أن نأخذ العمل بعين الاعتبار في خضم هذه السعادة، أكاد أجزم أن الوقت يمر بسرعة مهولة هذا الصباح».

بالزام نوم سكوت بانتظار عودته، وعدم الوقوف على رأسه، أو تأدية أي حركات بهلوانية، أو المشي على يديه خلال ذلك الوقت، والانهيال عليه بالوعيد بالعذاب الأليم المستمر، ألقي القزم نفسه في قارب وعبر إلى الجانب الآخر من النهر، ومن ثمَّ أسرع مشيًا على الأقدام، ووصل إلى منزل الترفيه المعتاد للسيد سوفييلر في بيفيس ماركس، ووجده سيدًا نبيلًا يجلس بمفرده ينتظر الغداء في الردهة المعتمة.

قال القزم، مقحمًا رأسه من الباب: «يا ديك.. يا حيواني الأليف.. يا تلميذي النجيب.. يا قرّة عيني.. أهلاً أهلاً!».

رد السيد سوفييلر: «أنت هنا! كيف حالك؟».

قال كويليب: «بل كيف حال عزيزي ديك؟ كيف حال صفوة الكتاب وقشدتهم؟ ها؟».

رد السيد سوفييلر: «رائب.. في بداية تحولي إلى جبن في الواقع».

قال القزم متقدمًا: «ما خطبك؟ ما الأمر؟ هل برهنت سالي على قساوتها؟ من بين جميع الفتيات الفطنات، لا توجد أي فتاة تشبه الـ.. ما الأمر؟ ما خطبك يا ديك ها!».

رد السيد سوفييلر في ثقل شديد، وهو يتناول غداءه: «قطعًا لا

توجد فتاة تشبهها، إنها القط الفرعوني، إنها سالي براس».

قال كويليب، وهو يسحب كرسيًا: «إنك لست على ما يرام.. ما الخطب؟».

رد ديك: «إن القانون لا يتوافق معي، إنه ليس مثريًا بما يكفي، علاوة على أن به الكثير من الحبس. لقد كنت أفكر في الهروب».

قال القزم: «باه! وإلى أين ستهرب يا ديك؟».

رد السيد سوفييلر: «لا أعرف! ربما صوب شمال لندن، إلى (هاي غيت)، ربما تقرر الأجراس -فلتعد ثانية يا سوفييلر، عمدة لندن- كان اسم (ويتنجتون) هو ديك. كم أتمنى أن تكون القطط كلها أكثر ندرَةً».

نظر كويليب إلى رفيقه، ثم وجه بصره إلى الأعلى، في تعبير هزلي ينم عن الفضول، منتظرًا شرحه الإضافي في صبر، ومع ذلك لم يبدُ على السيد سوفييلر أنه في عجلة من أمره لتقديم أي شرح لما قاله أو ذكر أي كلمة أخرى، مكث يتناول غداءه في وقت طويل وفي صمت مخيم.. أبعد الطبق أخيرًا، أسند ظهره إلى الكرسي، طوى ذراعيه، يحدق في النيران في أسف شديد، حينها كان بها بعض أعقاب السجائر الدخنة، التي تفوح بعبقها الزكي.

التفت ديك أخيرًا إلى القزم وقال: «ربما سوف تريد قطعة من الكعكة. سيكون مرحبًا بك تمامًا. حتمًا يجب أن يكون مرحبًا بك، فإنها من صنعك».

قال كويليب: «ماذا تقصد؟».

تمثّل رد السيد سوفييلر في أنه أخرج من جيبه لفافة صغيرة دهنية للغاية، فتحها ببطء، وكشف عن قطعة صغيرة من كعكة برقوق، يتسبب مظهرها في عسر الهضم، محفوفة بمعجون من السُّكَّر بعمق بوصة ونصف البوصة.

قال السيد سوفييلر مستجوبًا: «أستطيع قول ماذا كانت هذه؟».

أجاب القزم مبتسمًا: «تبدو مثل كعكة عروس».

سأل السيد سوفييلر، وهو يفرك الحلوى أمام أنفه في هدوء مخيف: «ولمَن تظن أنها كانت؟ لمن؟».

- ليس...

قال ديك: «نعم! بالضبط. لا داعي لذكر اسمها. لا يوجد لاسمها محل الآن. أصبح اسمها تشيجز، صوفي تشيجز. لم تحبني كرجل لم يحب أنه لم يكن لديه ساق خشبية، وآه يا قلبي! انفطر قلبي لحب صوفي تشيجز».

مع هذا التعديل المرتجل للقصيدة القصصية^(٤) لتكييفها مع الظرف المحزن لحالته، طوى السيد سوفييلر اللفافة مرة أخرى، وضربها براحة يديه، فصارت مسطحة تمامًا، ووكزها كطعنة عنيفة إلى صدره، ورَزَّ معطفه فوقها، ثم طوى ذراعيه فوق كل هذا.

قال ديك: «الآن! آمل أن تكون راضيًا يا سيدي.. وآمل أن يكون فريد راضيًا أيضًا. لقد كنتم شريكين في هذا الأذى، وآمل أن تكون النتيجة

(٤) قصيدة (أليس جراي) لويليام مي.

قد نالت إعجابكما. هذا هو الانتصار الذي كان يجب أن يشملني في النهاية. أليس كذلك؟ إنها مثل رقصة الريف، حيث يوجد سيدان لسيدة واحدة، ويظفر بها واحد، منهما في حين أن الآخر يعرج وراءهما ليتبين مظهرهما. لكنه القدر في النهاية، وأحسب أن قدرتي ساحق».

تمويهاً على فرحته السرية بما حل بالسيد سوفييلر وهزيمته، لجأ دانيال كويليب إلى أضمن وسيلة لتهدئته، فقرع الجرس، وطلب تزويده بالنبذ الوردي في الحال -أو على الأغلب كان هذا هو طلبه المعتاد- دهقه بكل براعة، داعياً السيد سوفييلر إلى مشاركته في نخب مختلف ساخر من تشيجز، ونخب متنوع مُؤبن ومادح ومُشيد بسعادة الرجال العزّاب. انعكست الانطباعات التي خلقتها تلك الأنخاب على تفكير السيد سوفييلر، فرأى أن المرء لا يمكن أن يعارض مصيره أو قدره بأي حال، وفي غضون وقت قصير جداً، ارتفعت معنوياته بشكل مذهش، لدرجة مكنته من إعطاء القزم إيصال استلام الكعكة، التي على ما يبدو أحضرها إلى بيفيس ماركس اثنان من خادمي الأنسة واكلز، وسلمهاها عند باب المكتب مع الكثير من الضحك والفرح.

قال كويليب: «اسمع! إن المهم هو مَنْ يضحك أخيراً، وأحسب أن دورنا في الضحك قريب.. هذا يذكرني بـ.. أَلَمْ تتحدث عن شاب عائلة ترينت.. أين هو؟».

أوضح السيد سوفييلر أن صديقه المحترم قد قُبِل مؤخراً مسؤولاً في مقمرة متنقلة، وأنه غائب في ذاك الوقت لأنه في جولة مهنية بين الأرواح المغامرة في بريطانيا العظمى.

قال القزم: «هذا أمر مؤسف. في الواقع.. لقد جئت لأسألك عنه.
لقد خطر على بالي فكرة يا ديك.. بالمناسبة هل من الممكن أن يكون
صديقك على...».

- أي صديق؟

- القاطن في الطابق الأول.

- مَنْ!

- صديقك يا ديك، الساكن في الطابق الأول، هل من الممكن أن
يكون على معرفة به.

قال السيد سوفييلر، هازأً رأسه: «لا، لا يعرفه».

قال كويليب: «بالتأكيد لا يعرفه؛ لأنه لم يره قط.. لكن إذا
جمعناهما معاً، مَنْ يدري يا ديك! أليس من الممكن إذا تعرّف فريد
عليه بشكل صحيح، يخدمنا تقريباً مثل نيل الصغيرة وجدها.. مَنْ يدري
يا ديك! من الممكن أن هذا الرفيق الشاب سيجني الثروة، ومن خلاله
تجني ثروتك. هاه؟».

قال السيد سوفييلر: «في الواقع.. لقد جُمعا معاً سابقاً».

صاح القزم، ناظرًا إلى رفيقه بصورة مريبة يملؤها الشك: «جُمعا
معاً! وَمَنْ جمعهما يا ديك؟».

قال ديك، وقد التهمه الارتباب: «لقد جُمعا من خلالي.. ألم أذكر
لك في آخر مرة تقابلنا فيها هناك؟».

رد القزم: «أنت تعلم أنك لم تفعل».

قال ديك: «أحسب أنك على حق.. لا! لم أفعل.. لقد تذكرت.
أوه! نعم! لقد جمعتهما معًا ذاك اليوم، بناءً على طلب فريد».

- وما الطائل من ذلك؟ ها! ماذا حدث؟

- بدلاً من أن يجهش صديقي بالبكاء، حينما علم من هو فريد، احتضنه في لطف شديد، وأخبره أنه كان جده، أو جدته المتنكرة -ذلك ما توقعناه- ثم اعتراه حزن هائل، ودعاه بمختلف الألفاظ.. وقال: إن الفقر الذي تعرضت إليه نيل الصغيرة والرجل العجوز هو خطؤه إلى حد كبير، ولم يلمح أبدًا إلى دعوتنا لشرب أي شيء.. بل أخرجنا من الغرفة بدلاً من ذلك في وقت قصير جدًا».

قال القزم متدبرًا: «هذا غريب!».

استأنف ديك قائلاً في هدوء: «هذا ما قاله أحدنا للآخر في ذلك الوقت.. إن هذا صحيح تمامًا».

في ذلك الحين، بدا كويليب مشدوًهاً تمامًا بسبب تلك المعلومات، جلس في سكينه يطيل التفكير، غالبًا كان يرفع عينيه ليتفحص تعبيرات وجه السيد سوفييلر في حدة. يريد أن يستنبط منها أي معلومة إضافية، لكنه لم يجد في دلالتها أي إشارة أو علامة تدفعه إلى الاعتقاد في أن ما حدث به قد كان كذبًا.. حينها كان من الواضح أن السيد سوفييلر غارق في تأملاته، ينتهد بعمق، وقد جاشت نفسه بالعاطفة حيال السيدة تشيجز، لذا فض كويليب لقاءه به سريعًا، تاركًا الثاقل لحبيته في خضم اجترار أحزانه.

قال القزم مخاطباً نفسه، بينما كان يسير في الشوارع بمفرده: «لقد جُمعتمَا معًا. أليس كذلك؟ يحاول صديقي أن يسبقني بخطوة. لكن، لا يهم، لقد قادتَه إلى اللاشيء، لم يَجْنِ أي طائل. وبالتالي، ما فعله ليس بالأمر العظيم، وهذا ما يجب أن أضعه في الاعتبار.. إنني سعيد جدًا لأنه خسر محبوبته. ها ها ها! هذا الأبله لا يجب أن يترك عمله بالقانون في الوقت الحالي؛ لأنه بوجوده هناك سيخدم أغراضِي الخاصة في أي وقت، علاوةً على أنه جاسوس جيد على براس دون أي وعي منه، يخبرني بكل شيء يسمعه أو يراه وقتما تدهق الكؤوس. إنك مفيد لي جدًا يا ديك، ولا تكلف شيئًا سوى القليل من الإنعام عليك بالأكل أو بالشرب بين الحين والآخر. لست متأكدًا من أنه لن يكون من المفيد قبل مضيِّ فترة طويلة، أن ننسب الفضل إلى ديك، لاكتشاف إصرارك على الطفلة أيها الغريب، لكننا في الوقت الحاضر سنبقى أفضل صديقين في العالم، بسبب معلوماتك الثرية».

هكذا، سار كويليب في طريقه، لاهثًا، يعرض أفكاره على نفسه، ويتدبر كامل الأمر من منطلق تفكيره، عَبَر نهر التايمز مرة أخرى، وأغلق على نفسه حجيرة العازب، التي لا يمكن لأي شخصٍ شريف أن يتقبلها؛ فقد ساهمت المدخنة المنتصبة حديثًا تقريبًا في ترسيب الدخان داخل الغرفة بدلًا من إخراجه. ومع ذلك فإن مثل تلك الأمور الباعثة على الغثيان، بدلًا من أن تثير اشمئزاز القزم من محل إقامته الجديد، جعلته مكانًا أكثر ملاءمة لمزاجه. بعد أن تناول عشاءه الذي طلبه من الحانة، أشعل غليونَه، وأخذ يدخن وينفخ الدخان قبالة المدخنة، حتى

لم يعد يظهر أي شيء منه وسط الدخان سوى عيينين حمراوين ملتهبتين بشدة، ورؤية ضبابية مشوشة بين الحين والآخر لوجهه ورأسه، حينما كانت تنتابه نوبة سعال حادة، كانت تحرك ذرات الدخان، فينقشع ركام السحب الدخانية التي حجبتهما عن الرؤية. في مثل هذا الجو، الذي يكاد أن يخنق أي شخص آخر، مرَّ السيد كويليب بأسعد لحظات مسائه في فرح غامر، يبعث النشوة في نفسه طوال الوقت إما بتدخين غليونه، وإما بشرب نبيذ الرم من قنينته، وأحياناً يسلي نفسه بإطلاق عواء رхим، يقصد به الغممة، لكنه في الواقع ليس به أدنى تشابه على الإطلاق بأي مقطع من أي قطعة موسيقية لها كلمات أو اقتصرت على عزف الآلات، ألَّفها بشر. ظل الحال على هذا المنوال حتى منتصف الليل تقريباً، فصعد إلى أرجوحته منتشياً، وفي أعلى منازل الرضى.

كان أول صوت وقع على مسامعه في الصباح الباكر في الغرفة، حينما فتح عينيه إلى نصفهما، ووجد نفسه على غير المعتاد قريباً من السقف، مستمتعاً بفكرة ناعسة، يعتقد أنه ربما تحول إلى حشرة طائرة أو ذبابة زرقاء ضخمة أثناء الليل، هو صوت بكاء ونحيب مختنق. شَخَص ببصره في حذر تام إلى جانب أرجوحته، فرأى السيدة كويليب، بعد أن أطال النظر إليها في صمت، صاح فجأة في عنف شديد: «مرحباً!».

صرخت الزوجة الشابة المسكينة: «أوه.. كويليب! لقد أفرعنتي».

قال القزم: «نعم هذا ما كنت أقصد فعله بالضبط أيتها المرأة المغناج.. ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ ماذا تريدان من هنا؟ أنا ميت. أأست كذلك؟».

قالت السيدة كويليب، وهي تشهق في نحيبها: «أوه! من فضلك
عُد إلى المنزل. أرجوك عُد إلى المنزل. لن نفعل ذلك أبداً بعد الآن يا
كويليب. فضلاً عن أنه لم يكن سوى خطأ نبع من قلقنا».

قال القزم مبتسماً: «خطأ نبع من قلقك.. نعم، بالطبع أنا أعلم ذلك.
نابع من قلقك على موتي. دعيني أَقُلْ لك أمراً.. سأتي إلى المنزل وقتما
أشاء، وأرحل عنه وقتما أريد. سأكون السراب من الآن، سأكون وهج
المستنقع، طيفاً يحوم هنا وهناك، يتراقص حولك دائماً، يتواجد حيث
لن يخطر على بالك، بداية من آخر الأماكن التي تتوقعين فيها ظهوري،
سأبقى في حالة مستمرة من القلق وعدم الراحة. هلاً رحلت؟».

حينها تجرأت السيدة كويليب وأومأت إليه تتضرع إليه وتتوسل
إليه.

صرخ القزم: «لقد قلت لك لا! لا! إذا تجرأت على المجيء إلى
هنا مرة أخرى، إذا ما لم يتم استدعاؤك، فسأجعل جميع كلاب الحراسة
في الساحة أكملها، تجري وراءك وتعضك.. لديّ هنا أشراك للرجال،
سأعدلها وأحسنها بكل مكر ودهاء لتكون مصائد للنساء.. سيكون لديّ
بنادق زبركية، ستنفجر فيك، حينما تدوسين على الأسلاك، وتفتتك إلى
فتات صغير.. ها! هلاً رحلت؟».

قالت زوجته في جدية: «اغفر لي! أرجوك عُد إلى المنزل».

جمع كويليب: «لا!! لا!! لا!! لن أعود حتى أستمتع بوقتي كاملاً.
وبعد ذلك سأعود مرة أخرى وقتما أشاء. ولن أكون عرضة لمحاسبة

أي أحد بسبب أوقات ذهابي أو عودتي. هل ترين الباب هناك؟
ارحلي!».

قال السيد كويلب كلمته الأخيرة بصوت جهوري للغاية، مفتعلًا
إيماءً مفاجئًا، وهو مغطى بالذريعة القديمة مثلما كان، كأنه سينهض
من أرجوحته؛ ويجبر زوجته بنفسه على العودة إلى المنزل ثانية عبر
الشوارع العامة، فانطلقت كالسهم من فورها. مد مولاها التقدير رقبته
وأطال النظر إليها حتى رآها قد عبرت الساحة، حينها لم يشعر بأي
أسف قط، فقد أُتيحت له الفرصة للتأكيد على وجهة نظره وعلى قدسية
قلعته، ومن ثمَّ انتابته نوبة ضحك غير عادية، واستلقى في وضع النوم
مرة أخرى.



الفصل العاوي والخمسون

نام اللطيف رقيق القلب، صاحب حجارة العازب، وسط أجواء مشابهة له طبعًا وطباعًا، نام حتى وقت متأخر من النهار، وسط المطر والطين والقاذورات والأوساخ والرطوبة وركام الضباب والفئران، حينما استيقظ، استدعى خادمه توم سكوت؛ ليساعده على النهوض، ويعد له الإفطار، تخلص عن أريكته، وجعل منها مرحاضًا، عندما أنهى عمله، والتهم إفطاره، ذهب إلى بيفيس ماركس.

في الواقع لم تكن هذه الزيارة للسيد سوفييلر، بل كانت لصديقه وصاحب عمله السيد سامبسون براس. حينما وصل وجد أن كلا السيدين ليسا في المنزل، حتى نور الحياة والقانون الآنسة براس، لم تكن في مكتبها أيضًا. لكن غيابهم الجماعي، وفرارهم المشترك من المكتب، أفصح عنه لجميع الوافدين، من خلال قصاصة ورقية مكتوبة بخط السيد سوفييلر، أرفقت بمقبض القارع، لم تقدم للقارئ أي مدلول عن أي ساعة في اليوم قد عُلقَت، لذا ما زُود به كانت معلومات غامضة غير مرضية بالكلية، فما كُتِبَ أفاد بأن السيد سيعود في غضون ساعة.

قال القزم محدثاً نفسه، وهو يطرق باب المنزل: «أظن أن هناك خادمة، ربما ستخبرني».

بعد مرور وقت طويل بما فيه الكفاية، فُتح الباب، وبادر بالكلام في الحال صوت صغير يقول: «أوه! هل ستترك بطاقة أم رسالة؟».

نظر القزم إلى الأسفل نحو الخادمة الصغيرة - كان حادثاً جديداً من نوعه تماماً بالنسبة له - وقال: «ماذا؟».

ردت الطفلة - التي أجرت سابقاً حديثاً مع السيد سوفييلر خلال مقابلتهما الأولى - مرة أخرى، وقالت: «أوه! هل ستترك بطاقة أم رسالة؟».

دفعها القزم أمامه إلى داخل المكتب وقال: «سأكتب له ملاحظة.. وأعلمي بها سيدك فور وصوله إلى المنزل مباشرة». تسلق السيد كويليب مقعداً عالياً؛ كي يكتب الملاحظة، حينها فعلت الخادمة الصغيرة ما أوصت به في حرص تام، ففي مثل هذه الحالات الطارئة، تقف متأهبة، وتنظر بعينين محملقتين، فإذا اختلس مثقال رقاقة حتى، تهرع إلى الشارع وتطلب النجدة.

سرعان ما أنهى السيد كويليب كتابة ملاحظته - فقد كانت قصيرة جداً -، طوى الورقة، رفع بصره، فرأى نظرة الخادمة الصغيرة له، فحملق إليها مطولاً وفي جدية.

قال القزم، وهو يبلل الورقة، وتعتلي وجهه كشرة مرعبة: «كيف حالك؟».

ربما ارتعدت الخادمة الصغيرة من نظره، لدرجة أنها لم تنطق بأي رد مسموع، لكن من حركة شفيتها تبين أنها تردد داخليًا الجملة نفسها التي تتعلق بترك ملاحظة أم رسالة.

قال كويليب بضحكة مكتومة: «هل يستغلونك هنا؟ هل سيدتك من التار؟».

ردًا على هذا الاستجواب الأخير، لوت الخادمة الصغيرة فمها وأحكمت غلقه، وأومات في حدة، بنظرة دهاء إلى أبعد الحدود ممزوجة بخوف. سواء كان هناك أي شيء في تعبيرها الماكر المتكتم ومراوغتها هو ما أبهر السيد كويليب، أو أي شيء آخر تمثل في تعبيرات ملامحها في تلك اللحظة هو ما جذب انتباهه، أو أن ما حدث له كان هوى مفاجئًا ممتعًا بسبب تحديق الخادمة الصغيرة مليًا في قسماات وجهه، فقد سند بمرفقيه بزاوية قائمة على المكتب في حزم، وضغط على وجنتيه بيديه، ونظر إليها في ثبات دون أن يحرك جفنًا.

قال بعد أن هيمن الصمت طويلًا، وهو يمسد ذقنه: «من أين أتيت؟».

لا أعرف.

- ما اسمك؟

- لا شيء.

غمغم كويليب: «هراء! بماذا تناديك سيدتك عندما تحتاج إليك؟».

قالت الطفلة: «الشيطانة الصغيرة».

وأضافت في اللحظة نفسها، كما لو كانت تخشى أي استجواب آخر قائلة: «أرجوك هل ستترك بطاقة أم رسالة؟».

قد تكون هذه الإجابة غير العادية بطبيعة الحال مثيرة للمزيد من الاستفسارات. ومع ذلك، لم ينطق كويليب بأي كلمة أخرى، كل ما فعل أن حاد ببصره عن الخادمة الصغيرة، يمسد ذقنه غارقاً في تفكيره أكثر من قبل، ثم انحنى على ملاحظته يدقق فيها على مسافة قصيرة جداً وبدقة متناهية، ثم نظر إليها سرّاً ولكن بقوة من أسفل حاجبيه. كانت نتيجة استطلاع السري أنه ظلل على وجهه بيديه، يكتم ضحكاته بخبث ودون إصدار أي قهقهة، لدرجة أن أوردته كادت أن تنفجر بسببها. سحب قبعته على جبينه لإخفاء طربه وأثر الضحك عليه، ثم ألقى بالرسالة على الطفلة، وانسحب على عجل.

بمجرد أن وصل إلى الشارع، كان هناك دافع خفي وراء ضحكاته، ظل يضحك، ويمسك بجانيه من كثرة الضحك، ثم يضحك ثانية، يحاول أن يختلس النظر من خلال تفاريج الدرابزين المغبر القاتم، يريد أن يلمح الطفلة مرة أخرى، حتى خار منهك القوى. في النهاية، عاد أخيراً إلى حانة البرية، على مدى طلقة بندقية من مأوى العزوبة، وطلب إعداد الشاي في ذلك الكوخ الصيفي الخشبي بعد الظهر لثلاثة أشخاص، فقد كان فحوى ملاحظته وغرض زيارته هو دعوة الأنسة براس وشقيقها لمشاركته الترفيه والمقبلات في هذا المكان.

لم يكن هذا الطقس على وجه التحديد هو ما يذهب خلاله الناس إلى الأكواخ الصيفية لشرب الشاي؛ فقد كانت الأكواخ مشبعة بالعفن في

كل ركن، مطلة على الجداول الموحلة ومياه النهر العظيم المنخفضة.
ومع ذلك، أمر السيد كويليب في هذه الخلوة بتحضير وجبات طعام
خفيفة باردة.. وفي الموعد المحدد، تحت السقف المعطوب الراشح،
استقبل السيد سامبسون وشقيقته سالي.

قال كويليب مبتسمًا: «أعلم أنك مغرم بجمال الطبيعة، هل تراه
ساحرًا يا براس؟ هل تراه غير عادي وغير مبهرج وبسيطًا؟».

رد المحامي: «إنه مبهرج حقًا يا سيدي».

قال كويليب: «باردًا؟».

رد براس، بينما تصطك أسنانه داخل فمه قائلاً: «لـ لـ لا! ليس
بالتحديد يا سيدي حسب ما أعتقد».

قال كويليب: «ربما رطبًا قليلًا ويسبب القشعريرة؟».

رد براس: «رطبًا فقط يا سيدي، لكن بالدرجة التي يبتهج لها المرء..
لا أكثر من ذلك يا سيدي، لا أكثر».

قال القزم المبتهج: «وماذا عن سالي؟ هل يعجبها المكان؟».

ردت السيدة صاحبة العقل الحكيم صعب المراس: «سيعجبها
أكثر حينما تشرب الشاي، لذا دعنا نتناوله، ولا تزعجنا».

صاح القزم، وهو يفرد ذراعيه، كما لو كان على وشك احتضانها:
«سالي الجميلة اللطيفة الفاتنة! سالي القوية».

قال السيد براس يناجيه: «إنه رجل رائع حقاً! إنه تروبادور، كما تعلمين.. إنه حقاً تروبادور^(٥)!».

لُفِظَت هذه التعبيرات المادحة كأنها عبارات تُردد دون معنى أو شعور؛ ففضلاً عن رأس المحامي البائس الذي كان يرتجف من البرد، تبلل كله فيما بعد، لدرجة جعلته يود لو يقدم طواعية بعض التضحيات المالية، إذا صار بإمكانه فقط تحويل مكانه الحالي قارس البرودة إلى غرفة دافئة، ويجفف نفسه أمام النيران.

أما كويليب، فبخلاف إشباعه لنزواته الشيطانية، دان لسامبسون ببعض الامتنان؛ لدوره في مشهد الحداد الذي كان فيه شاهداً متخفياً، معقّباً على كل أمارات القلق ببهجة فاقت كل التعبيرات، مستمداً منها متعة سرية، لا يمكن أن تضفيها عليه مأدبة غنية غالية.

من الجدير بالذكر أيضاً، التعرض إلى سمة ضئيلة خَصَّت شخصية الآنسة سالي براس، فعلى الرغم من تحملها مصاعب حانة البرية بنفس مشمئزة، لدرجة كادت أن تدفعها إلى المغادرة قبل إحضار الشاي، فقد غمرها بغتة رضى شامل؛ حينما تلمست في القريب العاجل المعاناة التي لحقت بشقيقها البائس، وصارت من توها تستمتع بوقتها بطريقتها الخاصة في ارتياح متجههم. حينها كانت المياه ترشح من السطح، وتقطر فوق رؤوسهم، ولم تذمر الآنسة براس البتة، بل على النقيض تماماً، أشرفت على إعداد الشاي في هدوء تام ورباطة جأش لا مثيل لها. بينما جلس السيد كويليب في ضيافته الصاخبة على برميل جعة فارغ، يمدح

(٥) الشُّعْر التروبادوري الأوكسيثاني يتغنى فيه الشاعر الجَوَّال بالمرأة ويمجدها.

المكان كما لو كان الأكثر راحة وجمالاً في الممالك الثلاث، يرفع الكوب، يشرب نخب لقائهما التالي في هذا المكان المرح. أما السيد براس، فمع تساقط قطرات المطر في كوب الشاي الخاص به، صارع في محاولات أصابته بالغصة من أجل اقتلاع معنوياته من الحضيض، والظهور في مظهره الطبيعي. في حين أن توم سكوت ظل منتظراً عند الباب أسفل مظلة قديمة، جذلاً في معاناته، يزايد بفصل وجنتيه بالضحك.. في غضون تلك الأثناء، جلست الأنسة سالي براس مستقيمة الظهر شهباء وراء صينية الشاي في وداعة وسكينة، لا تنشغل مطلقاً بالرطوبة، وقطرات الماء المتقاطرة على شخصها الأثوي ومظهرها المقبول؛ تبصر تعاسة شقيقتها في راحة بال ورضى، في تجاهل لطيف لذاتها، تعتزم الجلوس هناك طوال الليل؛ لتشاهد عذابه الذي أجبرته طبيعته الجشعة المتدلية على تحمله ومنعته من إبداء امتعاضه. لكن ما يجب ذكره، كي لا تكون الصورة التوضيحية غير مكتملة، أنها على الرغم من المنظور العملي البحت، شعرت بتعاطف قوي تجاه السيد سامبسون، علاوةً على أنها كادت أن تكون في أقصى درجات السخط، إذا كان قد أحبط موكله بأي طريقة.

في ذروة مرحة الصاخب، تجاهل السيد كويليب هيمنة الروح الشيطانية عليه لبعض الوقت، ترجل عن برميله، ووضع يده على رُدن ثوب المحامي.

قال القزم: «كلمة.. قبل أن نحيد عن موضوعنا الأساسي أكثر من ذلك.. أنصتي يا سالي دقيقة».

اقتربت الآنسة سالي من فورها، كما لو كانت معتادة على اجتماعات العمل التي يستحسن ألا تعقد أو تعرض على الملاء مع مضيها.

قال القزم، وهو ينظر إلى الشقيق وشقيقته بالتناوب: «عمل.. عمل في منتهى الخصوصية. أريد منكما أن تركزا جيداً، وتجمعا أفكاركما معاً».

رد براس من فوره، وقد أخرج دفتره وقلمه: «بالتأكيد يا سيدي.. سأجمع خلاصة أفكارى، وسأبذل جهداً جهيداً يا سيدي». رفع المحامي عينيه إلى السقف وأضاف قائلاً: «أدلة جديرة بالملاحظة.. أكثر الأدلة جدارة بالملاحظة. لقد ذكر نقاطه بوضوح شديد.. إنها لمتعة شديدة الإمساك بهم! لكنني لا أعرف أي قانون برلماني يناسبه بالضبط».

قال كويليب: «أنا من سيحرمك من شتى أنواع المتع، إذا لم تنصت إليّ جيداً.. ضع دفترك، لا نريد أي مستندات هنا.. حسناً! هناك فتى يُدعى كيت..».

أومأت الآنسة سالي، كتوضيح منها على أنها تعرفه.

قال السيد سامبسون: «كيت! كيت! ها! لقد سمعت هذا الاسم من قبل، لكنه لا يخطر على بالي الآن.. لا أتذكر تحديداً من هو..».

قال موكله الخدوم بنفاد صبر: «إنك بطيء كالسلحفاة.. ومتبذل الذهن كما لو أن جلد رأسك أكثر سمكاً من جلد وحيد القرن».

صاح سامبسون المتذلل: «إنه مليح للغاية! اطلّعه على التاريخ

الطبيعي أمر يثير الدهشة أيضًا.. إنه بوفون، إنه حقًا بوفون^(٦)!..

ليس هناك أي شك في أن السيد براس قصد الإطراء، ولم يكن هناك أي دافع لذكره حرف علة زائدًا، على الرغم من أنه كان يجب أن يقول (بوفون). ولذلك لم يمنحه كويليب وقتًا للتصحيح، فقام هو بذلك الواجب بنفسه، وانكب على رأسه، ينقرها بمقبض مظلمته.

أمسكت الأنسة براس يده وقالت: «لا تدع أي شيء يعرقلنا.. لقد أومأت لك بأنني أعرفه، وهذا يكفي».

قال القزم، وهو يرت على ظهرها، وينظر بازدراء إلى سامبسون: «دائمًا ما تأتين هي في المقام الأول! حسنًا يا سالي! هذا المدعو كيت، أنا لا أحبه».

ردت الأنسة براس: «وأنا كذلك».

قال السيد سامبسون: «وأنا كذلك أيضًا».

صاح كويليب: «هذا جيد! أحسب أننا من هذا المنطلق، نكون قد أنجزنا نصف عملنا بالفعل. هذا المدعو كيت، واحد من الناس الأمناء الصادقين، واحد من الأشخاص العادلين، كلب متطفل يتسلل خلسة، منافق، مرءٍ، رعديد، جاسوس متسلل، خسيس مروض لمن يطعمونه ويلاطفونه، كلب نباح على الآخرين».

صاح براس وهو يعطس: «بليغ بشكل مخيف.. بليغ بشكل رائع ومروع!».

(٦) جورج دي بوفون: مؤرخ طبيعي ورياضي وعالم كون فرنسي.

قالت الأنسة براس: «هل تباشر في الموضوع، وتحدد النقطة المعنية، ولا تتكلم كثيرًا!». .

أعلن كويليب بقوة، وهو يحدج سامبسون بنظرة ازدراء ثانية، قائلاً: «قولك صحيح مرة أخرى! دائماً ما تأتين في المقام الأول! أنا أقول يا سالي إنه كلب نباح مسعور على الآخرين، على كل الناس، عليّ أنا بالتحديد.. باختصار، أنا أحمل له الضغينة».

قال سامبسون: «هذا يكفي يا سيدي».

قال كويليب ساخراً: «لا! ليس كافياً أيها السيد.. هل تركز معي من فضلك، وتسمعني جيداً؟ علاوة على أنني أحمل له الضغينة، إنه في هذه اللحظة يعيق تقدمي، ويقف حائلاً بيني وبين فرصة ذهبية ستشملنا جميعاً في النهاية. وبصرف النظر عن هذا، أريد أن أكرر أنه يسخر من روح دعابتي، وأنني أكرهه. الآن! أنتما تعرفان الفتى، وأصبح في الإمكان تخمين الباقي. ابتكرا وسائلكما الخاصة لإبعاده عن طريقي، ونفذاها من فوركما. هل سيتم ذلك؟».

قال سامبسون: «يجب أن يتم يا سيدي».

رد كويليب بحسم: «إذن لتتصافح على ما اتفقنا.. لا، أقصد سالي، الفتاة، أعطيني يدك. أنا أعتمد عليك اعتماداً كبيراً، أعتمد عليك أكثر من اعتمادي عليه بمراحل. فلتُعد يا توم سكوت الغلاوين، والمشروبات الروحية، ولتشعل الفانوس، ولنهنأ بليلة مريحة!».

لم تُنطق أي كلمة أخرى في هذا الصدد، ولم يتبادل أي نظرة

أخرى حملت تلميحا ولو طفيفا، عن السبب الرئيس لمقابلتهم. كان هذا الثلاثي معتادا للغاية بشكل جيد على العمل معا، فقد جمعتهم المصالح والمنافع المشتركة، ولا يُحسب أن هناك حاجة لما هو أكثر من ذلك. استعاد كويليب سلوكه الصاخب فجأة وبسر تام، مثلما كف عنه فجأة وبسر تام أيضا قبل بضع ثوانٍ، فصار في لمح البصر في الوحشية الشيطانية الصاخبة المتهورة نفسها. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً قبل أن تسند سالي الودودة شقيقها المحبوب والمحبب للرحيل من حانة البرية؛ كان في ذلك الوقت في أمس الحاجة إلى أقصى دعم يمكن لجسدها الرقيق أن يقدمه له؛ كانت لخطواته - لأسباب غير معروفة - أي صفة أخرى عدا كونها ثابتة، فكانت قدماء تطآن معا في أماكن غير متوقعة على نحو مترنح.

بعد أن خارت قواه، على الرغم من نومه لساعة متأخرة، بسبب إرهاق الأيام القليلة الماضية، لم يهدر القزم أي وقت، وزحف من فوره إلى مسكنه الراقي المنظم، ولم تمر اللحظات، وكان نائما في أرجوحته يحلم. نتركه للرؤى، التي ربما لم تخلُ من تجسيد الشخصين الطيبين اللذين تركناهما في رواق الكنيسة القديمة، وربما يحسب أن مهمتنا الآن هي الانضمام لهما مجدداً بينما كانا جالسين مرتقبين وصول المعلم.



الفصل الثاني والخمسون

بعد مضيّ فترة طويلة، ظهر المعلم أخيرًا عند بوابة الكنيسة، كان يركض نحوهما، بينما تخشخش في يده طوال ما كان مسرعًا مفاتيح صدئة. حينما وصل إلى الرواق كان منقطع الأنفاس إلى حد كبير من فرط سعادته وسرعته، لم يستطع التحدث في البداية، لكنه أشار فقط تجاه المبنى القديم الذي كانت تفكر فيه الطفلة وتأمله في جدية.

قال أخيرًا: «هل ترين هذين المنزلين القديمين؟».

ردت نيل من فورها: «نعم، بالتأكيد! لقد كنت أنظر إليهما طوال الوقت الذي كنت فيه بالخارج تقريبًا».

قال صديقها: «كنتِ ستنتظرين إليهما بتوقٍ يغمره الفضول، إذا كنتِ قد خمنتِ ما سأخبركِ به الآن.. إن أحد هذين المنزلين ملك لي».

من دون أن يلفظ المعلم بكلمة أخرى، أو يعطي للطفلة مجالًا من الوقت كي ترد، أمسك يدها، وبوجه باشٍّ تعلوه أمارات الصدق ويشع بالابتهاج، اقتادها إلى المكان الذي تحدثا عنه لتوهما.

وقفنا أمام بابه المقنطر. بعد تجربة العديد من المفاتيح عبثًا، وجد المعلم أخيرًا مفتاحًا يتناسب مع القفل الضخم، تقلقل المفتاح داخل القفل، وسمح لهما أخيرًا بالدخول.

كانت القاعة التي دخلوها عبارة عن غرفة مقببة، يتبين أنها بُنيت ورُخرفت بطراز راقٍ من قبل مهندسين معماريين بارعين؛ فلا تزال تحتفظ برونقها، غلب على الطراز الرائع لسقفها القباب المتعامدة، كثرَت فيها آثار زخرفية حجرية نَمَت عن روعتها القديمة. كأن نقوش أوراق الشجر والنباتات المنحوتة في الصخر باقية لتحاكي تفوق يد الطبيعة وسيادتها في أي وقت وحين، فظلت موجودة حتى تلك اللحظة لتخبرنا عن عدد المرات التي نمت فيها الأوراق وتلاشت خارج ذلك المكان، بينما كانت تعيش هناك طوال ذلك الوقت دون تغيير. انتصبت الأعمدة إلى جانب المدفأة الفارغة في مشهد حِداذي، على الرغم من تهشمها، لا تزال فريدة متميزة على ما كانت عليه - حتمًا كانت لتختلف كليًا دون الغبار الذي سكن على طبقاتها - بدت مثل مخلوقات صمدت ضد الموت ونجت بخلاف باقي نوعها، لتبقى هي متفجعة، تصارع اضمحلالها الرتيب بنفسها دون مساندة.

في وقت من الماضي - حتى التغيرات كانت قديمة في ذلك المكان العتيق - شُيِّدَ جانب خشبي في أحد أركان الغرفة، ليشكل مقصورة للنوم، كان الضوء يتسلل إليه في ذلك الوقت عبر نافذة بدائية، أو على نحو أدق عبر كوة ثلمت في الجدار المصمت. يتضح أن هذا البرزخ إلى جانب مقعدين أمام المدفأة، في تاريخ طويٍ مع الدهر، أصبح جزءًا لا يتجزأ

من الكنيسة أو الدير.. أما خشب جذوع أشجار البلوط، الذي سرعان ما خصص لخدمة أغراض الحاضر، فقد تغير إلى حد ما عن شكله الأولي، فبان لأعين الناظرين كركام جذاذ بهي من حجيرات رهبانية قديمة. أفضى إلى باب مفتوح إلى حجرة أو صومعة، معتمة، لكن أوراق نبات اللبلاب عكست فيها نورًا خافتًا، أكمل الصورة الداخلية لطللها. لم يكن المكان معدمًا تمامًا من الأثاث. وجد فيه القليل من الكراسي غريبة الشكل؛ بدت قوائمها ومساندتها كما لو أنها تقلصت مع تقدم الزمن، ومنضدة، ومتاع آخر بدا شبحيًا، وخزانة ضخمة قديمة بدت كأنها كانت تحتفظ في وقت سابق بسجلات الكنيسة، ومخزن للحطب في فصل الشتاء، ومقتنيات منزلية أخرى قديمة الطراز، كانت مبعثرة هنا وهناك، مقدمة دلالات جلية على أن الانتفاع بذلك المكان كمسكن للمعيشة لم يكن من وقت بعيد.

نظرت الطفلة حولها، وقد غمرها هذا الشعور الشعائري المهيّب، الذي يتتابنا حينما نتأمل أعمال العصور التي أصبحت مجرد قطرات من ماء في محيط الخلود الشاسع. تبعهما الرجل العجوز، لكن ثلاثهم قبعوا صامتين، يسحبون أنفاسهم في هدوء رخيم، كما لو كانوا يخشون إنهاء الصمت ولو حتى بهمس خافت.

قالت الطفلة في صوت منخفض: «إنه مكان جميل جدًا».

رد مدير المدرسة قائلاً: «كنت أخشى أن يكون رأيك بخلاف ذلك؛ لقد ارتجفت فور دخولنا، كما لو كنتِ شعرت بالبرد أو التشاؤم».

قالت نيل، وهي تنظر حولها بارتجاف طفيف: «لا! لم يكن الأمر كذلك.. في الواقع، لا أستطيع أن أخبرك ما كان ذلك بالضبط، لكنه

الشعور نفسه الذي راودني حينما رأيته لأول مرة من الخارج من رواق الكنيسة. ربما لأنه قديم جدًا ومعتم».

قال صديقها: «إنه مكان سلمي للعيش فيه، ألا تعتقدين ذلك؟».

قالت الطفلة، وهي تحكم قبضة يدها في جدية: «أوه! إنه مكان هادئ ومبهج.. إنه مكان للعيش وللتعلم وللموت فيه!». كانت لتسترسل في قولها، لكن علو حماس أفكارها تسبب في خفض صوتها، حتى صار همسات متذبذبة من شفيتها.

قال المعلم: «إنه مكان للعيش، وتعلم العيش، واستجماع قوى العقل والجسد والنفس فيه.. إن هذا المنزل القديم لكما».

صاحت الطفلة: «لنا!».

رد المعلم في مرح: «نعم، لكما. لسنوات سعيدة مديدة قادمة. وسأكون لكما جارًا قريبًا.. -الباب المجاور فقط- لكن ما يهم الآن أن هذا المنزل بأكمله ملك لكما».

بعد أن رَوَّح المعلم على قلبه بمفاجأته العظيمة، جلس، مستدعيًا نيل إلى جانبه، أخبرها كيف علم أن المسكن القديم كان آهلاً لمدة طويلة جدًا بعجوز، قارب عمرها على مائة عام، وأنها هي مَنْ كانت تحتفظ بمفاتيح الكنيسة، تفتحها وتغلقها في أوقات القداس، وتعرضها للغرباء.. أخبرها كيف ماتت من أسابيع ليست بعيدة، وأنه منذ ذلك الحين لم يُعثر على شخص ليتولى منصبها.. أخبرها كيف عرف كل هذا أثناء مقابله مع القندلفت، بينما كان طريح الفراش، بسبب الروماتيزم،

وأنه كان جريئاً حينما رشح رفيقيه المرتحلين، وقد لقيَ الترشيح استحساناً كبيراً من تلك السلطة العليا، لدرجة أنه تحلى بالبسالة، للعمل بنصيحته، وعرض مشورته على الكاهن. وخلاصة القول أنه نتيجةً لمجهوداته سوف تمثل نيل وجدُّها أمام الرجل المذكور أخيراً في اليوم التالي، وأن موافقته على سلوكهما ومظهرهما مجرد مسألة شكلية، وأن تعيينهما في الوظيفة الشاغرة قد تم بالفعل.

قال المعلم: «سيكون هناك بدلٌ من المال.. ليس بالقدر الكثير، مقدارٌ زهيدٌ.. لكنه لا يزال كافياً للعيش في هذا المكان المنعزل.. ومن خلال تجميع أموالنا معاً، لا قلق من العيش مطلقاً».

شهقت الطفلة في نحيبها وقالت: «فلياركك الرب وينعم عليك!». .

قال صديقها في سعادة: «آمين يا عزيزتي! فليباركنا جميعاً، مثلما فعل ويفعل دائماً، مثلما بدل أحوالنا، وانتشلنا من الحزن والضيق، وأنعم علينا بهذه الحياة المطمئنة الهادئة. هيا الآن، يجب أن نرى منزلي.. هيا تعالي!». .

ذهبا إلى المسكن الآخر صحبة، جرب المفاتيح الصدئة مثلما فعل من قبل، حتى وجد المفتاح الصحيح أخيراً، وفتح به الباب النّخر. قاد الباب إلى غرفة ذات سقف مقبب وقديم، شابته تلك التي أتيا منها، لكنها لم تكن فسيحة مثلها، بها حجرة واحدة صغيرة فقط متصلة بها. لم يكن من الصعب استنباط أن المسكن الآخر كان من المفترض أنه للمعلم، لكنه أثرهما على نفسه، واختار لنفسه الأقل اتساعاً؛ رعاية ومراعاة لهما. تواجد فيه مثل المسكن المجاور قطع أثاث قديمة، لكنها

كانت القطع الضرورية التي لا غنى عنها فقط، وكومة من الحطب.

بات أمرهم الشاغل الممتع الآن، هو جعل هذين المنزلين صالحين للسكن وباعثين على الراحة قدر استطاعتهم. وبالفعل مع مرور وقت قصير، كانت النيران المبهجة تلمع وتصدر حسيسها في مدفأة كل منهما، تعكس وهجاً صحياً مُعافياً على الجدار القديم الباهت. كرس نيل نفسها من أجل حياكة الستائر الممزقة للنوافذ بإبرتها، وجمعت خرقات بقايا السجاد الرث الذي تهرأ بفعل الزمن معاً، وجعلتها كاملة ولائقة. جرف المعلم الأرض أمام الباب، وجز العشب الطويل، وشذب اللبلاب والنباتات المتعرشة التي تدلت رؤوسها في إهمال محزن، أضفى على الجدران الخارجية طبعاً منزلياً مبهجاً. أما الرجل العجوز، فبمفرده أو مع الطفلة، قدم مساعدته لكليهما، يتحرك هنا وهناك، ينجز بعض الخدمات الهينة، لقد كان سعيداً. حتى الجيران أيضاً، حينما أتوا من أعمالهم، إما قدموا مساعداتهم بأنفسهم، وإما أرسلوا أبناءهم بهدايا وقروض بسيطة، كان الغرباء في أشد الحاجة إليها. كان يوماً حافلاً، ورغم ذلك حينما زحف الليل، وجدهم يتعجبون من أنه لا يزال هناك الكثير للقيام به، وأن الظلام سيحل فيما هو قريب.

تناولوا عشاءهم معاً، في المنزل الذي أصبح يطلق عليه منذ ذاك وصاعداً منزل الطفلة، حينما أنهوا وجبتهم، التفوا حول النيران، وبالكاد تهامسوا في لين - يشبه لين قلوبهم الخافقة - ليناقشوا خططهم المستقبلية. قبل أن يفضوا مجلسهم، تلا المعلم بعض الصلوات والأدعية بصوت عالٍ، وبعد ذلك تفرقوا في امتنان كامل وسعادة عارمة، لساعات الليل.

في تلك الساعة الهادئة في زلف الليل، بينما كان جدها نائمًا في سلام وأمان في سريره المنخفض، والأصوات من حولها ساكنة، مكثت الطفلة أمام الجمرات الخابية، تسترجع ماضيها وتفكر فيه، بدا لها كحلم عاشا فيه، واستيقظت منه من توها. انعكس وهج الشعلات على الألواح البلوطية، فشوهت ظلال قممها المنحوتة على السقف الغاسق -أما الجدران العتيقة، فماجت عليها ظلال غريبة تظهر وتختفي مع كل ومضة نار- دفعت الحضرة الشعائرية المهيبة لطلل الجوامد التي بدت الأكثر ديمومة في طبيعتها، وللموت الذي حنفها من كل اتجاه وجانب في الخارج، الطفلة إلى تفكير عميق ومشاعر مختلطة، لكن الفزع والحذر لم يكونا من بينها. لقد تسلل إلى قلبها تغيير في وقت حزنها ووحدتها. مع خوار القوى وازدياد الوضوح، صار عقلها نقيًا ومتغيرًا، رحب صدرها بأفكار مباركة وآمال، كانت جزءًا من قليل لكنها كانت الجزء الواهن العليل.

لم يكن هناك من يرى الروح الهالكة الفانية، مثلما كانت تنزاح من أمام النيران وتتكئ على النافذة في حلم وحزن، سوى النجوم، تنظر من عليّة إلى وجهها، وتقرأ تاريخه. ترددت دقات جرس الكنيسة القديم معلنة الساعة في صوت حدادي، كما لو أن حزنًا انطبع على نغمة رنينها من كثرة مناجاة الموتى وتحذيراته غير المسموعة للأحياء، وحفيف الأوراق المتساقطة، وغنة العشب على القبور، بينما ظل كل شيء آخر في سكون النوم.

لاح على مبعدة يسيرة بعض أولئك الذين ينامون بلا أحلام

يجلسون في ظلال الكنيسة، يتلمسون جدرانها، كما لو كانوا يتشبثون بها راجيين الراحة والحماية، وبعض آخري اختاروا أن يستلقوا في الظل المتغير للأشجار، وغيرهم ممّن ناموا على طوار الطريق، بالقرب من وقع خطوات الأقدام، وغيرهم هائمين في نومهم بين قبور الأطفال. ربما رغب البعض في نيل قسط من الراحة على الأرض التي داسوها أثناء سيرهم اليومي، ربما تواجد البعض حيث تمر شمس المغيب على أسرتهم، وآخرون حيث ينساب عليهم نورها حينما تشرق. ربما لم تكن أي من تلك الأرواح السجينة قادرة على انتشال نفسها من بؤرة التفكير في رفقتها القديمة. وإن قدرت أيّا منها، فلا يزال كامناً فيها حب يشبه ذلك الذي يعرفونه الأسرى تجاه سجونهم بعد رديح من الوقت، حتى وإن تفرقوا، دائماً ما سيحومون حولها في مودة.

مر وقت طويل قبل أن تغلق الطفلة النافذة، وتلجأ إلى فراشها. يتتابها الشعور نفسه مرة أخرى كما انتابها من قبل، قشعريرة لا إرادية، شعور مؤقت شبيه بالخوف، لكنه سرعان ما ينحسر عنها، ولا يخلف فزعاً بعد انقشاعه. تراودها الأحلام ذاتها عن طالب المدرسة الصغير كما راودتها من قبل، ترى السقف يُفتح، و ترتفع صفوف من وجوه مضيئة، بعيداً نحو السماء، في مشهد يطابق ما رآته ذات مرة في صورة إنجيلية قديمة، ترنو إليها وهي نائمة. لقد كانت أحلاماً طيبة وسعيدة. بدا المكان الهادئ في الخارج كما كان، عدا أصوات نغمات، وأصوات رفرقة أجنحة ملائكة ماجت في الأجواء. ومع مرور الوقت جاءت الشقيقتان، يدًا بيد، وقفتا بين القبور، ثم خفت الحلم، وتلاشى.

مع حلول تباشير الصباح وبهيجته، وحلول الوقت لاستكمال أعمال
الأمس، وتجديد الأفكار السارة، وإنعاش الطاقات، وتعميم السعادة،
وتجديد الأمل، عملوا جميعاً بفرح ومرح في ترتيب وتنظيم منزليهما
حتى الظهر، وبعدها ذهبوا لزيارة الكاهن.

كان رجلاً في غمار الشيخوخة، سليم الطوية، ذا نفس خجولة،
منطوياً، اعتاد العزلة، مطلعاً على قدر قليل من العالم الخارجي؛ فلقد
تركه منذ سنوات عديدة، وأتى إلى هذا المكان ولزمه ولم يفارقه منذ
ذاك الوقت. توفيت زوجته في المنزل الذي لا يزال فيه يعيش، ومنذ فترة
طويلة فقد تماماً أي اهتمامات أو آمال دنيوية.

استقبلهم بلطف شديد، ومنذ أول وهلة أظهر اهتماماً بنيل، سأل عن
اسمها، وعمرها، ومكان ميلادها، والظروف التي أودت بها إلى هناك،
وهلَّمْ جرّاً. أخبره المعلم بقصتها. أخبره أنهما ليس لهما أي معارف أو
أصدقاء أو منزل يسكنان فيه، قال لهما: إن مصادفة مقابلتهما أفضل ما
يمكن ليتشاركا الحظ السعيد، وإنه أحب الطفلة كما لو كانت طفله.

قال الكاهن: «حسنًا حسنًا! فليكن الأمر مثلما رغبت. لكنها صغيرة
جداً».

رد المعلم: «بل كبيرة لتجاربها العثرة والشدائد التي تعرضت لها
يا سيدي».

رد الكاهن العجوز: «الرب يرعاها.. دعها تستريح، انسَ شأنهما؛
فالكنيسة القديمة مكان معتم غاسق لطفلة صغيرة مثلك يا طفلي».

ردت نيل: «أوه! لا يا سيدي.. لا تعتريني هذه التصورات في الواقع».

قال الكاهن العجوز، وهو يضع يده على رأسه ويتسم في حزن: «إنني أفضل أن أراها ترقص في المرح الأخضر في الليل، على أن أراها جالسة في ظلال أقواسنا الحديدية. يجب أن تتحرى الأمر، وتؤكد من أن قلبها لن يثقل مع الوقت بين هذه الأطلال الشعائرية.. إن طلبك مقبول يا صديقي».

بعد تداول الكثير من الكلمات الطيبة، انسحبوا متجهين إلى منزل الطفلة، بينما كانوا في خضم حديثهم عن الحظ السعيد، ظهر صديق آخر.

كان رجلاً مسنّاً ذا بنية صغيرة، عاش في بيت الكاهن-مثلما علموا فيما بعد- أقام هناك منذ وفاة زوجة الكاهن، قبل خمسة عشر عاماً. كان صديقه في الدراسة، وصديقه المقرب دائماً وأبداً، وفي أول لحظات صدمة فاجعة، كان أول مَنْ أتى لتعزيته وطمأنة نفسه، ومنذ ذلك الوقت لم يفصل عن رفيقه قط. يعتبر هذا الرجل المسن روح المكان المفعمة بالنشاط والحيوية، والضابط لشتى الفوارق، والمتعهد بالمرح، والموزع لعطاءات صديقه -التي لا تخص عطاءاته الشخصية- والوسيط بينه وبين العالم، والمعزي، والصديق الصدوق. لم يُبدِ أي أحد من القرويين البسطاء رغبته في سؤاله عن اسمه، أو متى سيعرفونه لحفظه في ذاكرتهم. ربما بسبب بعض الشائعات الملتبسة عن حصوله على البكالوريا ودرجات الشرف التي تهامسوا بها فور وصوله لأول

مرة، أو ربما لأنه رجل غير متزوج أو مرتبط، سُمِّيَ فيما بينهم بالعازب حامل البكالوريا. ربما كان ذلك العازب حامل البكالوريا هو مَنْ زود المرتحلين بالوقود في سكينهم الجديد.

جاء العازب حامل البكالوريا -فلندعوه بتسميته المعتادة- رفع المزلاج، أظهر وجهه الصغير المستدير لوهلة عند الباب، ثم دخل الغرفة كشخص ليس بغريب على المكان.

قال مُقدِّمًا تحية إلى صديق نيل الطيب: «هل أنت السيد مارتون.. المعلم الجديد؟».

- نعم أنا يا سيدي.

- أنت شخص حسن الصيت موصى بك، إنني سعيد لمقابلتك. كان يجب أن أكون في استقبالك بالأمس، لكنني عرجت على الريف؛ أحمل رسالة من أم مريضة إلى ابنتها في الخدمة على بعد أميال، وقد عدت من توي. هل هذه هي حارستنا الصغيرة للكنيسة؟ إنك لست الأقل ترحيبًا هنا يا صديقي، بل من أجلها، أو من أجل هذا العجوز، ولست بمعلم سيئ لأنك على علم أكيد بالإنسانية.

قال المعلم، ردًا على نظرة زائرهم على نيل، حينما قبَّل وجنتها: «لقد كانت مريضة في الآونة الأخيرة يا سيدي».

قال: «نعم نعم. أعرف أنها تعرضت إلى الكثير من المعاناة ووجع القلب».

- بالفعل يا سيدي.

رمى المسن صغير الحجم جدّها، ثم نظر إلى الطفلة، التي أخذ يدها في لطف، وظل ممسكاً بها.

قال: «ستكونين أسعد هنا.. أو على الأقل سنحاول أن نجعلك كذلك. لقد أجريت بالفعل العديد من التحسينات هنا. هل هذا من عمل يديك؟».

- نعم يا سيدي.

قال العازب حامل البكالوريا: «سنعمل على إحضار أشياء أخرى.. ليست الأفضل من نوعها، بل الأفضل من المتاح.. دعونا نرى الآن ما تحتاجون، هيا دعونا نرى!».

اصطحبته نيل إلى الحجيرات الصغيرة الأخرى، في كلا المنزلين، حيث وجد العديد من اللوازم التي يحتاجونها، فعمل من فوره على تزويدهم بأشياء مختلفة، كانت لديه في بيته، كانت جميعها أغراضاً متنوعة وشاملة، لدرجة أنها احتوت على أشياء لا يمكن تخيلها. على كل حال، من دون إضاعة للوقت، تواردت إليهم اللوازم كافة، فغاب الرجل المسن لخمس أو عشر دقائق، ومن ثم عاد محملاً بأرفف قديمة وسجاد وبطانيات ومعدات منزلية أخرى، وتبعه صبي يحمل حمولة مماثلة. أُلقيت الأغراض على الأرض في كومة فوضوية، أسفرت عن عمل كثير لإنجاز ترتيبها ونصبها ووضعها في أماكنها، من الواضح أن الإشراف على هذه المهام منح الرجل العجوز سعادة فائقة، وأضفى عليه الحيوية والنشاط لبعض الوقت. حينما لم يتبقَّ أي فروض أخرى للقيام بها، أمر الصبي بالركض من فوره؛ لإحضار زملائه؛ كي يتجمعوا

ويصطفوا في ترتيب مهيب أمام معلمهم الجديد.

التفت إلى المعلم فور رحيل الصبي وقال: «إنهم صبية متميزون يا مارتون، وآمل أن يكونوا عند حسن ظنك.. لكنني في الواقع لا أصرح لهم برأيي، أحسب أن هذا لا يصح على الإطلاق».

عاد الرسول سريعاً، يتقدم صفّاً طويلاً من الأولاد والغلمان الصغار، الذين اضطربوا وقدموا بمختلف إيماءات الطاعة والاحترام في أدب عارم فور ملاقاتهم العازب حامل البكالوريا قبالة باب المنزل، أحكموا قبضة أيديهم في شدة على القبعات والطواقي، يعتصرونها ويطبّقونها إلى أصغر الأبعاد الممكنة، مقدمين كافة الانحناءات والوقوفات، حينها وقف الرجل المسن يتأملهم في ارتياح مفرط، وأعرب عن رضاه عنهم بالكثير من الإيماءات والابتسامات. في الواقع، لم يكن استحسنه للصبية متوارياً بالدرجة التي أوحى بها إلى المعلم على الإطلاق، علاوة على أنه أفضى إليه بهمسات عديدة كانت صاخبة وتعليقات خصوصية في صوت مسموع تماماً لجميع المتواجدين.

قال الرجل العازب حامل البكالوريا: «هذا الصبي الأول، إنه جون أوين، صبي جيد يا سيدي، وصادق وأمين، لكنه متهور، لعوب، طائش لأبعد الحدود. هذا الولد يا سيدي، ممكن أن يكسر رقبتة في منتهى السرور، ويحرم والديه من نعمة الراحة.. اجعل الأمر سرّاً بيننا، حينما تأتي وتراه في لعبة (الأرنب وكلاب الصيد) يأخذ السور والخندق إلى جانب اللافئات، وينزلق للأسفل نحو المحجر الصغير، لن تنسى هذا المشهد مطلقاً. إنه رائع!».

بعد أن أتم توبيخ جون أوين، واستحوذ على أطراف الحوار لنفسه،
اختار العازب حامل البكالوريا صبيًا آخر.

قال: «انظر الآن إلى ذاك الصبي.. هل تراه؟ اسمه ريتشارد إيفانز
يا سيدي. فتى مذهل في التعلم، لديه ذاكرة قوية، نبه، سريع الفهم،
علاوةً على أن أذنه جيدة وصوته عذب في غناء الترانيم، فهو الأفضل
بيننا. ومع ذلك يا سيدي، سينتهي به الأمر نهاية سيئة، لن يموت أبدًا في
سريره، ينام دائمًا في وقت الموعدة.. ولقول الحقيقة يا سيد مارتون،
دائمًا ما كنت أفعل الأمر نفسه حينما كنت في مثل سنه، وأشعر أن الأمر
طبيعي جدًا طبقًا لعرفي، وأن لا حيلة لي في تغييره».

حُرر ذلك الطالب المبشر من التوبيخ الرهيب، ومن ثمّ انتقل
العازب حامل البكالوريا إلى آخر.

قال: «إذا كنا نتحدث عن أمثلة لنكون في منأى.. إذا وصل بنا
الحديث إلى الصبية الذين يجب أن يكونوا عبرة لزملائهم الآخرين،
فنحن بصدد الحديث عن هذا الصبي، آمل ألا تخبره. إنه ذاك الصبي يا
سيدي، صاحب العينين الزرقاوين والشعر الفاتح. إنه سباح يا سيدي،
بل على وجه أدق غطاس.. فليحمننا الرب ويرعانا! هذا الصبي يا
سيدي، لديه ولع بالغطس لقراءة الثمان عشرة قدمًا في أعماق الماء،
مرتديًا ملابسه، يذكر أنه غطس ذات مرة تلك المسافة وأنقذ كلب
رجل أعمى، غرق بسبب وزن سلسلته وطوقه، بينما كان سيده يحرك
يديه بقوة في ماء الجدول، وينوح بسبب فقدانه لمرشده وصديقه».

أضاف العازب حامل البكالوريا في همسه الغريب قائلاً: «لقد أرسلت إلى الصبي فور معرفتي (جنيهين إنجليزين)^(٧) دون إخطار بالاسم يا سيدي، أرسلتهما له دون علم أي أحد على الإطلاق، لدرجة أنه ليس لديه أدنى فكرة أنهما مني إلى الآن».

بعد الانتهاء من الحديث عن هذا الشقي، انتقل العازب حامل البكالوريا إلى صبي آخر، ومنه إلى آخر، وما إلى ذلك حتى تحدث عنهم جميعاً، من أجل حصر نافع لهم حتى يتصرفوا بشكل سليم، اعتمد في حديثه على نفس التركيز القاطع على نزعاتهم الأعز على قلبه، والعائدة إلى وجهة نظره ومبدئه الشخصي وأمثولته.

في النهاية، كان من الواضح تمامًا، أنه أحبطهم بسبب صرامته، فقدّم لهم عطية صغيرة، ثم سمح لهم بالانصراف، مشددًا عليهم أن يسيروا إلى البيت في هدوء، دون أي قفزات أو شجارات أو حيد عن الطريق، ثم أخبر المعلم بنفس النبوة المسموعة، أن نصائحه وأموره الاحترازية التي يوصيهم بها، لا يعتقد أنه كان ينفذ أيًا منها عندما كان صبيًا.

بعد الإشادة بتلك التدابير البسيطة لتصرف العازب حامل البكالوريا، وتأكيدات كثيرة على ترحيبه به منذ ذلك الوقت، رحل المعلم عنه بقلب سعيد، وروح مبتهجة، معتبرًا نفسه أنه أحد أسعد الرجال على وجه الأرض. كانت نوافذ كلا المنزلين ضاربة إلى الحمرة، تعكس توهج النيران المبهجة في الداخل، في تلك الليلة وقف العازب

(٧) أواخر إصدارات الجنيه كانت في أوائل القرن التاسع عشر، حينها كان الجنيه يساوي ٢١ شلنًا، والجنيه الإسترليني يساوي ٢٠ شلنًا.

حامل البكالوريا وصديقه بعد أن عادا من نزهتهما الليلية يرنوان إليها،
ويتحدثان معًا بصوت خافت عن الطفلة الجميلة، وينظران حولهما في
ساحة الكنيسة، وهما يتنهدان.



الفصل الثالث والخمسون

في الصباح الباكر، استيقظت نيل في نشاط وحيوية، أنجزت من فورها جميع أعمالها المنزلية، ورتبت كل شيء للمعلم الطيب -على الرغم من أن ما فعلته كان معاكساً تماماً لرغبته، فقد أراد لها الراحة وأوصاها بها- أنزلت حمالة صغيرة للمفاتيح من على مسمار بجانب المدفأة، كان العازب حامل البكالوريا قد أعطاها لها بشكل رسمي في اليوم السابق، ثم خرجت بمفردها لزيارة الكنيسة القديمة.

كانت السماء صافية ومشرقة، والهواء نقيًا، ينفح ريحاً طيبة، عطراً برائحة الأوراق المتساقطة آنفًا، كان كل شيء يقر بالجمال. زفت النسمات المجاورة، وتدفقت في نغم فريد. لمع الندى على التلال الخضراء، كدموع ذرفت الأرواح الطيبة على الموتى. لعب بعض الأطفال الصغار بين القبور، واختبئوا من بعضهم، بوجوه متهللة بالابتسامات. كان معهم رضيع، وضعوه نائمًا في فراش صغير من أوراق الشجر على أحد قبور الأطفال. لقد كان قبرًا جديدًا.. ربما كان قبرًا ومكانًا لراحة مخلوق صغير، كان وديعًا صبورًا في مرضه، اعتاد على أن يجلس ويشاهدهم، والآن على هذا الحال، بدا الوضع كأنه بالكاد تغير في أذهانهم.

اقتربت الطفلة من أحدهم وسألته: لِمَن هذا القبر؟ لم يكن رد الطفل إجابة باسمه؛ بل قال هذا يُدعى روضة.. وهي روضة أخيه. قال: إنه أكثر خضرة من شتى الرياض الأخرى، وإن الطيور تفضل التحليق حوله؛ لأنه اعتاد على إطعامها. حينما أنهى كلامه، نظر إليها بابتسامة، وهو يركع مستكيناً للحظة، يضع خده على العشب، ثم وثب بعيداً مرة واحدة، يحدوه المرح.

مرت بالكنيسة، وهي تحديق إلى الأعلى نحو برجها القديم، وبعدها مرت بالبوابة الصغيرة، وهكذا دخلت إلى القرية. رأت القندلفت العجوز يتوكأ على عكاز، يستنشق الهواء أمام باب كوخه الريفي، فحيها بصباح الخير.

توقفت الطفلة من توها لتتحدث معه وقالت: «هل أنت بخير؟».

رد العجوز: «نعم بالتأكيد.. أنا ممتن جداً لاهتمامك، أنا بخير».

- ستكون في أفضل حال قريباً.

«بمشيئة السماء، والتحلي ببعض الصبر.. ادخلي ادخلي». عرج العجوز إلى الداخل قبلها، حذرهما من عتبة الباب المنحدرة، التي اجتازها بنفسه دون أي صعوبة قط، ثم قاد الطريق إلى داخل كوخه الصغير.

- مثلما تلاحظين، توجد غرفة واحدة فقط هنا بالأسفل، ويوجد أخرى في الأعلى، لكن صعود الدرج في السنوات الأخيرة أصبح أكثر مشقة، ولم أعد أصعد على الإطلاق. ومع ذلك، أفكر أن أجرب الصعود مرة أخرى.. ربما في الصيف المقبل.

تساءلت الطفلة في خاطرها متعجبة، كيف يمكن لرجل عمّ الشيب رأسه، وفي غمار الشيخوخة -فضلاً عن مهنته أيضاً- ويتحدث عن الوقت بتلك السهولة. لاحظ أنها تشخص بصرها إلى أدواته المعلقة على الحائط، فابتسم.

قال: «أجزم الآن، أنك تعتقدين أنني أستخدم تلك الأدوات كافة في حفر القبور».

- في الواقع.. إنني أتعجب من أنك في حاجة إلى الكثير منها هكذا.
- ربما معك حق في هذا الاعتقاد.. لكنني بستاني، أحفر الأرض، وأزرع ما يحيا وينمو على سطح الأرض. ليست أعمالي مقتصرة على ما يتحلل ويتعفن في الأرض. هل ترين هذا المجرف المعلق في المتصف؟

- أنقصد ذاك القديم جداً! نعم أراه. لكنه قد ثلم ونخر.
«إنه مجرف القندلفت الخاص، والأكثر استخداماً كما تلاحظين.
إننا أناس نتمتع بالصحة، ومع ذلك فهو القوى الأساسية لإنجاز العمل..
إذا كان ذلك المجرف يستطيع التحدث، فكان سيخبرك بالعديد من الأعمال غير المتوقعة التي قمنا بها معاً، لكنني نسيته.. إن ذاكرتي ذاكرة ضعيفة..»، ثم أضاف من فوره: «لطالما كانت كذلك بالطبع، هذا ليس حالاً مستجداً».

قالت الطفلة: «لكن هناك الكثير من الزهور والشجيرات هي خير دليل على عملك الآخر».

- أوه! نعم بالطبع، والأشجار الطويلة أيضًا. لكن هذا العمل لا
ينفصل البتة عن أعمال ومهام القندلفت، كما تظنين.

- كيف لا انفصل!

قال العجوز: «لا انفصل على حسب اعتباري، وعلى حسب ذاكرتي
أيضًا.. بل على الأغلب يفيدها ويساعدها. فرضًا، أقول إنني زرعت
هذه الشجرة لهذا الشخص. فتذكرني استقامتها في رقعتها، بأنه توفي.
وعندما أنظر إلى ظلها الفسيح، أتذكر كيف كان حين وفاته، فتساعدني
في معرفة توقيت عملي الآخر، وبذلك أستطيع أن أخبرك متى حفرت
قبره تقريبًا».

قالت الطفلة: «لكن هذا قد يذكرك بأحد ما، قد يكون لا يزال على
قيد الحياة».

رد العجوز: «من بين عشرين متوفً، يوجد واحد فقط له علاقة بهم
على قيد الحياة.. زوجة، زوج، والدين، إخوة، أخوات، أبناء، أصدقاء..
عشرين متوفً، على أقل التقديرات. لذلك ثلم مجرف القندلفت ونخر.
أحتاج إلى واحد جديد.. ربما في الصيف المقبل».

التفت الطفلة نحوه من فورها، ظنت أنه يسخر من سنه وعجزه،
لكن القندلفت كان هادئًا في جدية.

قال بعد صمت قصير: «آه! إن الناس لا يتعلمون أبدًا.. لا يتعلمون
أبدًا. نحن فقط من يحفرون الأرض، حيث لا شيء ينمو، ويصيب العفن
كل شيء، من يفكر في مثل هذه الأشياء من هذا المنطلق.. أقصد، من

يفكر فيها بشكل صحيح.. لقد كنتِ في الكنيسة، أليس كذلك؟».

ردت الطفلة: «إني ذاهبة إلى هناك الآن».

قال القندلفت: «توجد بئر ماء قديمة هناك، أسفل الجرس مباشرة، بئر عميقة مظلمة يتردد في أركانها الصدى. قبل أربعين عامًا كان كل ما عليك فعله هو إنزال الدلو، حتى العقدة الأولى من الحبل في الرافعة، ثم تسمعين صوت عيب الماء البارد المعتم في الدلو. لكن المياه حينًا بعد حين انحسرت، وبعد عشر سنوات، حللنا العقدة الأولى، وربطنا عقدة ثانية، حينها وجب علينا إرخاء الكثير من الحبل، وإلا سيتأرجح الدلو، ويأتي فارغًا في النهاية. في غضون عشر سنوات أخرى، انحسرت المياه بعيدًا مرة ثانية، وعقدنا العقدة الثالثة. وبعد عشر سنوات، جفت البئر تمامًا، والآن، حتى إذا تم إنزال الدلو، وإرخاء الحبل بكامله، إضافة إلى امتداد ذراعيك على طولهما حتى يصيهما الوجود، كل ما ستسمعينه هو صوت قعقة مفاجئة، وأصداء صوت ارتطام الدلو بأرض البئر بعيدًا وعميقًا جدًا بالأسفل، يكاد لقلب المرء بسببه أن يبلغ الحنجرة، كما لو أنه هو من يسقط في قعر البئر».

صاحت الطفلة، بعد أن كانت متتبعة جميع نظرات وكلمات العجوز، حتى بدت أنها تقف على حافة البئر نفسه: «إنه مكان مفرع بكل تأكيد في الظلام!».

قال القندلفت: «ما هو إلا قبر، فماذا يكون غير ذلك! من من رفقاءنا القدامى يعرف كل هذا، يدرك فكرة أن مع حلول كل ربيع، تخور قواهم أكثر، وتسير حياتهم نحو التلاشي؟ لا أحد!».

سألت الطفلة تلقائياً: «هل أنت طاعن في السن للغاية؟».

- سأكون في التاسعة والسبعين من عمري.. في الصيف المقبل.

ألا تزال تباشر عملك حينما تكون في حال جيد؟

- عملي! بالطبع.. كي تكوني متأكدة أيضاً، حريٌّ بك أن تري بنفسك بسايتني هنا بالجوار. انظري من هذه النافذة. لقد زرعت هذه الأرض بأكملها وراعتها بيدي. بحلول مثل هذا الوقت في العام المقبل، ربما سأجد صعوبة في رؤية السماء؛ لأن الأشجار حينها ستكون عالية كثيفة، وأغصانها متشابكة. أتعلمين! لديّ عمل آخر أباشره في الليالي الشتوية.. إضافة إلى هذا.

بينما كان يتحدث، فتح خزانة كانت قريبة من موضع جلوسه، وعرض بعض الصناديق الصغيرة، بدت منحوتة يدويّاً، ومصممة من خشب قديم.

قال: «يولع بعض الرفقاء الطيبين بعبق الماضي، وما ينتمي إليه، يحبون شراء هذه التذكارات والطلول من كنيستنا، في بعض الأحيان أشكلها من المتبقي من خشب البلوط، الملقى هنا أو هناك، وفي بعض الأحيان أشكلها من جذاذ النعوش المركونة في المدفن منذ أمد طويل. انظري هنا.. إنه صندوق صغير من آخر مجموعة نحتت، تُبت عند حوافه ببقايا صفيحة نحاسية، نُقش عليها كلمات في ذاك الحين، لكنني الآن بالكاد أستطيع أن أقرأ ما كُتب. لم يكن لديّ الكثير من الوقت هذا العام، لكن كل هذه الأرفف، ستكون ممتلئة.. ربما في الصيف المقبل».

أعربت الطفلة عن إعجابها الشديد بعمله، وأثنت عليه، ثم بعد ذلك بوقت قصير غادرت، تفكر بينما كانت ماضية في طريقها، كم كان هذا غريبًا، كم كان هذا العجوز غريبًا، يستنبط من مساعيه كلها، ومن كل شيء يحده عبرة قاسية ومغزى عابس، لا يفكر في تطبيقه مطلقًا على نفسه، أو أن ينظر من المنظور ذاته على حياته. بينما يتحدث عن فناء الإنسان، وتتمحور أفكاره حول انعدام اليقين في الحياة البشرية، ويتبين من كلامه وفعله أنه يعتبر نفسه خالداً. لكن تأملاتها لم تتوقف عند هذا الحد؛ لأنها كانت حكيمة بالقدر الكافي، لتفكر من منطلق رحيم طيب، أن في هذا الفعل يكمن سر الطبيعة البشرية، التي تكمن في التأقلم والتكيف، وأن خطط القندلفت الطاعن في السن لم تكن سوى اتباعٍ لنهج البشرية.

مع جیشان تلك التأملات في خواطرها، وصلت الطفلة إلى الكنيسة. كان من السهل إيجاد مفتاح الباب الخارجي ضمن حمالة المفاتيح؛ فقد وُضعت علامة على كل مفتاح بقصاصة ورقية صفراء. مع تحريك المفتاح داخل قفله، شاع صوت قلقلة أجوف في الأجواء، عندما دخلت بخطوات متعثرة، وترددت أصدااء حين غلقه، انتفضت في مكانها.

إذا كان سلام القرية البسيطة، قد جيّش في صدر الطفلة عواطف كثيرة، بسبب العناء الذي لاقته في سفرها، ومشقات الطرق التي تعرضت إليها، وظلمتها وظلامها اللذين شاهدتها وهي سائرة بقدمين أعجزهما الوهن، فأى انطباع عميق سيغمرها، حينما تجد نفسها

بمفردها في هذا المكان الشعائري المهيّب، فتتخلّل إليه الأضواء من خصائص نوافذ غائرة، تبدو عتيقة، وتزف فيه دفقات نسيم، نقيّ مع مرور الزمان ما فاح في أركانه من عبق الأرض التي بدت مكدودة بالتحلل، ورطوبتها، وتتهود الرياح في ممراته وبين أعمدته المتعنقدة ومن مداخله، كأنفاس من عصور ولت! هنا! فقد كان الطوار مكسورًا، منذ ربح من الوقت، تطأه أقدام المصلين الورعين، يدوسون عليه ومن ثمّ يرحلون، ولا يبقى شيء سوى أحجاره المتهدمة. هنا! حيث العوارض المتحللة، والأقواس المنبجعة، والجدران المتصدعة المتشققة، وتجاويف الأرض، والضريح المهيّب الذي لم يبقّ عليه أي مريّة.. فقط الرخام والحجارة وقطع حديد وأخشاب وغبار.. وجميع المعالم الشائعة للإقفار. هنا! حيث تجتمع أفضل الأعمال وأسوأها، الأعلى ثراءً وجلالاً والأقل مهابةً.. يجتمع عمل السماء وعمل الإنسان، كل شيء في المكان نفسه، وكل شيء مشترك في سرد قصة واحدة.

كان جزء من هذا الصرح الجليل عبارة عن كنيسة بارونية، فيها مددت تماثيل محاربين على أسرة حجرية، وأيديهم مطوية على صدورهم، وسوقهم الواحدة موضوعة فوق الأخرى، هؤلاء ممن كانوا يقاتلون في الحروب المقدسة.. كانوا محزّمين بسيوفهم، موضوعين في دروعهم مثلما كانوا في حيواتهم. كان لدى البعض من هؤلاء الفرسان، أسلحتهم، وخوذاتهم وسراويلهم، معلقة على الحائط إلى جانبهم، ومتدلية من سنانير صدئة. رغم أنها كانت مكسورة مهلهلة، احتفظت بشكلها القديم، وبعيق تاريخها. يرحل الرجال عن الأرض

وتبقى آثار أعمال العنف من بعدهم، لا ينجو منهم أحد، ولكن أثر الحروب والدماء المسفوكة تبقى، لأمد طويل كله حِداد من بعد فناء من يسبون خرابها، وهم أصل عمارها.

جلست الطفلة في هذا المكان العتيق الرخيم، بين الأجساد المتصلبة على القبور - كأن وجودهم جعل الصمت مخيمًا على المكان أكثر من أي مكان آخر - جالت بعينيها حولها، فشعرت برهبة وإعجاب، لم يغنيا عن سعادة طفيفة انتابتها، حتى سكنت الطفلة وابتهجت لوجودها. أخذت الكتاب المقدس من على الرف، وشرعت تقرأ منه، ثم وضعته ثانية حينما انتهت، فكرت في الأيام الصيفية وأجواء الربيع البراقة التي ستحل.. في أشعة الشمس التي ستسدل على هؤلاء النائمين.. في حفيف أوراق الشجر عند النافذة، وظلالها المتلاثلة على الطوار.. في تغريد العصافير ونمو البراعم والزهور خارج الأبواب.. في الهواء العليل لين الهبوب إلى الداخل، وتحريكه برفق الرايات فوق رأسها. ماذا لو أن ذلك المكان أيقظ أفكار الموت! يموت من يموت، وسيبقى هو على حاله، ستبقى الأصوات والمشاهد واحدة، في سعادة كما كانت. لن يكون هناك ألم من النوم وسطهم.

غادرت الكنيسة البارونية في صمت مهيب، وبيطء متوانٍ، تنظر خلفها كلما مشت، ثم تعاود لتلتفت إليها مرة أخرى، حتى وصلت إلى باب منخفض، من الواضح أنه يفضي إلى البرج، فتحت الباب، وتسلمت السلم الملتوي في الظلام، كانت طوال صعودها تتجنب النظر إلى الأسفل من التفاريح الضيقة نحو المكان الذي غادرته، ترنو إلى

بريق الأجراس المغبرة. في النهاية، جنت مكسب صعودها، ووقفت على قمة البرج.

يا لمجد الانبثاق الأول نحو الضوء الساطع! الحقول المنعشة والأيكات الخلافة التي تلوح من كل حذب وصوب! رؤية السماء الزرقاء البراقة من هذا القرب! استيام الماشية في المراعي! الأدخنة التي تصعد من بين الأشجار كأنها منبعثة من الرحاب الخضراء! الأطفال المتقافزون المتهللون بالمرح في الأسفل! كم كان كل شيء مترعًا بالحسن، ينضح بالسعادة! كأنها رحلة بعث من الموت إلى الحياة وتقربًا إلى الجنة.

وجدت أن الأطفال قد رحلوا، حينما أغلقت الباب، ودلفت إلى الرواق. حينما مرت ببنية المدرسة، سمعت همهمات أصوات متداخلة. كان صديقها قد بدأ في مباشرة عمله لذلك اليوم. علت الهمهمات، وصارت ضجيجًا صاخبًا، حينما رأت الأولاد يندفعون محتشدين ومتفرقين، يهللون صارخين في مرح. تحدثت الطفلة إلى نفسها وقالت: «إنه فعل جيد.. إنني حقًا سعيدة لأنني ذهبت إلى الكنيسة اليوم». ثم توقفت، تسترق السمع، تريد معرفة كيف سيصدر الصوت داخلها، وكيف ستخفت أصواتهم تدريجيًا في رفق.

هل عادت مرة أخرى في اليوم نفسه؟ نعم! لقد عادت مجددًا إلى الكنيسة القديمة، جلست في مجلسها السابق، وقرأت من الكتاب نفسه، وانغمست في دروب الأفكار ذاتها. حينما ضرعت الشمس إلى المغيب، وبدأت نذر ظلام المساء تتسلل، جاعلاً إياها أكثر مهابة وجلالة، مكثت

الطفلة في مكانها ولم تبرحه، كأن قد نشبت لها جذور، فظلت جالسة في سكون طرف، لا يساورها أي خوف.

تمكنوا من العثور عليها في آخر المطاف، بدت شاحبة، لكنها سعيدة، تفرقوا حينما هبط الليل، لكن المعلم الطيب توقف لوهلة؛ وانحنى ليقبل وجنتها، وحينها أحس بدفء دمعة على وجهه.



الفصل الرابع والخمسون

فضلاً عن أعمال العازب حامل البكالوريا المتنوعة والمختلفة، فقد وجد الكنيسة القديمة مصدرًا للاهتمام والبهجة الروحانية. واعتزازًا بهذا الفخر الذي غالبًا ما يشعر به الرجال تجاه عجائب عالمهم الصغير، جعل من تاريخها مجالًا لدراسته، حيث يقضي أيامًا صيفية كثيرة داخل جدرانها، ويسهر ليلي شتوية طويلة بجانب نيران بيت الكاهن، يتأملها مليًا، ويدرسها عن كثب، ولا يزال العازب حامل البكالوريا يجد فيها ما يضيفه لمعرفته من حكايات وأساطير.

لم يكن واحدًا من ذوي الأرواح القاسية، الذين يجردون الحقيقة الواضحة لكل رداء كهنوتي ملتبس أمره خلال ذلك الوقت، يزايدون في الولع المحب لهندمته، بل من البعض ذوي القلوب الرحيمة المباركة، من يخدمون، مثلهم مثل مياه بئرها، يريدون أن يضيفوا بركات جديدة على المحاسن، يخفوا نصفًا، ويفصحوا عن النصف الآخر، لتجديد الشغف والسعي والاهتمام بدلًا من الكسل والتراخي واللامبالاة، على نقيض تلك الطبقة المتعنتة المتشددة.. فقد أحب أن يرى المثل السماوية متوجة بأكاليل الزهور البرية، ذلك التقليد السامي لرداواتها الراقية، مفعمة بالحياة في تنسيقاتها البسيطة.. لقد وطأ بخطوات سنية،

يحمل في يده نبراسًا منيرًا يقشع غبار القرون، غير راغب في هدم أيٍّ من الأضرحة الشاهقة التي علت في غضونِها؛ لحب خالص في قلب إنسان أو مشاعر طيبة، يمكن أن تكون متوارية هناك في ركن مكنون..

وهكذا يُفترض أن التابوت الحجري الصلب العتيق، يحتوي منذ أمد طويل، عبر مختلف الأجيال العديدة، على عظام البارون، الذي عاد بعد الخراب والدمار والنهب الذي ألحقه بالأراضي الأجنبية، بقلب نادم نازف كمدًا؛ يريد أن يموت في وطنه، لكن ما تم توضيحه مؤخرًا من جانب الأثريين كان مناقضًا لذلك؛ لأن البارون المعني - كما زعموا- لقي حتفه في معركة دامية، لفظ فيها أنفاسه الأخيرة وهو يركز على أسنانه متألّمًا.. لكن العازب حامل البكالوريا أكد في حزم على أن القصة القديمة هي مثال الحقيقة الخالصة، وأن البارون تاب عن أن يعيش في الأرض فسادًا، وقام بأعمال صالحة، ومن ثمّ توفي، وإذا دخل أي بارون الجنة، فسيكون هذا البارون منعّمًا في سلام السماوات. ومن المنطلق نفسه، حينما تجادل الأثريون المذكورين بالأعلى، مؤكدين على أن القبو السري لم يكن قبرًا للسيدة العجوز التي تعرضت للسحب والشنق والإرباع^(٨)، من الملكة بيث المجيدة؛ لأنها أغاثت قسيًا بائسًا^(٩)، خر صِعقًا من جوع وظمًا مدقع أمام بابها، أكد العازب حامل البكالوريا رسميًا، أمام جميع الوافدين على أن الكنيسة قُدّست برماد السيدة المسكينة المذكورة آنفًا. فقد تم جمع رفاتِها في الليل من على

(٨) كان يتم ربط المدانين بالخيانة العظمى للسلطة الملكية بلوح من الخشب ويتم سحبهم بحصان إلى مكان شنتهم، ثم تُقطع أطرافهم الأربعة.

(٩) خلال العصر الإليزابيثي كان القساوسة الكاثوليك الإنجليز من بين المدانين.

أربع بوابات للمدينة، وتم جلبها سرًا، ثم بقيت هناك منذ ذاك الوقت. في ذلك الحين أخذت العازب حامل البكالوريا الجلالة والشجاعة، ودحض ومقت مجد الملكة بيث، وأجلَّ من شأن المجد الأعظم الذي لا يضاهيه مثيلٌ لتلك المرأة البسيطة في مملكتها، التي كان لها قلب رحيم عطوف وعطاء سخّي. أما بالنسبة لادعاء أن الحجر المنبسط أمام الباب لم يكن قبر البخيل الذي هجر ابنه الوحيد وترك مبلغًا من المال للكنيسة؛ لشراء مجموعة أجراس، فقد أقر العازب حامل البكالوريا بالمذكور نفسه، وأن هذا المكان لم يكن مطلقًا لهذا الرجل. وأكد في جملة واحدة، على أن كل حجر وكل صفيحة نحاسية هي نصب تذكارية لمآثر من يجب أن تُخلد ذكراهم فقط. وأن الآخرين يود لو يواريهم في طي النسيان. ربما تم دفنهم في أرض مقدسة، لكنه ود لو يدفنهم عميقًا، ولا يسلط عليهم الضوء مرة أخرى أبدًا.

رشدٌ قد تردد من شفاه هذا المعلم، أثر في الطفلة، ففهمت واجبها البسيط. أعجبت بكامل ما قيل، بالمبني الساكن في هدوء رخم، بالسلام الجميل الذي يحل في شتى أرجاء المكان، بالعصر المهيّب المحاط بالشبيبة الأبدية، حينما سمعت تلك الأقاصيص، بدا لها المكان الذي وقفت فيه مقدسًا بالخير والفضيلة. كان عالمًا آخر، لم تطأه خطيئة قط، ولا ينسلُّ إليه الأسى أبدًا، مكانًا للسكنة والسكينة، مكانًا لا يقترب منه أي شر.

حينما انتهى العازب حامل البكالوريا من توضيح جملة تاريخ كل قبر وكل ما تم نقشه على شواهد القبور تقريبًا، اصطحبها إلى الأسفل؛

ليريها المدفن السردابي العتيق، الذي تحول مع الزمن إلى مجرد قبو معتم. بيّن لها كيف كانت تتم إضاءته في عهد الرهبان، وكيف كان محاطاً بفوانيس إنارة متدلية من السقف، وبالمباخر المتأرجحة التي كانت تعبق المكان بالطيب الزكي، أخبرها بالأردية المرصعة بالذهب والفضة، والرسوم، والممتلكات النفيسة، والجواهر المتلائة الوميضة عبر السقوف المنخفضة. ذكر لها أن مرات عدة ترددت أصدااء العهود القديمة في أنصاف الليالي في قديم الزمان، حينما ركع المتلفعون برداواتهم يغطون رؤوسهم، متضرعين، يتلون صلواتهم على مسابحهم. اصطحبها إلى ما فوق الأرض مرة أخرى، أراها عاليًا في الجدران الشرفات التي كانت تُرى فيها الراهبات بغير وضوح في لباسهن الداكن المحتشم - حتى وقت قريب - يقفن كأنهن ظلال مشوشة؛ يستمعن إلى الصلوات. أراها أيضًا، كيف ارتدى المحاربون، الذين رقدت أجسادهم على القبور، دروعهم الخريدة التي كانت معلقة نخرة - أراها كيف كانت تُعتمر الخوذة ويُرتدى الدرع والقفاز الواقي - بيّن لها كيف كانوا ماهرين في المحاربة بسيوف (اليدين الاثنتين)^(١٠) الضخمة، ومقاتلة الرجال بالصوالمج الحديدية. حفظت الطفلة كل ما أثرى عقلها به، عن ظهر قلب، حينما كانت تستيقظ ليلاً من أحلام تراودها عن تلك العهود القديمة، كانت تنهض من فراشها، وترنو إلى الخارج نحو الكنيسة وهي مظلمة، تأمل لو ترى الضوء ينبعث من نوافذها، وتسمع أصدااء تردد

(١٠) سيف الزوايهاندر، وسبب تسميته لأنه يحتاج فعلاً إلى اليدين لحمله بسبب حجمه الضخم يبلغ وزنه قرابة ٢-٣ كجم أما طوله فيصل إلى ١٨٠ سم.

موجات آلة الأرغن الموسيقية، وأصداء أصواتهم، متنقلة مع دقات النسيم.

تحسنت صحة القندلفت العجوز منذ آخر مرة، وأصبح في حال أفضل. لكنه رغم ذلك لم يعد قادرًا على العمل. تعلمت منه الطفلة أمورًا أخرى كثيرة، وإن كانت من نوع مختلف. في أحد الأيام، كان من اللازم أن يُحفر قبرٌ، فجاء ليشرف على الرجل الذي همَّ بالحفر. في ذاك اليوم كان ذَلِقَ اللسان يريد أن يتحدث كثيرًا، في البداية كانت الطفلة تقف إلى جواره، وبعد مدة جلست على العشب عند قدميه، ترفع وجهها النام عن عقل يشغله التفكير، وتتحدث معه. أما الرجل الذي قام بواجب القندلفت، فكان رجلًا أكثر عجزًا منه، رغم أنه كان أكثر نشاطًا ومنعمًا بالصحة. كان أصمَّ، حينما تبادل معه القندلفت -الذي ربما مشى على مضض مِيلاً بمشقة بالغة في ست ساعات- تعقيبًا على عمله، حينها لم تستطع الطفلة ملاحظة أنه فعل ذلك بأسف جزع بسبب عجزه، كما لو كان أكثر الرجال الأحياء قوة وأفعمهم حيوية.

قالت الطفلة عندما اقتربت منه: «يؤسفني أن أرى ذلك يُفعل.. سمعت أن لا أحد قد توفي هنا».

رد القندلفت: «لقد عاشت في قرية أخرى يا عزيزتي.. على بعد ثلاثة أميال».

- هل كانت شابة؟

قال القندلفت: «نعم! لم تكن أكبر من أربعة وستين عامًا حسب

ما أظن.. هل كانت أكبر من أربعة وستين عامًا يا ديفيد؟».

كان ديفيد منهمكًا في الحفر، ولم يسمع أي حرف من هذا السؤال. ولأن القندلفت لم يستطع الوصول إليه ليخزّه بعكازه، وكان عاجزًا عن النهوض دون مساعدة، فلفت انتباهه برمي طين لازب على قلنسوته الحمراء.

نظر ديفيد إلى الأعلى وقال: «ما الأمر الآن؟».

سأل القندلفت: «كم كان عمر بيكي مورغان؟».

كرر ديفيد قائلاً: «بيكي مورغان؟».

أجاب القندلفت: «نعم». ثم أضاف بنبرة نصفها عطوف ونصفها منفعل؛ لعدم استطاعة العجوز سماعه، وقال: «إنك تصير أصمَّ جدًّا يا ديفي، أصمَّ بالكلية على وجه الدقة!».

توقف العجوز عن مواكبة عمله، نظف مجرافه بقطعة من الأردواز، كان قد حملها معه من أجل هذا الغرض -يفكر مليًا وهو في خضم كشطه له- فوحدها السماوات تعرف كم عدد المسميات بـ بيكي مورغان- أجلس نفسه ليتدبر الأمر ويمعن فيه.

قال: «دعني أفكر وأتذكر.. لقد رأيت الليلة الماضية ما وضعوه في التابوت.. هل قاربت على التاسعة والسبعين من عمرها؟».

قال القندلفت: «لا لا!».

رد العجوز متنهّدًا: «آه! بل نعم! حسب ما أتذكره، أعتقد أنها كانت قريبة جدًّا من عمرنا. نعم لقد كانت في التاسعة والسبعين من عمرها».

سأل القندلفت بإيماءات دلت على بعض العواطف: «هل أنت متأكد أنك لم تخطئ في الأرقام يا ديفي؟».

قال العجوز: «ماذا؟ قل ثانية».

صاح القندلفت في انفعال حاد: «إنه أصم جدًا.. أصم بالكلية.. قلت: هل أنت متأكد أنك على حق بشأن الأرقام؟».

رد العجوز: «أوه! متأكد تمامًا.. فلماذا لا أكون؟».

دمدم القندلفت مخاطبًا نفسه: «إنه أصم للغاية، وشرع في أن يكون أحمق».

تساءلت الطفلة عما دفعه إلى هذا الاعتقاد، إذا كان ما قيل هو الحقيقة، حينها بدا العجوز نسيطًا كما هو، بل ربما بدا قويًا بلا حدود، وتابع عمله. ولم يقل القندلفت أكثر مما قال ولو بكلمة، مع مرور الوقت، نست الطفلة ما تساءلت عنه، وتحديث مرة أخرى.

قالت: «لقد كنت تخبرني عن أعمالك البستانية.. هل زرعت أي نبات هنا؟».

رد القندلفت: «أتقصدين في ساحة الكنيسة؟ لا لم أفعل».

قالت الطفلة: «لقد رأيت بالجوار بعض الزهور والشجيرات الصغيرة.. انظر، يوجد البعض منها هناك، أتراها! لقد ظننت أنك من زرعها ويعمل على رعايتها، على الرغم من كونها غير نضرة في الواقع».

قال العجوز: «إنها تنمو بمشيئة السماء.. وقد ألزمتها في كرم بآلا

تنضر هنا أبداً».

- لا أفهمك!

قال القندلفت: «لماذا! إنها تميز قبور أولئك الذين لديهم أصدقاء ذوي قلوب عطوفة طاهرة».

صاحت الطفلة بقوة: «أنا متأكدة أنهم كذلك فعلاً.. وسعيدة حقاً أنها تفعل ذلك!».

قال العجوز: «نعم، معك حق، لكن تريثي لوهلة، وانظري إليها. انظري كيف هي ذابلة ودب فيها اليبوس، وقممها متدلية. هل بإمكانك تخمين السبب؟».

أجابت الطفلة: «لا».

- لأن ذكرى الراقدين في الثرى، سرعان ما تزول.. في البداية، يأتون إليهم في الصباح وفي الظهر وفي المساء، ثم سرعان ما يقل مجيئهم تدريجياً، من مرة في اليوم، إلى مرة في الأسبوع، ثم مرة في الشهر، ثم مرة غير أكيدة على فترات طويلة متقطعة، ثم.. انقطاع دائم. نادراً ما تستمر نداوتها لوقت طويل. يمكن للزهور الصيفية قصيرة الأمد أن تعيش أطول منها.

قالت الطفلة: «أنا حزينة لسماعي ذلك».

قال العجوز وهو يهز رأسه: «آه! لذلك قلتي للرفقاء الذين ينزلون إلى هنا بالأسفل أن يعتنوا بها.. لكن، دعيني أقول ما هو خلاف ذلك، إنهم يقولون لي في بعض الأحيان: «إن لديك عادة جميلة في هذا الجزء

من البلاد؛ وهي زرع القبور، لكنه أمر محزن أن ترى الزرع يفقد نضارته ويذبل ويموت. لكنني ألتمس لهم العذر، وأريد أن أخبرهم أنها - كما أفهم - علامة جيدة على سعادة الأحياء. وأن هذا هو حال الدنيا، إنها الطبيعة».

قالت الطفلة بنبرة جادة: «ربما اعتاد المتفجعون على النظر إلى السماء في النهار، والنجوم في الليل؛ يظنون أن الموتى أحباؤهم موجودون هناك، وأنهم ليسوا في القبور».

رد العجوز في حيرة: «ربما.. ربما الأمر كذلك».

قالت الطفلة داخل قرارة نفسها متدبرة: «حتى إذا كان الأمر مثل ما أعتقد.. سأجعل من هذا المكان حديقتي. لن يكون هناك أي ضرر من العمل هنا يوماً بعد يوم على الأقل، ومن بعدها ستعم الأفكار السعيدة.. أنا متأكدة من ذلك».

لم يلحظ القندلفت وجنتيها النضرتين المتوردتين، وعينيها الدامعتين؛ فقد التفت إلى ديفيد العجوز، ينادي عليه باسمه. كان من البين أن ما كانت تبلغه بيكي مورغان من العمر لا يزال يقلق تفكيره، ويستحوذ عليه.. وذلك على الأغلب كان أمراً بالكاد تستوعبه الطفلة.

كانت المرة الثانية أو الثالثة لتكرار اسمه هي ما لفت انتباهه. حينها توقف عن عمله، واتكأ على مجرفه، ووضع يده خلف أذنه الصماء.

قال: «هل ناديت؟».

رد القندلفت: «لقد كنت أفكر يا ديفي في كونها.. تمهل!». أشار

نحو القبر: «هل هي أكبر منك أم أكبر مني!».

أجاب العجوز وهو يهز رأسه: «قلت لك إنها كانت في التاسعة والسبعين.. أقول لك إنني رأيته».

رد القندلفت: «رأيته؟ حسنًا يا ديفي، ولكن النساء لا تخبرن الحقيقة عن عمرهن دائمًا».

قال الرجل الآخر، وقد لمع بريق مفاجئ في عينيه: «هذا صحيح فعلاً.. ربما كانت أكبر سنًا».

- أنا متأكد تمام التأكد أنها كانت كذلك.. أريدك أن تخمن كم كان عمرها، فنحن نبدو صبية بالنسبة إليها.

رد ديفيد: «لقد بدت كبيرة في السن.. نعم معك حق، لقد بدت طاعنة في السن».

قال القندلفت: «استدع إلى عقلك كيف كانت تبدو لسنوات طويلة طويلة جدًا، وقل لي إذا كانت ستظل في التاسعة والسبعين في النهاية.. هل تناهز عمرنا؟».

صاح الآخر: «قد تكون أكبر سنًا بخمس سنوات على الأقل».

قال القندلفت مدمدًا: «خمس سنوات! بل عشر سنوات.. إنها كانت في التاسعة والثمانين من عمرها منذ حين. أستطيع أن أتذكر الوقت الذي توفيت فيه ابنتها. حينها كانت تبلغ من العمر تسعة وثمانين عامًا، والآن تحاول أن تمر علينا، وهي أصغر بعشر سنوات.. أوه! يا لعنجهية البشر!».

لم يكن الرجل العجوز في منأى عن استيعاب المغزى من هذا

الموضوع المثمر، انهمكا كلاهما في تقديم مجموعات من الأدلة، التي تشكك في عمرها.. لم تكن حول العمر المقترح للمتوفية، بل إذا ما لم تكن قد ناهزت على حد المائة. حينما توصلنا أخيراً إلى تسوية نالت رضى مشترك بشأن هذه المسألة، قام القندلفت بمساعدة صديقه؛ كي يرحل.

قال بينما كان يهم بالابتعاد: «إن الجو بارد، يجب أن أكون حريصاً حتى يحل الصيف».

سأل ديفيد العجوز وقال: «ماذا؟».

صاح القندلفت: «يا لرفيقي المسكين! إنه أصم للغاية.. وداعاً!».

قال ديفيد العجوز، بينما كان يتبعه بعينه: «آه! يا لرفيقي العجوز! إن قواه تخور بسرعة.. إنه يتقدم في السن يوماً بعد يوم».

هكذا تفرقا، وكل منهما مقتنع بأن عمر الآخر أقصر من عمره نفسه، ويغمر كليهما الشعور بالعزاء والرضى بسبب الافتراض المجازي الذي اتفقا عليه، بخصوص بيكي مورغان، التي لم تعد وفاتها سابقة لتطبيق غير مريح عليهما بعد الآن، ولن تشغل تفكيرهما لمدة عشر سنوات تالية على أقل التقديرات.

ظلت الطفلة بضع دقائق في مكانها، تراقب العجوز الأصم، وهو يلقي بالطين اللازب بمجرفته، ويتوقف بين الحين والآخر يسعل ويلتقط أنفاسه، وكان لا يزال يتمتم بالحديث مع نفسه وبضحكة مكتومة، أن القندلفت تخور قواه سريعاً. وظل على هذا الحال، حتى قامت نيل لترحل، مشت

في ساحة الكنيسة متفكرة، حتى قابلت بمحض الصدفة المعلم، الذي كان جالسًا على قبر مغطى بالعشب الأخضر أسفل أشعة الشمس يقرأ.

أغلق الكتاب من توه، وقال متهللاً: «نيل.. أنتِ هنا! إنني سعيد حقًا لرؤيتكِ هنا في الهواء الطلق ومشمولة بالنور. لقد خشيت أن تكوني عدتِ مرة ثانية إلى الكنيسة.. أين كنتِ طوال هذه المدة؟».

جلست الطفلة بجانبه وقالت: «إنني خائفة! هذا ليس مكانًا جيدًا!».

قال المعلم: «نعم نعم.. معكِ حق، لكن يجب عليك أن تكوني هادئة ومتفائلة و.. لا، لا تومئي برأسكِ هكذا وتبتسمي بهذا القدر من الأسى».

- ليس أسى! إذا عرفت حقيقة شعور قلبي فعلاً. من فضلك لا تنظر إليّ كما لو كنت حزينة. لا يوجد على وجه الأرض مخلوق أكثر مني سعادة الآن.

أخذت الطفلة يده في حنان وامتنان، وأمسكت بها بين يديها، وقالت بعد صمت دام لبعض الوقت: «إنها مشيئة الرب».

- ماذا؟

قالت: «كل هذا.. كل ما هو حولنا، إنها مشيئة الرب. لكن من منا حزين الآن؟ إنكِ تراني ابتسم».

قال المعلم: «وأنا أيضًا. أبتسم حينما أفكر في كم مرة يمكن لنا أن نضحك في مثل هذا المكان.. ألم تتحدثي هناك كثيرًا؟».

- نعم.

- وما الذي جعلك مليئة بكل هذا الحزن؟

عمّ الصمت للحظات طويلة.

قال المعلم في عطف ولطف: «ماذا هناك؟ ما بك! هيا قل لي».

قلقل الحزن دمع الطفلة، وانفجرت بالبكاء، وقالت: «إنني حزينة..
إنني حزينة حقًا؛ حينما أفكر في أن كل الذين يموتون حولنا سرعان ما
يتم نسيانهم».

لاحظ المعلم عينيها التي لاحتا في التفاتة شاملتين لما هو حولها
وقال: «وهل تعتقدين أن القبر الذي لا يزوره أحد، والشجرة المتيسة،
والزهرة أو الزهرتين الذابلتين رموز للنسيان والإهمال الفاتر؟ هل
تعتقدين أن لا وجود لأفعال أخرى، بعيدة عن هنا، لتذكر المتوفين
بشكل أفضل؟ نيل نيل! قد يكون بعض الناس في هذه اللحظة في
مختلف أرجاء العالم مشغولين في أفكارهم الخيرة ويعملون صالحًا
-بغض النظر عن مشهد القبور- إن هذا ما يعوّل عليه حقًا».

قاطعت الطفلة على عجل وقالت: «أنا أعلم، لست في حاجة إلى
قول المزيد؛ لأنني أشعر أنني أعرف مثالًا حيًا على قولك.. كيف لي ألا
أكون على دراية بهذا كله، حينما أفكر فيك؟».

صاح صديقها وقال: «ليس هناك أي شيء.. صالح أو بريء يموت
أو يطوى مع الزمان.. إما أن نتمسك بهذا الإيمان وإما أن نضل السبيل
في الحياة الدنيا. إن الأطفال البريئة والرضع من يموتون في مهدهم،
سيعيشون مرة أخرى في أفكار محبيهم، يؤدون أدوارهم من خلالهم،

يكنم وجودهم في أعمالهم الخيرة التي تسع العالم، حتى لو كانت أجسادهم رماداً أو مدفونة في أعماق البحر. لا يوجد ملاك يسكن في رحاب الجنة إلا إذا كانت مآثره الفاضلة على وجه الأرض متمثلة هنا في أعمال من يحبونه. أتقولين يتم نسيانهم! إذا كان بالإمكان تتبع الأعمال الصالحة للمخلوقات البشرية حتى الوصول إلى مصدرها، حتى الموت حينها سيكون جميلاً! ناهيك عن مقدار الحب الخالص والصدقة والمودة والرحمة التي يمكن رؤيتها تنمو في القبور المغبرة!«.

قالت الطفلة: «نعم، هذه الحقيقة، أعلم أنها كذلك. من من المفترض أن يشعر بما قلته مثلي، ففي من يحيا تلميذك الصغير مرة أخرى! يا عزيزي، يا صديقي العزيز.. لو تعلم كم الراحة التي بعثتها في نفسي ومنحتني إياها!».

لم يقل المعلم أي كلمة أخرى، مال عليها فقط في صمت رхим؛ فقد كان قلبه مثقلاً بما يكفي.

ظلاً جالسين، لم يبرحا مكانهما، حتى وصل الجد. قبل أن يتحدثا كثيراً، دق جرس الكنيسة، معلناً عن موعد المدرسة، فانسحب صديقهما من مجلسهم.

قال الجد وهو يتبعه بنظراته: «إنه رجل صالح، رجل عطوف. رجل لن يؤذينا أبداً يا نيل. إننا في أمان هنا أخيراً، أليس كذلك؟».

هزت الطفلة رأسها بالإيجاب، وتبسمت له.

قال الرجل العجوز، وهو يلمس وجنتها: «إنها تريد الراحة،

شاحبة.. شاحبة جدًا. إنها ليست كما اعتادت أن تكون».

سألت الطفلة: «متى؟».

قال الرجل العجوز: «ها! متى! كم عدد الأسابيع التي ولت علينا؟ هل يمكنني أن أعدها على أصابعي؟ دعي وجنتيك تستريحان، لقد انتهى كل شيء، من الأفضل لنا أنها ولت وانتهت وأصبح كل شيء على ما يرام».

ردت الطفلة: «بل أفضل بكثير يا عزيزي.. سوف ننساها، وإذا حدث وتذكرناها في أي وقت، فلن يكون هذا سوى حلمٍ مزعجٍ سرعان ما سيرحل».

تلقت العجوز حوله، وأشار إليها بإصبعه وقال: «صه! لا مزيد من الحديث عن هذا الحلم، وعن كل البؤس الذي جلبه. لا توجد أحلام مثله هنا. إنه مكان هادئ، لن تراودنا مثل تلك الأحلام هنا. دعينا لا نتحدث عنها بتاتا، خشية أن تلاحقنا مرة أخرى.. يجب أن ننسى الأعين الذابلة والوجنات الغائرة والأمطار والبرد القارس ويزيد عليها ما كان أسوأ الأحوال والمخاوف.. يجب أن ننسى هذه الأمور، ما دمنا منعمين بالسكينة وأصبحنا مطمئنين هنا».

صاحت الطفلة في سعادة روحية: «الحمد لمن رحمنا! وغير حالنا إلى أسعد حال!».

قال الرجل العجوز: «سأكون صبورًا وشاكراً ومطيعاً، إذا سمحت لي بالبقاء هنا. وأرجو منك ألا تختبئي مني، وألا تتسلي لترحلي بعيداً

بمفردك.. دعيني أبقى إلى جانبك. وسأكون صادقاً ومخلصاً حقاً يا نيل».

قالت الطفلة في سعادة متكلفة: «أنا أتسلل لأرحل بعيداً! لماذا؟! رغم أنها ستكون مزحة ممتعة حقاً. انظر يا جدي العزيز، إننا سنجعل معاً من هذا المكان حديقتنا الخاصة.. لِمَ لا؟ إنه واحد من أفضل الأماكن.. وسنبداً غداً، ونعمل معاً، يدًا بيد، وجنبًا إلى جنب».

صاح جدها: «إنها فكرة جريئة جداً! حسنًا يا حبيبتي، سنبدأ غداً».

مَن كان سعيداً مثل الرجل العجوز، حينما همًا بعملهما في اليوم التالي! مَن كان غير واعٍ بجميع الأصول المنتسبة للبقعة التي كانا فيها مثله! اقتلعا جميع الأعشاب الطويلة، ونبات القراص من المقابر، والجذور والنباتات الصغيرة المتيسية، جعلًا طبقة العشب مستوية، ونظفاهما من العُضد والأعشاب الضارة. بينما كانا في حمية العمل، لاحظت الطفلة وهي ترفع رأسها بعد أن كانت منحنية نحو الأرض، أن العازب حامل البكالوريا جالس على المرقاة بالقرب منهما، يشاهدتهما في صمت.

قال الأستاذ النبيل، وهو يحيي نيل بينما انحنى له احترامًا: «إنها مساعٍ حميدة وعمل طيب.. هل أنجزتما كل هذه الأعمال هذا الصباح؟».

ردت الطفلة خافضة العينين قائلة: «إنه قدر قليل يا سيدي ممَّا ننوي فعله».

قال العازب حامل البكالوريا: «إنه عمل جيد، عمل جيد جداً! لكن

هل عملكما مقتصر فقط على قبور الأطفال والشباب؟».

أجابت الطفلة وهي تحيد برأسها جانبًا، وتتحدث في هدوء:
«سنذهب إلى القبور الأخرى في الوقت المناسب يا سيدي».

كان هذا حادثًا طفيفًا، ربما كان إشارة أو بمحض الصدفة، أو ربما تعاطف الطفلة التلقائي مع الصغار هو المحرك الرئيس لهذا الفعل. لكن هذا الحادث لم يمرّ هونًا على جدها، فلم يلحظ ذلك من قبل. نظر من فوره في حالة متعجلة إلى قبور الأطفال، ثم تبعها بنظرات مضطربة نحو الطفلة، فضمها إلى جانبه، وألح عليها كي تأخذ قسطًا من الراحة. طرأ أمرٌ على عقله قد تلاشى أثره ونسيه منذ فترة بعيدة، لكنه اقتحم تفكيره مرة أخرى واستحوذ عليه مرارًا ومرات عديدة أثناء ذلك اليوم، أو على الأغلب كل الأيام التي تلتها. ذات مرة، أثناء عملهما معًا، غالبًا كانت تراه الطفلة يلتفت وينظر إليها ويحتاجه الارتباب، كما لو كان يحاول إيجاد حل لشكوك عسيرة تؤلمه، يحاول أن يجمع أفكاره المبعثرة، فتسأله وتصر على أن يقول السبب. لكنه لم ينطق كلمة واحدة.. لم يقل أي شيء.. أي شيء على الإطلاق.. يضم رأسها بين ذراعيه، يلمس وجنتها بيده، يربت عليها، ويقول متممًا: إنها ستصير أقوى بمرور الأيام، وستكون بالتأكيد امرأة يافعة فيما هو قريب.

الفصل الخامس والخمسون

منذ ذلك الحين، وقد تأججت العواطف داخل صدر الرجل العجوز، وأظهر قلقاً مفرطاً تجاه الطفلة، التي لم تَنُـم بعيداً عنه ولم تتركه قط. كأنها أوتار في قلب الإنسان.. أوتار غريبة ومتنوعة، تبقى صامته لا شاعرة تجاه نوابض جادة انفعالية وعاطفية، ثم بمحض الصدفة تستجيب لأقل لمسة عرضية على حين غرة. في العقول الأكثر طفولية أو الأكثر غفلة، توجد تسلسلات لأفكار، نادرًا ما يمكن أن يقودها الفن أو أن تنميها مهارة، لكنها تكشف عن نفسها، مثلها مثل الحقائق الجلية، تنبثق عن طريق الصدفة، حينما يقف المكتشف على مرأى من النهاية الأكثر وضوحًا. منذ ذلك الحين، لم ينسَ العجوز ولو لوهلة وهن الطفلة وتفانيها، منذ وقت الحادث الطفيف، رآها بأعين مختلفة، رآها تكد وتكدح وتثابر إلى جانبه رغم الكثير من الصعوبات والمعاناة، قلما فكر فيها بخلاف كونها شريكة العوز والبؤس والمآسي التي كَمَدته بشدة على نحو شخصي، حزن على حالها، وامتلل لنكران الذات وعدم الالتفات إلى مصلحته الشخصية، مثلما فعلت طوال تلك المدة، لقد استعاد وعيه، ورأى ما يدين لها به، رأى ما فعله بها الشقاء. حاشا وكلا

وقطعاً ولو للحظة واحدة، اكرث لحاله، أو فكر في راحته الشخصية، أو راودته أي اعتبارات أو تقديرات أنانية تشتت انتباهه أو تصرف تفكيره عن أكثر ما أحبه لطفًا.

بات يتبعها مجيئاً وذهاباً في كل مكان، وينتظر متبهاً لها، إذا انتابها التعب، يمد ذراعه من فوره؛ لتتوكأ عليها.. يجلس أمامها في ركن المدفأة المكنون، راضياً لرؤيتها، ينتظرها حتى ترفع رأسها وتنظر إليه متبسمة مثل قديم الزمان.. يقوم خلسة بالأعمال المنزلية التي تستنفد قواها بشدة.. يستيقظ في الليالي المعتمة الباردة ليستمع إلى أنفاسها وهي نائمة، وأحياناً يغفو لساعات بجوار سريرها ليلمس يدها فقط. هو وحده من يعرف كل شيء، إنه هو وحده من يعرف ما هي آمال ومخاوف وأفكار تعلقه العميق التي كانت تتخبط داخل عقله المضطرب، وما التغير الجذري الذي وقع على العجوز المسكين. مرت أسابيع وانقضت، أحياناً عندما كانت تشعر الطفلة بأنها منهكة أو أصابها الإرهاق، كانت تقضي أمسياتها على الأريكة بجوار دفء النيران. في مثل هذه الأوقات، كان يحضر لها المعلمُ الكتبَ، ويقرأها لها بصوت عالٍ، ونادراً ما كانت تمر ليلة دون أن يذهب إليها العازب حامل البكالوريا، ويأخذ دوره في القراءة. لازمها العجوز، يجلس ويستمع، على الرغم من استيعابه البسيط للكلمات، كان يجلس، يثبت نظريه على نيل، يرنو إليها ساكن الطرف.. إذا ابتسمت أو تهلل وجهها مع أحداث القصة، يقول إنها كانت قصة جيدة، ويعبر عن ولعه الشديد بهذا الكتاب. في أحاديثهم المسائية، إذا قص عليها العازب حامل البكالوريا

حكايات أسعدتها -دائمًا كانت حكاياته تسعدها بكل تأكيد- يحاول الرجل العجوز أن يحفظها في ذاكرته بجهد جهيد، لكنه.. أحيانًا، حينما يغادر العازب حامل البكالوريا، يتسلل الرجل العجوز مسرعًا وراءه، يتوسل إليه في تواضع كي يخبره ببعض الأجزاء مرة أخرى؛ حتى يتعلم كيف يظفر بابتسامة من نيل.

لكنها ظروف استثنائية، بعدها كانت الطفلة تزداد توفًا بكل سعادة إلى الخروج، والتنزه في حديقته المهيبة. ازداد عدد المجموعات المتوافدة أكثر فأكثر؛ يتحدثون مع الطفلة، وحينما يرحلون، يتحدثون عنها لمعارفهم، فيتهافتون على القدوم إلى الكنيسة، حتى في هذا الفصل من فصول السنة، صار للكنيسة زوار بشكل يومي تقريبًا. اعتاد الرجل العجوز على تتبعهم لمسافات قصيرة داخل المبنى؛ يستمع إلى أصواتهم الشجية التي أحبها جدًّا، وحينما يغادر الغرباء، ويتفرقون عن نيل، يختلط بهم ليستمع إلى المترامي من حديثهم، أو برأسه الأشيب غير المغطى يقف عند البوابة حين مرورهم، من أجل الغرض نفسه.

دائمًا ما كانوا يشيدون بالطفلة ويشنون على جمالها وعذوبتها، لطالما كان فخورًا حين سماعهم! لكن ما كان يحدث، جعل قلبه في كثير من الأحيان يرتعد ويُعتصر حزنًا، جعله ينتحب ويذرف دمعًا وحيدًا، في ركن مظلم! واحسرتاه! حتى الغرباء غير العابثين من ليس لهم شأن بها، ولا يحملون لها أي مشاعر، مجرد معرفة لحظية، ثم يرحلون بعيدًا وسرعان ما ينسون لقاءها مع حلول الأسبوع المقبل، ينسون أنهم رأوها، ينسون حتى إشفاقهم على حالها، يغادرون بعد

تقديم تحية له في رآفة، متهامسين حين مرورهم بإشفاقهم عليها.

حتى أهل القرية أنفسهم، لم يكن من بينهم أحد إلا وأظهر إعزازًا ودلاً لنيل المسكينة، يكون لها المشاعر نفسها بينهم وبين أنفسهم، يتعاملون معها بكل مودة، يحملون في صدورهم الإشفاق على حالها، وتزداد مشاعرهم يوماً بعد يوم. حتى طلاب المدرسة من يتعاملون بقلوبهم من لا يعرفون خلط التفكير بالعلاقات، اكتثروا لحالها واهتموا بها، وأشفقوا عليها. من كان غليظ القلب من بينهم، يأسف إذا لم يرها في مكانها المعتاد وهو في طريقه إلى المدرسة، فيحيد عنه، ويهرع إلى النافذة؛ ليسأل عنها. إذا كانت تجلس داخل الكنيسة، يختلسون النظر إليها عبر الباب في هدوء، لكنهم لا يبادرون بالحديث إليها، يقفون فقط رانين إليها، حتى ترفع رأسها، وتذهب للتحدث معهم. كان هناك شعور ما رائج فيما بينهم، يزيد من حب الطفلة داخل نفوسهم جميعاً.

عندما كان يحين يوم الأحد. كان أهل القرية الطيبون كلهم يتجمعون في الكنيسة، فمن القلعة التي عاشت فيها العائلة القديمة التي كانت أطلاً خاوية، وعلى مسافة سبعة أميال لم يكن هناك سوى أناس متواضعين. وهناك وكأي مكان آخر أكنوا لنيل شعوراً رهيلاً. يلتفون حولها في الرواق، قبل وبعد القداس، يتكلم الأطفال عند أطراف تنانيرها، ينحي الرجال أحاديثهم وتؤجل السيدات همساتهن ليقدمن لها أرق التحيات. لم يكن أي منهم، سواء أكان صغيراً أم كبيراً، شاباً أم عجوزاً يمر بنيل من دون إلقاء الكلمات اللطيفة على مسامعها. يقدم إليها الكثيرون ممن جاءوا من مسافة ثلاثة أو أربعة أميال الهدايا الرمزية،

فمن أكثرهم طيبة إلى أشدهم فظاظة يتمنون لها الخير.

بحثت بين الأطفال الصغار عن أولئك الذين رأتهم لأول مرة يلعبون في ساحة الكنيسة. صار أحدهم -من تحدث معها عن شقيقه- صديقها الصغير المفضل، غالبًا ما كان يجلس بجانبها في الكنيسة، أو يصعد معها إلى عليّة البرج. كان من دواعي سروره أن يساعدها، أو أن يتصور له أنه ساعدها فعلاً، وسرعان ما صار رفيقين مقربين.

حدث ذلك، حينما كانت تقرأ في أحد الأيام في ركن قديم مكنون، ولاح الطفل يركض نحوها وعينه مغرورة بالدموع، بعد أن أمسكت به، نظر إليها للحظة بتلهف، ثم طوق رقبتها بذراعيه الصغيرتين في أسى.

قالت نيل بينما عكفت على تهدئته: «ماذا بك الآن؟ ما المشكلة؟». صاح الولد، ولا يزال يحتضنها بشدة: «لن تكوني واحدة منهم.. لا، لا لن تكون الآن أو حتى قريباً».

نظرت إليه متعجبة، أعادت شعره إلى الوراء، بعيداً عن جبهته وعينه، ثم قبّلتها، وسألته ماذا يقصد.

صرخ الولد: «يجب ألا تكوني واحدة منهم يا نيل.. إننا لا نستطيع أن نراهم. إنهم لا يأتون إلينا أبداً ولا يلعبون معنا، أو يتكلمون معنا. كوني مثلما أنت الآن. أنت أفضل الآن يا نيل».

قالت الطفلة: «مهلاً مهلاً! أنا لا أفهمك. قل لي ماذا تقصد؟».

رفع الولد رأسه ونظر إليها في عينيها وقال: «لماذا! لماذا يقولون

إنك ستكونين ملاكًا، قبل أن تغرد الطيور مرة أخرى. لن تكوني يا نيل.
أليس كذلك؟ لا تبتعدي عنا يا نيل، ولو كانت السماء أكثر راحة لك يا
نيل. لا ترحلي عنا!». .

أخفضت الطفلة رأسها، ووارت وجهها خلف يديها.

صاح الولد، يتبسم رغم دموعه: «إنها لا تستطيع تحمل الفكرة!
لن تذهبي. أليس كذلك؟ تعرفين مدى حزننا إذا فعلت يا عزيزتي نيل،
قولي لي إنك ستظلين معنا، وستبقين بيننا. قولي لي.. قولي لي إنك
ستفعلين ذلك».

خر الولد راكعًا على ركبتيه، وأطبق يديه متضرعًا.

قال: «انظري إليّ يا نيل، وأخبريني أنك ستبقين، حتى أعرف أنهم
جميعًا مخطئون، وسوف أعدك بأنني لن أبكي بعد الآن. ألن تقولي نعم
يا نيل؟».

لا يزال الرأس المخفوض كما هو، ولا يزال الوجه المتوارى لا
يفصح عن أي أمارات سوى تنهداتها العميقة.

تابع الولد، وهو يحاول إزاحة يديها عن وجهها: «أتعلمين.. بعد
فترة ستسعد الملائكة اللطفاء لأنك لست بينهم، وقررتي البقاء لتكوني
معنا هنا. لم يكن (ويلي) ليرحل وينضم إليهم، إذا كان يعلم كم سأفتقده
ليلاً وأنا نائم على فراشنا الصغير. لم يكن ليرحل عني ويتركني مطلقاً..
أنا متأكد».

لم تجب عليه الطفلة، فقط تنهد، كما لو أن قلبها ينفطر حزنًا.

«لماذا سترحلين عنا يا عزيزتي نيل؟ أعرف أنك لن تكوني سعيدة؛ عندما تسمعين أننا نبكي على فقدانك. إنهم يقولون إن (ويلي) الآن في الجنة، حيث يكون الجو صيفاً طوال الوقت، أنا متأكد أنه يحزن حينما أنام على قبره، وهو راقد بالأسفل، ولا يستطيع أن ينهض ليقبلني». احتضنها الولد وقرب وجهه من وجهها وقال: «لكنك إذا صممتي على الرحيل عني يا نيل، ابحتي عنه من أجلي. وأخبريه أنني لا أزال أحبه، وإلى أي مدى أحببتك، حينها، عندما أفكر أنكما معاً، وأنكما سعيدان، سأحاول أن أتحمل حزني وألمي، ولن أفعل أي شيء خطأ حتى لا أسبب لك الألم.. لن أفعل أي شيء خطأ مطلقاً!».

سمحت الطفلة له أن يزيح يديها، ويضعهما حول رقبته. شاع صمت يذرف دمعاً، ولم يمضِ وقت طويل، حتى نظرت إليه متبسمة، ووعدته في صوت رقيق حالم أنها ستبقى، وستكون صديقته المقربة، طوال الوقت الذي سوف تسمح لها السماوات به. صفق الولد بيديه متهللاً في سرور، وشكرها مرات عدة، حينها أوصته بالألا يخبر أحداً بما دار بينهما، فأبرم وعداً جاداً أنه لن يفعل أبداً.

على الرغم من أنه لم يفعل ما أخبرته به الطفلة، كان رفيقها الهادي في كل مناحيها وتأملاتها، لم يتطرق معها بالحديث إلى ذلك الموضوع مرة أخرى؛ لأنه أحس أنه أضفى عليها ألماً، لا يدرك سببه، ولا يعرف ماهيته. ظل شعور مؤرق يساوره في نفسه، جعله في كثير من الأحيان يأتي في الليل -وإن كانت الليالي قاحلة- يقف أمام الباب، وينادي عليها بصوت خجول؛ ليعرف ما إذا كانت بخير وآمنة في الداخل،

وحيثما كانت تجيبه، وتحته على الدخول، يدخل ويتخذ مجلسه على مقعد صغير عند قدميها، يجلس في سكون وصبر، حتى يبحثوا عنه، لأخذه إلى المنزل. وبالطبع، حينما تحل مشارف الصباح، يكون واقفًا بالقرب من المنزل؛ ويسأل عما إذا كانت بخير، في الصباح، وفي الظهيرة، وما بعدها، وفي المساء، يذهب أينما تذهب، يرافقه في كل حذب وصوب، متخليًا عن أعباءه ورفاقه؛ ليكون برفقتها.

قال لها القندلفت العجوز ذات مرة: «إنه صديق جيد.. حينما توفي شقيقه الأكبر.. كم تبدو غريبة كلمة (الأكبر)؛ فلم يكن سوى طفل يبلغ من العمر سبع سنوات فقط.. أتذكر كم كان متفجعًا ملتاعًا منظر القلب». فكرت فيما قاله لها المعلم، وشعرت بأن حقيقته تسكن في كل شيء حولها، وإن تمثلت حتى في هذا الولد الصغير.

قال لها العجوز: «أحسب أنها مع الوقت تصير كالغصص الهادئة في القلب، وعلى الرغم من ذلك فهو مرح في بعض الأحيان بما فيه الكفاية. أراهن أنك وهو تستمعان إلى البئر القديمة».

ردت الطفلة: «في الواقع، لم نفعل قط. إنني خائفة من الاقتراب منها، لدرجة أنني لا أذهب إلى هذا الجزء من الكنيسة، ولا أعرف الطريق».

قال العجوز: «حسنًا! تعاليّ معي.. إنني أعرف المكان هناك منذ أن كنت صبيًا.. تعاليّ!».

مشيا، ونزلا بعض الخطوات، حتى وصلا إلى السرداب، حينها توقفا بين الجدران القائمة في مكان ضبابي معتم.

قال العجوز: «هذا هو المكان.. أعطيني يدك، حينما ترفعين الغطاء؛ خشية أن تتعثري وتسقطي. أنا عجوز - أقصد أنه بسبب الروماتيزم - لن أقدر على الانحناء لرفع الغطاء».

قالت الطفلة: «إنه مكان مخيف ومظلم».

قال العجوز، وهو يشير بإصبعه إلى الأسفل: «انظري».

استجابت الطفلة، ونظرت عبر الحفرة.

قال العجوز: «إنها تبدو كالقبر بحد ذاتها.. أليس كذلك؟».

ردت الطفلة: «إنها تبدو كذلك فعلاً».

قال القندلفت: «لطالما كان لديّ تصور، أنه تم حفرها في البداية، لتجعل المكان أكثر كآبة ووحشة، وتجعل الرهبان أكثر إيماناً وطاعة. سوف ينهون وجودها، سيغلقونها ويبنون فوقها».

لا تزال الطفلة واقفة في صمت، تقلب نظرها في القبو متدبرة متألمة.

قال القندلفت: «سنرى النتيجة، سنرى ما الذي ستنهي وجوده الأرض الأخرى، حينما يتم ردمها، وينقطع الضوء من هنا. الرب وحده هو من يعلم! إنهم سيغلقونها في الربيع المقبل».

حدّثت الطفلة نفسها، بينما كانت ترنو من نافذتها إلى الشمس المشرقة: «سوف يهل الربيع! وتغرد الطيور مرة أخرى.. في الربيع، سنجد راحة وسعادة!».

الفصل السادس والخمسون

بعد يوم أو يومين من حفل الشاي الذي أقامه كويليب في حانة البرية، ذهب السيد سوفييلر إلى مكتب السيد سامبسون براس في الساعة المعتادة، حينها كان بمفرده في معبد النزاهة والاستقامة، وضع قبعته على المكتب، أخرج من جيبه لفافة صغيرة من قماش الكريب الأسود، عكف على طيها وفردها، حتى ربطها على قبعته. بعد أن انتهى من تشكيل هذه اللاحقة، عاين عمل يديه برضى ذاتي، ثم اعتمر قبعته مرة أخرى، وأمالها للغاية على عين واحدة؛ ليزيد من إظهار الانطباع الحزين. منحته تلك الترتيبات شعورًا بالرضى الكامل، حينها وضع يديه في جيبه، ومشى جيئةً وذهابًا في المكتب بخطوات محسوبة.

قال سوفييلر: «لطالما يحدث لي الأمر نفسه.. الأمر نفسه كل مرة.. منذ الطفولة وأنا أرى أمالي العفوية تتلاشى أمام عيني، لم أحب شجرة أو وردة قط في حياتي، وحينما فعلت لأول مرة ذبلت وتلاشت، لم أرع الريم قط لتسعدني حينما تنظر إليَّ بعينها السوداءوين الساحرتين، وحينما فعلت وبدأت تعرفني جيدًا وتحبني، ماذا يحدث! بالتأكيد تتزوج من بستاني».

بعد أن تغلبت هذه الأفكار على السيد سوفييلر وقهرته، وقف عند مقعد الوكلاء، وارتمى بين مسنديه المفتوحين.

قال السيد سوفييلر، برباطة جأش تهكمية مازحة: «هذا أنا وهذا حال الدنيا، أنا متأكد أن هذا هو نمط الحياة التقليدي.. لِمَ لا؟ إنني راضٍ تمامًا». خلع قبعته، وأخذ ينظر إليها في جدية، كما لو أن الاعتبارات المالية هي وحدها ما ردعته عن سحقها بقدمه، وقال: «سأرتدي شعار غدر هذه المرأة، إحياء لذكرى تلك التي لن أشق طريق المتاهات مرة أخرى لأجلها، تلك التي حين أتجرع النبيذ لن أشرب مرة أخرى نخبها، تلك التي عصفت بالفترة المتبقية من حياتي وقتلت ربيعها.. ها ها ها!».

من المحتم ذكره؛ خشية أن يحدث أي تضارب في فهم ما آل إليه هذا الحديث المنفرد، لم يضحك السيد سوفييلر في الختام الضحكات المرححة المبتهجة، التي كانت ستختلف بالكلية عن تأملاته الحزينة، ولكن، لكونه في مزاج مسرحي، فقد ألقى حديثه في عرض أشبه بالميلودراما^(١١)، (اضحك كما يضحك الشرير) دائمًا ما يضحك الأشرار ضحكات متقطعة، دائمًا ما تكون في ثلاثة مقاطع، لا أكثر ولا أقل، ولطالما كانت مميزة لضحكات النبلاء، وبالتأكيد ستكون قيمة ومتناسبة في هذه المناسبة وللذكرى.

تلاشت الأصوات الموحية ظاهريًا بالشر، ولا يزال السيد سوفييلر جالسًا في حالة كئيبة يُرثى لها على مقعد الوكلاء، سمع الجرس -أو

(١١) نوعٌ من أنواع المسرحيات: يميل إلى تكثيف المشاعر وتأديتها بشكل عاطفي مأسوي.

إذا أردنا تكييف الحالة العامة مع حالة الحداد الخاصة به - سمع الرنين. فتح الباب بكل سرعة، ورأى طلة السيد تشوكستر، فحيًا أحدهما الآخر بالتحية الأخوية.

قال هذا الرجل النبيل، وهو يركز نفسه على ساق ويهز الأخرى بارتياح: «بحق الجحيم! إنك تتواجد في وقت مبكر جدًا في هذا المذبح اللوخيم القديم».

رد ديك قائلاً: «نوعًا ما».

قال السيد تشوكستر في حسم، وبمظهر تهكمي عابث، اشتمل على شخصيته: «نوعًا ما! نعم بالتأكيد، حريٌّ بي أن أفترض هذا أيضًا.. ها ها! ماذا تقول يا رفيقي الحسن، أتعرف كم الساعة الآن؟ إنها التاسعة والنصف صباحًا!».

قال ديك: «ألن تأتي إلى الداخل؟ إنها ساعة السحر.. ذروني وحدي والكل راحل...».

- ساعة الغبش!

- حينما تتشاءب المدافن.

- وتنفث موتاهها^(١٢).

بعد أن انتهيا من إلقاء الاقتباس، وتقمصا الشخصية بإتقان وحاكا السلوك، عدّلا عنه في الحال، واتجها إلى المكتب، يهذران في شؤونهما. فمثل ذلك اللهب من الحماسة شاع بين أفراد جماعة أبوللو

(١٢) مسرحية هاملت.. الفصل الثالث المشهد الثاني.

المجيدة، وفي الواقع كانت تلك هي حلقة الوصل بينهما، التي تنتشلهما من الحياة المزرية، وترفعهم عن أرض كفات باردة.

قال السيد تشوكستر، وهو يتخذ مقعدًا له: «حسنًا! كيف حالك يا رجل؟ لقد اضطررت إلى القدوم إلى المدينة؛ لأتدبر بعض الشؤون الخاصة بي، لكنني لم أتمكن من إنجازها، ولم أستطع المرور بقارعة الطريق، دون أن أعرج إلى هنا، وبالنسبة لي، لم أكن أتصور قط، أنني سأجذك هنا.. إننا في عُدوة النهار».

أعرب السيد سوفييلر عن صدق ما قال، وتصنّع الحال الجيد في شق حديث آخر، وأخبر السيد تشوكستر أنه يبدو في حالة يحسد عليها، ومن ثمّ امثل السيدان كلاهما للعادات الرسمية للأخوية القديمة، حيث يتيمان، وألقيا مقتطفًا ثنائيًا شهيرًا من مسرحية (العبرة بالخواتيم). متصافحين بالأيدي في حماس مفرط في النهاية.

قال ريتشارد: «وما الأخبار إذن؟».

رد السيد تشوكستر قائلاً: «إن البلدة خامدة كسطح فرن هولندي.. لا أخبار، ولا جديد. بالمناسبة.. إن ذاك النزيل الخاص بكم هو أكثر الأشخاص غرابة، كما تعرف، إنه عصي تمامًا على الفهم.. لا يمكن أن يكون مجرد رجل عادي!». .

قال ديك: «وماذا كان يفعل الآن؟».

قال تشوكستر، وهو يخرج علبة مستطيلة من سعوط التبغ، منقوش على غطاؤها النحاسي بدقة فائقة رأس ثعلب: «أقسم بجوبيتر يا سيدي..

أن هذا الرجل لا يُسبر غوره. هذا الرجل يا سيدي أقام صداقات مع المحامي المتدرب. أحسب أن لا ضرر منه ولا ضرار، لكنه هادئ ولين على نحو مذهل.. لكن ما نحن بصدده الآن يا صديقي، إذا أراد ذلك الرجل صديقًا، لِمَ لا يكون لديه صديق يعرف أمرًا أو أمرين، ويستطيع أن يقدم له الخدمات ويفعل له الخيرات وبنفس طيبة وراضية؟! ثم أضاف السيد تشوكستر: «أعرف يا سيدي أن لديّ عيوبي، لكن..».

قاطعته السيد سوفييلر: «لا ليس لديك».

قال السيد تشوكستر: «بل لديّ.. أعرف أن لديّ عيوبي.. لا أحد يعرف عيوبه مثلما أعرف عيوبي يا سيدي، لكنني لست حليمًا. لم يتهمني أسوأ أعدائي - إن كل شخص بالتأكيد لديه أعداء يا سيدي، وأنا لديّ أعدائي - لم يتهمني أسوأ أعدائي مطلقًا بالحلم أو الوداعة. أقول لك أمرًا يا سيدي.. إذا لم يكن لديّ المزيد من هذه الصفات التي تقرب الأشخاص أكثر ممّا لدى المحامي المتدرب، سأسرق جبن شيشاير، وأربطه حول رقبتني، وأغرق نفسي. سأموت منحنًا، كما عشت. وحينها سيكون لي الشرف».

توقف السيد تشوكستر عن الحديث، رفع علبة السعوط، ونقر برأس الثعلب على أنفه بالتحديد، ثم أخذ قليلًا من دقيق التبغ على برجمة السبابة، واستنشقه، ثم نظر بثبات إلى السيد سوفييلر، بإيماءات تكشف عن اعتقاده بأنه سيعطس، لكنه سيجد نفسه مخطئًا.

بعد وهلة، قال السيد تشوكستر: «غير راضٍ يا سيدي.. أنا غير راضٍ عن تكوينه صداقة مع هابيل.. إنه مصقول التربية، منمق الحديث،

محيط بالمعرفة من أبيه وأمه. منذ أن عاد إلى الديار بعد مطاردة (الإوزة البرية)^(١٣) نعم! كان هناك.. كان هناك فعلاً. وهو يزايد في رعاية الصبي الصغير، ستلاحظ يا سيدي ترده على هذا المكان جيئةً وذهاباً.. وبغض النظر عن مجمل الأشكال الشائعة للطفه، لا أعتقد أنه تبادل معي الحديث، ولو حتى بنصف ستة كلمات». تابع السيد تشوكستر حديثه وهو يهز رأسه في جدية، مثلما اعتاد الرجال أن يفعلوا حينما يجدون أن الأمور قد خرجت عن السيطرة: «يا إلهي! إن المسألة برمتها دون المستوى.. لو لم أكن أشعر بصاحب العمل، وأعلم أنه لن يحرز أي تقدم من دوني، لكنت قطعت الصلات.. يجب ألا يكون لديّ بديل».

في ذلك الوقت، كان السيد سوفييلر قد جلس على كرسي أمام صديقه، يذكي النيران في تعاطف متأجج، لكنه لم يقل أي كلمة.

استطرد السيد تشوكستر في حديثه، وبنظرة تنبؤية قال: «أتعلم يا سيدي، ذلك الصبي الصغير، سيأتي اليوم، ويظهر على حقيقته.. إن مهنتنا تعلمنا الفراسة في الطبائع البشرية، وأريد أن تتذكر كلمتي جيداً.. هذا الغلام ذو الوجهين، الذي عاد للعمل بسبب الشلن، سيظهر لونه الحقيقي في غضون الأيام القليلة القادمة. إنه لص خسيس يا سيدي. لا بد أن يكون..».

كاد السيد تشوكستر أن يسترسل في حديثه أكثر من ذلك، وبصيغة

(١٣) لحديث موركشيو سباق مطاردة الإوزة البرية.. اقتباس من مسرحية (روميو وجوليت) لشكسبير في الفصل الثاني المشهد الرابع، ولا يقصد به صيد الإوز.. إنه سباق خيل، تتبع فيه الخيول حصاناً رئيساً على مسافة محددة.. في محاكاة لسرب الإوز البري.

تأكيدية مشددة، ناجمة عن حماسة متقدة داخل صدره وفكره، لولا أن دوي صوت طرقة على الباب، أنبأت بوصول أحد ما إلى العمل، جعلته يغير إيماءات وجهه في لمح البصر، ويظهر في شكل حليم وديع فاق ما اتفق عليه في تصرّحه الأخير. أما السيد سوفييلر، فحين سماعه للصوت نفسه، سحب كرسيه من توه على قائمة واحدة حتى وصل إلى مكتبه، لكن الاضطراب المفاجئ أنساه أن يترك مذكي النيران، فطوّحه بعيداً وصاح: «ادخل!».

من يفترض أن يأتي في خضم ذاك الموضوع المستثار غير كيت، الذي كان محور حلق السيد تشوكستر في حديثه! لا يُذكر أن رجلاً استطاع أن يبدّل إيماءات وجهه ويستجمع جرأته ويبدو في مظهر شرس بهذه السرعة، مثلما فعل السيد تشوكستر، حينما رآه أمامه. أما السيد سوفييلر، فحذق إليه للحظة، ثم قام عن كرسيه، والتقط مذكي النيران من مكان إخفائه، وامتشنه وجال به كأنه سيف، مؤدّيًا جميع الحركات والضربات في نوبة جنون.

قال كيت، رغم اندهاشه من هذا الاستقبال المريب: «هل يوجد السيد النبيل في المنزل؟».

قبل أن يتمكن السيد سوفييلر من تقديم أي رد، أقحم السيد تشوكستر نفسه في الحديث، منتهزًا محور سؤاله ليصب عليه جم غضبه، واعتبره تطاولًا، وجنوحًا متهورًا غير محترم بقدر طارحه؛ فكيف يجرو أن يتحدث عن سيد آخر، بينما يقف أمام اثنين من السادة النبلاء آنذاك، أو فضلًا عن ذلك -ليس من المستحيل أن من يبحث عنه

ربما في مكانة أقل - يجب عليه أن يذكر اسمه، ويدع الأمر لسامعيه، ليحددا مكانته الاجتماعية بما يتناسب مع منظورهما الخاص. أضاف السيد تشوكستر أيضًا، أن لديه سببًا لقول أن هذا العنوان شخصي، وأنه شخص لا يمكن العبث معه كما يفعل الغلمان - لم يخصه بالذكر ولم يوضح وصفه - للحصول على أجرتهم.

التفت كيت إلى ريتشارد سوفييلر وقال: «لقد قصدت السيد النبيل الذي يسكن في الطابق العلوي.. هل هو في المنزل؟».

رد ديك: «لماذا؟».

- لأنني أحمل إليه جوابًا.

قال ديك: «من من؟».

- من السيد جارلاندر.

قال ديك في أدب شديد: «أوه! إذن حريٌّ بك أن تسلمني إياه يا سيدي، وإذا أردت أن تنتظر ردًا، حريٌّ بك أن تنتظر في الممر يا سيدي، إنه مكان منعش وجيد التهوية يا سيدي».

رد كيت: «شكرًا.. لكنني سأسلمه إليه يدًا بيد إذا سمحت».

أثارت الجراءة المفرطة في هذا الرد الحاسم حق السيد تشوكستر، فلم يتوان للحظة في التخلي عن جانبه اللطيف من أجل كرامة صديقه، وأعلن أنه إذا لم يكن مقيّدًا باعتبارات رسمية تحتم عليه حسن التصرف، لمحق وسحق كيت في التو واللحظة؛ استياءً من تعمده توجيه الإهانة، وحينها، في ظل تلك الظروف الاستثنائية، سيتلقى العقوبة المناسبة، واستحسان هيئة المحلفين الإنجليز، الذين وبلا شك، سيعودون من

فورهم لإعلان حكم القتل المبرر، إلى جانب شهادة رفيعة على أخلاق وشخصية المنتقم الحميدة. مكث السيد سوفييلر في مكانه غير بادٍ عليه أي ضيق أو تدمير بسبب ما قيل، وخجلاً من الحماس المفرط غير المبرر لصديقه، غير مشدوه أو متحير من عدم اكتراث كيت ووقوفه ثابتاً بارد الأعصاب، حتى سمع الرجل الأعزب ينادي بحدة من أعلى الدرج.

صاح النزيل: «ألم أرَ شخصاً قادماً من أجلي؟ تعال».

رد ديك: «نعم يا سيدي.. بالتأكيد يا سيدي».

قال الرجل الأعزب مجمّعاً: «وأين هو إذن؟».

رد السيد سوفييلر: «إنه هنا يا سيدي.. ألم تسمع أيها الشاب الصغير أنه يجب عليك أن تصعد الدرج؟ هل أنت أصم؟».

لم يَبْدُ على كيت ولو لوهلة، أنه فكر أن الأمر يستحق الدخول في أي مشادة كلامية وإضاعة الوقت، سارع من فوره، تاركاً فردَي جماعة أبوللو المجيدة مشدوهين، ينظر أحدهما إلى الآخر في صمت.

قال السيد تشوكستر: «ألم أقل لك؟ ما رأيك فيما حدث؟».

ولأن السيد سوفييلر بطبعه رفيق حسن النية لا يغضب، ولم يدرك في سلوك كيت أي فظاظة أو خسة بشكل بيّن، فبالكاد كان يعرف بماذا عليه أن يجيب. لكنه أعفي من حيرته؛ بدخول السيد سامبسون وشقيقته سالي، وانسحاب السيد تشوكستر على عجل.

من الواضح أن السيد براس ورفيقته المحبوبة، أثناء تناولهما لفطورهما المقتصد، كان يعقدان بعض الاستشارات القانونية حول

بعض المسائل ذات الشأن والأهمية القصوى. فبسبب هذه الاستشارات، دائماً ما كانا يأتیان إلى المكتب بعد نصف ساعة تقريباً من الوقت المعتاد، طلقي المحيا في حالة باشة، كما لو أن تخطيطاتهما الأخيرة ومؤامراتهما تجعل عقليهما نشوانين، وتضيء لهما نوراً في طريقيهما المجهد. في حالتها الحالية، كانا في غمرة السرور بشكل خاص، بدت الآنسة سالي في أكثر الأمزجة عذوبةً وليناً، أما السيد براس، فكان متهلل الوجه يفرك يديه إحداهما بالأخرى في حالة مرحة.

قال براس: «حسناً يا سيد ريتشارد.. كيف الحال هذا الصباح؟ هل يتضح لنا أننا سعيدان مسروران مبتهجان يا سيدي.. هل نحن يا سيد ريتشارد؟».

رد ديك: «بالطبع يا سيدي، وبأفضل حال».

قال براس: «هذا عظيم! هاها! حريُّ بنا أن نكون كتغريد عصفور (القُبْرَة) المحلق في الحقول.. أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ فلمَ لا؟ إنه عالم مبهج لنعيش فيه يا سيدي ونستمتع به.. بالتأكيد يوجد أناس أشرار يا سيد ريتشارد، لكن من دون هؤلاء الأشرار، لن يوجد محامون أخيار. هاها! هل يوجد أي جوابات في البريد هذا الصباح يا سيد ريتشارد؟».

أجاب السيد سوفييلر بالنفي.

قال براس: «هاها! حسناً لا يهم. إذا لم يكن هناك أي عمل اليوم، فسيتوفر لدينا الكثير في الغد. إنها روح القناعة يا سيد ريتشارد، إنها عذوبة الوجود. هل تواجد أي أحد هنا يا سيدي؟».

رد ديك: «صديقي فقط.. ربما لم أرغب أبداً..».

قال براس بسرعة وهو يندندن: «ربما لم أرغب أبداً في أن يكون لديّ صديق أو زجاجة لأقدمها إليه مطلقاً.. ها ها! هذه هي تكملة كلمات الأغنية. أليس كذلك؟ إنها أغنية جيدة جداً يا سيد ريتشارد، أغنية رائعة. أحب الشعور الذي تُضفيه على إحساسي. ها ها! إن صديقك الذي تقصده هو ذلك الشاب من مكتب ويزردن.. حسب ما اعتقد.. أليس كذلك؟ ربما لم أرغب أبداً في أن يكون لديّ.. أي أحد آخر ونسيت ذكره لي يا سيد ريتشارد!».

رد السيد سوفييلر: «نعم.. يوجد أحد ما عند المستأجر».

صاح براس: «فعلًا! يوجد أحد ما عند المستأجر؟ ها ها! ربما لم أرغب أبداً في أن يكون لديّ صديق، أو.. أحد ما عند المستأجر.. أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟».

رد السيد ديك، يعتريه الارتباك من الروح الفكاهية المفرطة التي يتحدث بها صاحب العمل، وقال: «بلى يا سيدي.. إنه معه الآن».

صاح براس: «معه الآن! ها ها! إذنْ دعهما حرين فرحين منسجمين تيراتين ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟».

رد ديك: «أوه! طبعًا طبعًا يا سيدي».

قال براس وهو يبحث في أوراقه: «ومن هو.. من زائر المستأجر.. أم زائرة المستأجر! أمل ألا تكون زائرة ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟ إنها الأخلاق، فإذا حلت السيدات الجميلات، تُرتكب الحماقات ومن

بعدها تأتي المشكلات.. ها ها! أليس كذلك يا ريتشارد؟».

رد ريتشارد: «إنه شاب صغير، من مكتب ويزردن أيضًا، أو شبه منتمٍ إليهم يا سيدي.. إنهم يدعونه كيت».

قال براس: «كيت هاه! اسم غريب.. اسم كمان معلمي الرقص^(١٤).. أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ ها ها! كيت هنا، أليس كذلك؟ أوه! ها ها!».

نظر ديك إلى الآنسة سالي، متعجبًا من كونها غير ملتفتة إلى كل هذه الحيوية الفكاهية المفرطة التي تنتاب السيد سامبسون، ولأنها لم تهتم بأي محاولة لإيقاف هذا العبث، بل على العكس تمامًا، ظهرت عليها أمارات الموافقة الضمنية لكل ما بدر منه، استنبط من فوره أنهما كانا يخدعان شخصًا ما، وتلقيا أجر ما عملا.

قال براس، وهو يأخذ خطابًا من مكتبه: «هل تقدم لي معروفًا يا سيد ريتشارد، وتأخذ هذا وتذهب إلى (بيكهام راى)؟ ليس لهذا الخطاب ردًا، ولكنه شديد الخصوصية يجب أن يسلم يدًا بيد. وعد إلى المكتب ثانيةً على الفور بالحافلة.. فأنت تعلم شعار الكتبة: «لا تبقَ في المكتب، وامكث خارجه قدر الإمكان». هاه! أليس كذلك يا سيد ريتشارد؟ ها ها!».

انترع ريتشارد سترته في وقار، وارتدى معطفه، ومن ثمَّ أخذ قبعته من على المشجب، ووضع الخطاب في جيبه، ثم غادر. بمجرد أن ذهب، قامت الآنسة سالي براس، وابتسمت في لطف إلى شقيقها -الذي أومأ

(١٤) كيت: كمان البوتشيني.. كمان صغير الحجم يمكن وضعه في الجيب، شاع في القرن التاسع عشر في البلاط الملكي وأماكن النبلاء، واستخدم أيضًا من قبل راقصي الشوارع.

إليها بالمثل، وسدد لكمة إلى أنفه - وغادرت أيضًا.

بمجرد أن تُرك سامبسون براس وحيداً في المكتب، فتح الباب على مصراعيه، ومركز نفسه على مكتبه لكن في الاتجاه المعاكس تمامًا؛ حتى لا يفوت رؤية أي أحد ينزل الدرج، ويخرج إلى الباب الخارجي، بدأ في الكتابة في جد واجتهاد وفي أقصى درجات الابتهاج، يهتمهم ويدندن كما كان يفعل، في صوت لا يمكن أن يطلق عليه إلا صوت موسيقي، لكن همهمات لفظية كشفت عن كلمات أشارت إلى اتحاد ما بين الكنيسة والدولة، أو امتزاج ما بين (ترنيمة المساء) و(حفظ الرب الملك).

جلس محامي بيفيس ماركس، يكتب ويهتمهم لوقت طويل، باستثناء الأوقات التي كان يتوقف فيها ويسترق السمع ويشخص ببصره بوجه ماكر، ولا يسمع شيئاً، فيعاود الدندنة بصوت عالٍ، والكتابة بوتيرة بطيئة. ظل على هذا الحال، وفي مرة من مرات توقفه، سمع باب المستأجر يُفتح ثم يُغلق، وصوت وقع أقدام تنزل الدرج. عدل عن الكتابة من فوره، يهتمهم ويدندن بصوت أعلى، يمسك القلم في يده، ويهز رأسه من جنب إلى آخر، كرجل روحه منتشية بالموسيقى، وهائم معها، ويتسم بطريقة سيرافية^(١٥).

(١٥) السيرافيم - كما ذكر في سفر إشعياء -: ملائكة سامون يخدمون الرب ويحيطون بعرشه يترنمون ويرددون (قدوس قدوس..)، "فَطَارَ إِلَيَّ وَاجِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ، وَمَسَّ بِهَا فَمَيَّ وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ، فَانْتَرَعَ إِنْثُكَ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيئَتِكَ» (إشعياء ٦: ٦، ٧). وغالبًا ما يُقال للأشخاص ذوي الوجوه اللطيفة البريئة سيرافيون أو لوصف أي نوع من الموسيقى أو الفن الحالم.

وهكذا، بالنسبة لهذا المشهد الحركي، تم توجيه كيت إلى الأسفل عن طريق الدرج، واجتذابه بالأصوات العذبة، عند وصوله أمام باب المكتب، توقف السيد براس عن الغناء، لكنه لم يتوقف عن التبسم، وأوماً برأسه في لطف، وفي الوقت نفسه أشار إليه بقلمه.

قال السيد براس بالطف طريقة يمكن أن يتخيلها: «كيت.. كيف حالك؟».

على الرغم من أن كيت كان خجلاً، لكنه رد ردًا مناسبًا، بينما كانت يده على مزلاج الباب الخارجي، استدعاه السيد براس بوداعة، وطلب منه أن يعود.

قال المحامي بطريقة مبهمة لكنها تشبه طريقة عمله إلى حد كبير: «لا تذهب من فضلك يا كيت.. عليك أن تدخل هنا إذا سمحت.. يا لنفسي العزيزة! يا لنفسي العزيزة!». قام عن مقعده، ووقف أمام النيران، موليًا ظهره لها وقال: «عندما أنظر إليك.. أتذكر أجمل وجه رأيته عيني. أتذكر قدومك إلى هنا مرتين أو ثلاث مرات، عندما كنا في خضم العمل. آه يا كيت! يا رفيقي العزيز! إن السادة في مهنتي، لديهم واجبات إلزامية موجعة، يتوجب عليهم القيام بها في بعض الأحيان، لذا لا يجب عليك أن تحسدنا.. لست في حاجة إلى فعل ذلك!».

قال كيت: «لست بفاعل يا سيدي.. علاوةً على أنني لست الشخص الذي يصدر أحكامًا على الإطلاق».

تابع المحامي حديثه وهو ينظر إليه بنظرة مجردة: «إن عزاءنا الوحيد

يا كيت بالرغم من عدم استطاعتنا تغيير مسار الرياح، هو أن نهدي من هبوبها.. إذا جاز لي أن أقول (جز صوف الحملان)).

خاطب كيت نفسه، دون أن يصدر صوتاً: «جز صوف الحملان.. فعلاً! هذا قريب جداً».

قال السيد براس: «بخصوص هذا الشأن يا كيت! بخصوص هذا الشأن، الذي أشرت إليه للتو.. خضت مشادة عنيفة مع السيد كويليب -وأنت تعرف أن السيد كويليب رجل صعب للغاية- كي أحصل لهم على التساهل. ربما كلفني هذا عميلاً. لكن المعاناة والفضيلة ألهماني، وانتصرت في النهاية».

قال كيت البريء محدثاً نفسه: «إنه ليس سيئاً للغاية بغض النظر عن كل شيء»، بينما زم المحامي شفثيه، وبدا في مظهر الرجل الذي يجلد ذاته ويعاني مع مشاعره السامية.

قال براس بعاطفة متأججة: «أنا أكنُّ لك احتراماً يا كيت.. لقد رأيت ما يكفي من سلوكك، في ذلك الوقت، لاحترمك، على الرغم من مكانتك المتواضعة وثروتك المكدومة. لكني لا أنظر إلى الصدريات، أنا أنظر إلى القلوب. ليست الشيكات في الصدريات إلا أسلاك أقفاص. لكن القلب هو الطائر.. آه! كم عدد الطيور التي تنتف ريشها بنفسها، وتضع مناقيرها عبر الأسلاك لتتقر على البشرية جمعاء!».

تغلب هذا المجاز الشعري على كيت، مع أنه اعتبره إشارة خاصة إلى صدريته ذات الترابيع، أما صوت وأسلوب السيد براس، فلم يضيفا

أي تأثير ولو بالقدر القليل، رغم أنه تحدث بنبرة زاهدة لناسك متعبد، كان ينقصه فقط أن يلف رباطاً حول خصره على معطفه المهلهل، ويضع جمجمة على رف المدفأة، ليتمم هذا النوع من الأعمال.

قال سامبسون، مبتسماً كرجل طيب يبتسم عندما يتعاطف مع ضعفه أو ضعف رفاقه: «حسناً حسناً.. هذا هو المغزى. تعال وخذ هذا من فضلك». بينما كان يتحدث، أشار إلى بضع عملات من فئة النصف كراون موضوعة على المكتب.

نظر كيت إلى العملات، ثم إلى سامبسون، تملك منه الحيرة.
قال براس: «إنها لك».

— من مـ...

رد المحامي: «لا يهم من مـ.. وإذا أردت معرفة مـ بشدة.. يمكنك أن تقول إنها مني، إذا أردت. استمع لي يا كيت! إن لدينا أصدقاء يقدمون الخير ولا يريدون الإفصاح عن أنفسهم، لذا، يجب علينا ألا نطرح أسئلة أو نتحدث كثيراً.. أنفهمني؟ خذها لك، وهذا كل ما في الأمر، وأُسرُّ إليك أمراً، اجعله بيني وبينك فقط، لا أظن أنها ستكون آخر ما ستأخذه من المصدر نفسه. أمل ألا تكون! والآن! وداعاً يا كيت. وداعاً!».

مع إجزال الشكر، والكثير من لوم النفس، بسبب الشكوك التي انتابته في بادئ محادثتهما، التي كشفت مع الاسترسال عن رجل مختلف تماماً عما تصور. أخذ كيت المال، وانطلق من توه إلى البيت.

ولا يزال السيد براس يقف أمام النيران، يدفع نفسه، مستأنفاً
همهمات الموسيقى، تعتلي وجهه ابتسامته السيرافية في الآن ذاته.
نظرت الآنسة سالي إلى الداخل في تحسب وقالت: «هل يمكنني
الدخول؟».

رد شقيقها: «أوه! بالطبع تعالي».

تنحنحت الآنسة براس بطريقة استجوابية: «احم احم!».

رد سامبسون: «حريُّ بي أن أقول.. تم على أكمل وجه».



الفصل السابع والخمسون

لم تكن مخاوف السيد تشوكستر الساخطة دون أساس. فصدقة الرجل الأعزب والسيد جارلاند لم يصبها الفتور، بل على النقيض تمامًا، قويت عُرى الصداقة بينهما، وازدهرت بشكل استثنائي. أصبحا يتواصلان بشكل مكثف، ويحافظان على وجود صلة حسنة مستمرة بينهما، في ذلك الحين كان الرجل الأعزب عليلاً، إثر أزمة صحية داهمته - كانت على الأرجح عاقبة لما تعرض له مؤخرًا من حزن ومشاعر انفعالية وخيبة أمل مفاجئة - كانت سببًا لتبادل المراسلات فيما بينهما بشكل متكرر. وبناء عليه، أصبح ذلك الشخص المقيم في فيلا هاويل في فينتشلي يتردد جيئةً وذهابًا كل يوم تقريبًا ما بين ذلك المكان وبيفيس ماركس.

بما أن المهر توقف عن أساليب الخداع، دون أي سلوكيات تدلل أو حياد عن الطريق، وبات يرفض رفضًا قاطعًا أن يحوزه أي أحد باستثناء كيت، وينطبق رفضه بشكل عام على الجميع، حتى إذا أتى السيد جارلاند العجوز نفسه أو السيد هاويل، كان كيت هو الوحيد القادر على حوزة. وبذلك، كانت كافة الرسائل والطلبات تصل من

خلال كيت، الذي أصبح حامل الرسائل، وبما أن الرجل الأعزب متوعك، ظل كيت يأتي بانتظام كل صباح إلى ييفيس ماركس، كأنه الموزع العام للبريد.

أما السيد سامبسون براس، الذي كانت له أسبابه الخاصة، ليراقبه ويترقبه، فسرعان ما استطاع تمييز خبب المهر، وقعقة العربة الصغيرة عند زاوية الشارع. متى يصل الصوت إلى أذنيه، يطرب له، يضع القلم في الحال، ويفرك يديه في ابتهاج عظيم.

لطالما كان يصيح: «ها ها! ها هو المهر مرة أخرى! أكثر الأمهار مهارة! المهر الطيع سهل الانقياد.. هاه! يا سيد ريتشارد، أليس كذلك يا سيدي؟ هاه؟».

حينها كان يرد ديك ببعض الأجوبة المؤكدة، بينما يقف السيد براس على القضيبي السفلي لمقعده؛ حتى يتمكن من رؤية الشارع من فوق حاجب الزجاج، ليحظى على رؤية الزوار له.

كان يصيح عاليًا ويقول: «الرجل العجوز مرة أخرى! الرجل العجوز المحترم سليم الطوية يا سيد ريتشارد.. ذو الطلعة البهية يا سيدي.. وقسمات الوجه السنية، والملامح الهادئة الشجية يا سيدي. ربما يحاكي فكرتي عن الملك لير^(١٦)، عندما كانت مملكته في حوزته يا سيد ريتشارد.. إن له الشخصية نفسها، والشعر الأبيض والصلع الجزئي، والمسؤولية ذاتها المفروضة عليه. آه! إنه موضوع شيق للتأمل يا سيدي، موضوع شيق فعلاً!».

(١٦) مسرحية تراجيدية لويليام شكسبير.

وبعد أن يترجل السيد جارلاندا، ويصعد الدرج، يومئ سامبسون إلى كيت بابتسامة من النافذة، ثم يذهب بنفسه من توه إلى الشارع، لاستقباله، ثم تدور بينهما المحادثات على النحو التالي.

يربت السيد براس على المهر ويقول: «إنه متأنق بشكل رائع.. ينسب إليك الفضل الكبير.. إنه أنيق ومشرق بشكل مدهش حقًا. يبدو كما لو أنه تم تلميعه كليًا حرفيًا».

يلمس كيت قبعته مبتسمًا، يربت على المهر بنفسه، ثم يعبر عن اقتناعه الراضخ قائلاً: «لن تجد مثله أبدًا يا سيد براس».

يصيح السيد براس: «إنه حيوان جميل فعلاً! أحسب أنه حاذق أيضًا؟».

يرد كيت: «فليباركك الرب! إنه يعرف معنى ما تقوله له كالإنسان بالضبط».

يصيح براس، الذي سمع الأمر نفسه وترديد الكلمات نفسها في المكان ذاته من الشخص عينه لعشرات المرات، وتصيبه دهشة مباغتة بشلل لحظي في أطرافه في كل مرة على حدة، ويقول: «هل هو كذلك فعلاً! يا لنفسى العزيزة!».

يقول كيت، وهو راضٍ تمامًا عن اهتمام المحامي بمن يفضلته: «لم يخطر على بالي في المرة الأولى التي رأيته فيها، أنني سأكون مقربًا له مثلما أنا الآن».

يقول براس، مشمولاً بالمفاهيم الأخلاقية وحب الفضيلة: «آه! إنه انعكاس أمر ساحر يخصك.. أمر ساحر للغاية. إنه أمر محط فخر قويم وتهنئة يا كريستوفر.. إنه الصدق، فالصدق أفضل وسيلة.. دائماً ما أتحرى الصدق والنزاهة. لقد خسرت هذا الصباح سبعة وأربعين جنيهاً بسبب كوني صادقاً أميناً. لكنها ليست خسارة.. إن كل هذا مكسب، إن كل هذا مكسب حقاً!».

في ذلك الحين، ينغز السيد براس أنفه بقلمه نغزاً خفيفاً، وينظر إلى كيت بعينين يتقلقل فيهما الدمع. يظن كيت أنه إذا وُجد رجل صالح، تتناقض هيئته مع مكنونه، فحتمًا سيكون ذلك الرجل هو سامبسون براس.

يقول سامبسون: «إن الرجل الذي يخسر سبعة وأربعين جنيهاً في صباح واحد بسبب صدقه ونزاهته، ما هو إلا رجل جدير بالغبطة. إذا بلغ مبلغ ما فقدته ثمانين جنيهاً، لازداد الشعور إجلالاً. فكل جنيته فقدته، سيكسب مقابله مئات قدره من السعادة». ثم يصيح براس، مبتسماً، وهو يربت على صدره: «لا يزال الصوت الخافت بداخلي يغني الأغاني المرححة، ويضفي سعادة وفرحاً».

يقف كيت في غمرة الإعجاب بالحديث، كأنه انتشل من الواقع، ليجد نفسه في أحضان بيته، لدرجة أنه كان يفكر فيما يُفترض عليه قوله، عند مجيء السيد جارلاندر. يساعد السيد سامبسون براس الرجل العجوز في ركوب العربة بخنوع شديد، وبعد أن يهز المهر رأسه عدة مرات، لا يتحرك لمدة ثلاث أو أربع دقائق عن مكانه، يثبت قوائمه

الأربعة على الأرض بقوة، كما لو أنه قد قرر عدم مبارحة مكانه مطلقاً، لكنه يقدم تضحية عظيمة، وينطلق فجأةً دون سابق إنذار أو بارقة إشعار، بمعدل اثني عشر ميلاً في الساعة. حينها يتبادل السيد براس مع شقيقته -التي انضمت إليه عند الباب- إيماءة تكشف عن ابتسامة مريبة -ليست المألوفة التي تحمل تعبيرات لطيفة على الإطلاق- ثم يعودان وينضمّان إلى صحبة السيد ريتشارد سوفييلر، الذي يروّح عن نفسه أثناء غيابهما، بتأدية مقتطفات متنوعة من مسرحيات إيمائية، ليشاهداه جالساً على مكتبه، يحتقن وجهه بالدم، في حالة جامحة، يكشف اللاشيء بنصف مُدية جيب.

في المرات التي كان كيت يأتي فيها بمفرده، ودون العربة، يحدث دائماً أن سامبسون براس يبعث السيد سوفييلر لإنجاز بعض المهام، لكن المكان لم يعد بيكهام راي، بل يرسله كل مرة إلى مكان بعيد جداً، لا يمكن توقُّع عودته منه قبل ساعتين أو ثلاث ساعات، أو على الأرجح فترة أطول من ذلك بكثير، على الرغم من أن هذا الرجل -على سبيل المثال- غير معروف بلجوئه إلى إرسال أحدهم في ظل الظروف المماثلة، فما كانت إلا حيلة من أجل إطالة الوقت وإبقائه في الخارج أطول مدة ممكنة. بمجرد أن يتعد السيد سوفييلر عن الأنظار، تنسحب الأنسة سالي من بعده في التو واللحظة. يفتح السيد براس باب المكتب على مصراعيه، يهمهم ويدندن لحنه القديم في مسرة تنبعث من القلب، ملازماً على التبسم بالصورة الملائكية السيرافية، كما كان من قبل بالضبط. يبقى على هذا الحال حتى يستدعي كيت فور سماعه ينزل

الدرج، يستمتعان ببعض المحادثات الأخلاقية العذبة، وربما يتوسل إليه ليتدبر أمن المكتب للحظة، بينما يذهب السيد براس إلى الخارج، ومن ثمَّ يعود ومعه عملة أو عملتان من نصف الكراون، على حسب الحالة. غالبًا ما كان الأمر يتكرر مرات بعد مرات، ولا يشك كيت بتاتًا في أنها ليست مقدمة من الرجل الأعزب، الذي كافأ والدته بالفعل بعتاء سخى، حتى صار إعجابها بمقدار كرمه لا يضاهي، وبالأموال التي كان يأخذها كيت، اشترى الكثير من الهدايا المتواضعة لها، ولجايكوب الصغير وللرضيع، ولباربرا أيضًا، فقد أصبحا يتحدثان معًا كل يوم تقريبًا عن أمور حياتهما.

بينما كانت تلك الأعمال والأفعال مستمرة داخل وخارج مكتب سامبسون براس، تُرك ريتشارد سوفييلر بمفرده أغلب الأوقات، فقرر أن يتعامل مع الأمر بطريقة الخاصة. من أجل الحفاظ على ابتهاج أفضل، وليمنع التهام الصدا لروس عقله، زود نفسه بلوحة لعبة كريبج وحزمة من أوراق اللعب، وداوم على اللعب، برهانات تصل إلى عشرين جنيهًا أو ثلاثين جنيهًا أو حتى خمسين ألف جنيه في بعض الأحيان، من دون حذر أو احتياط، يلعب بمجازفات خطيرة إلى أبعد حد، مع دمية، كان يجلسها أمامه.

نظرًا لأن تلك الألعاب كانت تُجرى في صمت شديد، بصرف النظر عن مقدار المصالح المعنية التي تتضمنها، بدأ يُخيل للسيد سوفييلر، في تلك الليالي، التي يكون فيها السيد والأنسة براس في الخارج - غالبًا ما كانا بالخارج - أنه يسمع عند الباب أصوات نخير وصرير، بعد عدة

تصورات، خطر على باله أن هذه الأصوات من المؤكد صادرة من الخادمة الصغيرة، المصابة بنزلات برد مزمنة، بسبب الرطوبة القارسة التي تعيش فيها. في إحدى الليالي، استطاع لمح عين تبرق وتلمع من ثقب المفتاح، وبلا شك علم أن ظنونه في محلها، تسلل إلى الباب في هدوء، وانقض عليها قبل حتى أن تدرك وصوله.

صاحت الخادمة الصغيرة، في ارتباك عارم، ثم قالت كأنها شخص كبير: «أوه! لم أقصد أي أذى بتأتا.. صدقني.. إن المكان مظلم جدًّا وأنا وحيدة بالأسفل، من فضلك لا تخبر أحدًا بما فعلت، أرجوك لا تفعل». قال ديك: «أنا أخبر أحدًا! أتقصدين أن تقولي: إنك كنت تنظرين من ثقب المفتاح من أجل أن تجدي رفيقًا؟».

ردت الخادمة الصغيرة: «لقد قصدت ذلك فعلاً.. أرجوك صدقني».

قال ديك: «ومنذ متى تختلس عينك النظر من هنا؟».

– أوه! منذ أول مرة بدأت تلعب فيها بالأوراق.. أو قبل ذلك بوقت طويل.

على الرغم من أن الذكريات المشوشة للعديد من التدريبات البديعة التي اعتاد أن ينعش بها نفسه بعد إرهاق العمل –التي بلا شك كانت للخادمة الصغيرة بمثابة حفلات ليلية– قد أربكت السيد سوفييلر، لكنه لم يكن شديد الحساسية تجاهها، وسرعان ما تغاضى عنها.

بعد القليل من التفكير، قال: «حسنًا! تعالي.. ادخلي، واجلسي هنا؛ سأعلمك طريقة اللعب».

قالت الخادمة الصغيرة: «أوه! لا أجرؤ على القيام بذلك.. ستقتلني
الآنسة براس؛ إذا عرفت أنني أتيت إلى هنا بالأعلى».

قال ديك: «هل لديك نيران أسفل الدرج؟».

ردت الخادمة الصغيرة: «نعم، لكنها شعلة صغيرة جدًا».

قال ريتشارد، بينما يضع أوراق اللعب في جيبه: «أحسب أن الآنسة
سالي لن تقتلني إذا عرفت أنني كنت بالأعلى، لذا سأأتي معك.. كم
أنت نحيلة! ما المغزى من كونك بتلك النحافة؟».

- هذا ليس خطئي.

قال ديك، وهو يأخذ قبعته: «ألا تأكلين أي عيش أو لحم؟ آه! نعم!
لقد تذكرت. قل لي هل تذوقت الجعة من قبل؟».

قالت الخادمة الصغيرة: «لقد تذوقت رشفة صغيرة ذات مرة».

رفع السيد سوفييلر عينيه إلى السقف، وصاح: «هذا ما في الأمر..
إنها لم تذوق الجعة أبدًا.. لا يمكن تذوقها بتاتًا من رشفة واحدة! كم
عمر لك؟».

- لا أعرف.

بدا السيد سوفييلر متفكرًا لوهلة، فاغر العينين، ثم قال للطفلة أن
تنتبه إلى الباب؛ حتى يعود ثانية، واختفى على الفور. سرعان ما عاد،
متبوعًا بصبي من النزل العام، وهو يحمل في يده صحنًا عليه خبز ولحم،
وقدرًا مليئًا بمزيج فواح، تتصاعد منه أطيب الأبخرة، في الواقع كان
ذلك مشروب (بيرل)، تم عمله بعد أن نقل السيد سوفييلر للمالك

وصفته الخاصة، حينما كان متعمقاً في كتبه، ويتوق إلى تقوية صداقته به. رفع السيد سوفييلر حمل الصبي عند الباب، وأوصى رفيقته الصغيرة بأن تسرع لتكشف عن المفاجأة، بينما تبعها السيد سوفييلر إلى المطبخ. وضع ريتشارد الصحن أمامها، وقال: «هيا! في بادئ الأمر أريد منك أن تنهي هذا، ثم ستعرفين ما التالي».

لم تكن الخادمة الصغيرة في حاجة إلى دعوة ثانية، فسرعان ما كان الصحن فارغاً.

قال ديك، وهو يقدم إليها مشروب بيرل: «هذا هو التالي.. خذي رشفة من هذا، لكن، تمهلي قليلاً، فكما تعرفين، أنت لست معتادة عليه.. حسناً! هل هو جيد؟».

قالت الخادمة الصغيرة: «أوه! أهو أي شيء آخر غير جيد؟».

بدا السيد سوفييلر ممتناً إلى أقصى درجة ممكنة، فتناول رشفة كبيرة، وهو ينظر بثبات إلى رفيقته. بعد أن انتهيا من تتابع الرشفات، شرع في تعليمها اللعبة، التي سرعان ما أتقنتها على نحو مبهر، فلقد كانت حادة الذكاء والدهاء.

وضع السيد سوفييلر عملتين من فئة الستة بنسات في الصحن، وشذب الشمعة الباهتة، نظم أوراق اللعب ووزعها، ثم قال: «والآن! هذا هو الرهان. إذا ربح، ستأخذينه كله.. أما إذا ربح، فسيكون لي، لجعل الأمر يبدو واقعياً ممتعاً، حريٌّ بي أن أناديك الـ(ماركيزة)، هل تسمعين؟».

أومأت الخادمة برأسها بالإيجاب.

قال السيد سوفييلر: «هيا.. فلنبدا!».

أمسكت الماركيزة أوراقها بيديها الاثنتين، تدبر أي الأوراق ستلعب، بينما جلس السيد سوفييلر بشكل أنيق، حسن المحيا، كما تنص حفلات السمر، يرتشف من مشروبه، بينما كان منتظرًا تقدمها.



الفصل الثامن والخمسون

لعب السيد سوفييلر مع شريكته عدة جولات، كان الفوز خلالها متفاوتًا، حتى خسر ثلاث عملات من الستة بنسات، وشارف مشروب بيرل على الانتهاء، ودقت الساعة العاشرة مساءً، واجتمعت كافة الظروف، لينتبه الرجل النبيل إلى أن الوقت قد مر كالبرق، وأن اللحظة المناسبة لانسحابه قبل عودة السيد والأنسة براس قد حانت.

قال السيد سوفييلر بنبرة جادة: «أستمحيك عذرًا بكل ما في الوجود يا ماركيزة، أن أطلب من معاليك السماح بوضع لوح اللعب في جيبي، وأنسحب من رحاب حضرتك عند الانتهاء من شرب هذا الإبريق، وأريد أن أتقدم بملحوظة يا ماركيزة، على الرغم من أن الحياة مثل النهر تنساب قدمًا في مجراها، فإنني لا أهتم يا سيدتي بمدى سرعتها ومضيها، ما دام الخريف على الضفة ينسال، وتضيء هاتان العينان الأمواج المتدفقة في دلال. يا ماركيزة، يا سيدتي الجميلة، اعذري اعتماري لقبعتي، لكن القصر قارس البرد حقيقةً، والأرضية الرخامية -إذا سمحت لي بالتعبير - قذرة».

كإجراء احترازي ضد هذا الإزعاج الأخير، جلس السيد سوفييلر لبعض الوقت، يضع قدميه على رف صفيح بجانب الموقد، في مشهد يضاهي اعتباراته التبريرية، يرتشف ببطء آخر قطرات من الرُّحاق.

قال السيد سوفييلر، وهو يسند على الطاولة بذراعه اليسرى، ويرفع صوته وساقه اليمنى في سلوك يحاكي طريقة اللصوص المسرحية: «إذن قل لي هل البارون (سامبسونو براسو) وشقيقته العادلة في المسرح؟».

أومات الماركية بالإيجاب.

قال السيد سوفييلر في عبوس منذر: «ها! حسنًا يا ماركية! لا يهم. يوجد نبيذ هناك. هوو!». ألقى عباراته في جو من الميلودراما مكثفة المشاعر، ثم قدم لنفسه الإبريق في تواضع كبير، وأخذ من نفسه في غطرسة مبالغة، وشرب منه في نهم عطش، وضم شفثيه في عنف.

بدت الخادمة الصغيرة التي لم تكن على دراية جيدة بالتقاليد المسرحية - فلم تكن قد شاهدت أي مسرحية قط، أو سمعت أحدًا يتحدث عنها، إلا من خلال خصائص الأبواب أو من الأماكن المحرمة الأخرى - منزعجة على سجيتها إثر تلك المظاهر المسرحية المبهمة بالنسبة لها، وأظهرت سمات الترقب والقلق على وجهها في وضوح، فانتبه السيد سوفييلر من فوره، وشعر أنه من الضروري أن يعدل عن شخصية اللص المسرحي، ويلتزم بشخصية أقرب إلى الواقع الخاص، لذا سأل: «هل يذهبان عادةً حيث ينتظرهما المجد، ويتركانك هنا؟».

ردت الخادمة الصغيرة: «أوه! نعم.. دائماً ما يفعلان.. إن الآنسة سالي دؤوبة حقاً».

قال ديك: «إنها ماذا؟».

قالت الماركية: «دؤوبة».

بعد لحظة من التفكير، قرر السيد سوفييلر أن يمتنع عن واجبه المسؤول في ردها إلى الصواب؛ من الواضح أنها صارت كأى سكير مرتبك، وأن لسانها تراخى من مشروب البيرل، وأن فرصها في التحدث، لن تكون متواترة، حتى يقدم تدقيقاً لفظياً لحظياً، نتيجه لن تكون مؤثرة أو سوف تكون طفيفة غير ملحوظة.

قالت الخادمة الصغيرة، بنظرة متبصرة فطنة: «إنهما يذهبان أحياناً لرؤية السيد كويليب.. إنهما يذهبان إلى أماكن كثيرة.. فليعافيك الرب!».

قال ديك: «وهل السيد براس دؤوب على عمله أيضاً؟».

ردت الخادمة الصغيرة، وهي تهز رأسها نافية: «ليس دؤوباً ولو حتى بمقدار نصف دؤوبية الآنسة براس.. فليباركك الرب! لا يمكنه أن يفعل أي شيء من دونها».

قال ديك: «أوه! فعلاً! لا يمكنه فعلاً؟».

قالت الخادمة الصغيرة: «إن الآنسة سالي تتحكم فيه وتسيطر عليه، وهو يطلب نصيحتها دائماً، ويعمل بها على الفور، فليباركك الرب! لا يمكنك أن تتصور إلى أي مدى يعمل بنصائحها».

قال ديك: «أحسب أنهما يتشاوران معًا، ليصلا إلى حل مناسب، وأحسب أنهما يتحدثان عن عدد كبير من الأشخاص.. أحيانًا يتحدثان عني على سبيل المثال.. أليس كذلك يا ماركيزة؟».

أومأت الماركيزة برأسها على نحو يثير الدهشة والفضول.

قال السيد سوفييلر: «بالمدح؟».

غيرت الماركيزة حركة رأسها، فلم تعد تومئ كما كانت من قبل، بل بدأ رأسها على حين غرة يهتز من جانب إلى آخر، في عنف ينذر بانفصال رقبتها.

قال ديك مدمدًا: «أووف! هل يوجد أي خرق للثقة يا ماركيزة، إذا قلت ما يقوله لأنه للشخصية المتواضعة الماثلة أمامك الآن —...؟».

ردت صديقتها: «تقول الآنسة سالي إنك شخص مضحك».

قال السيد سوفييلر: «حسنًا! ولكن هذا مدح. أن تكون مرحًا يا ماركيزة امرؤٌ ليس سيئًا أو مهينًا. كان الملك كول العجوز^(١٧) نفسه شخصية مرحة.. إذا كان لدينا إيمان بما في صفحات التاريخ».

قالت رفيقته: «لكنها قالت أيضًا إنه لا يمكن الوثوق فيك».

قال السيد سوفييلر مفكرًا: «فعلاً! لماذا يا ماركيزة! أعلم أن العديد من السيدات والسادة ليسوا متخصصين في رؤية حقيقة الناس.. إذا كان

(١٧) أغنية بريطانية لأطفال الروضة.. على الرغم من التكهات العديدة حول هوية الملك وربطها بشخصية تاريخية أبرزها الملك كويل هين، غير أن اسمه كان له وضع خاص في المسرح الإليزابيثي.

المنظور نفسه يميل إليه التجار يا سيدتي، حينها يختلف الأمر.. فالتجار أنفسهم أبدوا الملاحظة ذاتها. ذاك الشخص الغامض المدبر لأمر النزل الموجود على قارعة الطريق، أيد هذا الرأي بقوة، عندما طلبت منه الليلة تحضير مأدبة. إنه إجحاف شعبي، وتحامل ضدي يا ماركيزة، وحقيقةً أنا لا أعرف لماذا! لقد كنت محلًا للثقة في أحد الأوقات إلى حد كبير، ويمكنني القول في ارتياح أنني لم أتخلَّ عن ثقتي أبدًا حتى خانتني وهجرتني.. لم أتخلَّ عنها أبدًا.. وعلى غرار هذا، أحسب أن السيد براس كان له الرأي نفسه؟».

أومأت صديقه مرة أخرى، ولكن بمظهر أشد مكرًا، أوضح أن السيد براس يميل إلى هذا الرأي أكثر من شقيقته بكثير، ونمَّ عن احتكامه إلى آراء مذمومة أخرى، لكنها سرعان ما ضببت تعبيراتها، وأضافت قائلة في التماس شديد: «لكنك لن تقول لأي أحد ما قلته.. وإلا سيضربانني حتى الموت».

قال السيد سوفييلر وهو يقوم عن مقعده: «اسمعي يا ماركيزة! إن كلمة الرجل النبيل ميثاقه.. بل أفضل في بعض الأحيان، كما هو الحال في هذا الأمر، فيجب أن يثبت ميثاقه نوعًا من الأمن، ولكنه أمن مرهون. إنني صديقك وأود أن نلعب معًا مرات كثيرة أخرى في هذا البهو الفسيح.. لكن يا ماركيزة..»، توقف بينما كان ماضيًا في طريقه إلى الباب والتفت بروية إلى الخادمة الصغيرة، التي كانت تتبعه وفي يدها شمعة، وقال: «لكن ما يتوارد إلى ذهني الآن هو أن دس عينك عبر ثقب المفاتيح عادة مستمرة، حتى تعرفي كل هذا».

ردت الماركيزة مرتعدة: «صدقني.. لقد أردت أن أعرف أين يخبئ مفتاح خزانة الطعام فقط.. هذا كل ما في الأمر.. وصدقني إذا كنت وجدته، لم أكن سأتناول الكثير من الطعام.. كنت سأتناول ما يسد جوعي فقط».

قال ديك: «أفهم من ذلك أنك لم تعثري عليه؟ ما هذا! بالتأكيد لم تعثري عليه، وإلا كنت سمينة.. ليلة سعيدة يا ماركيزة، كوني بخير، كوني بخير لعمر مديد سعيد.. ضعي الجنزير يا ماركيزة، تحسباً لوقوع أي حادث».

مع توصية الوداع هذه، افترقا، وخرج السيد سوفييلر من المنزل، وهو يشعر أنه قد شرب قدرًا كبيرًا يبشره بحالة من الانتشاء سيطيح لها مزاجه - فلقد كان بيرل خليطًا مسكرًا قويًا - فاحتكم إلى عقله، وقرر أن يقصد منزله، ويأوي إلى الفراش بمجرد وصوله. سرعان ما ذهب إلى شققه التي لم تكن على مسافة بعيدة من مكتبه، حينما وصل، دخل من فوره إلى غرفة نومه، وخلع إحدى فردتي حذائه ونسي الأخرى، وانغمس في تفكيره العميق.

طوى السيد سوفييلر ذراعيه وقال: «ليست الماركيزة شخصية عادية، إنها استثنائية، محاطة بالغموض، تجهل طعم الجعة، لا تعرف اسمها - وهو ما كان أقل عجبًا بالنسبة له - وما تراه من المجتمع ما هو إلا نظرة محدودة تلقيها عليه من خلال ثقب المفاتيح.. هل هذه الأمور هي مصيرها المحتوم؟ أم أن شخصًا مجهولًا سيقف في مجابهة القدر، ويعارض أمره؟ إن هذا الأمر أكثر الأمور المتداخلة غموضًا وإبهامًا!».

عندما بلغت تأملاته إلى هذه النقطة المرضية، تنبه إلى فردة حذائه المتبقية، وبوقار لم يتدهور، حرر نفسه منها، يهز رأسه طوال الوقت في جدية مهيبة، ويتنهد بعمق.

وضع السيد سوفييلر قلنسوة النوم على رأسه، بنفس أسلوب اعتماره لقبته، وقال: «لقد ذكرتني جولات اللعب بالحياة العائلية، عندما تجلس زوجة تشيجز الآن وتلعب (كريبج) أو (هاي لو جاك)»^(١٨) مثلاً. تحرز تقدماً عليهم، ومن شخص إلى آخر حتى يأتي عليها الدور لتلعب، يستعجلونها لتقر بخسارتها، وعندما يلمحون منها ابتسامة خافتة، يظنون أنها فقدت السيطرة، لكنها لم تفعل. وبحلول هذا الوقت، حريٌّ بي أن أقول...». وهنا وقف موجهًا وجنته اليسرى جانبًا، ينظر بإعجاب إلى انعكاس قصاصة صغيرة من سبلته في المرأة ويقول: «ثم يحدث ما تستحقه، تُنصب لها الفخوخ، وتُقيد بالأغلال!».

ذابت روحه من العبوس وقسوة الفؤاد، وانسالت إلى مزاج مثير للشفقة متلطف، فأمسى السيد سوفييلر يئن قليلاً، يمشي ذهابًا وإيابًا في إجحاف، فضلًا عن تأديته لعرض شد فيه شعره؛ نفس فيه عن غضبه، على الرغم من أنه لم يشد شعره فعليًا، وقام بتمزيق شرابة قلنسوته بدلًا من ذلك، وقد أحس بحالة أفضل. وأخيرًا، خلع ملابسه في ارتخاء كئيب، وأوى إلى الفراش. عادةً يدفع اجترار الألم بعض الرجال ممن تداهمهم حالته نفسها إلى الشرب، لكن السيد سوفييلر لم يفعل ذلك؛ فقد شرب من قبل، لذا دفعته حالة الجِداد الخاصة به إلى فعل أمر آخر، وهو عزف

(١٨) لعبة بطاقات جاك: الولد في ورق الكوتشينة.

الوتر، على ذكرى تلقيه أخبار فقدان صوفي واكلى فقداناً أبدياً.. بعد أن احتكم إلى اعتبارات ناضجة، رأى أنها فكرة جيدة، فصورته حزين، وسيجتر أفكاره الحزينة، لكن اختياره لم يكن لتناغمه مع حالته الكئيبة فقط، بل لإيقاظ مشاعر المشاركة الوجدانية في صدور جيرانه. عمل بقراره، سحب طاولة صغيرة إلى جانب سريره، هياً الضوء، وضع نوتة موسيقية مستطيلة أمامه، أخذ الناي من صندوقه، وبدأ العزف في تفجع.

كان اللحن بعيداً كل البعد عن الحزن.. لم يكن سوى مزيج من نغمات، كانت متقطعة رتيبة تُعزف بأناة بطيئة على السرير، فضلاً عن كون عازفها رجلاً ليس على اطلاع كامل بالآلة مطلقاً، يكرر مقطعاً واحداً لمرات عديدة قبل أن يتمكن من العثور على المقطع الذي يليه، فلم يكن اللحن سوى مزيج من نغمات ليس لها أي تأثير حيوي. ومع ذلك، لمدة نصف ليلة أو أكثر، أحياناً يستلقي السيد سوفييلر على ظهره ويصوب ناظره إلى السقف، وأحياناً أخرى يلقي بنصف جسده خارج السرير ليصحح أنغامه من النوتة، يعزف ذاك اللحن البائس مرات ومرات، ولا يكف عنه، يتوقف لدقيقة أو لدقيقتين، يلتقط أنفاسه، ويناجي نفسه بحال الماركية، ثم يشرع ثانيةً بحيوية متجددة. لم يتوقف حتى استنفذ التفكير في كل تأملاته، ونفخ في الناي أشجان ما رواه عليه مشروب بيريل حتى آخر ذرات بقيت في أنفاسه، وأثار جنون أهل سكنه جميعهم، وأهل الطريق على مدى الصوت تقريباً.. أغلق النوتة الموسيقية، أطفأ الشمعة، ووجد نفسه يحل في سكينه، هادئ البال، مرتاح الذهن، فاستدار، وراح في نوم عميق.

استيقظ في الصباح الباكر، منتعشاً، عكف على عزف الناي قرابة نصف الساعة، تلقى برحابة صدر إنذار مالكة النزل بالطرد، فقد انتظرتة على الدرج منذ فجر يومه من أجل هذا الغرض، ذهب إلى ييفيس ماركس، حيث كانت سالي الجميلة متواجدة في عملها بالفعل، ويعكس مظهرها توهجاً خافتاً مثل ذلك المنبعث من القمر في بداية أطواره. حيا السيد سوفييلر وجودها بإيماءة، استبدل معطفه بالسترة، التي يستغرق ارتداؤها بعض الوقت؛ لضيق كميتها، فلا يكتمل دخول ذراعيه دون سلسلة من الصراعات، لكنه قهر المصاعب أخيراً، واتخذ مقعده عند المكتب.

كسرت الأنسة براس حاجز الصمت فجأة، وقالت: «أقول لك.. ألم ترَ قلماً فضيًّا هذا الصباح؟».

رد السيد سوفييلر: «إنني لا أقابل الكثير منها في الشارع.. ربما رأيت واحداً متين البنية ذا مظهر محترم.. لكنه لم يكن بمفرده، كان بصحبة مدية عجوز، ومسواك صغير، كانوا يتداولون حديثاً جاداً.. بصراحة، لقد شعرت بالحرَج لأكلمه».

قالت الأنسة براس: «قل لي بجدية هل رأيته فعلاً؟ إنه قلم رصاص».

قال السيد سوفييلر: «أي كلب غبي يمكن أن تكوني كي تسأليني هذا السؤال وتقولي لي بجدية؟ ألم أصل إلى هنا من توي؟».

ردت الأنسة براس: «حسنًا! ولكن كل ما أعرفه هو أنني لا أستطيع إيجادهِ، وأنه اختفى في يوم ما من هذا الأسبوع، عندما تركته على مكتبي».

حدث ريتشارد نفسه: «أهلاً! آمل ألا تكون الماركييزة قد جاءت هنا».

قالت الآنسة براس: «كان يوجد سكين من ذات النمط نفسه هنا أيضاً. لقد أعطاهما لي والدي منذ سنوات، والآن! كلاهما قد اختفيا. هل أنت متأكد أنك لم ترَ أيّاً منهما ولا تتذكر؟».

ربت السيد سوفييلر تلقائياً بكلتا يديه على سترته؛ كي يتأكد أنه لم يزل يرتدي المعطف، بعد أن شعر بالأمان واستراح لكونه الوحيد القادر على الحركة بكل حرية في بيفيس ماركس، أجاب بالنفي.

أخرجت الآنسة براس علبة السعوط وأنعشت نفسها باستنشاق منه وقالت: «إنه أمر بشع يا ديك، اجعله سرّاً بيني وبينك، بين صديقين كما تعرف؛ لأن سامي إذا عرف، على الرغم من أنني لست متأكدة من رد فعله، لكن الأمر ساعته لن يُحمد عقباه.. إن بعض أموال المكتب مفقودة أيضاً، كانت هنا، والآن قد اختفت بالطريقة نفسها. على وجه الدقة، فقدت ثلاث عملات من أنصاف الكراون في ثلاثة أوقات مختلفة».

صاح ديك: «حتمًا إنك لا تعني ما تقول؟ كن حذرًا وانتبه لقولك أيها الكهل، هذا أمر جاد. هل أنت متأكد؟ أليس هناك أي التباس؟».

قالت الآنسة براس بتشديد حاسم: «أنا متأكدة.. لا وجود لأي خطأ في قلبي».

وضع ريتشارد قلمه، وفكر: «بحق جوبيتر! أخشى أن تكون الماركييزة هي من فعلت ذلك».

كلما كان ديك يتحدث إلى نفسه، ويناقش الأمر في ذهنه، كلما زادت لديه احتمالية أن تكون الخادمة الصغيرة هي الجاني. أخذ بعين الاعتبار مقدار الطعام الذي تعيش عليه والمسموح لها بأكله، ومدى الإهمال والتجاهل المنغمسة فيهما، وإلى أي مدى قد تكون طبيعتها الماكرة توحشت بسبب العوز والحرمان والمعيشة المدقعة. أشفق على حالها كثيرًا، وعلى الرغم من أنه شعر بعدم الرغبة في أن يكون لديه مسألة بهذا الثقل تتعارض مع غرابة أفكارهما، فكر، فكر جديدًا أنه بدلًا من حصوله على خمسين جنيهًا، سيثبت أن الماركيزة بريئة. بينما كان غارقًا في فكره العميق الجاد، وكانت الأنسة سالي جالسة تهز رأسها في مظهر يستحوذ عليه الغموض والشك، تردد صوت شقيقها سامبسون في الممر وهو يترنم في مرج، ثم ظهر الرجل نفسه مبتسمًا ابتسامات تنم عن الفضيلة:

«السيد ريتشارد.. سيدي.. صباح الخير! ها نحن مرة أخرى يا سيدي، نعم بيوم آخر، أجسادنا منتعشة بالنوم وقوية بتناول الفطور، وأرواحنا طيبة لينة. ها نحن مرة أخرى يا سيد ريتشارد، نشرق مع الشمس لنسلك دربنا الصغير.. مسار عملنا.. مثلها تمامًا يا سيدي.. نؤدي أعمالنا اليومية في كامل بهائنا والفضل لأنفسنا ونعم بالمنفعة على البرية. يا له من تناغم ساحر يا سيدي.. ساحر للغاية!».

بينما كان يلقي السيد براس بتلك الكلمات على كاتبه في بعض من التفاخر، كان منخرطًا في فحص ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات، يمسك بها في يده. لم يتلقَ السيد ريتشارد ما ألقاه عليه بأي حماسة

أو تأثر، رفع صاحب العمل عينيه عن المال، وهدق إلى وجهه، الذي اعتلاه تعبير مضطرب.

قال براس: «لقد نفدت بشاشتك، واندثرت روحك المعنوية يا سيدي.. اسمع يا سيدي.. يا سيد ريتشارد، يجب أن نباشر أعمالنا بمرح، وليس بروح كثيبة وحالة يائسة.. هذا يدفعنا يا سيد ريتشارد.. يا سيدي إل...».

تنهدت سارة العفيفة تنهدًا عاليًا.

قال السيد سامبسون: «يا لنفسي العزيزة! أنت أيضًا! ما حل بكما! ما الأمر يا سيد ريتشارد.. ما الأمر يا سيدي؟!».

رمى ديك الأنسة سالي، ولاحظ أنها كانت تومئ إليه بإشارات تفصح عن رغبتها حول ذكر الموضوع الأخير لشقيقها. بما أن موقفه لم يكن لطيفًا على الإطلاق، لم يكن يعرف ما عليه فعله، حتى هدأ الوضع بطريقة أو بأخرى، ومن بعدها انكبت الأنسة سالي على علبة السعوط، وأخذت شهقات طويلة متتابة، عززت من موقفه.

لاح وجه سامبسون في اضطراب، وتغلبت أمارات القلق على ملامحه. لكنه بدلًا من الشعور بالضيق لفقدان أمواله، كما توقعت الأنسة سالي، مشى على أطراف أصابعه حتى الباب، فتحه ونظر إلى الخارج، ثم أغلقه في هدوء، وعاد ثانية على أطراف أصابعه، وقال هامسًا:

«هذا الموقف غير عادي ومن أشد الظروف إيلاّمًا، من أشد الظروف إيلاّمًا فعلاً. لكن الحقيقة هي أنني نفسي قد فقدت مؤخرًا

الكثير من العملات التي وضعتها هنا على المكتب، وامتنعت عن ذكر أي كلمة حيالها، على أمل أن تكشف الجريمة عن مقترفها.. لكن ذلك لم يحدث.. لم يحدث البتة. يا سيد ريتشارد! يا سالي! إن هذه المسألة مؤلمة وشديدة الحساسية بشكل خاص».

حينما كان سامبسون يتحدث، دس العملة الورقية بين بعض الأوراق الموضوعة على المكتب، في خفية، ثم سحب يده ووضعها في جيبه. لكن السيد سوفييلر أشار إليه، وحثه من توه على أن يأخذها ثانية. قال براس في عاطفة متأججة: «لا يا سيد ريتشارد! لا يا سيدي! لن أخذها مرة أخرى. سأتركها يا سيدي، لأبعد الشكوك عنك، فإن ثقتي فيك ثقة غير محدودة. لذا سنتركها جميعًا هنا، إذا سمحت يا سيدي، ولن نأخذها تحت أي ظرف من الظروف». وهنا ربت السيد براس على كتفه مرتين أو ثلاث مرات، في ود لا مثيل له، واستحثه على التأكد أن لديه ثقة كبيرة في أمانته ونزاهته، كما يثق في أمانة نفسه ونزاهتها بالضبط.

على الرغم من أن السيد سوفييلر في أي وقت آخر، كان سيعتبر كلامه عبارة عن مجاملات تهكمية مشكوك في مقصدها، شعر في ظل تلك الظروف القائمة آنذاك بارتياح كبير، للتأكد من أن أصابع الاتهام غير موجهة نحوه، وأنه لم يكن مشتبهًا به ظلمًا.

بعد أن قدم ردًا مناسبًا، مد إليه السيد براس يده، وتصافحا بعدهما، ثم انغمسا في تفكيرهما كلٌّ على حدة، والآنسة سالي بالمثل. مكث ريتشارد شارد الذهن، ممعن التفكير، يخشى أن يسمع اتهام الماركيزة

في أي لحظة، يتصور عجزها عن المقاومة أو عدم قدرتها على دحض الإدانة المحتومة بأنها مذنبه.

ظلوا تحت سيطرة هذه الحالة لبضع دقائق، حتى طرقت الأنسة سالي طريقة مدوية على المكتب بقبضتها، وصاحت: «لقد أصبتها!»، لقد أصابتها بالفعل، لدرجة أن نشارة من شق خشب المكتب سقطت، وجرحت يدها، لكن هذا لم يكن مقصدها.

صاح براس في اضطراب: «فعلاً! هيا قولي!».

ردت شقيقته متلهلة بفرحة انتصار: «ألم يكن هناك شخص تردد على المكتب طوال الثلاثة أو الأربعة الأسابيع الماضية، ألم يترك بمفرده في بعض الأحيان! شكرًا لك! ماذا كنت تقصد حينما كنت تقول إن هذا الشخص ليس لصًا!».

قال براس متلعثمًا: «أي شخص تعنين؟

- أحسب أنك تدعوه.. كيت.

- الصبي الذي يعمل عند السيد جارلاندا؟

- من المؤكد».

صاح براس: «لا يمكن أبدًا! هذا مستحيل! لا أصدق ما أسمعه بتاتًا.. لا تتفوهي بهذا الحديث». أخذ يهز رأسه مستنكرًا، ويفرك يديه كما لو كان يزيل عشرات الآلاف من خيوط عنكبوت واستأنف اندهاشه: «لا يمكن أن أصدق أنه الفاعل. لا يمكن أبدًا».

أخذت الأنسة براس شهيقًا عميقًا من علبة السعوط، وقالت مكررة: «أقول لك: إنه هو اللص».

رد سامبسون بعنف: «وأنا أقول لك لا يمكن أن يكون هو الفاعل مطلقاً. ماذا تقصدين بقولك؟ كيف تجربين أصلاً؟ هل أصبحنا الآن نلوث السمعة هكذا؟ هل تعرفين أنه الأكثر من بين الأحياء نزاهة وأمانة وإخلاصاً، وأن لديه سمعة لا مساس بها على الإطلاق.. تعال! تعال ادخل!».

لم تكن تلك الكلمات الأخيرة موجهة إلى الأنسة سالي، على الرغم من أنه قالها بالنبرة الحادة نفسها، التي عبر بها عن احتجاجه الساخط لما سبق قوله. وُجِهَت تلك الكلمات إلى شخص قد طرق على باب المكتب، وبالكاد خرجت تلك الكلمات في صعوبة شديدة من بين شفَتَي السيد براس، حينما وجد أن الطارق هو كيت نفسه، وأنه كان يقف ناظرًا إلى الداخل.

«إذا سمحت يا سيدي.. هل يوجد السيد النبيل في الطابق العلوي؟».

نظر براس إلى شقيقته، عاقد الحاجبين عابسًا في سخط، وقال: «نعم يا كيت». التفت إليه ولم يعدل عن النبرة الحانقة نفسها، وقال: «نعم يا كيت.. نعم إنه موجود في الطابق العلوي.. إنني سعيد لرؤيتك، إنني مبتهج لرؤيتك حقًا. اعرج إلى هنا مرة أخرى، بعد أن تنزل الدرج يا كيت.. هذا الفتى سارق!». صاح براس بعد أن انسحب: «أهذا الفتى سارق! صاحب هذا الوجه الذي تنبض فيه الصراحة والإخلاص سارق! إنني أثق فيه بمقدار ذهب لا حصر له. يا سيد ريتشارد.. يا سيدي! هل تقدم لي معروفًا وتذهب إلى شركة (رسب) في شارع (برود)، وتستفسر

عما إذا كان لديهم تعليمات بالظهور في (كاركيم وبينتر).. هذا الفتى سارق!«.

ازمهر وجهه، وزمهرت عيناه وقال ساخراً: «هل أنا أعمى وأصم وأحمق، حتى لا أعرف شيئاً عن الخصال البشرية، وأنمكن من تمييز شخصية المرء حينما يقف أمامي؟ هذا الفتى سارق! كيت سارق! هراء!«.

بعد أن انهال بكلماته الأخيرة في احتقار وازدراء فج على مسمع الأنسة سالي، ضرب السيد براس رأسه على مكتبه، يتنفس بعمق، مغمض العينين، كما لو أراد أن يحجب العالم كله عن رؤيته.



الفصل التاسع والخمسون

بعد أن أنهى كيت مهمته التي بُعث من أجلها، نزل من سكن الرجل النبيل بعد مرور ربع ساعة أو ما يقرب من ذلك، كان السيد براس بمفرده في المكتب. لم يكن يترنم ويغني كعادته، ولم يكن جالسًا على مكتبه. فقد ظهر من خلال الباب المفتوح، واقفًا أمام النيران، يوليها ظهره، ويبدو في حالة غريبة جدًا، لدرجة أن كيت اعتقد أن علة أصابته فجأة.

قال كيت: «ألست على ما يرام يا سيدي؟».

صاح براس: «لماذا! لماذا افترضت هذا؟ لماذا لا أكون؟».

قال كيت: «إنك شاحب جدًا.. لدرجة أنني بالكاد عرفتُك يا سيدي».

صاح براس وهو ينحني لينفض الرماد: «هراء هراء! ما هذا إلا محض خيال.. لم أكن في حال أفضل من هذا طوال حياتي. إنني في أفضل حال ومبتهج أيضًا. ها ها! كيف حال صديقنا الذي يقطن بالأعلى؟ ها!».

قال كيت: «أفضل بكثير».

قال براس: «إنني سعيد لسماعي ذلك.. إنني ممتن حقًا. إنه رجل مثالي، وجدير، ومنان، وكريم، وحليم، ولا يتسبب في أي مشاكل.. إنه النزيل المحبوب. ها ها! وماذا عن السيد جارلاند.. أمل أن يكون بخير يا كيت.. وماذا عن المهر.. المهر صديقي.. صديقي المميز الاستثنائي كما تعرف. ها ها!».

قدم كيت تقريرًا مُرضيًا عن أحوال جميع أفراد الأسرة الصغيرة التي تسكن في فيلا هابيل، حينها مشى السيد براس إلى مقعده، في مظهر غير مكرثر بتاتًا بما قال، ونافذ الصبر، جلس ومن ثمَّ استدعاه ليقرب منه، وتجاذب معه أطراف الحديث.

قال المحامي: «كنت أفكر يا كيت في أن أوفر أجرًا لأملك.. إن لديك أُمًّا على حسب ما أظن! أليس كذلك؟ إذا كنت أتذكر جيدًا، لقد أخبرتني سابقًا أن لدي..».

- أوه! بلى هو كذلك يا سيدي.

- أرملة على ما أعتقد؟ أرملة كادحة؟

- سيدة كادحة وأم فاضلة ليس لها مثيل يا سيدي.

صاح براس: «آه! هذا مؤثر.. مؤثر حقًا! أرملة مسكينة تكافح من أجل رعاية اليتامى في احتشام وتعزية.. إنها الصورة المثلى لصالح الإنسان.. ضع قبعتك هنا يا كيت».

- شكرًا لك يا سيدي، لا داعي؛ لا بد لي أن أذهب مباشرة.

أخذها براس منه وقال: «ضعها على أي حال طوال بقائك هنا». ثم أزاح بعض الأوراق، وأحدث بعض الفوضى حتى شغل لها مكانً على مكتبه؛ ليضعها، ومن ثمَّ استأنف قائلاً: «كنت أفكر يا كيت، أننا لدينا في الغالب منازل يسكنها الناس، ويسكنها مَنْ نحن مهتمون بشأنهم، وما إلى ذلك. الآن أنت تعرف أننا مضطرون لإبقاء أشخاص في هذه المنازل لتدبير شؤونها.. وفي كثير من الأحيان يكونون أشخاصاً غير جديرين لا يستحقون الاعتماد عليهم أو الوثوق بهم. لذا، ما الذي يمنع من أن يكون لدينا شخص يمكننا الاعتماد عليه، ونحظى بفرحة القيام بعمل جيد في الوقت نفسه؟ أنا أقصد، ما الذي يمنعنا من أن نوظف سيدة، أن نوظف والدتك؟ في وظيفة أو أخرى، وستوفر لها السكن.. سيكون سكناً نظيفاً وجيداً.. جيداً جداً على مدار السنة، واستئجاره مجاني، إضافة إلى أجرة أسبوعية يا كيت.. من شأن هذا كله أن يوفر لها كافة سبل الراحة التي لا تعرف عنها شيئاً ولا تستمتع بأي منها في الوقت الحاضر. ها! الآن! قل لي ما رأيك في هذا الشأن؟ هل لديك أي اعتراض على أي شيء؟ إن رغبتني الوحيدة الآن هي أن أخدمك يا كيت، لذا فكرت في هذا الفعل، فقل ما تريد في حرية».

حينما كان براس يتحدث، حرك القبعة مرتين أو ثلاث مرات، وأخذ يقلب الأوراق المنثورة على المكتب مرة أخرى، كما لو كان يبحث عن شيء ما.

رد كيت من كل قلبه: «كيف لي أن أبدي أي اعتراض على هذا العرض الرائع اللطيف يا سيدي؟ لا أعرف حقاً كيف لي أن أشكرك يا سيدي».

التفت براس فجأة وقال: «لماذا إذن؟». ودفع وجهه بالقرب من وجه كيت، تعتليه ابتسامة مقبلة، لدرجة أن ذلك الأخير بعد أن كان في غمرة امتنانه، تراجع من فوره، ولاح مذهولاً، وقال: «لماذا حدث ذلك؟».

نظر كيت إليه، وقد استحوذ عليه الارتباك.

أضاف سامبسون قائلاً، بينما يفرك يديه، ويعود إلى حالته الودودة المألوفة: «ها ها! هذا ما ستكتشفه يا كيت. هذا ما ستكتشفه.. ولكن...». قال براس: «يا لنفسى العزيزة! يا له من وقت ليرحل فيه ريتشارد! يا له من شخص مستهتر بئس! هل تمنع إذا بقيت في المكتب لدقيقة واحدة، بينما سأصعد الدرج وأعود في الحال؟ دقيقة واحدة فقط. لن أحتجرك ولو للحظة أطول يا كيت، تحت أي ظرف من الظروف».

سرعان ما ذهب السيد براس، وعاد بعد وقت قصير جداً. وعاد السيد سوينيلر أيضاً في اللحظة نفسها تقريباً، حينها غادر كيت الغرفة مسرعاً؛ تعويضاً عن الوقت الضائع، لكن الأنسة براس صادفته عند المدخل.

قالت سالي ساخرة فور دخولها وهي ترمقه بعينيها: «أوه! لقد غادر حيوانك الأليف يا سامي. ها!».

رد براس: «آه! لقد غادر.. معذرة! حيواني الأليف! إنه رفيق أمين يا سيد ريتشارد.. رفيق مخلص جدير بالثقة فعلاً يا سيدي!».

تنحنحت الأنسة سالي: «احم احم!».

قال سامبسون الغاضب: «سأخبرك أمرًا أيها المتشرد المزعج.. إنني سأرهن حياتي مقابل نزاهته وأمانته. هل من الممكن ألا أسمع هذا ثانية؟ هل كُتِبَ عليَّ أن أكون دائمًا محاطًا بقلقك وشكوكك؟ أليس لديك أي مراعاة للشمائل الصادقة أيها الزميل الخبيث؟ اسمعني جيدًا.. إذا تطرقت إلى هذا الموضوع مرة أخرى، فسأشتبه بك شخصيًا وأشكك في نزاهتك وصدقك أكثر منه».

حينما وجه هذا الكلام إلى الأنسة سالي، أخرجت علبة السعوط، واستنشقت استنشاقًا طويلًا ببطء، وهي تحملق إلى شقيقها بثبات طوال الوقت.

قال براس: «لقد ساقطني إلى الجنون يا سيد ريتشارد.. يا سيدي، إنها تغضبني أكثر من أي شيء، أشعر بالانفعال يا سيدي، وارتفعت درجة حرارتي. أعرف أنني كذلك. وأعرف أن ذلك ليس من شؤون العمل، ولا علاقة له به من الأساس، ولكنها تثير جنوني وتستفزني يا سيدي، وتحملني ما لا طاقة لي به».

قال ديك: «لماذا لا تتركه وشأنه؟».

قال براس مدممًا: «لأنها لا تستطيع يا سيدي.. لأن غضبي وإثارة جنوني جزء من كينونتها يا سيدي، لا يمكنها أن تتخلى عن ذلك أبدًا، ستفعل الأمر ذاته مرارًا وتكرارًا وستداوم على فعله، لدرجة أنها إذا توقفت عن فعل ذلك، سأعتقد أن بها خطبًا ما». أضاف براس قائلاً: «على كل حال، لا يهم ذلك الآن، فلقد أوضحت مقصدي. وبينت ثقتي العمياء في الصبي. وسوف يأتي إلى المكتب مرات ومرات. ها ها! سيأتي أيتها الخبيثة الماكرة!».

استنشقت العذراء الجميلة من علبة سعوطها مرة أخرى، ثم وضعتها في جيبها، ولا تزال محمقة في شقيقتها، في هدوء تام.

قال براس بنبرة انتصار: «سيأتي إلى المكتب مرات ومرات.. إنني منحتة ثقتي، وسيظل يحظى بها، أنا أعلم.. إنه.. أين.. أين...».

قال السيد سوفيلىر مستفسراً: «ماذا فقدت؟».

قال براس، بينما يبحث في جيوبه، واحداً تلو الآخر، ينظر إلى مكتبه، يفتش بين أوراقه: «يا لنفسى العزيزة! الورقة يا سيد ريتشارد الورقة يا سيدي، ورقة الخمسة جنيهاً.. أين اختفت؟ لقد وضعتها بيدي هنا.. فليباركني الرب!».

صرخت الآنسة براس: «ماذا!». واثبة من مكانها، تصفق بيديها، تبعثر الأوراق على الأرض وقالت: «اختفت! من على حق الآن؟ من كان رأيه صائباً؟ لا يهم فقدان خمسة جنيهاً؟ ماذا تعني خمسة جنيهاً؟ ناهيك عن صدقه ونزاهته، أنا أعرف أنه أمين، أمين جداً بالحد الذي لا يجعلك تشك به مطلقاً. لا لا تذهب خلفه.. لا لا إنه نزيه.. لا تفعل ذلك ولو مقابل العالم أجمع!».

قال ديك، وهو ينظر إلى براس بوجه شاحب مثل وجهه: «هل اختفت فعلاً؟».

رد المحامي وهو يتلمس جيوبه كلها فاغر العينين: «صدقني يا سيد ريتشارد صدقني يا سيدي.. أخشى أن هذا عمل أسود.. لقد اختفت فعلاً يا سيدي.. ما العمل الآن؟».

قالت الأنسة سالي، وهي تستنشق شهقات متتابعة من علبة السعوط: «لا تلاحقه، لا تلاحقه مطلقاً تحت أي ظرف من الظروف. امنحه الوقت ليتخلص منها، فكما تعلم، سيكون من الصعب جداً جداً العثور عليه بالخارج الآن!».

نظر السيد سوفييلر وسامبسون براس إلى أحدهما الآخر، بعد أن أدارا وجهيهما عن الأنسة سالي، في حالة من الحيرة والذهول، وفي اندفاع واحد، انتشل كل منهما قبعته، وانطلقا إلى الشارع.. يركضان في منتصف الشارع، يتفاديان العوائق، يسرعان كما لو كانا ينفدان بحياتهما من موت محقق مثلاً. في ذلك الحين، كان كيت يركض أيضاً، على الرغم من أن ركضه لم يكن سريعاً، وقد غادر منذ بضعة دقائق قليلة فقط، كان على مسافة بعيدة نسبياً. وعلى الرغم من كونهما متأكدين من الطريق الذي يتوجب عليه سلوكه، حافظا على عدوهما السريع، حتى وصلا إليه في لحظة كان توقف فيها؛ ليلتقط أنفاسه، ويبدأ الركض من جديد.

صاح سامبسون وهو يضع يده على أحد كتفيه، بينما انقض السيد سوفييلر ممسكاً بالآخر: «قف عندك! ليس بهذه السرعة يا سيدي؟ هل أنت في عجلة من أمرك؟».

قال كيت، وهو ينظر إليهما بالتناوب ومشدوهاً بالكلية: «في الحقيقة نعم».

قال سامبسون لاهثاً: «أنا.. أنا.. لا يمكن أن أصدق ذلك، لكن شيئاً قيماً مفقود من المكتب. وأتمنى ألا يكون عندك علم بالموضوع».

صاح كيت، مرتعداً من رأسه حتى أخمص قدميه: «علم بماذا! بحق السماوات يا سيد براس! أنت لا تظن أنن..».

رد براس من فوره: «لا لا.. أنا لا أظن أي شيء. لا تقل: إنني قصدت أو قلت: إنك فعلت. كل ما أريده الآن، أن تعود معي بكل هدوء، هل ستفعل؟».

رد كيت: «بالطبع سأفعل. لِمَ لا؟».

قال براس: «فعلاً! لِمَ لا؟ كم أود أن تتغير إلى لا، لِمَ لا. إذا علمت يا كيت الموقف الذي واجهته هذا الصباح، وكيف انحازت إلى صفك يا كريستوفر، لكنت آسفًا حقًا».

رد كيت: «وأنا متأكد أنك ستكون آسفًا لأنك اشتبهت بي يا سيدي.. هيا دعونا نعود سريعًا».

صاح السيد براس: «بالتأكيد! كلما عدنا أسرع، كلما كان أفضل. يا سيد ريتشارد.. اعمل معروفًا يا سيدي، وأمسك بهذه الذراع. وأنا سأمسك بهذه. أعلم أنه ليس سهلاً السير بهذه الطريقة، لكن الظروف تحتم علينا فعل ذلك يا سيدي، وليس في وسعنا أي شيء».

تحول لون كيت من الأبيض إلى الأحمر، ثم إلى الأبيض مرة أخرى، فقد شحب لونه عندما قبضا عليه بهذه الطريقة، وبرقت لوهلة رغبة في نفسه أن يقاوم قبضتيهما، لكنه انتبه في اللحظة ذاتها، أنه إذا قام بأي مقاومة، ربما سوف يجرائه من ياقته طوال الشارع، وكرر فقط في جدية، تفرق الدموع في عينيه وتأبى النزول، إنهما سوف يأسفان لما يفعلانه..

وتركهما يقتادانه طوال الطريق. بينما كانوا في طريق العودة، استغل السيد سوفييلر مهمته، التي أزعجته بشدة، ليهمس في أذنه حينما واثته الفرصة، ويقول له إنه إذا اعترف بذنبه، ولو بمجرد إيماءة، ووعد بأنه لن يقترب هذا الفعل مرة أخرى، سيتواطأ معه، ويدعه يركل سامبسون براس على قصبة ساقه، ويفر هاربًا، لكن كيت رفض هذا الاقتراح بسخط شديد، ولم يكن للسيد ريتشارد أي حيلة في هذا الأمر، سوى أن أمسكه بإحكام حتى وصلوا إلى بيفيس ماركس، ومن ثم اقتاداه معًا إلى حضرة الفاتنة سارة، التي اتخذت احتياطًا فور وصولهم، وأغلقت الباب.

قال براس: «حسنًا! تعرف يا كريستوفر أنك إذا أردت أن تثبت الحالة القائمة على أنها براءة، كما يفترض أن يتم إسنادها، يجب أن نتحرى الكشف الكامل إرضاءً للجميع، لذلك إذا كنت توافق على الفحص..»، أوضح أي نوع من الفحص قصده، فقد شمر سوار معطفه وأكمل: «فسوف يكون شأنًا مريحًا ومُرضيًا لجميع الأطراف».

قال كيت بكل عزة نفس، وهو يرفع ذراعيه: «يمكنك أن تفتشني.. لكن ضع في اعتبارك يا سيدي، أنك سوف تشعر بالأسف الشديد لفعلك هذا، وسوف تشعر بالندم إلى آخر يوم في عمرك».

تنهد براس، وهو يدس يده في إحدى جيوب كيت وقال: «هذا موقف موجه حقًا». ثم أخرج منه مجموعة متنوعة من أشياء صغيرة وقال: «هذا الأمر موجه وشاق.. لا يوجد شيء هنا يا سيد ريتشارد، إن كل الأمور إلى الآن مرضية تمامًا.. ولا هنا يا سيدي، ولا في الصدرية، ولا في ذيل معطفه.. حتى الآن ينبئ كل شيء بالخير، أنا سعيد جدًا وراضٍ تمامًا».

بينما وقف ريتشارد سوفييلر ممسكًا بقبعة كيت في يده، يشاهد جميع تداعيات الموقف في اهتمام كبير، وتعتلي وجهة أمارة تنم عن ابتسامة طفيفة، كان براس يغلق عينًا ويفتح أخرى، ينظر في تفحيص إلى أحد كمي الفتى المسكين، كما لو كانت عينه تلسكوبًا.. لكن سامبسون براس التفت إليه فجأة، واستحثه على تفتيش القبعة.

قال ديك: «وجدت وشاح عنقه».

قال براس، بينما لاحت عيناه في التفاتة إلى كمة الآخر، وبنبرة شخص يفكر في مدى هائل من الاحتمالات الواردة: «لا ضرر من هذا يا سيدي، لن يفيدنا في شيء، لا ضرر من الوشاح يا سيدي بأي حال من الأحوال. على الرغم من أن البعض لا يعتقدون أن ارتدائه عادة سليمة، أعتقد يا سيد ريتشارد، أو سمعت ذات مرة، أن وضع الشخص لوشاحه في قبعته، ستحافظ على رأسه دافئًا جدًّا، لذا فوجود وشاح عنقه في قبعته يعتبر أمرًا مريحًا يا سيدي، يعتبر في غايـ...».

ما استوقف السيد براس عن الحديث، كانت أمارات ذهول غيرت من ملامح ريتشارد سوفييلر والأنسة سالي وكيت نفسه. التفت من فوره، فقد كان ديك واقفًا، ويمسك الورقة النقدية في يده.

صاح براس صارخًا: «في القبعة؟».

قال ديك مشدوًّا مما كشفه: «كانت تحت الوشاح، ومطوية في البطانة».

نظر السيد براس إليه، وإلى شقيقته، وإلى الحوائط، وإلى السقف

حتى الأرضية، وإلى كل شيء، ولم يستطع أن يرفع عينيه نحو كيت،
نظر إلى كل شيء حوله عدا كيت، الذي تجمدت أوصاله من الذهول،
وصار منعقد اللسان، مخدرًا بالكلية.

صرخ سامبسون يقلب كفًا على كف: «هل هذا هو العالم الذي
يدور حول محوره، ويحظى بتأثيرات قمرية، وطواف حول الأجرام
السماوية، ومختلف التأثيرات الكونية على الشاكلة نفسها! هل هذه هي
الطبيعة البشرية؟ هل هذه هي؟ الطبيعة البشرية؟ أي طبيعة! الشخص
الذي كنت سأرهن حياتي فداه! وأغمره بكل ما أحتكم عليه من فضل
ومحاسن، يكون مجرمًا في النهاية! إنني لا أصدق نفسي! حتى الآن
كم أود أن أسمح له بالرحيل! ولكن..». استجمع براس رباطة جأشه
وأضاف: «لكنني محام، ويجب أن أمتثل إلى القانون الشريف، وأكون
مثالًا زخرًا في تنفيذ قوانين بلدي السعيد. عزيزتي سالي، سامحيني!
أرجوكِ تعاليّ أمسكي به من الجانب الآخر، ومن فضلك يا سيدريتشارد،
من فضلك يا سيدي قدّم إليّ معروفًا، وأسرع لإحضار الشرطة. لقد ولى
الضعف وانقضى يا سيدي، وحلت القوة الأخلاقية مكانها. أحضر
الشرطة يا سيدي، سريعًا من فضلك!».



الفصل الستون

ثبت كيت في مكانه كشخص مسلوب لبه، منقبض وجهه، فاغر العينين، ينظر في شرود إلى الأرض، لا يعي نفسه وما حوله، حتى إحكام قبضة السيد براس على جانب من ياقته، وانقضاض الأنسة سالي وإمساكها بالجانب الآخر في إصرار وقوة، ووقوعه محتجراً بينهما، لم تمثل له مصادر إزعاج، ولو بشكل طفيف، لكن ضغط المرأة الساحرة المتتابع بأنامل أصابعها على حلقة من وقت إلى آخر، فضلاً عن تثبيت قبضتها في صرامة دون رافة، كانت السبب -في المقام الأول- وراء جعله لا يستطع انتشارال نفسه من الإحساس بالاختناق المميت وذلك على الرغم مما يعانيه من تشوش أفكاره وصراعات مضطربة. بقي على الوضع نفسه بين الأخ وأخته، خائر القوى مسلوب الإرادة، لا يقاوم، إلى أن عاد السيد سوفييلر يتبعه الشرطي في أعقابيه.

بالطبع، كان هذا الموظف معتاداً على المواقف المماثلة، والذهاب إلى ساحات وقوع الجرائم؛ فقد مرت عليه جميع حالات السرقة، بداية من حالات النشل السريعة، حتى اقتحام المنازل أو المنشآت على الطرق، كما هو الحال في سير العمل العادي بالنسبة له، أما بالنسبة للجنة في

ضوء اختلاساتهم سواء أكانت كلية أم جزئية، فعادة ما يمثلون للقانون الجنائي، حيث يقفون وراء القضبان.. تلقى أقوال السيد براس واستمع إلى الحقائق المدلاة بقدر من الاهتمام والاندهاش، كأنه حانوتي يُحتم عليه الأمر أن يستمع إلى رواية مفصلة عن المرض الأخير للشخص، الذي استدعي للتعهد بدفنه بطريقة مهنية، أخذ كيت إلى الحجز بلا مبالاة موقرة.

قال تابع وزير العدل: «يستحسن لنا أن نصل إلى المكتب، أثناء وجود قاضي الصلح. أريدك أن تأتي معنا يا سيد براس، وال...». نظر إلى الأنسة سالي، كما لو أن الشك ساوره حيال ما إذا كانت حيوان الغرفين أم وحشًا خرافيًا آخر.

قال براس: «السيدة! أتقصد السيدة؟».

رد الشرطي: «آه! نعم أقصد السيدة، وكذلك الشاب الذي وجد المال».

قال براس بنبرة يائسة: «السيد ريتشارد.. إنها الضرورة الحتمية الحزينة وتقديم التضحيات على مذبح بلادنا يا سيدي...».

قاطع الشرطي، وهو يمسك كيت من ذراعه بغير اكتراث - حيث أطلق أسراه الآخرين سراحه - مثبتًا يده أعلى مرفقه بقليل: «أحسب أنك ستطلب عربة أجرة.. يستحسن بك أن ترسل لإحضار واحدة.. هل ستفعل؟».

رفع كيت عينيه، ونظر إليه في التماس شديد وصاح: «ولكن..

اسمعني أولاً.. اسمع أقوالي. أنا لست بمذنب أكثر من أي أحد منكم هنا. أقسم بحياتي أنا لست كذلك، أنا لص؟ كيف هذا؟ يا سيد براس، أنت أحسن من يعرفني، أنت تعرف أنني لست كذلك، أنا متأكد من أنك تعرفني جيداً. هذا ليس أمراً صحيحاً يصدر منك البتة».

قال براس: «إن أقوالي أيها الشرطي أن..». لكن الشرطي قاطع حديثه بترديد مبدأ دستوري ينص على أن: «الكلام لا يعول عليه». وأضاف أن الكلام ما هو إلا طعام مهروس في أفواه الأطفال والرضع، والأيمان ما هي إلا طعام الأقوياء.

قال براس بنفس النبرة اليائسة: «معك حق أيها الشرطي.. أحلف يميناً أيها الشرطي، أنني منذ دقائق قليلة ماضية، حينما عرفنا هذا الاكتشاف المهلك، كانت لدي ثقة كبيرة في هذا الفتى، الذي راهنت على نزاهته مقابل حياتي.. العربية يا سيد ريتشارد، إنك بطيء جداً يا سيدي».

صاح كيت: «من هنا يعرفني؟ من هنا لا يثق في؟ اسأل أي أحد يعرفني، اسألهم إذا ما كانوا قد شكوا في أمانتي من قبل، اسألهم إذا أخذت منهم شيئاً ولو بقيمة الفارذنج. لم أكن غير أمين أو لصاً حينما كنت فقيراً جائعاً، فهل سأكون الآن! خذوا هذا بعين الاعتبار. ألا تفعلوا! فكروا ولو لوهلة. كيف أقابل ما فعله الأصدقاء على مستوى الناس أجمعين، بهذه التهمة الرهيبة!».

رد السيد براس قائلاً: إنه كان من الجيد للمحتجز أن يفكر هو ولو لوهلة قبل أن يتم فعلته، وكان على وشك تقديم بعض الملاحظات

التشاؤمية الأخرى، عندما سمعوا صوت الرجل الأعزب، يسأل من أعلى الدرج ما الأمر، وما سبب هذا الصخب والجلبة. انطلق كيت لا إرادياً مندفعاً صوب الباب مشمولاً باضطرابه، يريد إجابة منه عن سؤاله، لكن الشرطي طوقه في الحال من كل جانب، فوقف كمدًا، وشعر بعذاب فتاك لرؤيته السيد براس ينطلق من فوره إلى الخارج، ليخبره ما حدث من منظوره.

قال سامبسون حينما عاد: «إنه لا يكاد يصدق ما حدث.. ولا يمكن لأي أحد أن يصدق. كم أود لو كان باستطاعتي تكذيب حواسي، ولكن ما تقر به لا يرقى إليه الشك أبدًا». ثم صاح سامبسون وهو يغمز ويفرك عينيه: «لا فائدة من إعادة استجواب عيني، لا يستطيعان أن يبصرا غير الحقيقة الأولى.. والآن يا سارة، أنا أسمع صوت قعقعات العربة تقترب، أحضري قبعتك، ولنرحل من هنا. يا لها من مهمة حزينة! جنازة أخلاقية بالضبط!».

قال كيت: «يا سيد براس.. قدم إليّ معروفًا واحدًا فقط.. خذني إلى السيد ويزردن أولًا».

هز سامبسون رأسه على نحو متردد.

قال كيت: «هل ستفعل؟ إن سيدي هناك. بحق السماوات يا سيدي، خذني إلى هناك».

قال براس متلعثمًا: «حسنًا! ولكنني لا أعرف». ربما كان لديه أسباب خاصة حيال رغبته في الظهور عادلاً بقدر الإمكان في نظر كاتب

العدل فقال: «كم من الوقت لدينا أيها الشرطي؟ ها!».

رد الشرطي الذي كان يمضغ قشة طوال ذلك الوقت بفلسفة عظيمة، أعرب أخيرًا عن رأيه، وقال: إنهم إذا رحلوا في الحال، فسيكون لديهم الوقت الكافي، ولكن إذا وقفوا للتلكؤ، سيتوجب عليهم الذهاب مباشرة إلى قصر العمدة، ثم سأل أين ذلك المكان، وسأل عن كل شيء يخصه.

وصل السيد ريتشارد داخل العربة، كان يجلس في ثبات في الركن الأكثر راحة، موجهًا وجهه إلى الخيول، فاستحث السيد براس الشرطي ليقناده سجينه، وأعلن أنه على استعداد تام للرحيل. تحرك الشرطي، وهو لا يزال يمسك كيت بالطريقة ذاتها، دفعه أمامه على مسافة قريبة، حوالي ثلاثة أرباع طول ذراعه -النسق الاحترافي- وزج به في العربة، وركب من بعده. تبعته الآنسة سالي بعد ذلك، وبما أن أربعة أفراد كانوا موجودين في الداخل، صعد سامبسون براس على الصندوق، وأمر الحوذي أن ينطلق.

جلس كيت، وهو لا يزال منغمسًا في هول الصدمة والذهول، مشدوهاً بالكلية من التغيير المفاجئ الذي حل عليه، يحدق من نافذة العربة إلى الشوارع؛ على أمل أن يرى أي ظاهرة غريبة، تمنحه إشارة؛ لتصديق أن ما يمر به ما هو إلا أضغاث أحلام. ويا للأسف! كان كل شيء مألوفًا واقعيًا حقيقياً، نفس تعاقب منعطفات الطرق، نفس المنازل، نفس تكتلات الناس الذين يهرولون على طوار الطريق جيئةً وذهابًا، نفس قعقة العربات والحافلات، نفس ترتيب الأشياء غير المنسية المعروضة في المحلات، نفس ارتفاع الوعي في الساحة،

نفس الضجيج والعجلة، التي لم يعكسها أي حلم من قبل . فما تصوره حلمًا كان هو الواقع . نعم ! إنه مقيد في مكانه ومتهم بالسرقة، وغُير على الورقة النقدية معه، وعلى الرغم من أنه كان بريئًا في الواقع وفي الحلم، قبضوا عليه، واتخذوه سجينًا.

في خضم زخم أفكاره، غارقًا في تأملاته المفجعة، ظل يفكر في والدته وجايكوب الصغير بقلب منفطر، يشعر كما لو أن قناعته ببراءته لن تكون كافية، ولن تغنيه في حضور أصدقائه؛ إذا صدقوا أنه مذنب، لذا كلما كانوا يقتربون من بيت كاتب العدل أكثر فأكثر، كلما كان كيت يتمسك بالأمل وتعثره الشجاعة، ينظر في جدية إلى خارج النافذة، لكنه غير منتبه إلى أي شيء على الإطلاق.. ولكن.. كما لو أن روحًا خبيثة، تم استحضارها على حين غرة، وإذ به ينتبه إلى وجه كويليب.

وأي نظرة خبيثة تلك التي اعتلت وجهه! لاحت تلك النظرة من نافذة مفتوحة لحانة، كان القزم متمدد بالكلية عليها، يسند مرفقيه كليهما على حافتها، ويريح رأسه على يديه كليهما، بناءً على وضعه الجسماني وانتفاخ وجنتيه بالضحك المكتوم، بدا متورمًا منتفخًا، نافخًا شدقيه إلى ضعف اتساعهما المعتاد. عندما لمح السيد براس، أمر من فوره بإيقاف العربدة أمام مكان وجوده بالضبط، خلع القزم قبعته، حيًا الجميع في أدب بشع مغاير تمامًا.

صاح: «آها! إلى أين يا سيد براس؟ أين أنت ذاهب الآن؟ ما هذا! سالي معك أيضًا! سالي الحلوة! وديك أيضًا؟ ديك اللطيف! وكيت بالمثل؟ كيت الأمين النزيه!».

قال براس للحوذي: «إنه مبهج للغاية! مبهج للغاية فعلاً! آه! يا سيدي لو تعرف! إنها مهمة حزينة! لو عرفت لن تؤمن أبداً بصدق أو نزاهة أحدهم بعد يا سيدي».

قال القزم: «لِمَ لا! لِمَ لا يا مختال المحامين! ها! لِمَ لا؟».

قال براس وهو يهز رأسه في حسرة: «فقدنا ورقة نقدية كانت موضوعة في المكتب يا سيدي، ثم وجدناها في قبعته يا سيدي، ولم يكن أحد في المكتب، وتركناه بمفرده هناك.. ليس هناك أي التباس على الإطلاق يا سيدي.. إن جميع الأدلة مكتملة، ولا حاجة بنا لأي دليل آخر».

صاح القزم، وقد ارتمى بنصف جسده خارج النافذة: «ماذا! ماذا تقول؟ كيت لص! كيت لص! ها ها ها! إنه لص أكثر قبحاً ممن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد. أليس كذلك يا كيت؟ ها! أليس كذلك؟ ها ها ها! هل من الممكن أن تأخذ كيت إلى الحجز قبل أن تتوفر له الفرصة أو يتاح له الوقت ويضطر إلى ضربني بعنف! أليس كذلك يا كيت؟ ها! أتذكر يا كيت؟»، ومع انتهاء قوله، ارتفعت فهقهات ضحكاته وعلت أصداؤها، لدرجة أنها أثارت زعر الحوذي بكل وضوح، ثم أشار إلى منشئ الصباغ إلى جانبه؛ حيث كانت تتدلى منه ملابس شابته شخصاً ملفوف على عنقه حبل المشنقة.

صاح القزم وهو يفرك يديه بعنف في تلذذ رهيب: «هل سيصل الأمر إلى هذا الحد يا كيت؟ ها ها ها! يا لحسرة جايكوب الصغير، وأمه

السيدة العزيزة! فلتدع قسيس الكنيسة التي تترد عليها أمه يأتي ليواسيه ويعزيه يا براس. ها! يا كيت! ما رأيك؟ سينشرح صدرك بكل تأكيد! هيا! انطلق أيها الحودي. انطلق. وداعًا يا كيت، فلتصحبك السلامة، أريدك أن تثابر على رفع معنوياتك.. خالص تحياتي إلى أسرة جارلاند. السيد النبيل والسيدة العجوز العزيزة على وجه الخصوص. بلغهما تحياتي! هل ستفعل؟ فليباركهما الرب، وليباركك أيضًا، وليبارك الناس أجمعين يا كيت. فلتعم البركات على العالم كله!«.

مع هذه الأمنيات الطيبة، وتحيات الوداع، انطلقوا لاستكمال طريقهم حتى غابت أصوات قعقعات العرب، تابعهم القزم حتى غيهم الأفق، ولم يعد يرى العرب، فسحب رأسه إلى الداخل، وغالى في الضحك بنشوة من فرط المتعة، متمرغًا على الأرض.

عندما وصلوا إلى منزل كاتب العدل، ودون أن يستغرقوا وقتًا طويلاً للوصول، وجدوا القزم أمامهم عند قارعة الطريق يقف على مقربة يسيرة من المنزل، ترجل السيد براس، وفتح باب العرب بسيماء تعكس حزنًا، وطلب من شقيقته أن تصطحبه إلى المكتب، من أجل تمهيد ذلك الموقف المفجع الذي هم بصددده لهؤلاء الطيبين. وبعد أن امتثلت الأنسة سالي إلى مطلبه، رغب في أن يرافقهما السيد سوفيلىر. ذهبوا إلى المكتب، سار السيد سامبسون وشقيقته متأبطي الأذرع، وتبعهما السيد سوفيلىر بمفرده.

كان كاتب العدل في ذلك الوقت واقفًا أمام النيران في المكتب الخارجي، يتحدث مع السيد جارلاند الصغير والسيد جارلاند الكبير،

بينما كان السيد تشوكستر جالسًا على المكتب، منهمكًا في الكتابة، يلتقط من كلامهم محوره، ويدونه بطريقة الخاصة. كان هذا المشهد هو ما رمقه السيد براس من الباب الزجاجي بينما كان يدير المقبض، ولاحظ أن كاتب العدل قد انتبه لوجوده، فأومأ إليه برأسه، متنهدًا بعمق، مفرقًا بقدميه ذلك الجمع.

قال سامبسون، وهو يخلع قبعته، ويقبل إصبعين من أصابع قفاز يده اليمنى الصوفي: «إن اسمي براس.. براس، ومن بيفيس ماركس يا سيدي. إن لي خالص الشرف والسرور يا سيدي؛ لأمثل أمامك بسبب بعض الأمور الوصائية.. كيف حالك يا سيدي؟».

قال كاتب العدل: «سينضم إليك محوري، يمكنك أن تبلغه بالعمل الذي جئت من أجله يا سيد براس». ثم التفت عنه.

استوقفه براس قائلاً: «شكرًا لك يا سيدي.. جزيل الشكر بكل تأكيد.. ولكن.. اسمح لي يا سيدي أن أقدم لك شقيقتي.. إنها واحدة منا يا سيدي، بغض النظر عن أنها من الجنس الضعيف، إنها عماد عملي يا سيدي. أكاد أن أجزم لك أنها كذلك فعلاً. وأقدم لك السيد ريتشارد يا سيدي.. أستمحك عذرًا يا سيدي! هلا تسمح لي أن نتقدم خطوة إلى الأمام..»، «لا! فعلاً يا سيدي». خطى براس بين كاتب العدل ومكتبه الخاص - فقد شرع الآخر في الانسحاب، وقال بنبرة رجل مجروح: «إنني أناشد كرمك ورحابة صدرك يا سيدي، يجب أن أتحدث معك كلمة أو كلمتين فعلاً يا سيدي».

قال الآخر بنبرة حاسمة: «يا سيد براس، أنا منشغل.. وأنت نفسك

ترى أنني مشغول مع هؤلاء السادة. إذا بَلَغْتَ ما جئت لأجله إلى السيد تشوكستر هناك، ستنال كل الاهتمام».

قال براس: «أيها السيدان...». وضع يده اليمنى على صدريته، ونظر إلى الوالد وابنه بابتسامة ناعمة: «أيها السيدان الكريمان، أناشذكما فعلاً أيها السيدان، وأتوسل إليكما، أن تأخذا ما سأقوله بعين الاعتبار.. إنني رجل قانون. إنني رجل منتم إلى القانون، أحتفظ بمكانتي بدفع اثني عشر جنيهًا إسترلينيًا سنويًا لأفوض بالشهادة. أنا لست من عازفي الموسيقى، أو ممثلي المسرح، أو مؤلفي الكتب، أو حتى من رسامي الصور ممّن يتولون مكانة لا تعترف بها قوانين بلادهم. أنا لست واحدًا من المشردين الذين يتجولون في الشوارع، ومّن ليس لهم مأوى. إذا أراد أي شخص الوقوف أمامي، فيجب عليه أن يقول السيد النبيل ومن ثمّ يذكر اسمي، وإلا سيكون فعله لاغياً وباطلاً. أناشذكما فعلاً أيها السيدان أن أقتطع من وقتكما الثمين بكامل احترام إذا سمحتما وأذنتما لي أيها السيدان النبيلان الكريمان...».

قال كاتب العدل: «حسنًا حسنًا! هل تفعل خيرًا وتقول ما الذي جئت من أجله يا سيد براس؟».

قال السيد براس: «سأفعل بالطبع يا سيدي.. آه! السيد ويزردن.. أحسب أنك تعرف.. دعني أحيد لوهلة عن النقطة المقصودة يا سيدي.. أظن أن اسم أحد هذين السيدين هو جارلاند.. أي منهما السيد جارلاند؟».

قال كاتب العدل: «الاثنان».

صاح براس في خنوع مفرط: «فعلاً! كان يجب عليّ أن أعرف هذا من الشبه غير المألوف.. أنا في غاية السعادة فعلاً، لأتشرف بمعرفة اثنين من السادة النبلاء مثلهما مرة واحدة، على الرغم من أن الظرف الذي جاء بي إلى هنا أكثر الظروف إيلاًماً. هل لأي منكما أيها السيدان خادم يُدعى كيت؟».

قال كاتب العدل: «الاثنان».

قال براس مبتسماً: «اثنان لهما نفس اسم كيت؟ يا لنفسي العزيزة!». رد السيد ويزردن نافد الصبر وبنبرة غاضبة: «إنه كيت واحد يا سيدي ويعمل لدى كلا السدين.. عَجِّل أيها السيد؟ ماذا عنه؟».

قال براس خافضاً صوته بشكل مثير للإعجاب: «إن الأمر كله عنه يا سيدي! هذا الشاب الصغير يا سيدي، الذي منحته ثقة لا حدود لها، وتصرفت معه كما لو كان يعادلني مكانة.. هذا الشاب الصغير صباح اليوم يا سيدي ارتكب جريمة سرقة بشعة في مكتبي.. وفي الواقع تم احتجازه تقريباً».

صاح كاتب العدل: «حريٌّ بهذا أن يكون باطلاً».

قال السيد هابيل: «هذا غير ممكن».

صاح الرجل العجوز: «لا أصدق كلمة واحدة مما تقول».

نظر السيد براس إليهم في رزاة، وقال:

«يا سيد ويزردن يا سيدي! كلامك موجب.. ولكنني إذا كنت رجلاً من فئة بسيطة متواضعة، لا يمكنني أن أقبل بالشهير، وحريٌّ بي أن

أطالب بالتعويض. ومع ذلك يا سيدي، فإنني وبمكاني وفتي التي أنا منها يجب أن أرفض هذه التعبيرات. أحترم حقًا المشاعر النبيلة الصادقة لكلا السידين، وإنني آسف حقًا لكوني رسول تلك الأخبار غير السارة. كان يجب عليّ ألا أضع نفسي في مثل هذا الموقف المأسوي، أجزم لكما أنني لم أكن سأفعل، لولا أن الفتى نفسه أراد أن يتم إحضاره إلى هنا أولاً، وقد امتثلت لمطلبه. يا سيد تشوكستر، يا سيدي! هل من الممكن أن تقدم إليّ معروفًا، وتقرر على النافذة، لاستدعاء الشرطي المنتظر في العربة؟».

نظر السادة الثلاث إلى بعضهم، بوجوه باهتة خالية من أي تعبير، أثناء التفوه بتلك الكلمات، بينما فعل السيد تشوكستر ما أمل فيه بالضبط، وثب عن مقعده، وانطلق في إثارة نبي ملهم تحققت تنبؤاته وتمثلت على أرض الواقع، فتح الباب من توه، وأبقاه مفتوحًا لدخول المحجوز البائس.

ظل الحال على ما هو عليه، حتى دخل كيت، وانفجر بكلمات متتابعة في فصاحة ألهمته إياها حقيقة موقفه، يتضرع إلى السماء الشاهدة على براءته، ويحلف أيمانًا مسترسلة أنه لا يعرف كيف عُثر على الورقة النقدية معه! ظلت أمارات الحيرة تعتلي الوجوه، حينما تم ربط جميع التباسات الموقف، وكُشفت البراهين.. ظل الصمت الرخيم مخيمًا عليهم جميعًا، بعد أن قيل كل شيء، وتبادل أصدقاؤه الثلاثة نظرات الشك والاستغراب!

قال السيد ويزردن بعد لحظات صمت طالت بينهما: «أليس من الممكن أن الورقة النقدية وصلت إلى قبعته عن طريق الصدفة.. ربما

حينما نُثرت الأوراق على المكتب.. على سبيل المثال!«.

ولكن ما قاله بدا ضرباً من المستحيل. على الرغم من أن السيد سوفييلر سرد ما حدث على مضد، فلم يكن شاهداً اختيارياً، لم يسعه سوى أن يقدم برهاناً توضيحياً على ما شاهده فعلاً، ويقول: إن المكان الذي وُجدت فيه الورقة النقدية، يبرهن على أنه قد تم وضعها عن عمد.

قال براس: «إنه أمر محزن للغاية، أمر مفرج فعلاً.. عندما يمثل للمحاكمة، سأكون ممتناً جداً، وأنا أطلب بتخفيف حكمه؛ بناء على شخصيته الحسنة السابقة. لقد فقدت أموالاً من قبل، لكن هذا لا يعني بالتأكيد أنه هو مَنْ أخذها. لكن الافتراضات كلها ضده، وثبت التهم عليه بشدة.. لكننا بشر رغم كل شيء. أليس كذلك؟».

قال الشرطي، وهو ينظر حوله: «أعتقد أن لا أحد من السادة الحاضرين يمكنه أن يقدم دليلاً أو شهادة تنفي اختلاسه للأموال المعنية، أو سبب توفر المال مؤخراً معه! هل تعرف يا سيدي؟».

رد السيد جارلاند على من طرح السؤال: «بالأكيد كان يتوفر معه أموالٌ من وقت إلى آخر، لكن تلك النقود كما أخبرني، كان السيد براس نفسه قد أعطاها له».

قال كيت بحماس: «نعم هذا حدث فعلاً.. يمكنك أن تساندني يا سيدي وتقول: إنك أعطيتهم لي فعلاً.. هل من الممكن يا سيدي؟».

صاح براس، وهو ينظر من وجه إلى آخر في بلاهة منذهلاً: «ماذا؟ أي نقود!«.

قال كيت: «النقود التي كنت تعطيها لي يا سيدي، عملات النصف كراون يا سيدي.. من المستأجر».

صاح براس وهو يهز رأسه، مقطب الحاجبين، عابسًا بشكل لا يمكن وصفه: «يا لنفسى العزيزة! ماذا نقول! هذا أمر سيئ، بل أجده في منتهى السوء في الواقع».

سأل السيد جارلاند بقلق شديد: «ما هذا؟ ألم تعطه أي مال نيابة عن أي شخص يا سيدي؟».

رد السيد سامبسون قائلاً: «أعطيه أي مال! بحقك يا سيدي! إنني أجد هذا الأمر معيًّا.. أيها الشرطي! أيها الرفيق الطيب يستحسن لنا أن نذهب من هنا».

صرخ كيت: «ماذا؟ هل هذا يعني أنه ينكر أنه أعطاني النقود؟ اسأله! من فضلكم أتوسل إليك. اسأله حتى يخبرك إذا فعل أم لا!». سأل كاتب العدل: «هل فعلت أيها السيد؟».

رد السيد براس بطريقة متزنة للغاية: «أريد أن ألفت انتباهكم إلى شيء أيها السادة.. أنه إذا استمر في هذا الفعل بنفس الطريقة، فإنه لن يخدم مسار قضيته، لذا يا سيدي إذا كنت تهتم بأمره، فمن الأفضل أن تنصحه بأن يكفَّ عن فعله، ويغير سياسته المزعومة. إذن، هل فعلت يا سيدي؟ لا لم أفعل بالطبع».

صرخ كيت الذي وقع عليه رده كالصاعقة: «صدقوني أيها السادة! يا سيدي! يا سيد هاويل، يا سيد ويزردن، يا كل سيد منكم هنا ويسمعني،

لقد فعل! لقد أعطاني تلك النقود! ما الذي فعلته ليشعر بهذا الحق! أنا لا أعرف حقاً، لكن هذه مكيدة للإيقاع بي. أيها السادة! حَكِّمُوا العقل، انظروا إلى مجمل الموقف على أنه مؤامرة كيدية، وما الذي سياتر على عليها بعد ذلك، سأقول حتى آخر نفس لي إنه دس لي هذه الورقة النقدية! انظروا كيف يتغير لونه. انظروا مَنْ منا يبدو مذنباً.. أنا أم هو؟».

قال براس مبتسماً: «هل سمعتموه أيها السادة؟ هل سمعتموه! الآن! هل تبدو لكم هذه الحالة حالة عنصرية ضد ذوي البشرة الداكنة أم لا؟ هل تعتقدون أن القضية برمتها تعتبر خيانة أم مجرد جناية عادية؟ ربما إذا لم يقل هذا في حضوركم أيها السادة، لكنت قدمت تقريراً في الحال، هل يبدو ما يقترفه الآن وفي حضوركم أنه مستحيل، وحرِّيُّ به أن يكون باطلاً، وغير ممكن؟ قولوا لي أيها السادة!».

بمثل هذه الملاحظات المسالمة المازحة التي أدلى بها السيد براس، دحض جميع الأفكار السيئة المأخوذة عن شخصيته، لكن سارة الفاضلة، قد تأججت المشاعر في صدرها، وانتزعت قلبها من سكينته، وربما كانت أكثر غيرة على شرف عائلتها الكريمة، فانطلقت من جانب شقيقها، دون أي سابق إنذار يدل على عزمها، واندفعت نحو المحتجز بأقصى قدر من الضراوة، وبروح نوت الانتقام. ربما كادت النتيجة أن تكون قاسية وظاهرة على وجه كيت، لكن هذا الشرطي المتنبه، أبعداها جانباً في اللحظة الحاسمة، وبالتالي حمّل السيد تشوكستر بعض العواقب الوخيمة لهذا الخطر المحيق، صادف أن يكون هذا الرجل النبيل المتلقي التالي لحقن الآنسة براس، واستشاطتها غضباً، فمثل

الحب والحظ كلاهما أعمى، كان نصيبه الانقضاض عليه من قبل تلك المستعيدة العادلة، اقتلعت ياقته الزائفة من مكانها، وصار شعره أشعث، قبل أن تتمكن جهود منعها من تنبيهها إلى خطئها.

حذر الشرطي من هذا الهجوم اليائس، وأعرب عن أن الموقف ربما سيكون أكثر إرضاء إذا لجأوا للعدالة، وأخذوا المحتجز ليمثل أمام القاضي، أخذوه وهو كامل فضلاً عن تفتته إلى أجزاء صغيرة، ثم اقتاده إلى العربة دون مزيد من الاهتياج واللغط، كما أصر على أن تكون الأنسة براس خارج مكان الركاب، جراء ما فعلته تلك المخلوقة الفاتنة، وبعد جدال محتد، تنازلت بالقبول، وأخذت مكان شقيقها سامبسون على الصندوق، وأخذ شقيقها مكانها داخل العربة بعد فترة من التردد. تمت هذه الترتيبات، وانطلقوا إلى ساحة العدالة بكل سرعة، يتبعهم كاتب العدل وصديقه في عربة أخرى. تُرك السيد تشوكستر وحده، حانقاً منغمساً في سخطه؛ لأنه أراد أن يدلي بشهادة، كان على علم بها طوال الوقت، تلك التي خصت عودة كيت إلى العمل بسبب ذاك الشلن، وبذلك كان بإمكانه أن يثبت حقيقة تفكيره المادية التي تكنها شخصيته المنافقة الماكرة، التي اعتبر قمعها أفضل إلى حد ما من تسوية جناية.

في ساحة العدالة، وجدوا الرجل الأعزب، الذي انطلق منذ ذاك الحين، واتجه مباشرة إلى هناك، ومكث ينتظرهم بفارغ الصبر. لكن في هذا الموقف العصيب، حتى وإن تدخل خمسون رجلاً نبيلًا، لن يمكنهم أن يساعدوا كيت المسكين، الذي تمت إحالته إلى المحكمة بعد نصف ساعة، وقد أكد له ضابط حليم كان في طريقه إلى السجن

أنه ليس هناك أي داعٍ للريبة، وأن الجلسات ستبدأ قريباً، وأنه وفقاً لكل الاحتمالات، سيتم التحري في قضيته البسيطة، وربما يتم تسويتها في أقل من أسبوعين.



الفصل الحادي والستون

دع الأخلاقيين والفلاسفة يوضحون ما هو محل تساؤل، ويقولون ما في وسعهم، حيال ما إذا كان يمكن لرجل مذنب أن يشعر بنصف كم البؤس الذي ران على كيت في تلك الليلة. ربما لطبيعة العالم التي تعج بجرائم متواصلة وارتكاب للظلم وغياب الظلمات، أن تكون ملائمة لتعزية النفس، إذا كان ضحية الأكاذيب والافتراءات، سليم الطوية، فلا يمكن أن يدوم احتجازه، وأن الحق بطريقة أو بأخرى سينتصر في النهاية، «في هذه الحالة». قل لمن أوقعوا به -على الرغم من أننا لا نتوقع ذلك بكل تأكيد- أن لا أحد أكثر سعادة منا. في حين أن العالم الذي يتفشى في أرجائه الظلم، يتسبب إلى حد بعيد في إلحاق أذى فتاك مهلكٍ مميّ لا يمكن لكل من هو كريم ذو أسس سليمة أن يتحمّله، فما تبرح أن تتوه الضمائر النقية عن دروبها، وتنفطر القلوب السليمة، لهذا السبب عينه، عندما يزيد وعيهم المدرك لاستحقاقهم من مفاخرة معاناتهم، فترزّحهم خائري النفس والقوى.

ومع ذلك، لم يكن العالم مخطئاً في حالة كيت، لكن كون كيت بريئاً، وهو على علم بيّن بذلك، وشعوره بأن أصدقاءه المقربين تشككوا في أمره، واعتبروه مذنباً، وأن السيد والسيدة جارلاند نظرا إليه على أنه مثال للجحود والنكران، وأن باربرا ستحيل إليه كل ما هو سيئ وإجرامي، وأن المهر سيظن أنه قد تخلى عنه، حتى والدته ربما تستسلم أمام حججهم القوية ضده، وتصدق أنه الخسيس كما بدا في أعين الجميع، أورثه الذل، وبالغ في تعذيبه، كونه يعلم ويشعر بكل هذا، جعله يعاني -في البداية- من صراعات تتخبط داخل عقله، فلا يمكن لكلمات أن تذكرها أو أن تصفها، فهام داخل أفكاره، يمشي جيئةً وذهاباً داخل سجنه الضيق، الذي حُبس فيه مع عذابات نفسه ومرارة الحزن طوال الليل.

حتى عندما خف تأثير ما ماج في صدره من غم وكآبة إلى حد ما، وشرع في أن يكون أكثر هدوءاً، تسللت إلى ذهنه خاطرة جديدة، لكن عذابها كان أقل تبريحاً. ماذا لو أن الطفلة -النجم الساطع في حياة الفتى البسيط، من كانت تترد على باله دائماً مثل حلم جميل، من استطاعت أن تجعل من الجزء الأشد تعاسة في حياته الأفضل والأسعد، من كانت معه عطوفة ولطيفة ومراعية له وحليمة- قد سمعت بما حدث، ماذا ستعتقد؟ عندما استحوذت تلك الفكرة على عقله، لاحت له جدران زنزاناته كأنها تذوب وتتلاشى، ليكشف ذاك المكان القديم عن نفسه، مثلما اعتاد أن يكون في ليالي الشتاء، لاح الموقد، ومنضدة العشاء الصغيرة، وقبة الرجل المعجوز، وعصاه، والباب نصف المفتوح، المفضي إلى حجرتها

الصغيرة، كان كل شيء أمامه وفي موضعه تمامًا. حتى نيل نفسها كانت هناك، وكان معها، يضحكان معًا في مودة وصفاء، مثلما كانا يفعلان في كثير من الأحيان، وحينما سرح بخياله ورنًا إلى أكثر من ذلك، لم يكن هناك أكثر من ذلك، فطرح نفسه على السرير الرديء، وغص بالبكاء.

كانت ليلة طويلة، بدت كأن لا نهاية لها. لكنه نام أيضًا، وحلم كما كان يحلم دائمًا بالحرية، يتجول الآن مع شخص، ثم مع آخر، لكنَّ خوفًا مبهمًا دام معه وأحاط به، ينذر باستدعائه في أي وقت إلى السجن، لم يكن ذلك السجن، بل كان سجنًا في حد ذاته عبارة عن فكرة مبهمة، لم يقصد بها مكانًا، بل همًا وكمدًا، أمرًا قمعيًا لطالما كان حاضرًا، ومع ذلك يبقى من المستحيل تعريفه. أخيرًا، بزغ الصباح، وكان السجن نفسه باردًا وحالكًا وكثيبًا وحقيقياً فعلاً.

على كل حال، تُرك بمعزل مع نفسه، ووجد شيئًا من راحة في هذا. كانت لديه حرية المشي في ساحة صغيرة مرصوفة في ساعة محددة من يومه، علم من السجن، الذي أتى وفتح زنزانته؛ ليريه أين يمكنه الاغتسال، أن هناك وقتًا ثابتًا للزيارة كل يوم، فإذا أتى أي أحد من أصدقائه لرؤيته، فسوف يؤخذ إلى غرفة بقضبان حديدية. عندما أحاطه علمًا بهذه المعلومات، وأعطاه فطوره في صحن من صفيح، حجزه ثانية، وأغلق عليه زنزانته مرة أخرى، ومن ثمَّ رحل يقعق طوال الممر الحجري، يفتح ويغلق العديد من الأبواب الأخرى، فتعالت أصوات لا تُحصى، وترددت أصدائها في المبنى لفترة طويلة، كما لو كانت داخل سجن أيضًا، لا يمكنها الخروج منه.

قد بيّن له السجنان أنه محتجز مثل فئة قليلة داخل السجن، منفصلة عن عموم المساجين؛ لأنه غير مدانٍ تمامًا، ولأنه من المفترض غير فاسد تمامًا أو متعذر صلاح خصاله، إضافة إلى أنه لم يشغل أي موضع داخل هذا الصرح من قبل. صار كيت شكورًا لهذا التسامح، وجلس يقرأ تعاليم الكنيسة بانتباه شديد -على الرغم من أنه حفظها عن ظهر قلب من الطفل الصغير- حتى سمع قلقلة المفتاح داخل القفل، ودخل الرجل مرة أخرى.

قال: «تعال يا كيت الآن! هيا!».

سأل كيت: «إلى أين يا سيدي؟».

فَنَعَ السجنان بالرد بإيجاز قائلاً: «زيارة»، ثم أمسك به من ذراعه، وبنفس الطريقة التي ساقه بها الشرطي قاده إلى الخارج، من خلال طرق متعرجة عديدة وبوابات ضخمة ثم إلى ممر، حيث تركه أمام قضبان حديدية ورحل. خلف تلك القضبان، على مسافة أربع أو خمس أقدام، كانت هناك واحدة أخرى مثلها تمامًا. وفيما بينهما، جلس سجان يقرأ جريدة، ووراء القضبان الأبعد، رأى كيت بقلب تضاعف خفقانه، والدته تحمل الرضيع بين ذراعيها، ووالدة باربرا ومظلتها التي لا تتركها أبدًا، وجايكوب الصغير يحرق بكل قوته، كما لو كان يبحث عن طائر أو وحش بري، كما لو كان يظن أن وجود الأشخاص مجرد مصادفة، ولا يمكن للأقفاص أن تُشغل بهم على الإطلاق.

حينما رأى جايكوب الصغير أخاه، مدَّ ذراعيه من فوره من بين القضبان الحديدية؛ يريد أن يحتضن أخاه، لكنه وجد نفسه لا يقترب

البتة، ولا يزال يقف بعيداً عنه، أمسك بيده أحد القضبان، ورأسه مستند على كتفه، انفجر باكياً بشكل يفطر القلب، حينها لم تستطع والددة كيت ووالدة باربرا كبح دموعهما والاختناق بعبراتهما أكثر من ذلك، فبكتا وانتحبنا من جديد. لم يستطع كيت منع نفسه من الفعل نفسه، ولم يستطع أي منهم التفوه ولو بكلمة واحدة. خلال هذا الصمت الحزين، جلس السجان يقرأ جريدته ولكن بنظرة هزلية - من الواضح أنه كان يقرأ فقرات الطرائف - حتى رفع عينيه عن الجريدة لوهلة، كما لو كان يتأمل طرفه ما من نوع أعمق من البقية، كأنها كانت أول مرة يحدث فيها أن يشاهد شخصاً يبكي.

قال وهو ينظر مستغرباً: «حسنًا! حسنًا! اسمعا أيتها السيدتان.. أنصحكما ألا تضيعا الوقت بهذه الطريقة؛ فإن الوقت هنا محدود كما تعلمان. كما يجب ألا تدعا هذا الطفل يصدر هذا الضجيج. إن ما تفعلونه كله يخالف جميع القواعد».

انحنيت السيدة نابلز في تواضع، وقالت منتحبة: «إنني أمه يا سيدي، وهذا أخوه.. أوه! ارحمنا يا رب!».

رد السجان، وهو يطوي الجريدة على ركبتيه، حتى يحصل على راحة أكبر في قراءة العمود التالي: «حسنًا! ولكن هذا لا يغير شيئاً كما تعرفين. إنه ليس الوحيد الذي يمر بنفس المأزق. لا يجب أن تثيروا أي ضجة هنا!».

مع ختام قوله، عاود القراءة مجدداً. لم يكن الرجل فظاً غليظ القلب أو قاسياً. إن عمله يحتم عليه أن ينظر إلى الجناية كنوع من المرض،

كحُمى قَرْمِزِيَّةٍ أو حُمرة، يُصاب بها بعض الناس، ولا يُصاب بها البعض الآخر.. كما هو المعتاد.

قالت والدته، بعد أن حملت عنها والدتها باربرا الرضيع بكل ود وإحسان: «أوه! يا عزيزي كيت! كيف لي أن أرى ابني الحبيب هنا!».

صاح كيت بصوت مختنق: «أنت لا تصدقين ما يتهمونني به يا أمي! أليس كذلك يا أمي؟».

صاحت المرأة المسكينة: «أنا أصدق؟ أنا لم أعرف عنك أبدًا أنك كذبت، أو قمت بعمل سيئ منذ مهدك.. إنك لم تسبب لي الحزن ولو للحظة، عوضًا عن تلك الأوقات التي أتذكر فيها الوجبات الزهيدة التي كنت تتناولها بروح مرحّة قانعًا، التي لم ألحظ كم كانت قليلة، إلا حينما أدركت كم كنت لطيفًا رصينًا، على الرغم من أنك كنت مجرد طفل! أنا أصدق هذا على ابني الذي كان لي دائمًا منبعًا للراحة منذ ساعة ولادته حتى هذا الحين، الذي لم أنم ولو لليلة واحدة وأنا غاضبة منه! أنا أصدق عليك هذا يا كيت! كيف؟».

قال كيت، وهو يمسك بالقضبان ويهزهم في حماس: «يا ربي! إن الحمد والشكر لك! أنا قادر على أي شيء الآن يا أمي! يمكنني أن أتحمّل كل ما يمكن أن يحدث لي.. سوف تلاحظني دائمًا قطرة من سعادة داخل قلبي، حينما أفكر في أنك قلت ذلك فعلاً يا أمي».

حينئذ غسقت عيناها، ووالدة باربرا بالمثل، ومن ثمّ ذرفت دموعًا لا آخر لها. أما جايكوب الصغير، من كانت أفكاره متداخلة، لا يفهم ما حوله، بحلول ذلك الوقت، كان قد رتب أفكاره وصاغ منها فكرة

واضحة، فاستوعب أن كيت لا يستطيع الخروج إلى التنزه إذا أراد، وأن وراء هذه القضبان، لا وجود لطيور أو أسود أو نمور أو أي مخلوق طبيعي مثير للفضول.. أو أي شيء على الإطلاق، سوى أخيه المحتجز، فأضاف دموعه إليهما ولم يصدر صخبًا قدر الإمكان.

كفكت والددة كيت دموعها - بل بللت هذه النفس المسكينة عينيها أكثر مما كانت تحاول تخفيفهما - حملت سلة صغيرة كانت موضوعة على الأرض، وذهبت بها إلى السجنان في طاعة، وهي تقول: هل من الممكن من فضلك أن تستمع إليّ ولو لدقيقة فقط؟ لكن السجنان كان هائمًا بكامل ذهنه مع مزحة، فأشار لها بيده أنه بحق حياتها أن تصمت لبعض الوقت. لم يزح يده عن موضعها السابق، وظل مبقياً على نفس إيماءاته التحذيرية حتى أنهى الفقرة، وبعد صمت طال لبضع ثوانٍ، كانت تعتلي وجهه ابتسامة، كما لو أراد أن يقول: «إن هذا المحرر فكاهي طائش.. كلب مرح بصحيح»، سألها عما تريده.

قالت المرأة الطيبة: «لقد أحضرت له بعض الطعام ليأكله، لو سمحت يا سيدي، هل من الممكن أن يأخذه؟».

- نعم.. من الممكن أن يأخذه. لا يوجد في هذا ما يخالف القانون. أعطيني إياه، عندما ترحلين، وأنا سأعمل على إيصاله له.

- ولكن يا سيدي.. أرجوك ألا تغضب مني يا سيدي.. أنا أم.. وبالتأكيد لديك أم.. هل من الممكن أن أراه يأكل ولو لقيمات بسيطة، قبل أن أرحل؛ حتى يطمئن قلبي ويشعر بالراحة.

وتنهمر دموع والددة كيت مرة أخرى، وتتبعها والددة باربرا وجاكيوب

الصغير. أما الرضيع فقد كان يصيح ويضحك بأقصى ما عنده، كما لو أن المشهد بأكمله مختلق، وافْتَعَلَ خصبًا من أجل رضاه والمزاح معه.

بدا السجان كما لو كان يعتقد أن المطلب مطلب غريب عما هو شائع، لكنه مع ذلك وضع ورقته، والتفت حيثما كانت والدته كيت تقف، وأخذ منها السلة، وبعد أن فتش محتوياتها، سلمها إلى كيت، ثم رجع إلى مكانه مرة أخرى. قد يكون من السهل تصور أن السجين ليست لديه شهية مفتوحة، لكنه جلس على الأرض، وأكل سريعًا في نهم، ومع كل لقمة كان يضعها في فمه، تبكي والدته وتنتحب من جديد، على الرغم من رضى أحسّت به لرؤية ابنها، قد لطف قليلًا من حزنها.

بينما كان كيت منهمكًا في فعله، طرح بعض التساؤلات عن أصحاب العمل، وما إذا كانوا قد أفصحوا عن أي رأي في شأنه، لكن كل ما استطاع معرفته أن السيد هابيل ظل إلى جانب والدته يعزيها بلطف كريم، حتى وقت متأخر من الليلة الماضية، لكنه لم يعبر عن رأيه حيال ما إذا كان بريئًا أم مذنبًا. بعدها، استجمع كيت شجاعته؛ ليسأل والدته باربرا عن باربرا، لكن السجان الذي اقتاده إلى هناك ظهر ثانية، وظهر سجان آخر خلف زواره، وصاح السجان الثالث وبين يديه جريدته قائلاً: «الزيارة انتهت». وأضاف في نفس النفس وبالنبرة العالية ذاتها: «الزيارة التالية!». ثم انغمس في عمق بين سطور صحيفته مرة أخرى. سُحِبَ كيت في لمح البصر، بينما تتردد على مسامعه أصدااء دعوات والدته له، وصرخات جايكوب الصغير. بينما كان يمر بالفناء المجاور، ويحمل بيده سلتة الصغيرة، بتوجيه من قائده السابق، نادى عليهما ضابط آخر؛

كي يقفا، ووصل إليهما وهو يحمل في يده قنينة جعة نصف لتر.
قال الرجل: «أنت كريستوفر نابلز! الذي جاء ليلة أمس لارتكابه
جناية. أليس كذلك؟».

رد مصطحبه إنه هو الجبان المعنيُّ.
قال الرجل الآخر لكريستوفر: «حسنًا! خذ هذه الجعة إنها لك..
إلامَ تنظر أيها الفتى؟ لم يبصق فيها أحد».
قال كيت: «أستميحك عذرًا يا سيدي.. هل من الممكن أن أعرف
مَن أرسلها لي؟».

رد الرجل: «لِمَ لا! إنه صديقك!».
كرر كيت قوله: «صديقي!».
رد الرجل الآخر: «يبدو أنه مرحب بك. خذ هذا جواب. خذ!
أمسك به!».

أخذه كيت، وحينما أغلقت عليه زنزانته مرة أخرى، قرأ ما يلي:
«اشرب هذا الكأس، وارتوِ بقطراته، ففي كل قطرة تعويذة تنجيك
من الموت والمرض ومهلكاته.. تحدث عن الشراب الروحي اللامع
بحق هيلين^(١٩)! كأسها كانت محض خيال، وما في يدك الآن محض
حقيقة (باركلي وشركاه).. إذا وصلت هذه القنينة منبعجة، عليك أن
تقدم شكوى للحاكم.. صديقك المخلص ر.س».

(١٩) ابنة زيوس وليدا في قصائد هوميروس.

قال كيت بعد بعض التفكير: «ر.س! لا بد أنه السيد ريتشارد
سوفيلر. إنها لفظة طيبة منه، إنني سعيد جدًا، أشكره بكل حرارة».



الفصل الثاني والستون

تلاً ضوء خافت من نافذة مكتب المحاسبة على رصيف الميناء، كان أحمر وهاجاً يخترق ركام الضباب الليلي، بدا كأنَّ عيناً تلوح من بينه، بخطوات حذرة اقترب السيد سامبسون براس من الكوخ الخشبي، حيث كان المالك الممتاز، وموكله المحترم السيد كويليب، منتظراً إياه في الداخل، متحلياً بصبره المعتاد وبمزاج حسن، مهياً تماماً لموعد، أحضر من أجله السيد براس إلى مقصورته الخلابة.

قال سامبسون متممًا، بينما يتعثر للمرة العشرين بأخشاب مبعثرة على الأرض، ويعرج من شدة الألم: «مكان مليء بالعراقيل ليخطو الواحد ولو خطوة واحدة فيه، في ليلة حالكة.. أكاد أجزم أن ذاك الصبي يشتر ويبعثر أشياء متنوعة على الأرض كل يوم عن قصد؛ بهدف إلحاق الكدمات والجروح بالبشر، إذا لم يكن سيده يفعل ذلك بيده، أكاد أجزم أن هذا هو الواقع وليس مجرد احتمال.. كم أكره المجيء إلى هذا المكان، من دون سالي. إنها أكثر حرصًا من دسنة رجال».

بينما كان يشني على جدارة الفاتنة الغائبة، توقف السيد براس، ينظر متلفتاً في ارتياب، وصوب الضوء.

تساءل المحامي متمتماً: «تُرى ما هو بصدده في الداخل؟». وقف على أطراف أصابع قدميه، يحاول أن يتبين أي لمحة مما يحدث في الداخل، لكن الأمر كان مستحيلاً من تلك المسافة البعيدة: «أعتقد أنه يشرب.. جاعلاً نفسه أكثر جموحاً متقدماً بالحماسة والجنون، يسعر خبثه، ويفاقم بطشه. دائماً ما أخشى أن آتي إلى هنا بمفردتي، عندما يكون منتشياً. أعتقد أنه لن يمانع في خنقي إذا هوى، ثم يرميني بكل هدوء وروية في النهر، وقت المد الأعلى، أكثر من أن يمانع في قتل فأر مثلاً.. في الواقع أنا لا أعرف، ربما سيعتبرها مزحة مرحة لا مثيل لها. صه صه! والآن يغني!».

من المؤكد أن السيد كويليب، كان يسلي نفسه بدندنة غنائية، لكنها كانت نوعاً ما من الترانيم عوضاً عن أن تكون أغنية؛ كونها تكراراً رتيباً لجملة واحدة بطريقة سريعة جداً، مع تشديد طويل على الكلمة الأخيرة، حتى حولها إلى نشاز وجعلها أقرب إلى عجيج مغمغم. لم يحمل هذا الغناء، أي إشارة لحب أو لحرب أو تغنٍّ على سبيل المثال لنشوة النبيذ أو الولاء أو ما شابه ذلك من المواضيع المتعارف عليها، بل لموضوع آخر، لم ينظم ألحانه وفقاً لأي طريقة غنائية أو لنوع معروف بشكل عام من القصائد القصصية، فقد كانت كلماتها على النحو التالي: «.. القاضي الجدير، بعد ملاحظة أن السجين، وجد صعوبة في إقناع هيئة المحلفين، لتصديق روايته، تعهد له بمعرفة الحكم في

الجلسات القادمة، وفرض الإقرارات العرفية، للأخذ بها في الملاحقة
القضائية».

في كل مرة كان يصل فيها إلى هذه الكلمة الختامية، كان يستنفد
كل جهده، ويطيل نفسه بقدر ما يتمكن، ثم ينفجر في نوبة من الضحك،
ويبدأ من جديد مرة أخرى.

قال براس متممًا، بعد أن سمع تكرار تلك الترنيمة مرتين أو ثلاث
مرات: «إنه طائش بشكل مخيف.. متهور بشكل مفرع. كم أتمنى لو كان
أصم، كم أتمنى لو كان أبكم، كم أتمنى لو كان أعمى». صرخ براس،
حينما بدأ في تكراره مرة أخرى: «كم أتمنى لو كان مشوقًا، بل ميتًا!».

بعد أن تفوه بتطلعاته الودودة التي يتمنى حدوثها لموكله، بدّل
السيد سامبسون إيماءات وجهه إلى حالتها اللطيفة الحسنة المعتادة،
وانتظر حتى علت الصرخة الأخيرة مرة أخرى ومن ثمّ خفت، وصعد
إلى الكوخ الخشبي، وطرق على الباب.

صاح القزم: «ادخل!».

قال سامبسون، وهو يسترق النظر إلى الداخل: «كيف حالك الليلة
يا سيدي؟ ها ها ها! كيف حالك يا سيدي؟ يا لنفسي العزيزة! كم أنت
مزاجي! كم أنت مزاجي بشكل مثير للاندهاش يا سيدي!».

رد القزم قائلاً: «ادخل أيها الأحمق! ولا تقف هكذا، تهز رأسك
وتبين أسنانك. ادخل يا شاهد الزور، يا حانث القسم، يا مرتشٍ.. ادخل
يا مدلس الحقيقة!».

صاح براس، وهو يغلق الباب بعد أن دخل: «إنه الأمرح من بين الناس! إنه الأبرع في إلقاء الدعابات! إنه الأروع في المزاح! لكن يا سيدي، أليس طيشًا هذا؟».

قال كويليب بصيغة اعتراضية: «ماذا؟ هل تقول يهوذا؟».

صاح براس: «يهوذا! ها ها! إن لديه روحًا استثنائية.. إن روحه الفكاهية لا مثيل لها.. يهوذا! أوه! يا لنفسى العزيزة! كم هو مرح للغاية! ها ها ها!».

طوال هذا الوقت، كان سامبسون واقفًا، يفرك يديه الواحدة بالأخرى، يحدق في هول صدمة سخيفة وفزع في تمثال ضخّم لمقدمة سفينة قديمة ذات رأس كبير، وعينين جاحظتين، وأنف أفطس، قد انتصب موازيًا للحائط في ركن قريب من الموقد، بدا مثل عفريت أو صنم قبيح يعبد القزم. كانت هناك مجموعة من الألواح الخشبية على رأسه، شكلت مظهرًا سحيقًا مبهمًا لقبعة ذات قرنين، إضافة إلى شكل نجمة على الجانب الأيسر من صدره، وكتّافتين على كتفيه، فبدا كأنه صمم لأميرال ما شهير. لكن، دون هذه المساعدات، كان من الوارد أن يتراءى لأي ناظر على أنه صورة حقيقية لخيّلان البحر أو لوحش بحري ضخم. وبسبب حجمه الهائل الأصلي مقارنة بالمكان الذي وضع فيه لتزيينه، فقد نُشر من وسطه. حتى في هذه الحالة، كان يصل ما بين الأرض والسقف، مائلًا إلى الأمام، وعيناه فاغرتان في منظر يقظ للغاية، يشبه الدخيل المتأدّب، لطالما تميزت به أشكال تماثيل مقدمات السفن، بدا كأنه يقلص كل شيء آخر حوله إلى مجرد أبعاد قزمية.

قال براس: «ماذا؟». ثَبَّتَ رأسه على جانب واحد، ثم أمالها إلى الوراء قليلاً، كما يفعل الخبراء وقال: «الآن! أنظر إليه من منظور مختلف.. يتراءى لي أنني أرى.. نعم.. نعم، بالتأكيد يوجد شبه في الابتسامة، فإنه يذكرني بـ.. لأنه بعد الفحص والتدقيق أرى أنه مشابه لـ...».

في الواقع، كانت الحقيقة أن سامبسون لم يرَ أي شيء يشبه هذا الشبح المجسد من قبل ولو بدرجة طفيفة، لذا كان في حيرة من أمره، يفكر ما إذا كان السيد كويليب يعتبره مشابهاً لنفسه، وبسبب ذلك اختار أن يشتريه كأثر عائلي، أم إذا كان مسروراً بالنظر إليه على أنه مشابه لأحد الأعداء. لكن الشكوك لم تساوره لوقت طويل، بينما كان يطيل النظر إليه بتدقيق نظرة المعرفة، التي يعتمدها الناس عندما يتأملون لوحة لأول مرة، ويشعرون أنهم يعرفونها، لكنهم لا يفعلون، رمى القزم الجريدة التي اقتبس منها كلمات ما ترنم، ثم اختطف قضيباً حديدياً صلدًا، كان يستخدمه بدلاً من مذكي النيران، وانهال على التمثال بضربة مفاجئة على الأنف، الذي اهتز من قوتها.

صاح القزم، وهو ينهال بوابل من الضربات على وجه الجماد معدم الحس، حتى أحدث به العديد من النقرات الصغيرة: «أليس هذا كيت؟ ألا ترى صورته وهيئته وكل شيء آخر.. ألا ترى كيت نفسه؟ إنه النموذج الدقيق والنظير لهذا الكلب.. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟»، ومع كل تكرار للسؤال، كان ينهال بضربة أكثر قوة، لدرجة أن العرق تصبب من وجهه، وانساب من شدة حماسه وقوة ضرباته.

على الرغم من أنه قد يبدو عرضًا هزليًا، يمكن مشاهدته في صالة عرض مُؤمَّنة، كمصارعة الثيران مثلاً، حيث يعد لمن هم ليسوا في الساحة عرضًا مريحًا ممتعًا، أو كبيت مشتعل يفضل الناس رؤيته عن مشاهدة مسرحية مثلاً، ما داموا لا يعيشون بالقرب منه، كان هناك خطب ما في جدية أسلوب السيد كويليب، جعل مستشاره القانوني، يشعر أن مكتب المحاسبة ضيق جدًّا، وأنه بمفرده تمامًا وأعزل للتمتع الكامل بهذا الكم من الفكاهة.

لذلك، وقف بعيدًا قدر إمكانه، بينما كان كويليب منهمكًا في فعله، يئن مرتعدًا، لكنه يصفق ويردد كلمات الإطراء بصوت واهن، عندما أنهى كويليب عمله وجلس مرة أخرى بسبب الإنهاك الشديد، فاه بنفضائع لا قِبَل له بها.

صاح براس: «ممتاز يا سيدي! ممتاز حقًا! هي هي! أوه! إنه أمر جيد جدًّا يا سيدي! كما تعرف». التفت سامبسون، ناظرًا كما لو كان يستأنف لحيوان مكدوم: «إنه رجل مميز حقًا.. طبعًا وبكل تأكيد!».

قال القزم: «اجلس! اشتريت هذا الكلب بالأمس. لقد دققت فيه المسامير، وغرست الشوك في عينيه، ونقشت اسمي عليه. وأنوي حرقه في النهاية».

صاح براس: «هاها! يا لها من أمور مسلية للغاية! بالطبع وبكل تأكيد!».

قال كويليب، وهو يشير إليه للاقتراب منه: «تعال هنا! قل لي ما تراه طيشًا.. هيا!».

«لا شيء يا سيدي.. لا شيء.. إنه أمر بالكاد يذكر يا سيدي، لقد اعتقدت فقط أن الأغنية.. فكاهية بشكل يثير الإعجاب.. كما تعلم يا سيدي.. لكنها بالأحرى.. ربما أن..».

قال كويليب: «نعم نعم.. بالأحرى ماذا؟».

رد براس، وهو ينظر مرتعدًا، شاخص البصر في خوف إلى نظرات القزم الماكرة، التي حادت إلى النيران، وضوئها الأحمر المنعكس الوهاج، وقال: «بالأحرى تقارب.. أو كما قد يقول المرء إنها مقاربة عن بعد من حدود الطيش.. ربما دون قصد يا سيدي».

سأل كويليب دون أن يرفع عينيه: «لماذا؟».

رد براس في شجاعة منه، يحاول أن يكون أكثر توددًا: «.. في الواقع يا سيدي، ربما يكون حصاد تلك التصرفات معًا يا سيدي.. في نظر الأصدقاء، هي تصرفات في حد ذاتها تستحق الثناء والإطراء، لكن من وجهة نظر القانون إذا تم ربط الأحداث ببعضها سيُعتبر تأمرًا.. أتفهمني يا سيدي؟ يجب أن تكون هذه التصرفات بين الأصدقاء وبعضهم.. كما تعرف بالطبع يا سيدي».

نظر كويليب إليه، بوجه خالٍ من أي تعبير وقال: «هاه! ماذا تقصد؟».

صاح براس، مومئًا برأسه: «الحرص.. الحرس والحذر المناسب القويم فقط.. هذا ما أقصده بالضبط يا سيدي».

قال كويليب مدمدًا: «ما معنى ما تقوله أيها الفزاعة المهلهلة؟ ماذا

تقصد بالضبط؟ لماذا تحدثني عن الحصاد، وربط الأحداث ببعضها؟
هل أربط هنا شيئاً ببعضه؟ هل أعرف أي شيء عن حصادك؟».

رد براس: «لا يا سيدي.. لا بالطبع يا سيدي، ليس بأي حال من الأحوال».

قال القزم، وهو ينظر إليه على أنه الهدف التالي لمذكي النيران: «إذا استمرت في اللف والدوران حول الموضوع، سأفسد ملامح وجهك أيها القرد في التو واللحظة».

قال براس من فوره، متراجعاً عما ذكر كله: «أرجوك يا سيدي لا تعكر صفو مزاجك.. أنت محق تماماً يا سيدي.. محق تماماً. ما كان يجب عليّ أن أذكر الموضوع يا سيدي.. من الأفضل لي ألا أقترف هذا الخطأ الجسيم مرة أخرى.. دعنا نغير الموضوع، إذا سمحت بالطبع يا سيدي.. كنت تسأل يا سيدي، كما أخبرتني سالي، عن المستأجر.. إنه لم يعد يا سيدي».

قال كويليب، بينما كان يسخن نبيذ الرم في قدر صغير، ويتابعه حتى لا تصل حرارته إلى الغليان: «لم يعد! لماذا لم يعد؟».

قال براس: «إنه يا سيدي.. إنه يا عزيزي كويليب.. إنه يا سيدي..».

قال القزم، وقد أوقف يديه عن رفع القدر إلى فمه: «انطق! ما الأمر؟».

قال براس: «لقد نسيت الماء يا سيدي.. واعدتني يا سيدي، إنه ساخن جداً».

لم يُعز ما يقوله أي انتباه، وجاء الرد متمثلاً في فعل، فقد رفع السيد كويليب القدر الساخن إلى شفتيه، وشرب عمداً كل ما احتوى - ربما كان مقداره نصف لتر - إلى آخر قطرة في جرعة واحدة، على الرغم من أن لحظات لم تمض على رفعه من على النار، وغليانه وصوت أزيزه وفورانه الشديد. بعد أن ابتلع هذا الشراب اللطيف، ولكم بقبضتيه الأُميرال، حث السيد براس على الإكمال.

قال كويليب، بابتسامته المعتادة: «ولكن... اشرب أولاً قطرة لنفسك.. قطرة لطيفة.. جيدة ودافئة، قطرة حارقة».

قال براس: «لا داعي يا سيدي! من الممكن أن أشرب مقدار ملء الفم من الماء يا سيدي.. إذا أمكن يا سيدي..».

صاح القزم: «لا! لا يوجد شيء كهذا هنا.. ماء من أجل المحامين! بل تقصد رصاص مذاب ممزوج بكبريت أو مشروب ساخن لطيف من الزفت والقطران.. هذا ما يناسبهم.. هاه! أليس كذلك يا براس؟ هاه؟».

قال براس وهو يضحك: «ها ها ها! أوه! يا لحسك الساخر المرح يا سيدي! إنه يشبه الدغدغة يا سيدي.. ويضفي متعة كذلك يا سيدي!».

قال القزم، الذي كان يسخن المزيد منه في ذلك الوقت: «خذ اشرب هذا.. تجرعه مرة واحدة، لا تترك أي قطرة، اشربه حتى الثمالة، هيا أحرق حلقك وكن سعيداً!».

تناول سامبسون البائس بعض الرشقات الصغيرة من المشروب، الذي استقطر على الفور على هيئة دموع حارقة، انسالت على وجنتيه

تملاً القدر مرة أخرى، وقد شكلت عينيه، وتحول لونه إلى الأحمر، وأصابته نوبة سعال حادة، سُمع في خضمها يقول بثبات شهيد: «إنه جميل بالفعل!»، وبينما كان في أوج معاناته، استكمل القزم حديثهما.

قال كويليب: «المستأجر.. ها! ماذا عنه؟».

قال براس وسط سعال متقطع: «إنه لا يزال يقيم عند عائلة جارلاند يا سيدي. لم يعد إلى المنزل سوى مرة واحدة، منذ يوم استجواب الجاني. أبلغ السيد ريتشارد أنه لا يستطيع تحمل البقاء في المنزل بعد ما حدث يا سيدي، وأنه يشعر فيه بالبوُس، وأنه بشكل أو بآخر، يعتبر نفسه مسؤولاً أكيداً عن سبب الحادث.. إنه مستأجر ممتاز يا سيدي.. آمل ألا نخسره».

صاح القزم: «يااه! إنك لا تفكر في أي أحد غير نفسك.. لماذا لا تخفض نفقاتك.. توفر.. تدخر.. تقتصد؟ ها!».

رد براس: «يا سيدي! أعتقد أن سارة جديرة بالاقتصاد بناء على أي حال.. إنني أعتمد عليها يا سيد كويليب».

صاح القزم: «رطب طينك، أدمع عينيك، خَضِّلْ وجتتك، هيا! اشرب أيها الرجل! لقد قبلت المحرر طاعة لي! أليس كذلك؟».

رد سامبسون: «بكل سرور يا سيدي.. دائماً ما أكون لك مطيعاً.. نعم يا سيدي، لقد فعلت».

قال القزم: «حسناً عليك الآن أن تقيله.. وكن ممتناً، طريقة فعالة وفورية لتخفيض نفقاتك».

صاح براس: «أقيل السيد ريتشارد؟».

- هل لديك أكثر من محرر أيها البيغاء؛ حتى تسأل هذا السؤال؟

قال براس: «نعم يا سيدي، ولكنني.. لم أضع هذا الأمر في الحسبان، ولست مستعداً لذلك..».

قال القزم ساخراً: «كيف لا تكون مستعداً، في حين أنني كنت؟ كم مرة عليّ أن أخبرك أنني أتيت به إليك؛ كي أبقى عيني عليه دائماً، وأعرف مكانه.. وأن لديّ مخططاً، مؤامرة، جريمة.. نوعاً من المتعة المرهونة، وأن أساسها وجوهرها هو الرجل العجوز وحفيده - اللذان غطسا تحت الأرض تقريباً - بينما هو وصديقه المخلص يصدقان أنهما من الأثرياء، في حين أنهما في الواقع فقيران؟».

قال براس: «لقد فهمت يا سيدي».

قال كويليب مدمدمًا: «حسنًا أيها السيد! وهل تفهم الآن أنهما ليسا فقيرين.. لا يفترض أن يكونا أبدًا، إذا كان لديهم أناس مثل مستأجرك هذا يبحثون عنهما، ويجوبون البلاد أولاً عن آخر ومن شرقها إلى غربها لإيجادهما؟».

قال سامبسون: «طبعًا طبعًا يا سيدي».

رد القزم ممتعضًا، وهو يصرخ بشراسة في قوله: «طبعًا طبعًا يا سيدي! حسنًا! إذن بالتالي تفهم أنه ليس هناك أي منفعة من هذا الرفيق؟ وتفهم بالطبع أيضًا أنه ليس رفيقًا لي أو لك مهما اختلف الغرض.. أليس كذلك؟».

قال براس: «دائمًا ما كنت أقول لسارة: لا منفعة منه في العمل يا سيدي. ولا يمكنها الوثوق فيه على الإطلاق يا سيدي. إذا كنت ستصدقني، لقد وجدت أن هذا الرفيق، في أمور المكتب الشائعة البسيطة، التي أوكلتها إليه، ووثقت به حيالها، كان يُفشيها دون تفكير، على الرغم من التحذيرات الصريحة التي وُجِّهَتْ إليه. إن استحكام هذا الشاب يا سيدي فاق كل الحدود، وتخطاها. لذا فإنني أدين لك بكل الولاء والطاعة يا سيدي...».

من الواضح أن سامبسون كان عازمًا على سرد إطرعات لا نهاية لها، ما لم يحدث ما قطع حديثه في الوقت المناسب، فقد ضربه على رأسه بالقدر الصغير، وقال له إنه يدين بالطاعة والولاء من أجل الحفاظ على حياته فقط.

قال براس، وهو يكد رأسه في موضع الضربة مبتسمًا: «بالفعل يا سيدي بالفعل! ولا تزال روحك مريحة.. تضيي المتعة يا سيدي!».

قال كويليب: «أنصتْ إليَّ جيدًا.. هَلَّا تفعل! أم أضفي عليك متعة مضاعفة من توي! ليس هناك أي فرصة لعودة رفيقه وصديقه. لقد اضطر النذل إلى الرحيل، من أجل مؤامرة ما، ووجد طريقه إلى الخارج. دعه يتعفن هناك».

صاح براس، ملقيًا نظرة على الأميرال مرة أخرى، كما لو أنه الفرد الثالث في جلستهم: «بالتأكيد يا سيدي. إن ما تقوله كله أمر حتمي وفعال تمامًا يا سيدي!».

قال كويليب وهو يركز على أسنانه: «إنني أكرهه.. لطالما كرهته

لأسباب عائلية. فضلاً عن كونه همجياً وحشياً وخسيساً صعب المراس، إلا إذا كانت هناك منفعة من ورائه. إن هذا الصباح جبان طائش، دعه يُشئق أو يُغرق أو يموت جوعاً.. دعه يذهب إلى الجحيم».

رد براس: «بكل امتنان يا سيدي.. متى تفضل يا سيدي أن .. ها ها ها! أن يذهب في هذه النزهة؟».

قال كويليب: «حينما تنتهي المحاكمة.. بمجرد أن تنتهي، لا تتأخر لوهلة في إرساله».

رد براس: «سيتم ذلك يا سيدي وبأي حال من الأحوال. على الرغم من أن حدوث هذا سيكون بمثابة ضربة موجعة لسارة يا سيدي، لكن مشاعرها قيد سيطرتها. آه! يا سيد كويليب، كنت أفكر في كثير من الأحيان يا سيدي، لو أن العناية الإلهية جمعت بينك وبين سارة فيما مضى، يا لها من نتائج مباركة كانت لتحل من مثل هذا الاتحاد! أحسب أنك لم ترَ والدنا يا سيدي. أليس كذلك؟ لقد كان سيداً نبيلًا لطيفًا. إن سارة كانت مصدر فخره وسعادته يا سيدي. كان ليغمض عينيه في سلام مطمئنًا في نعيمه، إذا وجد لها الثعلب العجوز شريكًا مثلك يا سيدي. إنها تروق لك يا سيدي. أليس كذلك؟».

صاح القزم بصوت أجش: «أنا أحبها».

رد براس من فوره: «إنك عظيم جدًا يا سيدي. أنا متأكد تمامًا. هل تأمرني بأي شيء آخر يا سيدي؟ يمكنني معرفته، إلى جانب ما خص السيد ريتشارد؟».

رد القزم، وقد خطف القدر: «لا شيء آخر، دعنا نشرب نخب سارة الجميلة».

اقترح براس في تواضع وقال: «إذا كنت لا تمانع يا سيدي أن نفعل ذلك بشراب لا يغلي، ربما سيكون أفضل. أحسب أنه سيكون مستحسنًا أكثر لمشاعر سارة، عندما تسمع مني شرف ما قدمت لها يا سيدي، إذا علمت أن نخبها كان شرابًا أكثر برودة مما سبقه يا سيدي».

لكن تلك الاحتجاجات، ألقى لها كويليب آذانًا صماء. وفي ذلك الوقت، الذي كان فيه سامبسون براس رزينًا مترنًا، وجد نفسه مضطرًا إلى تجرع المزيد من الوعاء نفسه، وبدلاً من أن يساهم المشروب في انتعاشه، وجد نفسه في خضم تأثير جديد، فدارت الدنيا من حوله، ودار مكتب المحاسبة معها دوراً سريعاً لا يقف، تسبب في انقلاب الأرض والسقف رأساً على عقب، وتداخلهما بشكل مفرع. بعد ذهول قصير، استعاد وعيه، وأدرك أن نصفه كان تحت الطاولة، ونصفه الآخر تحت الموقد.

لم يكن هذا الوضع هو أكثر الأوضاع التي اختارها لنفسه راحة، فقد تمكن من الترنج على قدميه، والإمساك بالأميرال، ينظر حوله؛ يبحث عن مضيفه. كان الانطباع الأول للسيد براس هو أن مضيفه قد رحل وتركه بمفرده.. وربما احتجزه هناك طوال الليلة. لكن رائحة نفاذة من التبغ، جعلت أفكاراً جديدة تخطر على باله، فقد نظر إلى الأعلى، فرأى القزم يدخن مستلقياً في أرجوحته.

صاح براس في وهن: «وداعاً يا سيدي! وداعاً يا سيدي!».

رمقه القزم بناظريه وقال: «ألن تبقى هنا طوال الليلة؟ يمكنك أن تبقى!». «تبقى!».

رد براس، الذي يكاد أن يموت بسبب الغثيان وضيق الغرفة دون أي منفذ تهوية: «لا أستطيع يا سيدي.. إذا تقدم لي معروفًا، ونضيء لي، حتى أتمكن من المضي في طريقي يا سيدي، فسوف أكون ممنونًا لك...».

نهض كويليب في لمح البصر، ليس بساقيه أولاً، أو حتى برأسه، أو بذراعيه، بل نهض بجسده كله مثل كومة واحدة.

حمل الفانوس الذي ينبعث منه الضوء الوحيد في المكان، وقال: «بكل امتنان! كن حذرًا في طريقة سيرك يا صديقي العزيز.. انتبه أين تطأ بقدميك، وانتبه لخطواتك بين الأخشاب؛ لأن أطراف المسامير الصدئة إلى الأعلى. وكن حذرًا، يوجد كلب في الممر، عض رجلًا ليلة أمس، وعض امرأة أول أمس، أما ليلة الثلاثاء الماضي فقد قتل طفلًا من باب المزاح. لا تقترب كثيرًا منه!».

سأل براس مرتعدًا: «يوجد في أي جانب يا سيدي؟».

قال كويليب: «إنه يعيش في الجانب الأيمن، لكنه يختبئ أحيانًا في الجانب الأيسر، ومستعد للانقضاض في أي لحظة، لا يمكن الوثوق به في هذا الصدد. تذكر أن تتخذ حذرك. لن أسامحك أبدًا إذا لم تفعل. حريٌّ أن يكون هناك ضوء في الخارج.. أو لا يهم.. أنت تعرف الطريق على أي حال.. هيا إلى الأمام!».

وقف كويليب، يظلل على الضوء، يحمله مقابل صدره، يضحك
مقهقهًا بينه وبين نفسه، ويهتز من قمة رأسه حتى أخمص قدميه في فرحة
عارمة؛ حينما سمع المحامي يتعثر في الساحة، ومن ثمَّ يسقط بشدة.
على كل حال، بعد مضي فترة من الوقت، تلاشى صوت تعثره وسقوطه،
ورحل عن المكان.

صعد القزم مرة أخرى، واستلقى ثانيةً في أرجوحته.



الفصل الثالث والستون

تبين أن السيد المهني الذي أحاط كيت علماً بمعلومات تعزيزية تعلق بإحالة قضيته إلى محكمة «أولد بيلي»، وأنه سيتم النظر فيها في القريب العاجل، محق تماماً في كافة توقعاته. ففي غضون ثمانية أيام، بدأت الجلسات. وبعد انقضاء يوم واحد منها، أقرت هيئة المحلفين المكلفة بالتحقيق باعتماد بيان الاتهام على أنه لائحة وجيهة مقدمة ضد كريستوفر نابلز تفيد بثبوت جنايته، وفي غضون يومين من نتائج التحقيقات، تمت دعوة كريستوفر نابلز المذكور آنفاً إلى أن يقر بما إذا كان مذنباً أم غير مذنب، وفقاً لما أفادت به لائحة الاتهام، فإن كريستوفر المذكور قد ارتكب جريمته مع سبق الإصرار، وأنه سرق من مكتب ومنزل السيد سامبسون براس، ورقة مالية واحدة بقيمة خمسة جنيهات لا غير، صادرة عن عمدة بنك إنجلترا، في مخالفة متعمدة منه للنظام التشريعي للبلاد، وضد سلام سيادة الملك وتاجه وجلالته.

في مطالعة عريضة الاتهام، دافع المدعي كريستوفر نابلز عن نفسه حيال التهمة المسندة إليه، بصوت منخفض مرتجف، وأقر بأنه غير

مذنب.. دع أولئك الذين اعتادوا على إصدار أحكام متسرعة اعتمادًا على المظاهر، معتقدين أنه إذا كان كريستوفر غير مذنب، كان ليقف شامخًا يتحدث بصوت جهوري ويتكلم بقوة، أن يأخذوا بعين الاعتبار أن الحبس والاضطراب يُخضعان حتى أشد القلوب صرامة، وإن كان حبيسًا لفترة قصيرة، وأن الانتقال من بعد عشرة أيام أو أحد عشر يومًا فقط لا يرى فيها سوى جدران حجرية من كل اتجاه، ووجوه قليلة قاسية خالية من كل تعبير، إلى قاعة كبيرة تعج بالأشخاص وتذب فيها الحياة، أمر مقلق ومفزع. وحرى أن يُقال هنا إن العيش تحت غطاء شعر مستعار لفئة كبيرة من الناس أكثر ترويعًا وإثارة من العيش بشعر رأسهم الحقيقي.. وبالإضافة إلى هذه الاعتبارات، يجب أن يراعوا العاطفة المتأججة في صدر كيت عند رؤيته للسيد جارلاند وكتب العدل، وهم ينظرون إليه بوجوه شاحبة عليها سيماء الاضطراب والقلق.. حينها ربما يبدو سوء مزاجه، وعدم قدرته على التعامل كما لو كان في بيته أمرًا غير عجيب.

على الرغم من أنه لم يرَ السيدين جارلاند والسيد ويزردن منذ وقت إلقاء القبض عليه، تفهم فور رؤيتهم أنهم قد وكلوا له محاميًا للمرافعة عنه. لذلك عندما قام أحد السادة من واضعي الشعر المستعار وقال: «أنا حاضر عن المتهم يا سيدي». انحنى له كيت. وعندما قام آخر من واضعي الشعر المستعار ذاته وقال: «أنا حاضر ضد المتهم يا سيدي». ارتعد كيت كثيرًا، لكنه قدم انحناءة أيضًا. ولم يكن يأمل من كل قلبه أن يكون الرجل الحاضر عنه نظير الرجل الآخر، حتى لا يخجل من نفسه في أي وقت!

كان السيد الحاضر ضده مرتفع المعنويات متحمسًا بشكل مخيف -فقد برأ على نحو وثيق في محاكمة قضيته الأخيرة شابًا من حادث قتله لوالده- وقد أسند الحديث إليه أولاً، لذا قام، وتحدث، وقال لهيئة المحلفين -بثقة غير مزعومة- أنهم إذا حكموا ببراءة هذا المتهم المائل أمامهم، عليهم أن يتوقعوا معاناة وآلامًا، لا تقل عن تلك التي قالها لهيئة المحلفين الأخرى، وأخبرهم أنهم سيخضعون لها بكل تأكيد، إذا أدانوا ذلك السجين. وبعد أن طرح عليهم حيثيات القضية، وأنه لم يجد قضية أكثر بشاعة من تلك، توقف لوهلة، كرّج لديه أقوال رهيبية ليدلي بها، وبعدها قال إنه سيكون متفهمًا تمامًا أن صديقه -وهنا نظر إلى المحامي الحاضر عن كيت بجانب عينيه- سوف يشكك في ذمة الشهود الموقرين، الذين سوف يُستدعون للمثول أمام شخصهم الكريم، لكنه يأمل ويثق في أن صديقه سيقدم احترامًا وتوقيرًا أكثر لشخص المدعي العام المبجل، الذي يعرف حق المعرفة، أنه لم يوجد ولن يوجد عضو أكثر رفعة ونزاهة في أكثر المهن شرفًا وسموًا منه. ثم سأل هل أعضاء هيئة المحلفين يعرفون بيفيس ماركس؟ وأنهم إذا كانوا يعرفونها -كما لو كان واثقًا من أنهم جميعًا يعرفونها- فهل عرفوا الروابط التاريخية الرفيعة المرتبطة بتلك البقعة المميزة؟ هل يصدقون أن رجلًا نبيلًا مثل براس يقيم في مكان مثل بيفيس ماركس ولا يكون شخصية فاضلة شريفة مستقيمة؟ وبعد أن استرسل وقال لهم الكثير فيما يخص تلك النقطة، تذكر أنه قد تكون إهانة لهيئتهم حيال إبداء أي ملاحظات حول رؤيتهم الذاتية، وبالتالي استدعى سامبسون براس من فوره ليمثل في منصة الشهود مباشرة.

وبالتالي حضر السيد براس، كان نشيطاً مفعماً بالحيوية، انحنى أمام القاضي، كرجل كان من دواعي سروره أن يراه مرة أخرى، ويأمل أن يكون بحال جيد منذ لقائهما الأخير، طوى ذراعيه، ثم نظر إلى رجليه بطريقة تبين أنه يقول له: «ها أنا هنا.. مليء بالأدلة.. افتح لي الباب!». وبالفعل فتح له الباب على مصراعيه في التو واللحظة، لكن بتعقل رزين استخلص منه الأدلة شيئاً فشيئاً، ومهداها بطريقة واضحة سلسلة لفهم الحاضرين، وجعلها لامعة مشرقة أمام أعين هيئة المحلفين. بعد ذلك، استلم المحامي الحاضر عن كيت استجوابه، لكنه لم يستطع أن يصل إلى أي معلومة منه، وبعد العديد من الأسئلة الطويلة جداً التفصيلية، والأجوبة القصيرة جداً المختصرة، نزل السيد سامبسون عن منصة الشهود في مَجْدٍ واعتزاز.

جاءت من بعده سارة، التي مثلت في نفس سلوك السيد براس، فقد كانت سلسلة لينة مع الحاضر ضد كيت، وصعبة المراس متعنتة مع الحاضر مع كيت. باختصار، لم يستطع محامي كيت أن يستخلص منها أي معلومة، سوى تكرار ما قالته من قبل -بصورة حادة جهورية هذه المرة ضد موكله- وبالتالي سمح لها بالرحيل، فنزلت عن المنصة في بعض الارتباك. بعد ذلك، استدعى محامي السيد براس ريتشارد سوفييلر، وقد ظهر ريتشارد سوفييلر وفقاً لذلك.

الآن، هُمس في أذن الحاضر مع السيد براس أن هذا الشاهد يميل إلى صف السجين وودود معه.. وربما يدفعه ذلك إلى قول الحقيقة، حينها انتابته سعادة مباغته لسماعه ذلك؛ فقد تعتبر قوته كامنة في

إلحاحه بإلحاف. لذلك، بدأ استجوابه بسؤال موجه للضابط، إذا كان متأكدًا تمامًا من أن هذا الشاهد قد قبل الكتاب المقدس، ومن ثمَّ شرع فيما يبرع فيه بجهد جهيد.

قال تابع السيد براس لديك، بعد أن سرد قصته بنفور وممانعة بينة، ورغبة في تحقيق أفضل النتائج: «حسنًا يا سيد سوفييلر.. أين تناولت العشاء ليلة أمس يا سيدي؟». - «أين تناولت العشاء؟». - «نعم يا سيدي، أين تناولت العشاء ليلة أمس.. هل كان بالقرب من هنا يا سيدي؟». - «أوه! في الواقع! نعم.. على قارعة الطريق». - كرر التابع للسيد براس، رامقًا بنظره جميع الحضور: «في الواقع.. نعم.. على قارعة الطريق..»، «حسنًا! بمفردك يا سيدي؟». - قال السيد سوفييلر غير مستوعب سؤاله: «معذرة يا سيدي!». - كرر التابع للسيد براس سؤاله بصوت مدو كالرعد: «هل تناولت العشاء بمفردك؟ هل تعاملت مع أي أحد يا سيدي؟ هيا!». - رد السيد سوفييلر بابتسامة: «أوه! في الواقع! نعم.. لقد فعلت». - قال التابع للسيد براس: «هل تفعل خيرًا وتؤجل ابتساماتك وتنحي الحس الفكاهي جانبًا يا سيدي..». ثم استأنف قوله وهو يومئ برأسه، قاصدًا التلميح إلى أن قصص الاتهام هو المكان الشرعي لأفعال السيد سوفييلر: «..لأن المكان الذي تقف فيه لا يتوافق مع أفعالك.. وربما عليك أن تكون ممتنًا أنك تقف في هذا المكان فقط.. وانتبه لي. لقد كنت تنتظر هنا بالأمس، على افتراض أن هذه الجلسة قيد الانعقاد. تناولت العشاء في مكان ما على قارعة الطريق. تعاملت مع شخص ما. والآن! قل لي هل كان ذلك الشخص المعني شقيق السجين

المائل وراء القضبان؟». - حاول السيد سوفييلر أن يشرح الموقف -
صاح التابع للسيد براس: «نعم أم لا أيها السيد المحترم؟»:- «هل تسمح
لي أن أق...». :- «نعم أم لا أيها السيد؟». :- «نعم، لكن...». - صاح
التابع مقاطعاً الآخر، وأجبره على عدم الإكمال: «نعم.. كم أنت شاهد
حسن جداً يا سيدي!».

جلس السيد الحاضر مع السيد براس. أما الحاضر عن كيت،
فداهمه الخوف، يخشى متابعة الموضوع، وبات لا يعرف حقيقة الأمر،
بينما رجع ريتشارد سوفييلر إلى مكانه محرّجاً. وقد لاحظ القاضي
وهيئة المحلفين وجميع الحضور رفيقه المتكاسل، المتراخي، رث
المظهر، أشعث الشعر، ذا الست أقدام طويلاً. في الواقع، كان هذا
جايكوب الصغير، جالساً وربلة ساقه مكشوفتان في الهواء الطلق،
وباقى جسده مغطى بشال. لا أحد يعرف الحقيقة، والجميع يصدقون
الباطل؛ ويُنسب كل ذلك إلى براعة التابع للسيد براس.

حان وقت مثول شهود السلوك أمام الهيئة، وحينئذ تألق المحامي
التابع للسيد براس مرة أخرى. اتضح أن السيد جارلاند ليست لديه أي
تحفظات على سلوك كيت، ولا أي توصيات سوى من والدته، مع العلم
أن سيده السابق قد فصله فجأة لأسباب غير معروفة. قال المحامي التابع
للسيد براس: «في الواقع يا سيد جارلاند، بالنسبة لشخص يناهز عمره،
فأنت على أقل تقدير غير حكيم بشكل جلي، حسب ما أعتقد».. صدقت
هيئة المحلفين على قوله، وشهدوا جميعاً على أن كيت مذنب. نزل
السيد عن المنصة، محتجاً معرباً في تواضع عن براءته. التزم الحضور

أماكنهم بعد حالة من الهرج في اهتمام متجدد؛ حيث ستمثل العديد من الشاهدات اللواتي سوف يُستجوبن بعد ذلك، وحينها تردد أن المحامي التابع للسيد براس قرر أن يسخر منهم حين استجوابهن.

في ذلك الوقت، كانت والدة كيت، السيدة المسكينة، تنتظر عند الحاجز الحديدي أسفل الدرج، ومعها والدة باربرا -السيدة سليمة القلب، ذات النفس الصادقة، التي لم تفعل شيئاً سوى البكاء وحمل الرضيع- ومن ثمّ ترتب لقاءً حزيناً. أخبرهم السجان قارئ الجريدة أنه لا يعتقد أن الحكم سيكون الترحيل القسري^(٢٠)؛ فلا يزال لديهم وقت لإثبات حسن سلوكه، وأنه متأكد أن ذلك سوف يفيد في سير المحاكمة. وتساءل مستنكراً لماذا ارتكب تلك الجريمة! صاحت والدة كيت وقالت: «لم يفعل ذلك قط!». قال السجان: «حسنًا! أنا لن أعارضك. إن الأمر سيان الآن سواء ارتكب جريمته حقاً أم لم يفعل!». .

استطاعت والدة كيت أن تصل إلى يده من وراء القضبان، وتحتضنها بين راحتي كفيها.. فمَن وهبهم الخالق مثل هذا الحنان، هم فقط مَن يشعرون بهذا العذاب الأليم. طمأنها كيت، وحثها على استجماع رباطة جأشها، وطلب منها رفع الطفلين له لتقبيلهما، ومن ثمّ همس لوالدة باربرا يرجو منها أن تأخذ أمه إلى المنزل.

(٢٠) عقوبة بديلة للشنق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بريطانيا، ينقل المجرمون المدانون إلى مستعمرات لقضاء عقوباتهم في السجن، وبعد انقضاء مدة عقوبتهم -إن لم تكن للأبد- يسمح لهم بالعودة إلى البلاد، ولكن على نفقتهم الخاصة.

صاح كيت: «أنا متأكد يا أمي أن لنا أصدقاء سيقدمون لنا يد العون، وستظهر براءتي يا أمي، وسأخرج من هنا يا أمي، أنا واثق من ذلك. يجب أن تعلمي جايكوب الصغير والرضيع حينما يكبران بما فيه الكفاية كي يستوعبا جيداً، إذا ظناً أنني كنت غير أمين في أي وقت مضى، فإن هذا سوف يفطر قلبي، ولو كنت على بعد آلاف الأميال. - أوه! أمي! ألا يوجد سيد نبيل هنا، يرأف لحالها ويساعدها!».«

انسلت يداها من بين يديه، وخارت قوى المخلوقة المسكينة، وسقطت على الأرض دون حركة، فاقدة للوعي. أتى ريتشارد سوفييلر مهرولاً، يدفع بمرفقيه المتفرجين بعيداً عن طريقه، حملها - بعد بعض العراقل - على كتف واحدة على نهج الخاطف المسرحي، أوماً إلى كيت، ثم أمر والده باربرا أن تتبعه، فقد أوقف عربة في الخارج بالانتظار، ورحل من فوره.

حسناً! أوصلها ريتشارد إلى منزلها، ويا له من هزل مذهل لقاها طوال الطريق، كان عبارة عن اقتباسات من أغنية وقصيدة شعرية، لم يسمع بهما أي شخص من قبل. على كل حال، أخذها إلى البيت، ومكث معها حتى استعادت وعيها، ولأنه لم تكن لديه أي نقود لدفع أجرة العربة، عاد إلى بيفيس ماركس، ومن ثمّ استسمح الحوذي - لأنها كانت ليلة السبت - أن ينتظره أمام الباب، بينما يأتي له بفكة.

قال براس بمرح: «السيد ريتشارد.. مساء الخير يا سيدي».

في تلك الليلة، ظهرت الوحشية المجسدة في قصة كيت لأول مرة على مرأى ومسمع منه، داهمه الشك ورأى أن صاحب عمله اللطيف

لديه جوانب أخرى قد تأصل بها الشر. على الرغم من اعتقاده أن المعاناة التي شهدناها مؤخراً، هي ما حفزت طبيعته اللامبالية، لكن الأمر إذا كان كذلك فعلاً، فقد تم التأثير عليه بشكل قوي، فقد أوجز ما أراد قوله كله في أقل عدد ممكن من الكلمات.

صاح براس وهو يخرج حقيته: «نقود؟ ها ها! بالتأكيد يا سيد ريتشارد بالتأكيد يا سيدي. يجب أن يعيش كل الرجال. ليس لديك فكرة خمسة جنيهات يا سيدي؟ أليس كذلك؟».

رد ديك بإيجاز: «لا!».

قال براس: «أوه! تفضل إذن المبلغ كاملاً. هذا سيوفر عليك الكثير. إنك على الرحب والسعة يا سيد ريتشارد.. يا سيد ريتشارد..».

التفت ديك، الذي كان قد وصل إلى الباب في ذلك الوقت.

قال براس: «لا تكلف نفسك مشقة العودة مجدداً يا سيدي».

– ماذا؟

قال براس، وهو يضع يديه في جيبه، ويهز نفسه إلى الأمام والخلف على مقعده: «اسمعي يا سيد ريتشارد.. الحقيقة يا سيد ريتشارد هي أن رجلاً مثلك، له مثل قدراتك يُعتبر مدفوناً بالحياة في مهنتنا القاسية الجافة. إنه كدح رهيب.. أمر صادم. أود أن أقول إن الوقت قد حان.. يجب عليّ أن أقول إن المسرح أو.. الجيش أو مكاناً مرموقاً له تراخيص قانونية بالطبع.. هي الأماكن التي تستحق عبقرية رجل مثلك. سأكون ممتناً حقاً إذا أتيت بين الحين والآخر لزيارتنا. إن سالي ستسعد كثيراً

يا سيدي، أنا متأكد. يؤسفها جدًا خسارتك يا سيد ريتشارد، لكن إحساسها بواجبها تجاه المجتمع يواسيها.. يا لها من سيدة رائعة يا سيدي! ستجد أجرك مضبوطًا بالتمام والكمال، حسب ما أعتقد. هناك نافذة مكسورة يا سيدي، لكنني لم أخصم أي بنس في المقابل. عندما نفترق عن الأصدقاء، دعونا نفترق بجود وإحسان. يا لها من وجهة نظر سديدة يُحتذى بها يا سيدي!».

لم ينطق السيد سوفييلر بأي كلمة، ردًا على كل الملاحظات الخرفة تلك، لم يفعل سوى أن اتجه نحو سترته، وطواها على هيئة كرة، وهو شاخص البصر إلى براس طوال الوقت، كما لو كان قد عقد النية على أن يقذفه بها. لكنه على كل حال، تأبطها، وخرج من المكتب ملتزمًا الصمت. حينما أغلق الباب، أعاد فتحه مرة أخرى؛ وحدث في كل ركن في الداخل لبضع لحظات بنفس الجدية، ثم أومأ برأسه مرة واحدة، وببطء وبخفة الطيف، اختفى.

دفع للحوذي أجرته، وولى ظهره إلى بيفيس ماركس، عازمًا على مساعدة والدته كيت، وتقديم يد العون إلى كيت نفسه.

لكن حياة السادة التي يكتنفها السرور، كحياة ريتشارد سوفييلر، دائمًا ما تكون هشة متزعزعة. فما تعرض له من انفعالات نفسية على مدار أسبوعين كاملين، أثر في نفس لم تتأثر بمعاقرة الخمر لسنوات ولو بدرجة طفيفة، وعرضه لما لم يستطع تحمله. في تلك الليلة، أصيب ريتشارد بمرض كان نذيرًا بالخطر، وعلى مدار الأربع وعشرين ساعة كلها كان طريح الفراش مكروبًا بحمى راعدة.

الفصل الرابع والستون

يتقلب دون أي لحظة من ارتياح على سريره الساخن غير المريح، يعذبه الظمأ الشديد، ولا يمكن لشيء أن يرويه، لا يجد أي لحظة سلام أو استرخاء مهما غيّر من أوضاع استلقائه، يرتجف من هذيان أفكاره، ويرتعد من حمى جسده، ولا يجد أي مكان للراحة سواء كان في الواقع أو في مخيلاته، فلا تملأ أصوات ولا تلوح له رؤى تضيء عليه قبساً من طمأنينة أو سكينه، لا يحيط به سوى سأم أبدي كئيب في مشهد لا يتغير فيه شيء سوى تقلبات عاجزة لجسده الكليل، محتجراً داخل اضطرابات أفكار مضنية، يساوره شعور دائم وقلق ثابت، يدب في نفسه إحساس بأن هناك أمراً غير مكتمل، يخص مصاعب مخيفة، يجب التغلب عليها، وتعهداً برعاية لا يجب طمته، استحوذ على عقله العاجز بالكلية، يرزحه الآن تحت وطأة إعياء المصاعب، وبعدها يرزحه تحت وطأة هزال التعهد، لكن طيفه ثابت مهما اختلفت مظاهر تجسده، يهيم ظلاماً على كل الرؤى كطوية شريرة، ويجعل الهجوع مروءاً - ففي غمرة تداعيات مرضه المهلك الرتيبة، رقد ريتشارد البائس واهناً خائر

القوى، حتى قرر أن يصارع ويحارب آلامه، وينهض من فراشه، ويهزم شرور نفسه، حينها رقد في نوم عميق، ولم يحلم بعد.

استيقظ مشمولاً براحة قصوى، كانت أفضل من النوم نفسه، مع الوقت، بدأ يتذكر بعضاً مما عاناه، مدرّكاً كم كانت ليلة طويلة، وما إذا كان قد تمكن الهذيان منه مرتين أو ثلاث مرات. يحدث أنه في خضم أفكاره وتدبراته، أن يرفع يده، ويندهش من مدى ثقلها، ثم يندهش من مدى نحافتها وخفتها. ومع ذلك شعر بلا مبالاة وسعادة، ولا وجود لأي لمحة من فضول لاستكمال فعله، بقى في نفس ثبات جسده هائماً في أول لحظات استيقاظه، حتى جذب انتباهه صوت سعال. ساوره الشك من فوره ما إذا كان قد أغلق الباب في ليلته الماضية أم لا، ومن ثمّ تمكنت منه الدهشة حينما استوعب وجود أحد معه في الغرفة. ومع ذلك، كان مفتقراً إلى الطاقة لمتابعة سير أفكاره أو تذكره، ودون وعي استسلم لترف استرخاء، تحديقه في شرائط خضراء مسدلة على قائمة السرير، ومربوطة بطريقة غريبة برقع مكسية بعشب نضر، توسطته أرض صفراء، كانت ممشى للسابلة مغطى بالحصى، يمر بين البساتين في منظر خلّاب على مرمى البصر.

بينما كان هائماً في الخيال، شاردًا على حافة الممرات، تائهاً بينها عن ذاته، انتشله سماعه لسعال مرة أخرى. فتقلصت المروج الخضراء، وصارت الشرائط المسدلة على سريره ثانيةً، رفع نفسه قليلاً في السرير، وفتح الستار بيد واحدة، ونظر.

كانت الغرفة نفسها بكل تأكيد، ولا يزال ضوء الشموع ينيها، لكن

دهشة لا حدود لها انتابته عندما رأى ذلك الكم من القناني والأطباق والملابس الكتانية إلى جانب النيران، وجميع أثاث الغرفة الوخيمة، نظيفاً ومنظماً، كان كل شيء مختلف تماماً عما كان حينما أوى إلى الفراش! فضلاً عن الجو، الذي فاحت فيه رائحة أعشاب عطرية وخل، والأرض التي نُدِيت بالماء حديثاً و.. الـ.. الـ.. ماذا! الماركيزة؟

نعم هي- تلعب كريبج مع نفسها. تجلس على الطاولة، منكبة على لعبتها، تسعل بين الحين والآخر، وتكتم سعالها؛ تخشى إزعاجه- تخلط أوراق اللعب، تفصلها، توزعها، تضع رهاناً، تلعب، تعد، تنتقل للمرحلة التالية- تتعاشش مع أجواء اللعبة، وتمر بجميع أحجيات كريبج، كما لو كانت تحظى بممارسة كاملة للعبة منذ مهدها! تأمل السيد سوفييلر ما أحاط به لفترة وجيزة، ثم أسدل الستارة مرة أخرى، ليعود إلى وضعه السابق، ويضع رأسه على الوسادة مرة أخرى.

خاطب ريتشارد نفسه: «حسنًا حسنًا! أنا أحلم.. إن هذا بين جلي. عندما أويت إلى الفراش، لم تكن يدي مصنوعة من قشر البيض، والآن باستطاعتي أن أرى من خلالها.. إذا لم يكن ذلك حلمًا، فربما استيقظت مثلاً عن طريق الخطأ في ليلة عربية وليست ليلة إنجليزية. أنا وبلا شك ما زلت نائمًا.. أنا واثق تمام الثقة، الثقة كاملة، وليس جزءاً منها».

ها هي الخادمة الصغيرة تسعل مجدداً.

خاطب السيد سوفييلر نفسه: «عظيم عظيم! حلم مميز فعلاً! لم أحلم من قبل بسعال واقعي كهذا. لا أعرف في الواقع، إذا كنت قد حلمت بسعال أو بعطس من قبل في سائر أحلامي. ربما يكون هذا

مبنياً على فلسفة الأحلام، التي لا يفهمها المرء بتأناً. ها هو سعال آخر..
وآخر.. وآخر! عظيم عظيم! إنني أحلم بسرعة!».

بعد القليل من شرود التفكير، ومن أجل اختبار حالته الحقيقية،
قرص السيد سوفييلر ذراعه.

قال: «غريبٌ فأكثر غرابة! لقد جئت إلى هذا السرير لحيماً أكثر من
ذلك، والآن لا يوجد أي شيء يمكنني إمساكه.. حسناً! سألقي نظرة أخرى».
جاءت نتيجة الاستطلاع الإضافي حاسمة، لإقناع السيد سوفييلر
أن جميع الأشياء المحيطة به واقعية حقيقية، وأنه رآها دون شك بعينين
مستيقظتين.

قال ريتشارد: «إنها ليلة عربية.. لا محال ولا جدال.. ربما أنا
في دمشق الآن أو في القاهرة الكبرى. والماركيزة جنية، ولديها رهان
مع جني آخر على مَنْ هو أكثر الشباب وسامة والأكثر جدارة ليكون
زوجاً للأميرة الصين، لذا أحضراني إلى هنا، وأحضرا جميع مقتنيات
الغرفة، بل أحضرا الغرفة كلها وكل شيء هنا، لنناقش الأمر معاً، ربما
الأميرة..». استدار السيد سوفييلر في وهن، لينظر إلى الجانب الآخر
من سريره المجاور للحائط، وقال ورأسه مستكين على وسادته: «ربما
الأميرة لا تزال هـ... لا! لقد رحلت».

لم يشعر بالرضى التام عن هذا التفسير، على الرغم من اعتباره
التفسير الصحيح لما يمر به، فلا يزال ينطوي عليه بعض الشك
والغموض، رفع السيد سوفييلر الستارة مرة أخرى، عازماً على اغتنام

أول فرصة مواتية لمخاطبة مَنْ رافقه. وقد هيأت المناسبة نفسها. رفعت الماركيزة الولد في أوراق اللعب وهي توزع، وتجاهلت أن تستغل الميزة المعتادة للورقة، فصاح السيد سوفييلر عاليًا بقدر ما استطاع: «نقطتان لكعبيه!»^(٢١).

قفزت الماركيزة بسرعة من مكانها، وصفت يديها، فخاطب السيد سوفييلر نفسه على الفور: «لقد أصبتُ.. إنها ليلة عربية؛ إنهم دائمًا يصفقون عوضًا عن دق الجرس. الآن سيحضر ألفان من العبيد، يحملون على رؤوسهم جرائًا من الجواهر!».

من الواضح، أن تصفيق الماركيزة بيديها، كان تعبيرًا عن الفرح. لأنها بعد ذلك غالت في الضحك بقهقهات عالية، ثم انهمرت دموعها، معلنة دون اختيار اللغة العربية بل باللغة الإنجليزية المألوفة، أنها سعيدة للغاية، لأنها لم تكن تعرف ماذا عليها أن تفعل.

قال السيد سوفييلر مفكرًا: «يا ماركيزة! سيكون من دواعي سروري إذا اقتربت.. بادئ ذي بدء.. هل تقدمي لي معروفًا وتفعلي خيرًا وتقولي لي أولًا أين يمكنني إيجاد صوتي - وثانيًا ماذا حدث بلحم جسدي؟».

هزت الماركيزة رأسها في حزن، وانهمرت دموعها مجددًا، عندئذ شعر السيد سوفييلر - كان ضعيفًا جدًا - بأن عينيه تأثرتا ببكائها، وصارتا تفعلان بالمثل.

(٢١) في لعبة الكريج يقطع لاعب غير الموزع مجموعة الأوراق لتحديد الورقة العليا ثم يقلها الموزع إذا كانت ورقة القطع ولد يحصل الموزع على نقطتين فورًا.

قال ريتشارد بعد لحظة صمت طالت بينهما، وهو يتسم بشفة مرتجفة: «لقد بدأت أستوعب يا ماركيزة، بناءً على رد فعلك ومن طريقتك وهذه المظاهر.. لقد كنت مريضاً».

ردت الخادمة الصغيرة، وهي تكفكف دموعها: «مريضاً! مريضاً فقط! ألم تكن تهذي!».

قال ديك: «أوه! هل فعلت؟ إذن كنت مريضاً جداً يا ماركيزة؟».

ردت الخادمة الصغيرة: «ميتاً! قل كنت ميتاً.. لم أظن أبداً أنك ستتحسن. الشكر والحمد للرب أنك كنت!».

لبث السيد سوفييلر في صمته طويلاً، شيئاً فشيئاً بدأ الحديث مرة أخرى، واستفسر منها عن المدة التي قضاها طريح الفراش.

ردت الخادمة: «غداً ستبلغ المدة ثلاثة أسابيع».

قال ديك: «ماذا! ثلاثة ماذا؟».

ردت الماركيزة بشكل قطعي: «أسابيع.. ثلاثة أسابيع طويلة ومضنية وبطيئة».

تسببت الفكرة المجردة للمكوث طوال ذلك الوقت، في انغماس ريتشارد في صمت مطبق آخر، واستلقائه مسطحاً مرة أخرى، بطوله الكامل. بعد أن رتبت الماركيزة أغطية السرير بشكل مريح، وجست جبهته ويده ووجدتهما باردتين - وهو الاكتشاف الذي غمرها بالسعادة - بكت ثانية، ثم قامت لتحضير الشاي، وتحميم بعض الخبز.

بينما كانت منهمكة في تحضيراتها، نظر إليها السيد سوفييلر بقلب

ممتن، مندهشًا ومنبهراً تمامًا بما فعلته في المنزل، ناسبًا الفضل الأول في إتمام ذلك إلى سالي براس، التي -في رأيه- لن يوفي أو يكفي أي شكر أو امتنان حقها. حينما انتهت الماركييزة من إعداد الشاي والخبز، بسطت قطعة قماش نظيفة على صينية، وأحضرت عليها الخبز المحمص وإناء من الشاي الخفيف. أسندته بالوسائد بمهارة، وفي حنان بالغ، كما لو كانت ممرضة محترفة طوال حياتها، وظلت تنظر إليه نظرات رضى، بينما كان المريض يتناول وجبته، ويتوقف من وقت لآخر ليصافح يدها، ثم يعود إلى تناول وجبته الزهيدة بشهية وتلذذ، لا يمكن لأطياب الطعام وأحسنه في ظروف أخرى أن تسببها. بعد أن أنهى وانتهى من كل شيء، وعاد الشعور بالراحة يتسلل إلى جسده مرة أخرى، جلست على الطاولة لتشرب الشاي الخاص بها.

قال السيد سوفييلر: «قولي لي يا ماركييزة - كيف حال سالي؟».
لوت الخادمة قسمات وجهها في أشد التعبيرات تكتماً ودهاءً، ثم هزت رأسها.

قال ديك: «ماذا! ألم تريها مؤخرًا؟».
صاحت الخادمة الصغيرة: «أراها؟ فلتحفظنا يا رب! لقد هربت!».
استلقى السيد سوفييلر مسطحًا بطوله الكامل مرة أخرى، لا يحرك طرفًا قرابة الخمس دقائق، وبحركات بطيئة جدًا استغرقت وقتًا طويلًا استعداد وضعية جلوسه، وقال مستفسرًا:

«وعلى هذا الحال، أين تعيشين يا ماركييزة؟».

صاحته الخادمة الصغيرة: «أعيش! هنا بالطبع!».

وبهذا استلقى مسطحًا بطول جسده مرةً أخرى، فجأةً كما لو كان قد أطلق الرصاص عليه. فبقي بلا حراك، خاليًا من أي تعبيرات، صامتًا عن أي كلام، حتى أنهت وجبتها، ووضعت كل شيء في مكانه، وأزاحت الرماد عن الموقد، فأومأ إليها بإحضار كرسي إلى جانب السرير، وبعد أن أسندته ثانية ليجلس، استكملا حديثهما.

قال ديك: «إذن - لقد هربت؟».

قالت الماركية: «نعم.. لقد لعنوا عني».

قال ديك: «لقد.. أستمحيك عذرًا - لقد فعلوا ماذا؟».

ردت الماركية: «لقد لعنوا عني.. لعنوا كما تعرف.. لقد لعنوا عني في الصحف».

قال ديك: «آه! نعم نعم! أعلنوا عنك؟».

أومأت الخادمة الصغيرة، وغمزت. كانت عيناها حمراوين للغاية من طول فترات الاستيقاظ والبكاء الكثير، لدرجة أن ديك شعر أن عروس الشعر وإلهة الإهام الشعر التراجيدي قد تغمز باتساق وانسجام أكثر من ذلك.

قال: «قولي لي كيف خطر على بالك المجيء إلى هنا؟».

ردت الماركية: «كما تعرف - عندما رحلت، لم يعد لدي أي صديق؛ لأن المستأجر لم يعد إلى هناك أبدًا بعد ما حدث، ولم أعد أعرف أين يمكنني إيجاد أي منكما كما تعرف. لكن ذات صباح، عندما كنت..».

قال ديك مقترحًا، عندما لاحظ أنها تلعثت قليلًا: «قريبة.. قريبة من ثقب المفتاح؟».

قالت الخادمة الصغيرة بعد أن أومأت برأسها: «بالضبط.. عندما كنت قريبة من ثقب مفتاح باب المكتب -أنت تعرف.. كما رأيته من قبل- سمعت سيدة ما تقول إنها تعيش هنا، وإنها السيدة التي تؤجر عندها سكنًا، وإنك بحالة يُرثى لها، ولا يأتي أحد ليرعاك. وحينها سمعت السيد براس وهو يقول: «إن هذا ليس من شأني». والسيدة سالي تقول: «إنه شاب مرح، لكن هذا ليس من شأني»، وبذلك غادرت السيدة، وصفعت الباب وراءها، عندما رحلت، يمكنني أن أخبرك أنني هربت تلك الليلة، وأتيت إلى هنا، وقلت لهم إنك أخي، وصدقوني، ومنذ ذاك الحين وأنا هنا».

صاح ديك: «يا إلهي! إن هذه الماركييزة تعرضت إلى الموت المحتوم، وتعرض نفسها إلى مخاطر الهلاك!».

ردت وقالت: «لا لم أفعل! ولا تهتم لحالي. أنا أحب الجلوس هنا، وكثيرًا ما كنت أنام -فليعظم شأنك الرب- على أحد هذه الكراسي. إذا كنت رأيت نفسك وأنت تقفز خارج الغطاء، وسمعت كيف كنت تغني باستمرار وتلقي الخطب، لم تكن ستصدق نفسك.. أنا سعيدة جدًا لأنك في حال أفضل يا سيد ليفيرير».

قال ديك بينما يشغل عقله التفكير: «ليفيرير! أنا ليفيرير! حسنًا لم تخطئ كثيرًا.. أنا أشك أنه لولاك يا ماركييزة لكنت في عداد الموتى، وأن بقائي على قيد الحياة ما كان إلا بفضلك».

وهنا! أمسك السيد سوفييلر يد الخادمة الصغيرة بيده مرة أخرى، كما رأينا من قبل، ولكنه كان أكثر ضعفاً، مضطرباً لا يعرف كيف يعبر عن امتنانه وشكره، حتى صارت عيناه حمراوين مثل عينيها، لكنها سرعان ما غيرت الموضوع، وجعلته يستلقي، وحثته على التزام الصمت.

وقالت له: «لقد قال الطبيب إنه يجب أن تظل ساكناً، ومنع إثارة الصخب أو الضوضاء حولك، لذا خذ الآن قسطاً من الراحة، وسوف نتحدث مرة أخرى فيما بعد. سأجلس هنا بجانبك، كما تعلم، إذا أغلقت عينيك، ربما ستنام. سوف تكون أفضل حالاً، إذا فعلت».

بينما كانت الماركييزة تقول هذه الكلمات، جلبت الطاولة الصغيرة بالقرب من السرير، وسحبت كرسيها إلى الطاولة، وجلست، وشرعت في إعداد بعض المشروبات الباردة، ببراعة مجموعة من الكيميائيين. في الواقع، كان ريتشارد سوفييلر متعباً، حينما أغلق عينيه، نام من فوره، واستيقظ بعد حوالي نصف ساعة، وسأل عن الوقت.

ردت صديقه الصغيرة، وهي تساعد على الجلوس مرة أخرى: «إنها السادسة والنصف».

حرك ريتشارد يده على جبهته، ثم التفت فجأة كما لو أن ما أراد قوله ومض فجأة، وقال: «يا ماركييزة! ماذا حدث بشأن كيت؟».

قالت: «لقد حُكم عليه بالترحيل القسري لسنوات عديدة».

سأل ديك: «هل رُحِّل؟ كيف حال أمه؟ ماذا حدث لها؟».

هزت ممرضته رأسها، وأجابت بأنها لا تعرف أي شيء عنهما، وقالت ببطء شديد: «لكنني إذا اعتقدت أنك ستبقى هادئًا، ولا تعرض نفسك للإصابة بالحمى مرة أخرى، يمكنني أن أخبرك... لكنني لن أفعل الآن».

قال ديك: «لا! أخبريني - هذا سوف يريحني».

ردت الخادمة الصغيرة بنظرة مذعورة: «أوه! هل هذا سيحدث! اسمع! أنا أعرف أفضل منك. انتظر حتى تتحسن، وحينها سأخبرك».

نظر ديك إلى صديقه الصغيرة بجدية شديدة، ولكون عينيه واسعتين وجافتين من المرض، فاقمتا من جدية تعبيره، لدرجة أنها خافت تمامًا، وطلبت منه ألا يفكر في هذا الأمر بعد الآن. لكن حديثها لم يثر في نفسه الفضول فحسب، بل أثار في نفسه قلقًا مروعًا، لذلك حثها على إخباره بأسوأ ما في الأمر مرة واحدة.

قالت الخادمة الصغيرة: «أوه! لا يوجد ما هو أسوأ في الموضوع.. اسمع! ليس في الموضوع ما له علاقة بك».

سأل ديك بأنفاس متقطعة: «هل له أي علاقة ب... بما سمعته من خلال الشقوق أو ثقب المفتاح - ولم تنوي سماعه؟».

ردت الخادمة الصغيرة: «نعم».

تابع ديك من فوره: «في - في بيفيس ماركس؟ دار حديث بين براس وسالي؟».

صاحت الخادمة الصغيرة مرة أخرى: «نعم».

طوح ريتشارد سوفييلر يده الرخوة إلى خارج السرير، وأمسك
رسغها، وجذبها بالقرب منه، وقال لها إما أن تخبره وبكل شيء، وإمّا
لن نُحمد العواقب؛ فلم يعد قادرًا على تحمل إثارة فضوله وزخم
التوقعات التي دارت في رأسه. أما هي، فلاحظت انفعاله المحتد، وأن
تأثير تأجيل إفشاء ما تتكتم عليه أكثر ضررًا من أي تأثير محتمل، إذا
أخبرته، فوعدت بالامتنال، بشرط أن يحافظ المريض على هدوئه،
ويمتنع عن التقلب والتطويح.

قالت الخادمة الصغيرة: «لكنك إذا بدأت في فعل ذلك مرة ثانية،
سوف أتركك، ولن أقول لك حرفًا».

قال ديك: «لا لن تتركيني، حتى تخبريني.. هيا يا ماركيزة.. هيا
يا عزيزتي. تحدثي يا أختي الحبيبة.. تحدثي يا بريتي بولي^(٢٢). هيا
أخبريني متى حدث وأين حدث.. هيا أخبريني التفاصيل.. هيا أتوسل
إليك يا ماركيزة!».

لم تستطع رفيقته مقاومة المناشدات المتقدمة، التي انهال بها
ريتشارد سوفييلر عليها في تضرع كما لو كانت طبائعهما هي الأكثر
مهابة وجدية، فتحدث وقالت هذا:

«قبل أن أهرب.. كنتُ معتادة على النوم في المطبخ، في نفس
المكان الذي لعبنا فيه الورق معًا، كما تعرف. وقد اعتادت الانسة سالي
أن تضع مفتاح باب المطبخ في جيبيها، ولطالما كانت تأتي في الليل؛

(٢٢) أغنية شعبية إنجليزية.

كي تأخذ الشمعة وتشعل النيران. عندما تفعل ذلك، تتركني أنام في الفراش في الظلام، ثم ترحل وتغلق الباب من الخارج، وتضع المفتاح في جيبها مرة ثانية، وتتركني محبوسة حتى تنزل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.. صدقني مبكرًا جدًا جدًا، وتطلق سراحني، وتسمح لي بالخروج. لطالما كنت خائفة أن أظل في هذا الحال؛ لأن النيران إذا اشتعلت في المكان كله، سوف ينسياني، ويهتمان بأمرهما فقط كما تعرف بكل تأكيد. لذلك، كنت كلما أرى مفتاحًا صديًا قديمًا في أي مكان، التقطته في نفس اللحظة، وأجرب ما إذا كان يناسب الباب أم لا، وأخيرًا، وجدت في تراب القبو مفتاحًا يناسبه».

هنا، أحدث السيد سوفييلر حركة عنيفة بساقيه. لكن الخادمة الصغيرة توقفت عن استكمال حديثها في الحال، فهدأ مرة أخرى، واعتذر عن نسيانه اللحظي لوعدهما المبروم، وتوسل إليها للمضي قدمًا.

قالت الخادمة الصغيرة: «لقد تركاني أتضور جوعًا.. لا يمكنك أن تتصور كيف تركاني أتعذب من آلام الجوع! لذلك اعتدت أن أتسلل إلى الخارج في الليل، بعد أن يكونا قد ذهبا إلى فراشهما، وأفتش في الظلام عن بسكويات أو باقي شطيرة تركاها في المكتب، أو حتى قشر البرتقال الذي كانا يضعانه في الماء المثلج، ويصدقان أنه نبيذ. هل تذوقت قبل ذلك قشر البرتقال والماء؟».

رد السيد سوفييلر أنه لم يتذوق أبدًا هذا الخمر القوي، وتوسل إلى صديقه مرة أخرى؛ أن تستأنف سرد أحداث روايتها.

قالت الخادمة الصغيرة: «إذا كنت تدعي، فيمكنني أن أقول لك إنه كان جيدًا، أما إذا لم تكن، فقد بدا بكل تأكيد، كما لو كان يحتاج إلى إضافة بعض التوابل - حسنًا! في بعض الأحيان، كنت أخرج بعد أن يذهب إلى فراشهما، وفي بعض الأحيان الأخرى كنت أخرج قبل ذلك، كما تعلم، وقبل ليلة أو ليلتين، كانت هناك ضجة عالية في المكتب - أقصد قبل ليلة أو ليلتين من أخذ الشاب الصغير - صعدت السلم، وحينها كان السيد براس والآنسة سالي جالسين أمام النيران في المكتب، لكن، صدقني.. إنني أقول لك الحقيقة، لقد اقتربت؛ كي أسمع أي شيء عن مفتاح خزانة الطعام».

رفع السيد سوفييلر ركبتيه اللتين شكلتا مخروطًا كبيرًا أسفل غطاء السرير، واعتلى وجهه تعبير ينم عن الترقب البالغ. لكن الخادمة الصغيرة توقفت عن استكمال ما تروييه، ورفعت إصبعها، فتلاشى الشكل المخروطي بلطف، على الرغم من أن تعبير الترقب لم يختفِ.

قالت الخادمة الصغيرة: «لقد كانا هناك بالقرب من النيران، ويتحدثان بهدوء.. سمعت السيد براس يقول للآنسة سالي: «أكاد أجزم أن هذا الموضوع خطير، وسوف يدفعنا إلى مشاكل لا حصر لها، أنا لا أحبذ القيام به». وتقول له الآنسة سالي - أنت تعرف طريقتها وأسلوبها - : «إنك أكثر الرجال الذين رأيتهم في حياتي جنبًا وضعفًا وعجزًا». وتقول: «حريٌّ بي أن أكون الأخ وأنت الأخت. أليس كويليب؟». هي من تقول: «أليس كويليب هو الداعم الرئيس؟ وألسنا معتادين على إزاحة شخص أو آخر عن مسار عملنا؟». والسيد براس يقول: «لطالما كنا نفعل ذلك

بكل تأكيد». فتقول: «إذن هل سيعني لنا شيئاً إذا أهلكنا أقصد أرحنا هذا المدعو كيت عندما يرغب كويليب في ذلك؟». فيقول السيد براس: «بالطبع لن يعني لنا أي شيء». ثم ضحكا في همس لوقت طويل حيال أن ليس هناك أي خطر وشيك، إذا أتما فعلتهما على نحو دقيق، ثم أخرج السيد براس محفظته وهو يقول: «حسناً! ها هي ورقة كويليب النقدية فئة الخمسة جنيهات. سنعتمد ما خططناه». ويقول أيضاً: «سيأتي كيت صباح الغد، أنا أعرف. عندما يصعد إلى الطابق العلوي، وأنتِ ترحلين، وأنا أنخلص من السيد ريتشارد. سأفرد بكيت، وسأدير معه حواراً، وبطريقتي سأدس له الورقة النقدية في قبعته، إلى جانب ذلك». يقول: «إلى جانب ذلك.. لسنا نحن من سيجدها، بل سيجدها ريتشارد، ويكون هو الشاهد. إذا لم يتسبب ذلك في إبعاد كريستوفر عن طريق كويليب، وإرضاء ضغائنه، فحريٌّ به أن يكون شيطاناً». ضحكت الآنسة سالي، وقالت إن هذه هي الخطة المتفق عليها، ثم بدؤا لي أنهما يتحركان عن مكانهما، وكنت خائفة من الوقوف لوقت أطول، فنزلت السلم بسرعة، إلى هناك مرة أخرى!».

كانت الخادمة الصغيرة قد وصلت تدريجياً إلى درجة الإثارة والدهشة، التي انتابت السيد سوفييلر، وبالتالي لم تتكبد أي جهد لكبح جماحه، عندما نهض من بعد استلقائه فجأة، وجلس على فراشه، وسأل على عجل، ما إذا كانت قد أخبرت أي أحد بهذه القصة.

أجابت الممرضة: «كيف هذا؟ لقد كنت أرتعد خوفاً من مجرد التفكير، وتمنيت كثيراً أن يتم الإفراج عن هذا الشاب، لكنني عندما

سمعتهم يقولون إن الحكم صدر وإنه مذنب في جريمة لم يفعلها، كنت قد رحلت، وكذلك المستأجر.. على الرغم من أنني كنت خائفة من أن أخبره، حتى ولو كان لا يزال هناك. ومنذ ذلك الوقت، هربت وأتيت إلى هنا، كنت فاقداً لكل حواسك، ولا تحرك طرفاً.. فما فائدة أن أخبرك بما عرفته في ذلك الوقت؟».

شد سوفييلر قلنسوته الليلية من فوره، وطوّح بها إلى الجانب الآخر من الغرفة وقال: «إذا كان من الممكن يا ماركيزة أن تقدمي لي معروفاً، أن تذهبي لبضع دقائق؛ وتعرفي أحوال الطقس الليلة؛ لأنني سأخرج». صاحت الممرضة من فورها: «لا يجب أن تخطر فكرة كهذه في بالك حتى».

قال المريض، وهو ينظر حوله في جميع أركان الغرفة: «في الواقع، يجب عليّ أن أفعل.. أين ملابسي؟». ردت الماركيزة: «أوه! أنا سعيدة حقاً - في الواقع، ليس لديك أي منها».

قال سوفييلر، وقد غمره الاستغراب: «معذرة يا سيدتي!». «لقد اضطررت إلى بيعها كلها؛ لأحصل لك على الأشياء التي لزم إحضارها لك.. لكن، لا تحزن، عليك أن تتقبل الأمر»، ثم قالت الماركيزة، بينما استلقى ديك مسطحاً بطوله كاملاً: «أرأيت! إنك ضعيف جداً على أن تقف».

قال ريتشارد في كآبة شديدة: «أخشى حقاً أن تكوني على حق. ماذا

يجب عليّ أن أفعل؟ ما الذي يجب عمله؟».

خطر على باله بشكل تلقائي بعد القليل من التفكير، أن الخطوة الأولى التي يجب عليه اتخاذها ستكون التواصل مع أحد السيدين جارلاند على الفور. فمن المرجح أن السيد هاويل لم يغادر المكتب بعد. وفي أقصر وقت ممكن، كان لدى الخادمة الصغيرة ورقة فيها العنوان، وعلى علم بوصف شفهي للأب والابن؛ حتى تتعرف عليهما دون صعوبة، وملقى عليها تنبيهات خاصة مفادها أن تحذر من السيد تشوكستر؛ بسبب كراهية هذا الرجل الواضحة لكيت. سارعت بالرحيل، مزودة بتلك القوى الضعيفة، مكلفة بإحضار إما السيد جارلاند العجوز وإما السيد هاويل نفسيهما، تمامًا، شحمًا ولحمًا إلى تلك الشقة.

قال ديك، عندما أغلقت الباب ببطء، وأعادت فتحه مرة أخرى، تسترق النظر، كي تتأكد أنه مستريح: «أتظنين أنه لم يبقَ أي شيء، ولو مثلاً صدريّة واحدة! أليس كذلك؟».

- لا، لم يبقَ أي شيء بتاتًا.

قال السيد سوفييلر: «إنه أمر في غاية الإحراج.. ماذا لو نشب حريق! - ولا مظلة حتى! - لا يهم لا يهم! إنكِ فعلتِ الأمر الصائب يا عزيزتي ماركيزة. من دونك، لكنت في عداد الموتى!».



الفصل الخامس والستون

لحسن الحظ أن طبيعة الخادمة الصغيرة حادة وسريعة البديهة، وإلاَّ لم تكن ستُحمد عواقب إرسالها بمفردها، من حي يشكل ظهورها فيه أكبر خطورة عليها، فربما تقع تحت وطأة الاحتجاز المشدد، وتتمكن الآنسة سالي من استعادة سلطتها الكاملة عليها. في الواقع، لم تكن أفكارها في منأى عن المخاطر التي تحف بها، ومع ذلك، غادرت الماركيزة المنزل من فورها، دون توانٍ، واندفعت وسط الظلام في أول طريق لاح أمامها، دون أي إشارة ما إذا كان يصل بها إلى مقصدها أم لا، وبدأت في وضع أول ميلين من القرميد والملاط بينها وبين بيفيس ماركس.

بعد أن أراحته الخطر عن مهمتها، واجتازت تلك العقبة، بدأت في اتخاذ مسارها إلى مكتب كاتب العدل، بعد أن استفسرت بمتنهي الذكاء من بائعات التفاح، وبائعي المحار على قوارع الطرقات، بدلاً من اللجوء إلى المتاجر المضاعة أو الأشخاص جيدي الهيئة؛ حتى لا تُلفت الانتباه إليها، تمكنت بسهولة من معرفة الاتجاه. مثلها مثل الحمام

الزاجل، حينما يُطلق سراحه لأول مرة في مكان غريب، يتحرى الحذر، يحلق بشكل عشوائي لفترة قصيرة، قبل أن يتجه نحو المكان المقصود، لذلك رفرت الماركية حول المكان مرة وأخرى، حتى تأكدت أنها بأمان تام، إلى أن هبطت بسرعة في سلام على المكان المعني، الذي قطعت من أجله تلك المسافة.

لم يكن لديها أي غطاء للرأس -لم يكن لديها سوى قبعة كبيرة، كانت تعتمرها سالي براس أحياناً منذ زمن ولى، من المعروف عنها أن لها ذوقاً خاصاً في القبعات، كان غريباً كما رأيناه- ولم يساعدها الحذاء على السير أكثر مما كان يعيقها، يبطن من سرعتها، فقد كان كبيراً ورثاً، وأحياناً ينخلع من قدميها، ويُطوح من حين لآخر، ويصعب عليها العثور عليه مرة أخرى بين حشود السابلة. في الواقع، واجهت تلك المخلوقة الصغيرة المسكينة العديد من الصعوبات والمتاعب، التي عطلتها عن استكمال دربها، واضطرتها للتوقف أحياناً، كي تتشغل قبعتها أو حذاءها من الطين ومن وجار الكلاب، فضلاً عن مشقة البحث، وما عانته من مضايقات وضغط ودفع وتقاذف من يد إلى أخرى. حينما وصلت إلى الشارع الذي عاش فيه كاتب العدل، كانت منهكة خائرة القوى مرهقة، لدرجة أنها لم تستطع الامتناع عن البكاء.

لكن وصولها إلى هناك في النهاية، كان راحة لها؛ خاصةً عندما لمحت من نافذة المكتب أن النيران لا تزال مشتعلة، فُبعث إليها الأمل، واطمأنت إلى أنها لم تتأخر كثيراً. لذا كففت الماركية دموعها بظهر يديها، وتسلفت في هدوء، واسترقت النظر عبر الباب الزجاجي.

كان السيد تشوكستر يقف خلف الغطاء المسدل على مكتبه، منهمكًا في استعدادات الرحيل، وانتهاء العمل في تلك الليلة، يفرد السوار، يرفع ياقة قميصه، يعدل من وضع عنقه بلطف في لِفَاعِهِ، يهذب شواربه خفية أمام مرآة صغيرة مثلثة الشكل. بينما وقف سيدان آخران أمام رماد النيران، كان من الواضح أن أحدهما هو كاتب العدل، أما الآخر -الذي زرر معطفه وكان على وشك الرحيل في الحال-، فقد كان السيد هابيل جارلانند.

بعد أن أجرت الجاسوسة الصغيرة تلك الاستطلاعات، شاورت نفسها، وقررت الانتظار في الشارع، حتى يخرج السيد هابيل، فلا تدع مجالًا للخوف من اضطراب التحدث أمام السيد تشوكستر، ولتواجه صعوبة أقل في الإفصاح عن رسالتها. مع هذا القرار، انسلت إلى الخارج مرة ثانية، وعبرت الشارع، وجلست على عتبة باب في الجهة المقابلة.

بالكاد اتخذت مكانها، وقد أتى يتراقص في الشارع، يخبُّ بقوائمه في كل مكان، ويطوح رأسه في كل اتجاه، لقد أتى المهر. كان يسحب عربة صغيرة جدًّا، يجلس فيها رجل، لكن لا العربة ولا الرجل بدوا أنهما يعيقا حركته أو يقيداها على أي حال، فقد وقف على قائمته الخلفيتين، يمشي على هذا النحو، ثم يقف، ثم يعاود الخَبَب، أو يمشي على قائمته مجددًا إلى الخلف، ثم يعاود الوقوف على النحو ذاته، أو يخبُّ في اتجاهات جانبية، دون أي التفات أو اعتبار لوجودهما، كما لو أن نزوةً هامت عليه، كما لو كان هو الحيوان الأكثر حرية في الخلق.

عندما وصل أمام باب مكتب كاتب العدل، صاح الرجل في هدوء واحترام: «ووعااا!». كأنه يغامر بالتعبير عن أمنية يرجوها، ويأمل منه معروفًا، متوسلاً إليه ليتوقف عند هذا المكان. توقف المهر للحظة، لكنه، كما لو خطر على باله أن التوقف حينما يُطلب منه، من الممكن أن يكون سابقة خطيرة غير مريحة، فإذ به ينطلق في الحال مرة أخرى، يقع بأقصى سرعة نحو قارعة الطريق، ثم يلتفت، ويعود، ويقف في هدوء تام أمام المكان من تلقاء نفسه.

قال الرجل الذي لم يغامر بالخروج من العربة، مترجلاً على الرصيف، حتى استعاد لونه الطبيعي: «أوه! كم أنت مخلوق لا تقدر بئمن.. كم أتمنى لو كان لديّ مكافأة لك - بالطبع».

قال السيد هابيل، بينما يربط كوفية حول عنقه، وهو ينزل الدرج: «ماذا كان يفعل؟».

رد السائس: «إنه يخلع قلوب الرجال من مكانها فقط.. إنه الوغد الأكثر تعجرفاً.. وعاءاا! أليس كذلك؟».

قال السيد هابيل، بينما يركب العربة ويمسك بلجام المهر: «بالطبع لن يقف إذا داومت على نعته بتلك الألفاظ.. إنه رفيق جيد إذا تعلمت كيف تعامله. إنها المرة الأولى التي يخرج فيها، بعد مضيّ فترة طويلة، منذ أن فقد سائسه القديم، ولم يرص أن يتحرك ولو خطوة مع أي شخص آخر، حتى صباح اليوم. إن الفوانيس بحالة جيدة، أليس كذلك؟ حسناً! هذا عظيم. كن هنا غداً لأخذه، إذا سمحت. ليلة سعيدة!».

وبعد اندفاع متهور لمرة أو مرتين بدافع أهوائه الخاصة، انصاع المهر إزاء رفق السيد هابيل، وركض بلطف.

طوال ذلك الوقت، كان السيد تشوكستر واقفاً عند الباب، فخافت الخادمة الصغيرة من الاقتراب. لم يكن في وسعها أي شيء لتفعله حتى الآن، سوى أنها ركضت بأقصى سرعتها وراء العربة، وهي تنادي على السيد هابيل كي يتوقف. صارت منقطعة الأنفاس، حتى استطاعت التعلق بها، لكنها لم تتمكن من جعله يسمعها. حينها كان التعلق شبه مميت، وفعلاً في غاية التهور؛ فقد أسرع المهر من خطاه. ظلت الماركية متعلقة بآخر العربة لبضع لحظات، وشعرت أنها لن تستطيع الاحتمال لأبعد من ذلك، وقد أوشكت على الاستسلام، على الرغم من أنها سخرت كامل جهدها للتشبث والصعود أكثر إلى المقعد الخلفي، وحينها فقدت إحدى فردتي حذائها إلى الأبد.

كان السيد هابيل منشغل العقل، ذهنه مليءً بالأفكار، فضلاً عن أن لديه من العمل ما يكفيه، كي يحافظ على استمرار ركض المهر في طريق مستقيم، دون أن يحيد جانباً عن الطريق، يتراءى له أنه يلمح شيئاً ما غريباً يتحرك خلفه، حتى ارتكزت الماركية في موضعها، والتقطت أنفاسها، فاقدة حذاءها، همست إلى جانب أذنه قائلة -: «أردت أن أقول يا سيدي...». - فزع السيد، واستدار من توه، وقد أوقف المهر وصاح: «احمنا يا رب.. ما هذا!».

ردت الرسالة التي لا تزال تلهث: «لا تخف يا سيدي.. أوه! يا ربي! لقد ركضت خلفك مسافة طويلة حقاً!».

قال السيد هابيل: «ماذا تريدني مني؟ وكيف وصلت إلى هنا؟».

ردت الماركية: «صعدت من الخلف.. أوه! من فضلك يا سيدي! امضِ قدماً.. لا تتوقف.. واذهب مباشرة إلى المدينة.. هلاً تفعل ذلك الآن! و- آه! عليك أن تُسرّع، لأن الأمر مهم جداً. يوجد شخص يريد رؤيتك. لقد أرسلني إليك، لأبلغك أن تذهب إليه مباشرة، وأنه يعرف الكثير بخصوص أمر كيت، وهذا الأمر من الممكن أن ينجيه، ويثبت براءته».

- ماذا تقولين أيتها الطفلة؟

- أقول لك الحقيقة.. صدقني أنا أقول لك الحقيقة، ولي الشرف في ذلك. لكن، من فضلك امضِ قدماً وأسرع من فضلك! لقد مضى وقت طويل على مغادرتي، سيظن أنني تهت وضللت الطريق.

تلقائياً حث السيد هابيل مهره على الانطلاق. وقد انصاع المهر، ربما كان مدركاً ومستحثاً بعض التعاطف السري، أو كانت نزوة جديدة من نزواته، فانطلق بخطى كبيرة من فوره، ولم يتوان، أو يحد عن الطريق، أو يفتعل أي حركة غريبة، ومشى بانضباط غير معتاد على الإطلاق، حتى وصلوا قبالة باب سكن السيد سوفييلر، فوقف من توه بمجرد أن شد السيد هابيل اللجام.

قالت الماركية، وهي تشير إلى إحدى الغرف المنيرة بضوء خافت: «انظر! هذه هي غرفته.. هيا بنا!».

يُذكر أن السيد هابيل، كان من أبسط البشر وأكثرهم تواضعاً في الوجود، إضافة إلى طبيعته الخجولة، حينما وصل إلى هناك، ساوره

التردد لبعض الوقت؛ عادة كان يسمع عن خداع الناس واستدراجهم إلى أماكن غريبة، لسرقتهم وقتلهم، في ظروف مشابهة تمامًا لما يمر به في وقته الحالي، ولم يكن أي شيء مناهضًا لما عرفه، خاصةً أن المستدرجين دائمًا ما كانوا يشبهون الماركية.

ومع ذلك، تجاوز كافة تلك الاعتبارات والمخاوف؛ من أجل كيت. لذلك، كلف رجلًا بالاعتناء بويشكر، كان واقفًا يتوق إلى ذلك العمل، ثم مد يده إلى رفيقته؛ لتصطحبه، وتقناده عبر الدرج الضيق الحالِك.

لم يكن اندهاشه هينًا؛ عندما وجد نفسه في غرفة وخيمة، ذات إضاءة خافتة، وفيها رجل يفترش سريره نائمًا في هدوء.

قالت مستدرجته، في همس خافت: «أليس من اللطيف رؤيته مستلقيًا في هدوء؟ أوه! كنت لتقول بالمثل، إذا كنت رأيته منذ يومين أو ثلاثة أيام».

لم يقدم السيد هابيل أي رد، وإحقاقًا للواقع، ظل واقفًا بعيدًا عن السرير، قريبًا جدًا من الباب. تفهمت مستدرجته سبب تردده، فشذبت الشمعة، وأمسكت بها، واقتربت من السرير. عندما فعلت ذلك، استيقظ النائم، ونهض من توه، فأدرك من الوجه الذابل ملامح ريتشارد سوفيلىر. سارع السيد هابيل نحوه، وقال في لطف: «كيف هذا؟ هل كنت مريضًا طوال هذا الوقت؟».

رد ديك: «مريضًا جدًا.. تقريبًا ميتًا.. ربما كنت لتسمع عن ريتشارد الذي تعرفه في نعشه، لولا فضل هذه الصديقة التي أرسلتها لتحضرك

إلى هنا. صافحيني مرة أخرى يا ماركيزة.. تفضل بالجلوس يا سيدي».

بدا السيد هابيل مشدوهاً، عندما سمع بما فعلته مستدرجته،
وسحب كرسيًا إلى جانب السرير.

قال ديك: «لقد أرسلت إليك يا سيدي بسبب.. هل أخبرتك عن
الشأن الذي أردت محادثتك حياله؟».

رد السيد هابيل: «لقد فعلت.. أنا في حيرة من أمري تمامًا، لا أعرف
حقًا فيما أفكر، وماذا عليّ أن أقول!».

قال ديك متممًا: «ستعرف كل ذلك في الحال.. من فضلك يا
ماركيزة، اجلسي على السرير، هلاً فعلت! والآن، من فضلك أخبرني
هذا السيد النبيل كل ما أخبرني به، وكوني دقيقة في قولك. حريٌّ بك
ألا تقولي كلمة أخرى، استمع يا سيدي».

كررت القصة، بنفس استرسالها وتفصيلها، قصت مثل أول مرة،
دون اختزال أو انحراف أو إغفال. وطوال ذلك الوقت، ثبّت السيد
سوفييلر نظريه طوال مدة السرد على زائره، وحينما انتهت، سرعان ما
تحدث مرة أخرى:

«لقد سمعت كل شيء، وأعلم أنك لن تنساه. إنني مشوش تمامًا
ودائخ، وربما أكون غريب الأطوار، على أن أقترح أمرًا لفعله.. لكن
أنت وأصدقاؤك على علم بما يتوجب فعله. بعد هذا التأجيل الطويل،
أعتقد أن كل دقيقة تمر الآن ما هي إلا عمر ينقضي. إن لم تعد إلى بيتك
في أي ليلة طوال حياتك سريعًا، فعد الليلة على عجل. لا تنتظر ولو

للحظة واحدة، لا تنتظر حتى تقول لي كلمة واحدة، اذهب في الحال. ستجدها هنا في أي وقت إذا احتجتها، وأنا بالمثل تمامًا. ستجدني في المنزل، حريٌّ بي ألا أنتقل من هنا لأسبوع أو لأسبوعين. لأسباب عدة لا داعي لذكرها.. يا ماركيزة! الضوء بسرعة! إن أضعت وهلة أخرى في النظر إليَّ يا سيدي، لن أسامحك عمري كله!».

لم يكن السيد هابيل في حاجة إلى أن يلفظ بحرف آخر في مدلوله إقناع أو احتجاج. انطلق في التو واللحظة، تتبعه الماركيزة، لتضيء له الدرج، عادت قائلة إن المهر دون أي اعتراض أو تعنت رمح من فوره على طول الطريق.

قال ديك: «إنه الإخلاص والود ونقاء المشاعر.. إنني أكنُّ له احترامًا من هذه اللحظة.. تناولي الآن العشاء وأحضري لك كوبًا من الجعة؛ فأنا متأكد من أنك متعبة جدًا. هل لدينا هنا أي كوب من الجعة. سيكون من المريح لي رؤيتي لك وأنتِ تشربينه، كما لو كنت أشربه بنفسي».

لا يضاهي أي أمر مثل هذا التوكيد، الذي غمر الممرضة الصغيرة بالارتياح، ودللها في ترف ورفاهية. بعد أن أكلت وشربت في رحاب السيد سوفييلر، وأعطته مشروبه، ووضعت كل شيء في ترتيب منظم، تلحفت بغطاء قديم، واستلقت على البساط أمام النيران. بينما كان السيد سوفييلر في ذلك الوقت، يتمتم في نومه: «لنكتس بالود المنشور، ولننم على سرير من أسلية تفوح بالعطور.. وسنبقى هنا حتى يتورد أول بصيص من نور. تصبحين على خير يا ماركيزة!».

الفصل السادس والستون

عند الاستيقاظ في الصباح، وبأعين ناعسة، أفاق السيد سويفلر تدريجيًا على أصوات همس في غرفته. نظر من بين الستائر المسدلة على سريره، وإذا به يلمح السيد جارلاند والسيد هابيل وكاتب العدل والرجل الأعزب مجتمعين كلهم حول الماركييزة، يتحدثون في جدية بالغة، بصوت خافت جدًا؛ خشية أن يزعجوه، بلا شك. فلم يتوان للحظة عن إخبارهم أن هذه الاحتياطات غير ضرورية، عندما رأوه وقد استيقظ، اقترب السادة الأربعة نحوه من فورهم. وكان أولهم السيد جارلاند العجوز، الذي مد له يده في الحال، وسأله عما يشعر.

كان ديك على وشك أن يجيبه بأنه يشعر بتحسن كبير، على الرغم من وهنه وضعفه البادي عليه، لكن الممرضة الصغيرة دفعت الزوار جانبًا، وأسندته إلى وسادته، كما لو كان فعلها بدافع الغيرة من تدخلهم، ثم وضعت فطوره أمامه، وأصرت على أن يتناوله قبل أن يرهقه تحدثه معهم أو تحدثهم إليه. على الرغم من أن أحلامًا متناغمة مختلفة بتميزها بقطع لحم ضأن، سمكها تضاعف عن الطبيعي، لكن مذاقها الشهوي

متماثل، قد راودته طوال الليل، شعر السيد سوفييلر الذي التهم وجبته بنهم شديد، أن الشاي الخفيف والخبز المحمص مشتبهات لا يمكن أن تُقاوم، وقد وافق على أن يأكل ويشرب مقابل شرط واحد.

قال ديك، وهو يعيد مصافحته للسيد جارلانداً، ويضغط على يده: «هو أن تجيب عن هذا السؤال بكل صدق، قبل أن أتناول لقمة، أو أرتشف رشفة واحدة.. هل تأخرنا جداً وقد فات الأوان؟».

رد السيد العجوز: «فات الأوان على استكمال فضل ما بدأته أنت الليلة الماضية؟ لا! أرح عقلك، وهدي من روعك.. لسنا متأخرين، أوؤكد لك أن الأوان لم يفت».

اطمأن المريض تماماً بعد سماع تلك المعلومات، وشرع يأكل طعامه في تليذ شديد وشهية قوية، على الرغم من ذلك، لم تكن تعبيراته تضاهي التعبيرات الحماسية المفعمة بالحيوية التي بدت على الممرضة؛ حينما رآته يأكل. إليكم الطريقة التي أكل بها وجبته: كان السيد سوفييلر يمسك في يده اليسرى إما قطعة من الخبز المحمص أو كوب الشاي، إما يأكل أو يشرب -وفقاً لما كان ممسكاً به- بصورة تتابعية مستمرة، لأن يده اليمنى كانت ممسكة بيد الماركييزة، فقد أحكم قبضته عليها في حنو، إما يصفح وإما يقبل تلك اليد المحتجزة، كان يتوقف عن فعله بين الحين والآخر ليلتلع، في عزم جاد، وبطريقة حذرة وبمتهنى الوقار. حينما كان يضع أي شيء في فمه، سواء أكان يأكل أم يشرب، يتهلل وجه الماركييزة وتتألق قسماته بالسرور وتفوق سعادة ملامحها كل كلمات الوصف، أما في تلك الأوقات التي كان يعبر فيها بفعل أو

بآخر عن اعترافه لها بالعرفان، يكسّف وجهها، وتجهش بالبكاء. والآن! بين لحظة وأخرى، بين سعادتها الضاحكة واغروراق عينيها بالدموع، لم تستطع الماركيزة منع نفسها من النظر إلى الزوار بنظرة عطوفة، كأنها تقول: «هل ترون هذا الرفيق.. ما العمل معه؟ هل يمكنني أن أقاوم ذلك؟». ومع هذه النظرات، ينضمون إلى المشهد الذي كانوا جزءاً منه، فيأتي ردهم بنظرة على نحو نظامي مفادها: «لا. لا يمكنك بتاتاً». - ظل هذا المشهد الصامت طوال تناول المريض لفطوره الزهيد، مشابهاً لوجبته نفسها، شاحباً وضعيفاً، يؤدي دوراً غير صغير في المشهد نفسه - ربما يكون ما حدث برمته موضع تساؤل عما إذا كان قد حدث خلال أي وجبة أخرى، حيث لا يذكر فيها أي كلمة، سواء كانت حسنة أو سيئة، منذ بدايتها حتى آخر لحظة فيها، ويتم التعبير عن مكنونات صدورهم بإيماءات، كانت في حد ذاتها طفيفة دون أهمية!

بعد وقت طويل - لقول الحقيقة قبل وقت طويل - أنهى السيد سوفييلر الكثير من الخبز والشاي، ربما كان من الحكمة السماح له بذلك النهم؛ خاصة في تلك المرحلة من تعافيه، لكن رعاية الماركيزة له لم تنتهِ عند هذه المرحلة؛ فقد اختفت وعادت في لحظة، تحمل طستاً مملوءاً بالماء الفاتر؛ غسلت وجهه ويديه، ثم مشطت شعره، وفي وقت قصير جداً جعلته مصفّفاً وأنيقاً، مثلما يتسنى لأي رجل يمر بنفس العواقب، وانقضى كل ذلك في حيوية وانتعاش، وبسلوك كما لو كان طفلاً صغيراً مدللاً، وهي ممرضته الراشدة. طوال تلك الملاحظات والاهتمامات المختلفة، كان السيد سوفييلر في درب من دهشة ممتنة

خارج نطاق التعبيرات اللغوية. حينما أتمت فعلها ووصلها إلى النهاية، انسحبت الماركية إلى ركن بعيد؛ لتتناول وجبة إفطارها الزهيدة - وقد أمست باردة بما فيه الكفاية في ذلك الوقت - ولم يسعه سوى الالتفات محددًا إليها لبضع لحظات، يومئ في الهواء بالمصافحة في مودة.

بعد الثبات لتلك اللحظات، أنعش السيد سوفييلر نفسه من نشوة الامتنان، والتفت مرة أخرى وقال: «أرجو المعذرة منكم جميعاً؛ فعندما يتدهور الحال بالرجال، الذين هم على نفس شاكليتي، سرعان ما يهنون. أنا الآن منتعش مرة أخرى. وبإمكانني التحدث. أخشى أن يكون لديّ نقص في عدد الكراسي هنا من بين باقي الأغراض الأخرى، لذا قدموا لي فضلاً، واجلسوا جميعاً على السرير...».

قال السيد جارلاند في عطف: «ما الذي يمكننا فعله من أجلك؟».

رد ديك: «إذا استطعت أن تجعل الماركية التي تجلس هناك، ماركية فعلاً.. ماركية في الواقع بكامل الهيئة والرصانة، سأكون شاكراً لك، ولن يكون لشكري حدود. ولكن.. إذا لم تستطع، ولم يكن السؤال حول ما الذي ستفعله من أجلي، بل ما الذي ستفعله من أجل شخص آخر، لديه استحقاق أكبر.. فأرجو منك يا سيدي أن توافيني بأمر ما تنوي فعله».

قال الرجل الأعزب: «في الغالب، لقد أتينا إلى هنا من أجل هذا المنحى، وأحسب أن زائراً آخر سيأتي إليك فيما هو قريب. كنا نخشى أن تكون قلقاً حيال عدم معرفتك بالخطوات التي نعزم اتخاذها، لذا أتينا إليك، قبل أن نشرع في التنفيذ».

قال ديك: «أيها السادة! إن لكم مني كل الشكر! إذا رأي أي شخص غيركم وأنا في هذه الحالة العاجزة، كاد أن يتمكن منه الشك والقلق.. لذا يا سيدي لا تدعني أعيق تحركاتكم».

قال الرجل الأعزب: «حسنًا! كما ترى يا صديقي المخلص – في حين أن الشك لا يساورنا على الإطلاق حيال مصداقية ما تم كشفه، يجب أن تظهر للنور في حذر وتعقل..».

قال ديك، مشيرًا إلى الماركية: «هل تقصدها بحديثك؟».

– بالطبع أقصدها. في حين أن الشك لا يساورنا بخصوص هذا الشأن، وأنها الحقيقة المثلّية ليتم العفو عن الفتى المسكين ويلوذ بالتححرّ الفوري، إلّا أن الشك قد ملأ صدورنا في صدد آخر، وأصبحنا لا نعرف، ما إذا كان هذا الأمر وحده سيمكننا من النيل من كويليب، الوكيل الرئيس في هذه القرية أم لا! حريٌّ بي أن أخبرك أن هذا الشك، تم تأكيده وبات أقرب إلى اليقين، من خلال ما استخلصناه من شتى الآراء، التي تبادلناها خلال الوقت القصير الذي تناقشنا فيه. أحسب أنك توافقنا الرأي، وتعتبر أن السماح له ولو بأبعد من أبعد فرصة ممكنة، تتيح له الفرار، ما هو إلا أمر شنيع. لذا فتمنّ معنا، إذا كان من اللازم أن يلوذ أحدهم بالفرار، أن يكون أي شخص غيره.

رد ديك: «نعم بالطبع. لكن هذا في حالة إذا وجب وبات شرطًا إلزاميًا – فأنا لا أرغب بتأتا في أن يفر منهم أحد. فمند أن سُن القانون لكافة الأصعدة، فلا جرم أن يكبح الآثام في الآخرين كما كبحت بداخلي.. ويجب أن يسير الأمر وفقًا لهذا النهج كما تعرفون – أليس

هذا واضحًا لكم وضوح الوَضَح؟».

تبسّم الرجل الأعزب، كما لو أن السؤال الذي طرحه لم يكن واضحًا وضوح أي شيء في العالم، لكنه على كل حال، استكمل حديثه بشرح أنهم في المقام الأول سيمضون في تنفيذ ما اتفقوا عليه، وأن مسعاهم يهدف إلى انتزاع الاعتراف من المبجلة سارة.

قال: «عندما تكتشف إلى أي مدى عرفنا وكيف عرفنا، ستشعر أن الخطر يحدق بها لا محالة، ومن خلالها -أرجو أن تحيط بنا الآمال- ستتمكن من الزج بالآخرين لنيل عقاب ما فعلوا بشكل فعال. إذا تمكنا من إتمام ذلك، ستكون هي سالمة ولن يقع عليها أي عقوبة، فأنا حقًا مهتم لأمرها».

استقبل ديك حديثه بسلوك لطيف، وبأقصى ما تمكن من إظهار الحماسة، أوضح لهم أنه على ذكر الوعل العجوز -يقصد سارة- فمن العصي الإيقاع به أكثر من كويليب نفسه، وأنها غير واعدة بأي قبس من أمل، وأنها الأكثر تعنتًا وصلابة على صعيد المداينة والتملق والتلاعب والترهيب، وأن لها نصيبًا من معنى لقب عائلتها، لكنها نوع مختلف من النحاس، فلا يُذاب ولا يُصهر - باختصار، وضح لهم أن سبل سعيهم لن تتوافق مع طبائعها، وربما ستُهزم بشكل ملحوظ. لكن حُثم على اعتماد مسار آخر بدلًا من هذا غير المجدي. بيّن الرجل الأعزب وشرح نواياهم المشتركة، التي استلزم الأمر أن يكتبوها؛ لتحديثهم في نفس الوقت، لدرجة أنه إذا صمت أحدهم للحظة ليلتقط أنفاسه، كاد أن يقف لاهثًا متلهفًا للحصول على فرصة أخرى؛ يتمكن عبرها من

مقاطعة الحديث، والإفادة بما يريد قوله - أما الأمر فقد وصل بهم إلى مرحلة يتفاهم فيها الاضطراب ونفاد الصبر، فلا يقتنع الرجال أو يأخذوا بالأسباب، لذا فإن أشد الرياح عتياً لن تحيدهم عن نواياهم، ولن يمتثلوا لإعادة النظر في عزمهم أبداً - لذلك بعد إخبار السيد سوفييلر كيف أن أمر والده كيت والأطفال لم يغب عن حساباتهم مطلقاً، وأنهم لم يتغافلوا عن أمر كيت نفسه ولو لوهلة واحدة، وأنهم بذلوا مجهودات حثيثة لتخفيف عقوبته، وكيف شُئت انتباههم تماماً بين البراهين القوية التي أثبتت إدانته، وبين تلاشي آمالهم في براءته، وكيف يجب عليه -ريتشارد سوفييلر- إعفاء عقله من كثرة التفكير، وطمأنة نفسه أن كل شيء سوف يعدل على نحو سليم انطلاقاً من وقتهم حتى هبوط الليل - بعد إخباره بكل هذا، بالإضافة إلى الكثير من التعبيرات اللطيفة الودية لشخصه، من غير الضروري ذكرها- اعتزم السيد جارلاند وكاتب العدل والرجل الأعزب الرحيل في وقت حرج للغاية، وإلا كادت نوبة حمى شديدة أخرى أن تصيب ريتشارد سوفييلر، وقد لا يبرأ من سقمها.

وقف السيد هابيل في ركن مكنون، كثيراً ما ينظر إلى ساعته ثم إلى باب الغرفة، حتى استفاق السيد سوفييلر من غفوة قصيرة، على هزة أرضية، بسبب إنزال حمل ثقيل من على كتفي عتال على الأرضية خارج غرفته، وقد بدت أنها هزت البيت كله، حتى قوارير التمرىض الموضوعة على رف الموقد رنت عالياً مرة أخرى. وسرعان ما امتد الصوت إلى أذنه، فقام السيد هابيل، وعرج إلى الباب من توه، وفتحته، ومكث ممسكاً به! حينها لاح رجل ضخم البنيان يقف، وأمامه سلة كبيرة، سُحبت إلى

داخل الغرفة، وأفرغت محتوياتها كافة، وقد نضحت بكنوز مكنزة من الشاي والقهوة والنبيد والبسكويت والبرتقال والعنب ودجاج جاهز للسلق، وحلوى الجيلاتين ونبات الطاعة^(٢٣) ودقيق النّخل والعديد من الأغذية الشهية، قبالة طرف إحدى فردتي حذاء الخادمة الصغيرة، التي تسمرت مكانها، منعقدة السان، فاقدة قدرتها على الحديث، يسيل لعابها وتسيل معه دموعها؛ فلم تكن تتخيل أن ترى مثل تلك الأشياء، عدا في المتاجر. أما السيد هابيل والرجل ضخّم البيان فلم يتوقفا لوهلة، فقد أفرغا محتويات السلة -التي ظلت كبيرة كما هي- في طرفة عين، ولم تتوقف أيضًا سيدة عجوز، كانت قد ظهرت فجأة -ربما خرجت من السلة أيضًا، فقد كانت كبيرة بالحد الذي يتسع لها- وأخذت تتنقل على أطراف أصابع قدميها، دون إحداث أي صخب، تجدها مرة واحدة هنا ومرة أخرى هناك، ثم تجدها مرة واحدة في كل الأرجاء، تضع حلوى الجيلاتين في أكواب الشاي، تعد مرق الدجاج في القدور، تقشر للرجل المريض البرتقال وتفصله وتجعله فصوصًا صغيرة، وطوال ما كانت تذرّع الطريق جيئةً وذهوبًا، تقدم للخادمة الصغيرة كوبًا من النبيد لتدفئتها، وتمطر عليها بأصناف مختارة من كل شيء، إلى أن تنتهي من إعداد الوجبة الرئيسة وينضج اللحم فتأكل حتى تشبع. كانت تلك المظاهر محيرة للغاية وغير متوقعة بالمرة، لدرجة أن السيد سوفيلر عندما أكل برتقالتين وقليلًا من الحلوى الجيلاتينية، ورأى الرجل

(٢٣) مرنة قضية أو أروروت: حظيت بشعبية كبيرة في العصر الفيكتوري توجد في مكونات البسكويت وحلوى البودنغ والجيلي، وكانت تُغلى كغذاء سهل الهضم.

ضحخ البنيان يرحل حاملاً السلة فارغة، وبات من الواضح أنه ترك كل هذه الوفرة من أجله وفي متناول يديه ولملكيته الخاصة، كان سعيداً مؤنساً ليضطجع وينام مرة أخرى، هائماً في رفاهية ومتع تلك العجائب داخل ذهنه.

في هذه الأثناء، تواجد الرجل الأعزب وكاتب العدل والسيد جارلانند في مقهى، حيث كتبوا رسالة وجيزة وأرسلوها إلى الأنسة سالي، يطلبون منها، في غموض، أن تقدم معروفاً لصديق مجهول يريد استشارتها، والتشاور معها في أسرع وقت ممكن. وأرفقوا العنوان. وقد لاقى مسعاهم مكسبه، ففي غضون عشر دقائق من عودة المرسل وإفادته تسليم الرسالة، ظهرت الأنسة براس نفسها.

قال الرجل الأعزب، الذي وجدته بمفرده في الغرفة: «اتخذي لك مقعداً من فضلك يا سيدتي».

جلست الأنسة براس، باردة الأطراف متجمدة الأوصال، وقد بدت -أو في الواقع كانت- في غمار الدهشة؛ لتجد أن النزيل ومراسلها الغامض كانا نفس الشخص.

قال الرجل الأعزب: «لم تتوقعي رؤيتي! أليس كذلك؟».

ردت الجميلة وقالت: «لم أفكر كثيراً في ذلك؛ ظننت أن الأمر يخص العمل بشكل أو بآخر. لذا إذا كان إحضاري بسبب الشقة، فبالطبع يجب أن تقدم لأخي إشعاراً منتظماً، كما تعرف، أو أن تدفع المال. إن هذا أمر سهل التسوية. إضافة إلى أنك طرف مسؤول، لن

تخل بأي شروط، ففي هذه الحالة سيكون المال القانوني والإشعارات القانونية بالمثل إلى حد كبير».

تمتم الرجل الأعزب قائلاً: «أنا ممنون بما قُلتِ، وملتزم برأيك السديد، وأوافق عليه تمامًا.. لكن هذا ليس الموضوع الذي أود أن أتحدث معك بشأنه».

قالت سالي: «أوه! حسنًا! إذن صرّح بالتفاصيل! هلا فعلتَ؟ لأنني ظنت أنه عمل احترافي؟».

- لم نحد عن الاحترافية في العمل.. إنه أمر يتعلق بالقانون بكل تأكيد.

قالت سالي: «عظيم! أنا وأخي سيان. يمكن أن أحاط علمًا بأي تعليمات أو إرشادات وأقدم النصائح والمشورات للطرف المعني».

قام الرجل الأعزب عن مجلسه؛ وفتح بابًا لغرفة داخلية وقال: «بما أنك ذكرتِ الطرف المعني، فأحسب أن هناك أطرافًا معنية أخرى إلى جانبي، لذا من الأفضل أن نجتمع معًا.. أليس كذلك؟ أيها السادة.. إن الأنسة براس هنا».

دخل السيد جارلاند وكاتب العدل، وسحب كرسيين، ووضعاهما على جانبي الرجل الأعزب، مشكلين نوعًا من السياج حول سارة اللطيفة، يطوقونها من كل جانب، ويحتجزونها في ركن. لو كان شقيقها سامبسون وقع تحت وطأة نفس الظروف، لران عليه الارتباك والاضطراب، أما هي -في غمار رباطة الجأش- أخرجت علبتها

الصغيرة، واستنشقت السَّعُوط في هدوء ورزانة.

تولى كاتب العدل استهلال الحديث في هذا الموقف العسر وقال: «يا آنسة براس، إننا أناس مهنيون، معروفون بالاحترافية، ونتفهم بعضنا، وعندما نرغب في الحديث، نقول ما يلزم قوله بإيجاز مفيد، وكلمات قليلة. إنكِ أعلنتِ عن خادمة هاربة ذاك اليوم.. أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة سالي، باحمرار مفاجئ غطى ملامحها وقالت: «بلى.. وماذا عن ذلك؟».

قال كاتب العدل، بينما يسحب منديل جيبه في تأنق متباهٍ: «تم العثور عليها يا سيدتي.. لقد وُجدت».

سألت سارة على عجل: «مَن وجدها؟».

- نحن وجدناها يا سيدتي، نحن الثلاثة وجدناها ليلة أمس، وإلا كنتِ سمعتِ منا إشعارًا من قبل.

قالت الآنسة براس بعد أن طوت ذراعيها، كما لو كانت تخفي أمرًا حد الموت: «حسنًا! والآن أنا أسمع منكم.. ماذا تريدون قوله؟ ما الأمر الذي يخصها وقد استقطب عقولكم بالطبع - هيا! قولوا لي! هل هذا كل شيء؟ أو بدلًا من قوله - أثبتوا صحته. تقول لي إنكم عثرتم عليها، وأنا أقول لكم إنكم عثرتم على شيطانة صغيرة رعناء أكثر دهاءً ومكرًا وكذبًا من أي مخلوق قد وُلِد..»، ثم أضافت وهي تحديق في كل الأرجاء في حدة: «هل جئت بها إلى هنا؟».

رد كاتب العدل: «لا، إنها ليست هنا في الوقت الحالي.. لكنها على أي حال في أمان تام».

انترعت سالي شهقة عميقة من علبة السعوط، بغضب متقد، كما لو كانت تنتزع أنف الخادمة الصغيرة، وصاحت: «هااا! أؤكد لك أنها انطلاقًا من هذه اللحظة يجب أن تكون آمنة بما فيه الكفاية».

رد كاتب العدل: «آمل أن تكون كذلك.. ألم يخطر على بالك في الوهلة الأولى، عندما اكتشفت أنها هربت، أن هناك مفتاحين لباب مطبخك؟».

استنشقت الأنسة سالي مرة أخرى من السعوط، ثم أمالت رأسها إلى جانب واحد، تنظر مليًا إلى سائلها، وقد اعتلى فيها نوع غريب من التشنجات، لكن تعبيرها في الآن ذاته لم يَحُلْ من مظهر ماكر.

كرر كاتب العدل قائلاً: «مفتاحان - واحد منهما كان يمنحها فرص التسلل في الليل في كافة أرجاء المنزل، عندما كنتِ تفترضين أن احتجازها محكم، ومكنها من سماع العديد من الاستشارات السرية.. فضلًا عن أمور أخرى، لكن ما نحن بصدده الآن، هو اجتماع بعينه، ستم الإفادة به اليوم أمام هيئة العدالة، فسوف تتوفر لك فرصة سماعها، إنه الاجتماع الذي انعقد بينك وبين السيد براس، في الليلة التي سبقت اتهم الفتى المسكين البريء بالسرقة، ودبرتما فيه حيلة رهيبة، لا توصف إلا بفواحش ما رميت به تلك الشاهدة الصغيرة التعيسة، ويزيد عليه القبيح المستبشع من الكلام».

استنشقت سالي من السعوط مرة أخرى. على الرغم من أن ملامح وجهها كانت هادئة، بان عليها الذهول تمامًا؛ فقد كان من الغرابة المستكرهة، أن تُتهم بأمر له صلة بالخادمة الصغيرة.

قال كاتب العدل: «عجبًا عجبًا يا آنسة براس.. إن لديك تحكّمًا مذهلاً في قسمات وجهك، تتمكنين من مواراة أي تعبير، لكنني أعلم ماهية شعورك، حين يُكتشف أمرُك بمحض صدفة لم تطرأ على مخيلتك قط، فضلاً عن عزمي إحضار كل مخططيها أمام العدالة. أحسب أنك الآن على بينة من الآلام والعقوبات التي قد تكونين عرضة لها، ومن ناحيتي لست في حاجة إلى الإسهاب في ذكرها وطرح تفاصيلها، لكنني لديّ اقتراح لأقدمه لك. إن لك شرف أن تكوني شقيقة واحد من أعظم الأوغاد، والذي من المفترض أن يطبق عليه حكم الشنق، وإذا جسرْتُ على المجازفة بقول هذا لسيدة، فأنتِ تستحقين الشنق أكثر منه. لكن الأمر لا يقتصر عليكما أنتما الاثنين؛ فهناك وغد ثالث على صلة بكما، يُدعى كويليب، المحرك الرئيس للمؤامرة الشيطانية برمتها، وقد أحسبه طاعناً في السوء أكثر منكما. لذا، من أجل الإيقاع به يا آنسة براس، قدمي إلينا معروفاً واكشفي التاريخ الكامل لهذا القضية. ولكن - دعيني أولاً أذكرك بأن قيامك بذلك، بناء على طلبنا، سيجعلك في موقف آمن ومريح - فما أنتِ بصدده الآن في الواقع هو آخر ما ترغبين فيه - وربما حينها لن يُنزل بشقيقك ضرراً، فما نحتكم عليه من دلائل وبراهين ضدك وضد أخيك - كما سمعتِ بالفعل - كافٍ لإثبات الإدانة الكاملة. لن أقول لك إننا نقترح سلوك هذا المسار رحمة بك، فدعيني

أقول لك الحقيقة، إننا لا نكرمك بأي اعتبار، لكنها ضرورة لما اخترلناه وبيّناه لك، وأنا أوصيك به كأفضل سياسة.. الوقت». قال السيد ويزردن وهو يخرج ساعته: «إن الوقت في عمل كهذا ثمين للغاية. بلغينا بقرارك بأسرع ما يمكن يا سيدتي».

ارتجت بالضحك، وبابتسامة اعتلت وجهها، استنشقت الأنسة براس مرتين أو ثلاث مرات متتابة من علبة السعوط، ولم تُبق سوى القليل جدًّا من التبغ، فدارت بسبابتها وإبهامها مرة وأخرى وأخرى في العلبة، حتى كشطت آخر ما تبقى. بعد أن سوت أمره كمثلها، ووضعت في جيبها العلبة في منتهى التمهّل والحرص، قالت:

– يُفترض أن أقبل أو أرفض في الحال.. أليس كذلك؟

قال السيد ويزردن: «بلى!».

كادت المخلوقة الفاتنة أن تفتح فاهها، لتكشف عن إجابتها، لكن الباب فُتح أيضًا على عجل، وأقحم رأس سامبسون براس داخل الغرفة. قال الرجل الأعزب من فوره: «المعذرة! انتظر قليلًا!».

لكن بعدم اكتراث بيّن بالدهشة التي سببها وجوده، تسلل إلى الداخل، وأغلق الباب، ثم قَبّل قفازه الناعم في خنوع كما لو كان يقبّل التراب، وقَدّم انحناءة بنفس القدر من التذلل.

قال براس: «يا سارة! أمسكي عليك لسانك إذا سمحت، ودعيني أتكلّم.. أيها السادة النبلاء، إذا تمكنت من التعبير عن السرور التي منحتموني إياه، عن السرور الذي اشتملني؛ فور رؤية ثلاثة رجال مثلكم

مجتمعين في وئام سعيد ووحدة مشاعر متجانسة، أحسب أنكم بالكاد ستصدقونني. على الرغم من أنني بائس وتعيس، لا! أيها السادة النبلاء، على الرغم من أنني مجرم، إذا كنتم تسمحون في هذا الجمع الكريم بذكر ألفاظ جارحة، فلا يزال في قرارة نفسي مشاعر مثل باقي الرجال. لقد سمعت عن شاعر، قد أبدى رأيًا، وقال إن المشاعر هي الرمز المشترك بين الناس أجمعين. أتعلمون أيها السادة النبلاء أن ذلك القول المتأجج بالعاطفة إذا تلفظ به شخص بغض، لكاد أن يكون مخلصًا...». قالت سارة ممتعضة في حدة: «إذا لم تكن أحمق.. فأمسك أنت عليك لسانك، ولا تتفوه بكلمة أخرى».

رد شقيقها: «يا سارة يا عزيزتي - شكرًا لك. لكنني أعلم ما أنا بصدده يا حبيبتى، ووفقًا لذلك لي كامل الحرية أن أعبر عن نفسي. يا سيد ويزردن، يا سيدي.. إن منديلك يتدلى من جيبيك - اسمح لي يا سيدي أن -».

بينما تقدم السيد براس لتعديل ما نوه عنه، انتفض كاتب العدل وابتعد عنه باشمئزاز بين. إضافة إلى سجايا السيد براس الظرفية المعتادة، بات لديه وجه مخدوش، وهالة خضراء ظللت عينًا واحدة، وقبعة ممزقة شديدة الاهتراء، ووقف للحظة، ينظر حوله بابتسامة يُرثى لها.

قال سامبسون: «إنه يتجنبني، كأن جمر نار تجمع على رأسه»^(٢٤).

(٢٤) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٢: ٢٠ «فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فأسقهِ؛ لأنك إن فعلت، تجمع جمر نار على رأسه».

حسنًا! ها! كما لو كنت منزلًا ينهار وتهرب منه الجرذان^(٢٥)! - إذا سمحتم لي بالتعبير في إشارة إلى رجل أحترمه وأحبه أكثر من أي شيء - أيها السادة النبلاء، إذا كنا الآن بصدد حديثكم، فقد صادف أنني رأيت أختي، وهي في طريقها إلى هنا، وتساءلت إلى أين يمكن أن تذهب، ولذلك - إذا كنت أجسر على القول! - لقد انتابني الشك بطبيعة الحال، فتبعتها.. ومنذ ذاك الوقت، وأنا أقف هنا مستمعًا لحديثكم».

قالت سالي: «إن لم تكن مجنونًا، فتوقف عن الحديث من توك، ولا تقل كلمة أخرى».

قال براس بأدب لا حدود له: «يا سارة يا عزيزتي.. إنني ممتن لك، وأشكرك بمتنهي اللطف، لكنني سأستأنف حديثي. يا سيد ويزردن! يا سيدي، كما يشرفنا أن نكون أعضاء مهنة واحدة - أنا لا أملك قولًا مغايرًا للسيد الآخر، فقد كان نزيلى ودخل بيتي، وكما يقول المرء.. إنه حسن الضيافة - أظن أنك ارتأيت رفضي لهذا العرض منذ الوهلة الأولى. في الواقع.. لقد رفضت عرضك.. والآن! يا سيدي العزيز -». صاحب براس، عندما لاح له أن كاتب العادل كاد أن يقاطعه: «أرجوك.. اسمح لي باستكمال الحديث».

صمت السيد ويزردن، واستطرد براس في حديثه.

قال وهو يرفع عن عينه الهالة الخضراء، ليكشف عن عين غائرة بشعة وُسُمت بكدمات: «إذا كان من الممكن أن تقدم لي معروفًا

(٢٥) إدوارد ويليام كلاي ١٨٣١ مقطوعة هجائية «قضية بيتيكوت - قضية إيتون».

يا سيدي، وتنظر إلى هذا، تلقائيًا ستسأل -ويتبادر إلى ذهنك في الوهلة الأولى- كيف حدث هذا! وتنظر إلى هذا، إلى وجهي، ستسأل لا محالة عمّن يمكن أن يكون سبب كل هذه الخدوش! وإذا انتقلت بعينيك من هذا وذاك، لتنظر إلى قبعتي، ستسأل كيف وصلت إلى هذا المنظر الذي تراه.. أيها السادة -». لكّم براس بقبضة يده قبعته بعنف مفرط وقال: «أيها السادة، إن إجابة كافة هذه التساؤلات - كويليب!».

تبادل الرجال الثلاثة النظرات، لكنهم لم ينبسوا بكلمة واحدة. تابع براس وعينه شاخصتان إلى شقيقته، كما لو كان يتحدث لإحاطتها علمًا وحدها، ويتكلم بزمجرة نجمت عن عداوة وحقد، في تناقض عنيف مع سلاسته المعتادة، وقال: «إنني أقول لكم إن إجابة كافة هذه الأسئلة هي كويليب - كويليب، الذي استدرجني إلى وكره الجهنمي، وانتشى مستمتعًا بالنظر والضحك بينما أهرول فرغًا وأحرق وأتسبب بكدمات وأجرح وأشوه نفسي - إنه كويليب، كويليب الذي لم يعاملني مرة واحدة، لا! لم يعاملني ولو لمرة واحدة في جميع تعاملاتنا معًا بخلاف أنني كلب، إنه كويليب، كويليب الذي طالما كرهته من كل قلبي، لكنني لم أكرهه في أي وقت أكثر من كرهني له في الآونة الأخيرة. إنه لم يرأف بحالي طوال عذابي كما لو أنه ليس له علاقة البتة، على الرغم من أنه السبب الرئيس. لا يمكنني الوثوق فيه. دائمًا ما يتراءى لي أنه في مرة ما بينما يكون متشّيًا، تسيطر عليه روح الدعابة المتقدة الجامحة العاوية، ويطلق لنفسه جماحها، ربما يفكر في قتلي،

ويقف مستكيناً لا يفكر مطلقاً أن فعله من الممكن أن يرعيني. الآن!»،
التقط براس قبعته مرة أخرى، وأعاد الظل على عينه، وانحنى في سلوك
قد جاوز الخنوع الذليل وقال: «الآن! ما الذي قادني إليه كل هذا؟ -
أجيبوني أيها السادة.. إلى أين يجب أن تقولوا إن هذا كله قادني؟ - هيا!
هل يمكنكم التخمين مع هذه الدلالات؟».

لم يتحدث أحد، فوقف براس لبعض الوقت بابتسامة متكلفة؛ كما
لو كان قد طرح بعض الألغاز المنتقاة، ثم قال:

«كي لا أطيل عليكم، لقد قادني كل ذلك إلى هنا. إذا كانت الحقيقة
قد ظهرت، وصارت من المسلمات الواضحة التي لا يمكن مناهضتها -
فالحقيقة أيها السادة سامية عظيمة، مثلها مثل الظواهر العظيمة السامية
السماوية كالعواصف الرعدية، فضلاً عن أننا لا نسعد دائماً لرؤيتها.
لكنني أود حقاً أن أنقلب على هذا الرجل، أفضل من أن ينقلب هذا
الرجل عليّ. لقد اكتفيت! وعلى ثقة بينة من أنني قد انتهيت من هذا
الأمر. لذلك إذا كان أي شخص سينشق، من الأفضل أن أكون أنا هذا
الشخص، وألوذ بالمنفعة. يا سارة! يا عزيزتي.. من الناحية النسبية
أحسب أنك بأمان الآن. وأنا من سيتحمل كافة العواقب. بل إن العواقب
ستتحول لمنفعتي الخاصة».

بالانتهاء من هذا، سارع السيد براس في سرد الأحداث، وإزاحة
الستار المسدل عن القصة كاملة، يتحامل على موكله الودود، وينأى
بنفسه، جاعلاً منها أشبه بنفس ملائكية مقدسة، على الرغم من تسليمه
بصحة ضعف الإنسان أمام النزغات الشيطانية. وختم قائلاً:

«أيها السادة النبلاء، إنني لست الشخص الذي إذا سموا له عملاً، استهتر به، بل يفعله على أكمل وجه، أنا مستعد تماماً، فكما يقولون من بدأ أمراً عليه أن ينهيه.. يمكنكم الآن أن تفعلوا بي ما تودون، وتأخذونني أينما ترغبون. إذا أردتم الاعتراف مكتوباً، فليكن كذلك، أدونه في مخطوطة كتابية في التو واللحظة. أعلم أنكم سترأفون بحالي، أنا متأكد من ذلك. إنني واثق أنكم سترأفون بحالي، وتتعاطفون معي. إنكم سادة نبلاء، لديكم قلوب نقية تشعر بالغير. لقد استسلمت لكويليب بسبب الضرورة، على الرغم من أن الضرورة ليس لها قانون، لديها محاموها، والآن أنا أستسلم لكم بسبب الضرورة أيضاً، إلى جانب الحكمة، والمشاعر التي كمنت في قرارة نفسي طويلاً. أيها السادة النبلاء، عاقبوا كويليب وبكل حزم، اسحقوه وبكل قسوة، عذبوه وبكل شدة، ادعسوه تحت الأقدام. لقد فعل بي الكثير.. الكثير والكثير هذا اليوم».

بعد أن وصل إلى ختام حديثه، كبح السيد سامبسون جماح غضبه، وقبّل قفازه مرة أخرى، وابتسم كالرعاديد الجبناء.

اشرأبت الأنسة سالي بعنقها، فكانت لا تزال حتى هذه اللحظة تجلس وتسند رأسها على يدها، وحدجت شقيقها بنظرة أحاطت به من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه باستهزاء مرير، وقالت: «إنه أخي يا حضرات! أليس كذلك؟ إنه أخي الذي كنت أكّد وأعمل من أجله وأهتم به.. وظننت أنه بلغ منازل الرجال!».

رد سامبسون، وهو يفرك يديه إحداها بالأخرى في وهن، وقال: «يا سارة يا عزيزتي! إنك تزعجين أصدقاءنا.. إضافة إلى شعورك بخيبة

الأمل والاستياء يا سارة؛ لأن الأمر قد فُضح على الملأ، وصرتِ لا تعرفين ماذا تقولين».

دمدمت الآنسة المحبوبة: «نعم أيها الوغد المثير للشفقة.. أنا أفهمك تمامًا. أعلم أنك خشيت أن أتحدث قبلك. هل تعتقد أنني كنت سأنبس بنت شفة؟ وأستدرج لأتحدث! لم أكن لأتحدث، وإن حاولوا بكافة السبل على مدار عشرين عامًا».

ارتجّ براس بالضحك، وقد بدا في عمق أحزانه، كأنه غير جنسه بالفعل مع أخته، وأعطاهما آخر ذرة من رجولة قد كان يمتلكها وقال: «هي هي! هل تعتقدين ذلك يا سارة؟ ربما تعتقدين ذلك فعلاً، لكن.. لكن تصرفاتك حريٌّ بها أن تكون مختلفة تمامًا يا رفيقي العزيز. أحسب أنك لا تنسين مبدأ (الثعلب العجوز). -والدنا الموقر أيها السادة اشتبه دائماً في الجميع.. هذا هو المبدأ الذي يمكن للمرء اتباعه في الحياة! إن لم تكوني بالفعل على وشك شراء سلامتك، حين دخولي، فأظن أنك كدت أن تفعلي بحلول هذا الوقت. لذا أتممت الأمر بنفسي، وجنبتك المتاعب وأبعدتها عنك، كما أبعدت الخزي والعار..». سمح براس لنفسه بأن يظهر مسيطراً على الأمر إلى حد ما، وأضاف قائلاً: «الخزي والعار أيها السادة النبلاء.. إذا مس بنا شيء منه، اجعلوه من نصيبي. فالأفضل أن تنجو الأنتى من الموبقات».

مع مراعاة الرأي الأفضل من منظور السيد براس، وبالأخص حكمة سلفه، يظل هناك أمرٌ موضع شك، ما إذا كان هذا المبدأ الرفيع الذي صاغه السيد الأخير، وعمل به سليله، مبدأً حصيفاً، أم نزل على مشيئة

النتائج المرجوة. يظل الأمر موضع شك، بلا ريب؛ لطالما لبثت العديد من الشخصيات المبجلة، ممن يُدعون برجال العالم، ذوي العملاء المخضرمين، موقري الخلال، من لهم أتباع، ورفاق فناء، من لهم رؤوس أموال، وما شابه من تلك الأمثال، يعملون بذلك المبدأ يوميًا، حتى يعتمدونه من المسلّمات والبديهيات، فيكون لهم بوصلة أو نجم قطبي. من أجل التوضيح، يمكن ملاحظة أن السيد براس لم يرتق فوق الشبهات؛ لأنه من دون الفضول والتنصت، كان لترك شقيقته لإدارة المداولة نيابة عنهما، وبالفضول والتنصت، لم يكن في عجلة من أمره لينضم إليها - ولم يكن ليفعل لولا غيرته وانعدام ثقته - وربما استبصر أنه بذلك سوف يجد نفسه أفضل حالًا في النهاية. وهكذا، يحدث دائمًا أن مثل هؤلاء الرجال على مستوى العالم، يذفون إلى تلك الأمور بالدروع، يدافعون عن أنفسهم، في براعة الشر؛ كي ينأوا عن الحديث ولو بكلمة عن سخافة وإزعاج الحراسة المفرطة طوال الوقت، فهم يرتدون معاطف مُدرّعة في أكثر المناسبات سلمًا وبراءً.

تحدث الثلاثة رجال منغلين لبضع لحظات. وفي نهاية تشاورهم، الذي كان موجزًا للغاية، أشار كاتب العدل إلى أدوات الكتابة على المنضدة، وأبلغ السيد براس بأنه إذا كان راغبًا في الإدلاء بأي بيان مكتوب، فقد واثته الفرصة للقيام بذلك. وفي الوقت نفسه، شعر بأنه ملزم بإخباره، أنهم سيستدعون، طالبين حضوره في الوقت الحالي، للمثول أمام قاضي الصلح، للإدلاء بأن ما فعله أو قاله، هو بمحض إرادته، وأن نفسه هي من ساقته بالكلية.

خلع براس قفازه، وتقدم بهيئة الزاحف على الأرض ذليلاً وقال: «أيها السادة النبلاء! إثباتاً لأهلية كرمكم والعطف الذي أعرف أنني سأعامل به، لأنني من دون عطفكم، وبعد انكشاف الأمر، أشغل الآن أسوأ المنازل بينكم أنتم الثلاثة، أود أن تستبصروا فيَّ حسناً، وتعتمدوا على أنني سأنظف قلبي. يا سيد ويزردن يا سيدي - إن إعياء أصاب روحي - فإذا كان من الممكن أن تقدم إليَّ معروفًا، وتدق الجرس، وتأمر بإحضار كوب دافئ وحار، وتغض الطرف عما سلف، سأشرب نخب صحتك، في سعادة آسفة - لكنك أتمنى..»، لاح براس في التفاتة بابتسامة حزينة وقال: «كنت أتمنى رؤية ثلاثتكم أيها السادة النبلاء في يوم أو في آخر، تطأون بأقدامكم أسفل شجرة الماهوجني في ردهتي المتواضعة في ماركس. لكن الآمال عابرة. يا لنفسي العزيزة!».

وصولاً إلى هذه المرحلة، وجد براس نفسه في غمار التأثير، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يقول كلمة أو يفعل شيئاً آخر، حتى وصول بعض المرطبات. بعد أن تناولها بتمتع متحرر بالنسبة لشخص يفترض أن يكون في حالة مضطربة بسبب موقفه، جلس ليكتب.

أما سارة المحبوبة، فأخذت تطوي ذراعيها حيناً، وتشبك يديها خلف ظهرها حيناً، وتخطو بخطوات ذكورية، بينما كان شقيقها منهمكاً في عمله، تتوقف حيناً آخر، تنتزع علبة السعوط، وتعض الغطاء. واصلت المشي في أركان الغرفة جيئةً وذهاباً، حتى أنهكت قواها، وخرت نائمة على كرسي بالقرب من الباب.

منذ ذلك الحين، أحتسب نومها لسبب ما مكرراً وخديعةً، فقد

تمكنت من أن تفلت خلسة من دون أن يلاحظها أي أحد، عندما مالت الشمس إلى المغيب. فقد ظل محل خلاف بينهم، إذا ما كان رحيلها عن عمد بعد استيقاظ، أو مشياً أثناء النوم بعد نعاس، لكن جميع الأطراف اتفقوا على نقطة واحدة - وهي النقطة الرئيسة - وهي بغض النظر عن الحالة التي غادرت فيها، فقد ذهبت بلا عودة.

مع ذكر الرحيل الذي تبع ميل الشمس إلى المغيب، نستنتج أن مهمة السيد براس تطلبت الكثير من الوقت لإنجازها، لم تنته حتى هبط المساء. وبعد أن تمت كاملة، استقل الشخص الجدير والأصدقاء الثلاثة عربة للوصول في الحال إلى المكتب الخاص للقاضي، الذي استقبل السيد براس بترحيب حار، واحتجزه في مكان آمن، حتى يضمن لنفسه متعة رؤيته في الغد، وسمح للآخرين بالرحيل بعد تأكيد مبهج على أن المذكرة لا يمكن أن تفشل أبداً في إلقاء القبض على السيد كويليب في اليوم التالي، وأن توضيح الأمور والإفادة بجميع الظروف لوزير الدولة - الذي كان لحسن الحظ في المدينة - سيؤول إلى تحرير كيت على الفور وإطلاق سراحه دون أي إرجاء أو تأخير.

والآن، قد ضل عمل كويليب، وخاب مسعاه الخبيث، وقارب على النهاية، يتعقبه جزاء عمله، وعقاب ما فعل غالباً يلوح ببطء؛ خاصة عندما يكون وخيماً، يتبع خطاه بخطى ثابتة مؤكدة، حتى يقع عليه بسرعة لا محالة. يخطو بمداسٍ خفي لا يُدرِك، ويسير ضحيته في دربه بانتصار محله الخيال. ولا يزال يتعقبه في أثره، وإن تقدم خطوة، فلن يحيد عنه أبداً!

انتهى عملهم، وسارع السادة الثلاثة إلى سكن السيد سوفييلر، الذي تلمسوا تحسناً ملحوظاً في حالته، ومال إلى الشفاء؛ فقد نهض وجلس وتحدث معهم في مرح ولمدة نصف ساعة كاملة. كانت السيدة جارلاندر قد عادت إلى المنزل منذ وقت طويل، لكن السيد هابيل كان لا يزال جالساً معه. بعد أن أخبروه بكل ما فعلوا، غادر الرجل الأعزب والسيدان جارلاندر، كما لو كان هناك اتفاق مسبق، تاركين المعتل بمفرده مع كاتب العدل والخادمة الصغيرة.

قال السيد ويزردن، بعد أن اقترب ليجلس بجوار السرير: «بما أنك في حال أفضل، أجسر على أن أبلغك بأخبار وصلتني بشكل مهني». ربما بدت فكرة الإفصاح بأي معلومات مهنية من سيد نبيل ذي صلة بالأحوال القانونية، ليس لها أي توقع بمردود سار على ريتشارد. ربما ربط قوله بأمر أو بأمرين من الحسابات المعلقة في ذهنه، في إشارة منه إلى أنه تلقى رسائل تهديد متنوعة.

فخجل محياه ورد قائلاً: «بالتأكيد يا سيدي.. آمل ألا يكون بصدد أمر مزعج.. هل هو كذلك؟».

قال كاتب العدل: «بالتأكيد لا! إن كان كذلك، لكنت انتقيت وقتاً آخر أفضل من هذا الوقت لإحاطتك علماً به - دعني أخبرك أولاً أن أصدقائي الذين حلوا هنا اليوم، لا يعرفون شيئاً عما سأخبرك به، وأن لطفهم معك كان عفويّاً تماماً، ولا ينتظرون مردوداً. ربما يسعد رجل طائش متهور حين معرفة ذلك».

شكره ديك، وقال إنه آمل في ذلك.

قال السيد ويزردن: «كنت أجري بعض التحريات عنك، بعد أن التقيت بك في مثل تلك الظروف التي جمعتنا معًا. وعلمت أنك ابن شقيق ريبيكا سوفييلر العانس، المتوفية، القاطنة في تشيزلبورن في دورستاشير».

صاح ديك: «متوفية!».

- نعم، متوفية. إذا كان لديها أي أولاد أخ آخرين، لكانوا ورثوا معك - لكن الوصية هكذا تنص، ولا أرى أي مجال للشك - خمسة وعشرون ألف جنيه. ستحصل على مرتب سنوي قدره مائة وخمسون جنيهًا.. وأحسب أنه ينبغي أن أهنتك حتى على ذلك».

قال ديك وهو ينتحب ويضحك في نفس واحد: «يا سيدي.. هنتني يا سيدي - حبًا في الرب - هل سنجعل من الماركييزة طالبة! وتمشي في لباس حريري، وتكتنز الفضة؟ إما كذلك وإما لن أنهض مرة أخرى من هذا السرير!».



الفصل السابع والستون

ظل السيد كويليب منغلّقاً على نفسه في صومعته، دون أن يزعجه أي شك، هائماً في غمار رضاه عن نتيجة مكائده، غير واعي البتة بالإجراءات المُحرّرة التي سُردت بإخلاص في الفصل الأخير، منتشياً في حلم خيالي بالمنجم الذي انشق تحت قدميه - منذ البدء وإلى النهاية، لم يجد القلق حيال عمله أي ثغرة ليساوره، فقد كان التزام السرية الكاملة أمراً ملحوظاً طوال الوقت - ولأنه منشغل ببعض التعديلات - ربما كان مكوثه في صمت وانعزال مأواه مواتياً للغاية - لم يخرج من وكره لمدة يومين كاملين. وفي اليوم الثالث من إخلاصه لهذا المسعى، وكده الذي كان يعمل به، لم تكن لديه رغبة قوية في النزوح إلى الخارج.

إنه اليوم الذي أعقب إدلاء السيد براس باعترافه، وبناء عليه، نُذر لفرض القيود على حرية كويليب، وفيه تشكلت حلقة الوصل المفاجئة بينه وبين الحقائق غير السارة وغير المرحب بها على الإطلاق بالنسبة له. حينها كان القزم في حالة مرحة المألوف، لا يدري أي سحابة مظلمة ستخيم على منزله، يجد نفسه مستغرقاً في عمله، فلا ينسى معنوياته وصحته، فيغير من روتينه الرتيب بإضفاء قليل من الصراخ وقليل من العواء، أو باسترخاءات أخرى غير مؤذية ولكن بنفس الشميلة.

كان في صحبته كالعادة نوم سكوت، الذي جلس القرفصاء مشابهاً للضفدع في بؤس، ومن وقت لآخر، عندما يوليه سيده ظهره، يقلد كسراته بدقة لا تخلو من الخوف. لم يختفِ التمثال بعد، وظل في مكانه القديم. لكن وجهه أُحرق بشكل مروع، بسبب نخزات ووخزات مذكي النيران المحموم المستمرة، وصار مزخرفاً بإقحام مسامير بعشرة بنسات في طرف أنفه، ومع ذلك، كان متبسماً في أجزائه الأخرى الأقل تهشماً، فبدا كفدائي قوي، يستفز معذبه كي يرتكب اعتداءات وإهانات جديدة. في ذلك اليوم، كان الجو في أرقى أحياء المدينة وأبهاها، رطباً ومظلماً وبارداً وقائماً. وفي تلك البقعة المنخفضة المستنقعية، كانت السماء ملاءى بركام الضباب، فلم يخلُ أي ركن أو خلوة من الغيم الكثيف، باتت كل الأشياء على بعد ياردة أو ياردتين مغبرة مبهمة. تغلب السحاب المخيم على الأضواء التحذيرية والنيران المشتعلة، فصارت خافتة لا تلوح بقبس من نور تحت هذا الحجاب القاتم، المحتجز لبرودة قارسة نافذة تغزو الهواء، فتعلو صرخات مدوية لملاحين تملكهم الارتباك بإفراط، بينما خروا على مجاديفهم منهكين، يحاولون في عبث تحديد أماكنهم، وربما كان النهر نفسه على بُعد أميال.

على الرغم من ركود السحب الضبابية وبطء حركتها، إلا أنها كانت من النوع المخترق الثاقب. فلم يستطع أي دثار أو فزو إبقاءها خارجاً. بدت كأنها نافذة تتخلل عظام السابلة المنكمشين، وتغمرهم بالبرد والآلام. صار كل شيء عند لمسه بارداً دبقاً، عدا الشعلات الدافئة، تحدها وحدها، فأنارت في تلالؤ، يتطاير شررها في مرج. لقد كان

يومًا ليملك فيه الناس في المنزل، ولا يرحونه، يحدقون بالنيران من كل اتجاه، يقصون حكايات المسافرين الذين ضلوا سبيلهم بسبب ذلك الطقس، شاردين في المراعي والمروج، لقد كان يومًا لتبجيل المدفأة المدفئة أكثر من أي وقت مضى.

كما نعلم، كانت روح القزم الفكاهية بمثابة مدفآت المدفئة لنفسه، في ذلك الحين كان يُهيئ نفسه لتكون مريحة؛ مقررًا أن يُمتع نفسه بنفسه. غير واعٍ بأي حال بما يحدث في الخارج، وبراحة التواجد خلف الأبواب، أمر توم سكوت بتزويد المدفأة الصغيرة بالفحم، وقد انصرف عن عمله لهذا اليوم؛ متوياً أن يكون مرحًا فقط.

مع الانتهاء من تحضيراته، أشعل شموعًا، وأضاف وقودًا إلى النيران وسعرها، ثم تناول عشاء من لحم البقر، كان قد طهاه بنفسه، بنهم ووحشية آكلي لحوم البشر، دهق وعاء كبيرًا من نبيذ البنش الساخن، أشعل غليون، وجلس ليستمتع بأمسيته.

لكن بحلول ذلك الوقت لفتت انتباهه طرقات خافتة على باب مقصورته، عندما تكررت مرتين أو ثلاث مرات، فتح النافذة الدانية بكل هدوء، ودلف إلى الخارج برأسه، وسأل من هناك.

أجاب صوت امرأة: «أنا يا كويليب».

صاح القزم، وقد مد عنقه ليرى بوضوح زائرتة: «أنا يا كويليب! وما الذي جاء بك إلى هنا يا رديئة السمعة؟ كيف تجرأت على الاقتراب من عرين الغول أيتها المرأة المغنّاج؟ ها!». «

قالت زوجته: «أرجوك لا تغضب مني، لقد جئت أحمل أخبارًا لك».

قال القزم: «هل هي أخبار جيدة، أخبار سارة، تجعل المرء يتقافز متهلاً، ويطلق أصابعه؟ هل ماتت الشمطاء العزيزة؟».

ردت زوجته: «لا أعرف حقاً ماهية تلك الأخبار، لا أعرف إذا كانت جيدة أم سيئة».

قال كويليب: «إذن لا تزال على قيد الحياة، ولا علة بها.. عودي إلى المنزل مرة أخرى يا عصفورة الشر.. عودي إلى المنزل!».

صاحت المرأة الوديعة: «إن معي خطاباً ل..».

قاطعها كويليب وقال: «ارميه من النافذة هنا، وامضي في طريقك بعد ذلك، وإلا خرجت وخذشت كامل جسدي».

استحثته زوجته الذليلة بالبكاء وقالت: «لا! أرجوك يا كويليب.. هل من الممكن أن تسمعني! أعطني فرصة لأتحدث معك.. هل من الممكن يا كويليب!».

دمدم القزم بابتسامة خبيثة: «حسنًا! تحدثي - كوني سريعة ومختصرة.. هيا! هل ستحدثين؟».

قالت السيدة كويليب مرتجفة: «لقد ترك هذا الخطاب بعد ظهر اليوم في منزلنا، تركه صبي قال إنه لا يعرف من بعثه به، لكنه وكّل بتوصيله، وقيل له أن يقول إنه يجب إحضاره إليك مباشرة؛ لما ينطوي عليه من أخبار في غاية الأهمية.. لكن..» مد زوجها يده لالتقاطه منها،

فأضافت: «من فضلك، اسمح لي بالدخول. إنك لا تعرف كم أنا مبتلة وأشعر بالبرد القارس هنا في الخارج، وكم مرة ضللت طريق الوصول إلى هنا في هذا الضباب الكثيف. من فضلك! اسمح لي بالدخول لأجفف نفسي لخمس دقائق فقط لا غير. وأعدك بأنني سأذهب في الحال حينما تأمرني بذلك. أرجوك يا كويليب، أعدك بأنني سأفعل».

تردد زوجها الحنون لبضع لحظات، لكنه فكر في احتمالية احتياجه لإجابات عن أسئلة تخص الخطاب، وربما هي من تعرفها، فأغلق النافذة، وفتح الباب، وأمرها بالدخول. انصاعت السيدة كويليب لأمره من توها وعن طيب خاطر، وسارعت بالركوع قبالة النيران لتدفئة يديها، ومن ثم سلمته رزمة صغيرة.

انتزعها كويليب من يديها، وحقق إليها محول العينين وقال: «إنني سعيد لأنك مبتلة، وسعيد لأنك تشعرين بالبرد، وسعيد لأنك ضللت الطريق، وسعيد لأن عينيك حمراوان من النحيب. إن كل هذا ينعش قلبي، كما يبتهج لرؤية أنفك الصغير مكسواً بالصقيع ومقروصاً بالبرد». قالت زوجته مختنقة بدموعها: «أوه! كم أنت فظ غليظ القلب يا كويليب!».

قال كويليب، بينما يلوي قسمات وجهه بأكثر الكشرات تجهماً: «هل كانت تظن أنني ميت؟ هل كانت تظن أنها سترث كل أموالي، ومن بعدها تكون زوجاً لشخص تحبه؟ ها ها ها! هل ظنت كذلك فعلاً؟». لم تثر تلك التهكمات أي رد من الشابة المسكينة، التي جثت على

ركبتها، تدفئ يديها، متفجعة باكية من شماتة كويليب وفرحته المفرطة. وبينما كان يتأملها مقهقهة مغالياً في الضحك، حدث أنه لاحظ أن توم سكوت سعيد متبسم أيضاً، ولأنه ليس من المفترض أن يشاركه طربه، أخذ بخناقه، وجرحه إلى الباب، وبعد القليل من العراك، ركله خارجاً إلى الساحة. وبالعودة إلى تلك الطريقة الاستفزازية لاستدراج الانتباه، مشى توم من فوره على يديه تجاه النافذة، -وإذا كان من الجائز التعبير بهذا القول- نظر إلى الداخل بحذائه، إضافة إلى أنه قعق مقلوباً بساقيه على الزجاج، كما لو كان الجنية بانشي النائحة^(٢٦). وبالطبع لم يتمهل السيد كويليب لوهلة، وانقض مباشرة على مذكي النيران الذي لا يخطئ هدفه، وبعد بعض المراوغات، والتربص والترصد، انهال بإطراءات لا لبس فيها على صديقه الصغير، الذي اختفى متعجلاً، وتركه في هدوء حيازته للساحة كاملة.

قال القزم مثلج الأعصاب: «حسنًا! تخلصت من تلك المهمة الصغيرة، والآن حان الوقت لأقرأ خطابي». قال متممًا وهو ينظر إلى ما بين يديه: «همف! حريٌّ بي أن أعرف الراسل من طريقة الكتابة.. إنها سالي الجميلة!».

فتحه، وقرأ ما كُتب بطريقة معتدلة قانونية، وقد تضمن ما يلي:

«لقد وشى بنا سامي، وخان الثقة، وانكشف كل شيء على الملأ. يجب عليك ألا تظهر في أي مكان؛ لأن الغرباء سيبلغون عنك، لا مفر. لقد أتموا كافة الإجراءات في هدوء تام؛ معتمدين عنصر المفاجأة. لا

(٢٦) جنية من الأساطير الإيرلندية تنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة عن طريق الصراخ المتواصل أو النواح، وقد يعلو صوت نحيبها لدرجة أنه يحطم الزجاج.

تضيع وقتاً.. أنا لم أفعل. لن يجدوني في أي مكان. لو كنت مكانك، كنت سأفعل المثل «س.ب» «ب.م»..».

يذكر أن وصف التعبيرات التي حاقت بوجه كويليب، بينما كان يقرأ هذا الخطاب لنصف دسنة من المرات المتتالية، سيتطلب الاستعانة ببعض اللغات الجديدة؛ فلا يذكر أن قوة تعبيرات وجهه قُرأت أو كُتبت أو سُمعت أو تحدث عنها أحد من قبل.

لفترة طويلة، لم ينطق بكلمة واحدة، وبعد انقضاء مدة غير هينة، أُصيب خلالها السيدة كويليب بشلل ونظرات دعر تسبب فيها مظهره، لفظ لاهئاً:

- لو كنت أحتكم عليه هنا.. لو كنت أحتكم عليه هنا -».

قالت زوجته: «أوه! ما الأمر يا كويليب؟ ممّن أنت غاضب إلى هذا الحد؟».

قال القزم، دون أن يلتفت إليها: «لكنت أغرقته، وسلمته إلى الموت، بسرعة ودون أن أستغرق أي وقت - لكن النهر قريب. أوه لو كنت أحتكم عليه هنا! لكنت أخذته إلى حافة الهاوية بتودد ولطف - أمسكه من عروة معطفه - كأني أمزح معه - ثم بدفعة واحدة مفاجئة، أطيح به ويتهشم للأسفل! يقولون إن الغارقين يطفون على سطح الماء ثلاث مرات. آه! أن أراه بعد موته ثلاث مرات، وأمثل بوجهه المتمواج في الماء مع لكماتي.. أوه! يا لها من متعة مترفة!».

قالت زوجته متلجلجة، وقد جسرت على لمس كتفه: «قل لي ما الخطب يا كويليب؟».

بدت مرتاعة مرعوبة من رد فعل كويليب كما تبين استمتاعها بالسرور الذي صورته لنفسه؛ لقد استطاعت بالكاد أن تجعل نفسها مفهومة.

فرك كويليب يديه في بطء شديد، ثم ضغط عليهما معاً بشدة وقال: «يا له من خسيس عديم الدم! ظننت أن جنبه وخنوعه هما أفضل ضمان لالتزامه بالصمت. آه يا براس! آه يا حبيبي! يا صديقي الحسن الحنون المخلص المجامل الساحر - لو كنت أحتكم عليك هنا!».

جسرت زوجته على الاقتراب منه مرة أخرى، بعد أن تراجعت خشية أن يبدو عليها استمتاعها بتلك الغمغات الكمدية، كانت على وشك التحدث معه ثانية، لكنه انطلق نحو الباب، ونادى على توم سكوت، الذي تذكر فظائع ما قيل له والتحذيرات الودية التي انهالت على مسامعه، ورأى أن من الحكمة الظهور في الحال والمثول أمامه.

اجتذبه القزم إلى الداخل وقال: «تعال! خذها إلى المنزل ولا تأتِ إلى هنا غداً، سوف يُغلق هذا المكان. أقول لك: لا تعد إلى هنا على الإطلاق، حتى سماع إشعار آخر مني أو تراني أبلغك. هل تفهم ما أقول؟».

أوماً توم في عبوس، واستدعى السيدة كويليب، ليرشدها على السبيل الذي ستسلك.

قال كويليب يخاطبها بنفسه: «أما بالنسبة لك، فلا تسألني عني بتاتاً، ولا تبحتني عني مطلقاً، ولا تتفوهي ببنت كلمة تخصني. إذا كان هذا

سيرحك أيتها المغناج رديئة السمعة، لن أكون ميتاً أيضاً».

- لكن يا كويليب؟ ما الخطب؟ أين ستذهب؟ ألن تقول شيئاً آخر؟
شدها كويليب من ذراعها وأحكم إغلاق قبضته وقال: «بلى من الممكن أن أقول وأفعل أشياء أخرى.. لكن عدم القول في صالحك، إذا مشيت من أمامي في الحال».

صاحت زوجته: «هل حدث أمر يستدعي كل هذا؟ أريد أن أعرف فقط ماذا حدث.. هل ستخبرني؟».

زمجر القزم وقال: «نعم.. حدث! ولا.. لن أخبرك - بماذا تهم معرفتك؟ لقد أخبرتك بما يتوجب عليك فعله، لأنك إذا لم تفعلي، أو عصيت أمري ولو بقدر سُمك شَعرة، فيا ويلك ويا سواد أيامك وليلك! ها! هل ستذهبين الآن؟».

قالت زوجته متلعثمة: «نعم سأذهب يا كويليب.. سأذهب مباشرة وفي الحال.. لكن.. أجبني على سؤال واحد فقط. هل مضمون هذا الخطاب له أي علاقة بعزيتي الصغيرة نيل؟ يحتم عليّ الأمر أن أسألك.. يلزمني الحال بالاستفسار منك يا كويليب. إنك لا تتخيل الأيام والليالي التي قضيتها منتحبة في حزن لخداعي للطفلة تلك المرة. إنني لا أعرف أي ضرر قد ألحقته بها. مهما قل شأنه أو عظم سيبقى ضرراً، وقد فعلت ما فعلت من أجلك يا كويليب. إن ضميري يزداد في تأنيبي. لقد ضللتني نفسي حينما ارتكبت ذلك الفعل. لذا، هل من الممكن أن تجيبني على سؤالي إذا سمحت!».

لم يَرُدَّ القزم الغاضب المتجهم بأي رد، سوى أنه التفت منتزعاً سلاحه المعتاد بعنف غليل، فانتفض توم من فوره ساحباً ما كلف بإبعاده سابقاً، بمنتهى القوة وبأسرع ما يمكنه. كان ما فعله حميداً؛ فقد تبعهما كويليب بشر متقد وبأعين تقدح جنوناً حتى الزقاق المجاور، وكاد أن يطيل المطاردة لما هو أبعد من ذلك، لولا أن الضباب الكثيف غييهما، وحجبهما عن الرؤية، وبدأ أنه يتكاثر أكثر فأكثر مع مرور كل لحظة.

قال بينما يعود أدراجه في ترو، مسترداً أنفاسه من بعد الجري: «ستكون ليلة جيدة للسفر خفية، دون اكتشاف أي أحد للهوية وسط هذا الركام الضبابي. مهلاً! ربما البقاء هنا أفضل. ستكون الإقامة حسنة الوفادة ومجانية تماماً».

استجمع قوته، وبمجهود كبير، أغلق البوابتين القديمتين، اللتين كانتا مغروستين في الوحل، وأحكم غلقهما بعوارض ثقيلة. ثم حرك رأسه وهز شعره المتعقد أمام عينيه، ثم أعاده بقوة وبسرعة.

قال القزم بعد أن اتخذ هذه الاحتياطات: «من السهل تسلق السور بين هذا الرصيف والرصيف التالي. علاوةً على وجود ممر خلفي أيضاً يُفضي إلى هنا. حريٌّ بي أن يكون هذا طريق رحيلي من هنا. يجب أن يكون الرجل على دراية كاملة بالطريق الذي سيسلكه، ليتمكن من أن يمضي الليلة في هذا المكان الجميل. حسب ما أظن، لست في حاجة إلى إخافة أي من الزائرين غير المرغوبين، ما دام هذا الأمر قائماً».

ألحت الضرورة بتلمس طريق عودته بيديه؛ فقد هبط الظلام،

وتكاثف ركام الضباب، عاد إلى وكره، وبعد التحديق في النيران لبعض الوقت، انكب على اتخاذ التحضيرات اللازمة لرحيل سريع. طوال ما كان يجمع حاجياته، ويدس أغراضه في جيوبه، لم يتوقف لوهلة عن التمتمة إلى نفسه بصوت خافت، أو الكز على أسنانه، التي كاد أن يجرشها ببعضها عندما أنهى قراءة خطاب الأنسة براس.

قال مدمدمًا: «آه يا سامبسون! كم أنت مخلوق فاضل وجيه جيد! - لو كان باستطاعتي فقط أن أطوقك، وأضمك إليّ، وأعتصر ضلوعك بين ذراعيّ، لو كنت أحتكم عليك ولو لمرة واحدة - يا له من لقاء سيجمعنا! - إذا صادف واجتمعنا معًا مرة أخرى يا سامبسون، صدقني! سأرحب بك ترحيبًا حارًا، لا يمكن لك أن تنساه طوال حياتك. في ذلك الوقت وتلك اللحظة يا سامبسون، حينما مضى كل شيء على ما يرام، ورأيتك المُختار اللطيف! كم كنت فطنًا صبورًا بارعًا! أوه! لو نتقابل وجهًا لوجه مرة أخرى في هذه الغرفة، يا رعديد القانون، يا أجبين المحامين، كم سنكون في غمار الرضى!».

بالوصول إلى هنا، توقف، ورفع وعاء نبيذ البنش إلى شفتيه، وشربه جرعة طويلة واحدة، كما لو كان ماءً فاترًا يروي فمه الجاف. وضعه فجأة، ومن ثمّ شرع في استكمال تحضيراته، وواصل حديثه المنفرد.

قال، وعينه تقدحان شررًا: «وها هي سالي! المرأة ذات الروح والعزيمة، المثابرة على أهدافها - هل كانت نائمة أم متحجرة في مكانها؟ كان بإمكانها طعنه.. تسميمه.. إرقاده في سلام. ربما تراءى لها كل ذلك، وكانت على علم به. لماذا تبعث إليّ خطابًا الآن وتبهنني

وقد فات الأوان؟ عندما كان جالسًا هنا - أو هناك أو في أي مكان كان..
بوجهه الشاحب وشعره الأحمر، وابتسامته السمجة، لماذا لم يترأّ لي
أن أخترق قلبه، وأعرف ما يُكنُّه؟ لماذا لم أتوقف عن الضرب تلك
الليلة، إذا كنت عرفت سره، ألم يكن هناك أي عقار يخمد له لينام، أو
نار تحرقه!..»

التقط الوعاء مرة ثانية، وتجرع جرعة أخرى، ثم جثم أمام النيران
بهيئة ضارية تضرمر شرًا، وتمتم إلى نفسه مرة أخرى:

«إنها مشكلة مثل كل المشاكل التي تقع على عاتقي في الآونة
الأخيرة، بسبب العجوز الخرف وطفلته المحبوبة - هذان المتجولان
المشردان الضعيفان! حسنًا! سأكون لهما الروح الشيطانية التي تحوم
حولهما. وأنت يا كيت! كيت العزيز، كيت الأمين الخلق، كيت
البريء.. انظر إلى حالك. كم أكرهك! كم أود أن أعضك! كم أكرهك
فعلاً ولسبب وجيه يا رفيقي المحبوب، إنني فخور بمقدارك الليلة..
وقد حان دوري أيهم.. ما هذا؟»

كانت طرقات على البوابة التي أغلقها، طرقات مدوية وعنيفة. لكنَّ
صمتًا تبعها، كما لو أن طارقها قد توقفوا؛ ليستمعوا. ثم دوى الصخب
مرة أخرى، لكنه أكثر إلحاحًا وضجة من ذي قبل.

قال القزم: «يا لهم من متعجلين متلهفين! أخشى أن أخيب آمالكم.
أنا على أهبة الاستعداد للرحيل.. شكرًا جزيلًا لك يا سالي!».

بينما كان يتحدث، أطفأ الشمعة. وبمحاولات متهورة ليخفت

وهج النيران، جلس على المدفأة، التي تمايلت على الفور إلى الأمام، فهبط من توه مصطدماً بالجمر المحترق الذي نُثر حين سقوطها، وترك الغرفة في ظلام حالك. بينما لا تزال الطرقات الصاخبة مدوية على البوابة، تلمّس طريقه إلى الباب، وخطى نحو الخارج.

في تلك اللحظة، توقفت الطرقات. على الرغم من أن الساعة كانت حوالي الثامنة مساءً كان الظلام شديداً، كانت أكثر الليالي حلكة مقارنة بتلك الليلة تكاد تكون ظهيرة يوم مشمس؛ بسبب السحابة الضبابية الكثيفة التي استقرت فوق الأرض، وحببت كل شيء عن الرؤية. اندفع إلى الأمام بضع خطوات، ثم بدا كما لو كان قد ابتلع داخل فوهة مغارة قاتمة، حينها ظن أنه ضل طريقه، فغير اتجاه خطواته، ثم توقف في مكانه، لا يعرف أي اتجاه يجب عليه أن يسلك.

قال كويليب، محاولاً النظر عبر السحب الداكنة التي حامت حوله من كل اتجاه: «لو يتسنى لهم أن يطرقوا مرة أخرى.. سيوجهني الصوت إلى طريقي لا محالة.. هيا! اطرخوا بعنف على البوابة مرة أخرى!».

ظل ثابتاً في مكانه وكله آذان صاغية، لكن الصخب لم ينبعث مطلقاً. لم يكن هناك أي صوت مسموع في تلك البقعة المهجورة، سوى أصداء نباح كلاب، تعلو على فترات. كانت تلك الأصداء بعيدة، تصدر مرة من ذلك الزقاق، ثم يتم الرد عليها من زقاق آخر، لكن لا صوت منها يمكن له أن يرشده إلى اتجاهه؛ غالباً ما كانت تصدر من على متن السفن، كما تبين.

قال القزم، بينما يمد يديه على امتداد ذراعه، ويسير بتروّ، متلمساً

طريقه: «لو كان بإمكانني العثور أي جدار أو سور، سأعرف من توي أي اتجاه يجب عليّ أن أسلك. ليلة سوداء شيطانية رائعة، كم أود لو كان صديقي العزيز هنا! وإن كانت هذه هي أمنيّتي الوحيدة طوال حياتي، ومقابل أي شيء عزيز، لم يكن ليرى ضوء النهار مرة ثانية».

عندما خرجت تلك الكلمة من بين شفّتيه ترنح وسقط، وفي اللحظة التالية كان يصارع الماء الداكن المثلج.

على الرغم من خريّر الماء وبقبة الفقاعات في أذنيه، استطاع أن يسمع أصوات الطرقات على البوابة بكل وضوح، وسمع صياحًا تلاها، واستطاع تمييز الأصوات. على الرغم من تلاطماته وصراعاته في الماء، تمكن من استيعاب أنهم ضلّوا طريقهم، وقد عادوا مجددًا إلى النقطة التي انطلقوا منها، وأنهم طوال ذلك الوقت كانوا ينظرون تجاهه، بينما يغرق، وعلى الرغم من قربهم منه، لا يمكنهم بذل أي جهد لتقديم يد العون له لإنقاذه، ربما هو من أبعدهم وأغلق عليهم، واحتجزهم خارجًا بالعوارض الثقيلة. أجاب على الصياح بصرخة، يكاد بسببها أن تتراقص مئات من شعلات النيران، كأن عاصفة قد هبت عليها على حين غرة. لكن مسعاه خاب، وكانت صرخته دون جدوى؛ فقد ملأ المد الجارف حنجرتة، وحمله مع تياراته السريعة.

عانى صراعًا مميتًا آخر، حتى طفا ثانية على سطح الماء، يلاطم يديه الأمواج، ينظر بعينين متوحشتين متقدتين، وقد كشفت له عن جسم أسود، كان ينحرف بالقرب منه. إنه هيكل سفينة. تمكن من لمس سطحها الأملس الزلق بيديه. ومع انتوائه الصياح بصرخة عالية ثانية،

باتت بلا جدوى، فقد غمرته المياه، دون إعطائه أي فرصة للصراخ،
وطوته إلى داخلها، وسحبته أسفل السفينة، وحملته كجثة هامدة.

لعبت بذلك الجمل المروّع، تتقاذفه بين أمواجها، تطوح به
مرة على مواسير لزجة، وتغطيه مرة أخرى بالوحل وتطوقه بالعشب
الطويل، تسحبه إلى أحجار خشنة بعنف مرة، وتصفعه بالحصى مرة
أخرى، تتظاهر بأن لا تأثير لها عليه، تتركه حر نفسه، وفي اللحظة ذاتها،
تلقيه بعيداً، حتى سئمت أخيراً من دميتها القذرة، فلفظته في مستنقع
راكد - مكان موحش حيث يتأرجح فيه القراصنة على سلاسل خلال
ليالٍ شتوية كثيرة، وتركته هناك شاحباً.

رقد هناك وحيداً جثة هامدة. وقد توهجت السماء بشعلة حمراء،
ولمعت تموجات المياه التي حملته إلى هناك بضوء كئيب على مرمى
البصر. وصار المكان الذي رحل منه، وهو رجل حي منذ قليل، خراباً
مشتعلاً. لاح بانعكاس من وهج على وجهه.. يتحرك شعره بنسمات
فاحمة كثيفة، تعبث به ساخرة من الموت - كان عبثاً كاد أن يسعد به
الرجل الميت إذا كان على قيد الحياة-، يهتز رأسه، ويرفرف لباسه في
فتور في الرياح الليلية.



الفصل الثامن والستون

غرف مضاءة، ونيران وهاجة، ووجوه متألقة بالبهجة والسرور، وأنغام أصوات متهللة بالسعادة، وكلمات حب وترحيب، وقلوب دافئة، ودموع الفرحة - يا له من تغيير! يا لها من فرحة يتلهف عليها كيت! جالسون في انتظاره. ويخشى هو أن توافيه المنية من فرط السعادة، قبل أن يصل إليهم.

طوال اليوم سعوا لتهيئته نفسيًا. أخبروه في البداية أنه لن يتم ترحيله مع البقية في الغد. وتدرجيًا أحاطوه علمًا بالشكوك التي أثّرت، وتطلبت إجراء التحقيقات، ثم أخبروه بعد كل هذا، أنه ربما يتم العفو عنه. وأخيرًا، في مساء ذلك اليوم، أحضروه إلى غرفة اجتمع فيها بعض السادة، كان أهم من بينهم هو سيده العجوز الطيب، الذي اصطحبه يدًا بيد. حينما سمع أن براءته قد ثبتت، وتم الإعفاء عنه. لم يستطع رؤية المتحدث، لكنه التفت إلى الصوت، وفي محاولة منه للإجابة على النطق بالحكم النافذ، خر مغشيًا عليه.

أعادوه إلى وعيه مرة ثانية، وأخبروه أنه يجب أن يكون متماسكًا، ويتعامل مع الموقف كالرجال. قال أحدهم: إنه ربما يفكر في والدته

المسكينة؛ لطالما كان يفكر فيها كثيرًا، وأن الأخبار السعيدة تغلبت عليه بإفراط. تجمهروا حوله؛ وأخبروه أن الحقيقة غزت الأجواء في الخارج، وأن أهل المدينة والريف يناصرونه ويتعاطفون مع محنه. لكنه هائم، لم يكن مستمعًا لما قيل؛ حتى الآن، لم تسع أفكاره حيزًا أكبر من نطاق منزله. هل تعرف؟ ماذا قالت؟ مَنْ أخبرها؟ ولم يكن ليتلفظ بأي كلمات أخرى.

أعطوه قليلًا من النبيذ، ولبعض الوقت، تحدثوا معه بحنوٍّ وعطف، حتى استعاد رباط جأشه، واستطاع سماعهم، فلبث يشكرهم. أصبح الآن حرًّا للعودة إلى الديار. قال السيد جارلاند: إنه إذا كان يشعر بتحسن، فقد حان وقت الرحيل. تجمع السادة حوله، وصافحوه مهئين. أعرب عن جزيل امتنانه لاهتمامهم به، وشكرهم على الوعود الكريمة التي قطعوها، لكن قوته على الحديث تلاشت مرة أخرى، وبالكاد استطاع أن يقف على قدميه متعثرًا مترنحًا محدثًا صخبًا عارمًا، على الرغم من اتكائه على ذراع سيده.

بينما كانوا يمرون عبر الممرات الكثيبة، هنأه بعض ضباط السجن على إطلاق سراحه بطريقتهم الحادة القاسية ذاتها. كان من بينهم ناقل الأخبار، لكن طريقته غمرها الجفاء، فقد شاب الغموض مجاملاته. نظر إلى كيت على أنه متسلل، مثل مَنْ نال القبول في ذلك المكان بناءً على حجب واهية مغلوطة، وتمتع بامتياز من دون أن يكون كامل الأهلية. اعتقد أنه ربما يكون شابًا صغيرًا جيدًا، لكن لا مكان له هناك، وكلما كان رحيله مبكرًا، كلما كان أفضل.

أغلق الباب الأخير خلفهم. اجتازوا الجدار الخارجي، أمسوا وافقين في الهواء الطلق. وقد تمثلت أحلامه كلها في ذلك المشهد؛ لطالما تصور نفسه هكذا، عندما كان محاطًا بالأحجار المغمة الموحشة. بدا له الشارع شاسعًا، أكثر اتساعًا، مثيرًا للفضول مما كان عليه من قبل. على الرغم من أن الليلة كانت سيئة ضبابية، بدت في عينيه مرحلة مثالية! وعند رحيله، دس أحد السادة في يده بعض النقود. لم يعدها، وعندما تقدم بضع خطوات من بعد قفص سجناء مساكين، شخص إليه من فوره؛ وألقاها فيه دون هوادة.

كان في انتظار السيد جارلاند عربة في الشارع المجاور، اصطحب معه كيت إلى داخلها، ودعا الحوذي للانطلاق. في بداية مضيقهم في الطريق، فُرض عليهم السير بتوانٍ، وتوجيه المشاعل أمامهم، بسبب الركام الضبابي الكثيف. لكنهم عندما ابتعدوا عن النهر، مخلفين أطراف المدينة، استطاعوا الاستغناء عن احتياطاتهم، ومضوا قدمًا بمعدل أسرع. في هذه الحالة، حتى الركض السريع بالنسبة إلى كيت سيكون بطيئًا جدًّا، عندما اقتربوا من وجهتهم، وقاربت المسافة على الانتهاء، توصل إلى سيده؛ ليتمهلوا أكثر، ويسيروا ببطءٍ، وعندما لاح المنزل في الأفق، توقفوا لمدة دقيقة أو دقيقتين لمنحه بعض الوقت كي يضبط أنفاسه.

«لا مجال لتوقف آخر»، يحادثه السيد العجوز بقوة، أسرعت الخيول في ركضها، وفي دقيقة كانوا أمام بوابة الحديقة، وفي الدقيقة الأخرى، أمام الباب. تعالت أصوات الألسنة، ارتفعت أصوات وقع الأقدام

بالداخل، فُتح الباب. اندفع كيت، ووجد والدته بين ذراعيه تحتضنه.

وجد والدته باربرا المخلصة النقية أيضًا، لا تزال تحمل الرضيع، كأنها لم تنزله أبدًا عن ذراعها، منذ ذلك اليوم الحزين، الذي لم يتمنوا فيه أي شيء أكثر من السعادة التي يعيشونها الآن، كانت -فلتباركها السماء- عيناها تفيضان بالدموع، تبكي كما لم تبك أي امرأة من قبل. وجد باربرا الصغيرة -باربرا الصغيرة المسكينة- أكثر نحافة وشحوبًا، ومع ذلك بدت جميلة جدًا، كانت ترتجف كورقة شجر، تسند نفسها إلى الحائط. وجد السيدة جارلاند، أكثر جمالًا وأناقة من أي وقت مضى، مغشيًا عليها لا تحرك طرفًا، دون مساعدة من أحد. وجد السيد هابيل، يتنفس بعمق، ويعلو صفير زفيره، باديًا عليه حماسه، يريد أن يحتضن الجميع. وجد الرجل الأعزب، يتنقل كما لو كان حول الجميع محلقةً، لا يثبت في مكانه للحظة. رأى جايكوب الصغير العزيز الوقور عميق التفكير، يجلس على المقعد الصغير بمفرده، يضع يديه على ركبتيه كرجل كبير، يصرخ في خوف دون أن يسبب لأي أحد إزعاجًا على الإطلاق، تشملهم جميعا السعادة، يغالون في الفكاهة، يرتكبون جماعة وكل واحد على حدة جميع أنواع الحماقات.

عندما استعاد الجميع رصانة انضباط النفس مرة أخرى، وصار بإمكانهم الحديث في اعتدال وتبادل الابتسامات الهادئة، فجأة! حادت عن سلوكهم باربرا -باربرا الصغيرة رقيقة القلب اللطيفة الحمقاء- ووجدوها مغشيًا عليها في آخر الردهة، ومن الإغماء رزحت في نوبة هستيرية، ومن النوبة الهستيرية خرت مغشيًا عليها مرة أخرى، لكنه كان

إغماء أشد وطأة، وبعد استفاد كميات هائلة من الخل والماء البارد، بالكاد استعادت وعيها، وأمست في النهاية أفضل قليلاً مقارنةً بما كانت عليه في أول الليل. ومن ثمّ دخلت والدّة كيت، وهي تقول هل سيأتي كيت ويتحدث إليها، وأجاب كيت من توه: «نعم بالطبع». وذهب، قال بصوت حنون: «باربرا!». وقالت لها والدّة باربرا: «إنه كيت»، ومن ثمّ قالت باربرا نفسها -وعيناها طوال الوقت مغلقتان-: «أوه! هل هو كيت فعلاً؟». وقالت والدّة باربرا: «نعم يا عزيزتي وبكل تأكيد، لا داعي لأي قلق الآن». علاوةً على ذلك ومن أجل تأكيد إضافي يضمن لها أنه آمن وسليم، تحدث إليها كيت مرة أخرى، وإذ بباربرا تتناهبها نوبة هستيرية ثانية، تبالغ في الضحك، ثم تنخرط في البكاء، وتتبادل والدّة باربرا مع والدّة كيت الإيماءات، ثم تتظاهر بأنها توبخها - لكن فعلها كان من أجل إعادتها أسرع لرصانة النفس -باركك الرب!- ولأنهما مربيّتان ذواتا خبرات، تدركان جيّداً أول أعراض الإفاقة، طمأنتا كيت وأكدتا له بـ: «إنها الآن على وشك الإفاقة»، ومن ثمّ أبعدتا عن المكان، وأعادتا من حيث أتى.

حسناً! في ذلك المكان -الذي كان الغرفة المجاورة- تم تحضير إناء نبّذ، وجميع أنواع اللوازم الاحتفالية الأخرى، بفخامة جليّة، كما لو كان كيت وأصحابه شراكة من الدرجة الأولى، وإذا كنت ستصدق، كان جايكوب الصغير يمشي -كما توضح العبارة حرفياً- يمشي في كعكة برقوق بيتية، بأكثر الخطوات إثارة للدهشة، ويراقب بعينه التين والبرتقال ينتظر اتباعهما له، مستثمراً وقته أسعد استثمار. وبمجرد أن

دخل كيت، دهق السيد الأعزب الكؤوس-لم يكن السيد منشغلاً في تلهف إلى هذا الحد من قبل- شرب نخبه، وأخبره أنه بالأحرى لم يعرف صديقاً أبداً طوال حياته، وفعل السيد جارلاند بالمثل، ثم السيدة جارلاند، والسيد هايل أيضاً. لكن كل هذا الشرف والاحترام الذي ناله لم يكن كل شيء؛ فقد أخرج السيد النيل من جيبه ساعة فضية ضخمة، بسرعة وفي أقل من نصف الثانية، تبين أنه محفور على ظهر هذه الساعة اسم كيت، مزخرفاً في كل مكان، باختصار كانت ساعة من أجل كيت، وقدمها إليه في لمح البصر. وبالتزامن مع هذا، يمكنك أن تطمئن حيال مستقبله، فلم يتوان السيد والسيدة جارلاند عن ذكر تلميحات خاصة بعمله في القريب العاجل، إضافة للسيد هايل الذي لم يتمهل للحظة وأخبره إجمالاً أنه يحتاجه، بدا كيت كأسعد السعداء.

ظل هناك صديقاً، لم يره بعد، ولأنه لا يمكن إدخاله بشكل ملائم في حلقة الأسرة؛ بسبب حدواته الحديدية الأربع، لذا انطلق كيت من توه، حينما أتيحت له أول فرصة، وأسرع إلى الحظيرة. في اللحظة الأولى التي وضع فيها يده على المزلاج، صهل المهر صهيلاً فرحاً، قبل أن يخطو على العتبة، خبَّ المهر في قفصه متمتعاً بالحرية دون قيد -لأنه لا يحتمل إهانة الرسن- في جنون متلهفاً يرحب به، وحينما اقترب منه كيت، وربت عليه ولاطفه، حك المهر أنفه على معطفه، وداعبه بمودة أكثر من أي مهر داعب صاحبه من قبل. إنها الحالة المتوجة لاستقباله المؤنس الخالص، لف كيت ذراعيه حول رقبة ويشكر، واحتضنه.

ولكن كيف أتت باربرا إلى هناك؟ وكيف بدت نشطة مفعمة

بالحيوية مرة أخرى بتلك السرعة؟ فقد كانت ترتشف كأسها منذ أن استعادت وعيها. كيف أتت باربرا إلى الحظيرة فضلاً عن الجميع؟ لماذا لم يتناول المهر طعامه من أي أحد غيرها منذ أن رحل كيت بعيداً؟ - فكما ترى، لقد أتت باربرا من تلقاء نفسها، لم تحلم أبداً بوجود كريستوفر هناك؛ مجرد أنها أتت لتطمئن أن كل شيء على ما يرام، دون أي علم أنه هناك.. كم احمرت باربرا خجلاً!

ربما لاطف كيت المهر بما فيه الكفاية، ربما كان هناك مَنْ يستحق الملاطفة أكثر من المهور. على كل حال، ترك المهر لباربرا، وتمنى أن تكون في حال أفضل. نعم! لقد تحسنت حالة باربرا كثيراً. قالت: إنها تخشى أن يحسب أنها حمقاء بسبب تصرفاتها -وها هي باربرا تنظر إلى الأسفل وتحمر خجلاً أكثر فأكثر-، ويقول كيت: «لا! لم أحسبك كذلك على الإطلاق». تفرح باربرا بما قاله، وتتنحج: «احم!». بتنحج رقيق قدر الإمكان، ليس أكثر من ذلك. كم يكون المهر نبهاً متعقلاً عندما يشاء! يقف هادئاً ثابتاً كما لو كان تمثالاً من رخام. وتكون لديه نظرة أليفة للغاية. يقول كيت: «لم يتسنَّ لنا الوقت للمصافحة يا باربرا». تتقدم باربرا، وتمد إليه يدها.. حسناً! إنها ترتجف الآن! باربرا المرتجفة الحمقاء!

هل كانا واقفين على امتداد الذراعين؟ حتى امتداد الذراعين لم يكن مسافة طويلة. لم يكن ذراع باربرا طويلاً على الإطلاق، إضافة إلى أنها لم تمد ذراعها بشكل مستقيم كلياً، بل ثنتها قليلاً. كان كيت قريباً منها جداً، عندما تصافحا بالأيدي، واستطاع أن يلصح دمعة صغيرة

تترقق في عينيها، وتتمايل على رمشها. كان من الطبيعي أن يحدق إليها بناظره. ومن التلقائي أن ترفع باربرا عينيها دون وعي، لتري أنه يحدق إلى عينيها. هل من الطبيعي عندما حانت تلك اللحظة، ومن دون نية مسبقة، أو تحضير سالف، أن يقبل كيت باربرا؟ على العموم، لقد فعل، سواء كان أم لم يكن. قالت باربرا: «أوه! يا للهول!». لكنها على أي حال سمحت له بأن يقبلها - مرتين. كاد أن يجعلها ثلاث مرات، لولا أن المهر رفس بكعبه هازًا الرأس، كما لو أن فرحة هستيرية غمرته فجأة، ولأن باربرا خافت، جرت بعيدًا من فورها، لم تتجه مباشرة حيثما كانت والدتها ووالدة كيت جالستين؛ خشية أن تلاحظا مدى احمرار وجنتيها، فتسألانها عن السبب بكل تأكيد... باربرا الماكرة!

عندما هدأت الحماسة المفرطة الأولى للمجتمعين كلهم، تناول كيت ووالدته وباربرا ووالدتها وجايكوب الصغير والرضيع -الذي ير كل كل شيء- العشاء معًا -لا مزيد من الجري أو الفرار- بدوا كما لو كانوا سيلبثون هناك طوال الليل - دعا السيد جارلاندا كيت، واصطحبه إلى غرفة، تسنح لهما أن يكونا على انفراد، وأخبره أن هناك أمرًا يريد إخباره به، وربما سيفاجئه كثيرًا. بدا كيت شاحبًا مضطربًا فاغر العينين عند سماعه ذلك، فلم يتوان السيد العجوز عن إضافة أن عليه أن يَهْدَى من انفعالاته، وسأله إذا كان مستعدًا للانطلاق في رحلة في صباح اليوم التالي.

صاح كيت: «هل تقول رحلة يا سيدي؟ أي رحلة؟».

- نعم، رحلة! وستكون بصحبة صديقي الجالس في

الغرفة المجاورة. هل من الممكن أن تخمن غرض الرحلة؟

بهت كيت أكثر، وهز رأسه بالنفي.

قال سيده: «بلى.. أظن أن الإجابة تدور في رأسك الآن.. هيا! حاول».

تمتم كيت بكلمات غير مفهومة وبصوت مذبذب، تمكن في النهاية من لفظها بوضوح قائلاً: «الآنسة نيل». لثلاث أو أربع مرات، يهز رأسه بينما يكرر قوله، كما لو كان يكذب نفسه، ويقنعها بأن لا وجود لأي أمل في هذا. لكن السيد جارلاند بدلاً من أن يقول: «لا! حاول مرة أخرى». أخبره بجدية تامة، أن تخمينه قد أصاب. قال: «لقد عثرنا على مكان إقامتها أخيراً.. وإيجادها هو نهاية رحلتنا». لفظ كيت وابلًا من الأسئلة المتتابعة متلعثمًا منها: أين كانت؟ كيف عثرتم عليها؟ منذ متى؟ هل هي على ما يرام؟ هل هي سعيدة؟ قال السيد جارلاند: «إنها سعيدة بلا شك.. وأعتقد أن.. أنها ستكون أفضل حالًا في القريب العاجل. لقد كانت عليلة واهنة، كما عرفت، لكنها الآن أفضل حالًا كما بلغني هذا الصباح، والجميع مفعم بالأمل. اجلس، وسوف تسمع البقية».

بالكاد التقط كيت أنفاسه، وفعل كما قيل له. ثم أوضح له السيد جارلاند أن له أخًا -ربما سمعه يتحدث عنه من قبل، وأن له صورة معلقة في الغرفة المميزة، قد التقطت له عندما كان صغيرًا - عاش في الريف بعيدًا، مع كاهن، كان له صديق منذ وقت طويل. أوضح له كيف يحب أحدهما الآخر كإخوة يجمع بينهما رباط قوي، لكنهما لم يتقابلا منذ

سنين عديدة، وعلى الرغم من ذلك لم ينقطعاً عن الاتصال ببعضهما، اعتاداً على إرسال خطابات من وقت لآخر، يأملان أن يحين الوقت الذي يتصافحان فيه مرة أخرى، ولا يزالان يسمحان للوقت أن يسرقهما، وأنها عادة الرجال في الدنيا، يكابدون المستقبل ليدوبوا في الماضي. أوضح له كيف أن أخاه رجل سليم الطوية هادئ الطبع وخجول - مثله مثل السيد هابيل - وكم هو محبوب بين الناس البسطاء الذين يعيش ويتعامل معهم، وأنهم دائماً ما يوقرون العازب حامل البكالوريا - كما يدعونه - وأن كل واحد منهم نال من محامد إحسانه وأعماله الخيرية. أوضح له أن تلك الأحوال البسيطة عرف بها ببطء وعلى مر السنوات؛ فالعازب حامل البكالوريا واحد من الأشخاص الذين يبعدون إحسانهم عن النور، مِمَّن يسعدون حين اكتشاف وتمجيد أعمال خير الآخرين أكثر من إعلانهم عن أعمالهم، مِمَّن ينكرون ذاتهم، ويرفضون الثناء. لذلك نادراً ما كان يذكر له أصدقاء القرية، ولكنه على حين غرة، صار مولعاً على وجه الخصوص باثنين منهم - طفلة ورجل عجوز، وكم كان لطيفاً جداً معهما، وأن الخطاب الأخير الذي أرسله إليه قبل بضعة أيام، منذ استهلاله حتى نهايته يتحدث عنهما، أخبره عن حكاية تجوالهما، وحبهما الشديد لبعضهما، أوضح له أن فئة قليلة يمكن لها أن تقرأ حديثه عنهما دون أن تغرورق أعينهم بالدموع. أوضح له كيف برق إلى عقله من توه، اعتقاد أنهما ربما يكونان هما مَن يقصدونهما، مَن بحثا عنهما كثيراً، مَن قادتهما عناية السماء لرعاية أخيه. أوضح له كيف أن ما كتبه من معلومات تلقاها هذا الصباح، ثبت جميع شكوكه، وجعلت

اعتقاده الأولي يقيناً مؤكداً، وأنها السبب المباشر لهذه الرحلة الطارئة،
التي حُسم موعد انطلاقها على أن يكون في الغد الباكر.

قام السيد العجوز، ووضع يده على كتف كيت وقال: «إلى أن يحين
الموعد، عليك أن تنال أكبر قسطاً من الراحة؛ فرحلة الغد مرهقة لأقوى
رجل.. ليلة سعيدة.. ولتشمّلنا السماء برحماتها وتغدق علينا بنيل
مقصودنا في نهاية رحلتنا!».



الفصل التاسع والستون

في صباح اليوم التالي، لم يعرف الكسل طريقاً إلى كيت، فمنذ أن نهض عن سريرهِ، عكف على القيام بكافة التحضيرات اللازمة؛ استعداداً لرحلته المرحب بها. ما برحت الوتيرة السريعة التي مرت بها أحداث الأمس، إضافة للأخبار غير المتوقعة التي سمعها في الليل، مقلقة لناماه طوال ساعات الليل الحالكة، تزحم رأسه المستند على وسادته بأحلام ترتقب شراً، فصار نهوضه له أفضل.

ماذا لو كانت بداية لكذ، له نفس النهاية المصورة له! ماذا لو كانت ابتداء لرحلة طويلة في ذلك الفصل العاصف من السنة، تُستكمل على قدم وساق في ظل بؤس مدقع وصعوبات شاقة، ولا تُنجز إلا بمعاشية ضيق ووهن ومعاناة! ماذا لو كانت بزوغاً لمغامرة مؤلمة، تستنزف الطاقات، تختبر أقصى قدراته على التحمل وقوة عزمته، تحتاج إلى أقصى درجات ثباته حتى النهاية.. لو أن نجاح كيت في اجتياز كل ذلك، يُكَلِّل فقط بإدخال السرور والفرحة على نيل، لكانت بهجته مرتفعة للغاية وكذلك حماسه.

لم يكن وحده متحمسًا متلهفًا. قبل أن ينهض برقع ساعة، كان البيت كله يعج بالفوضى والانشغال. يسارع الجميع بإنجاز ما يسهل التحضيرات. حتى الرجل الأعزب -الذي لا يستطيع أن يفعل أي شيء بنفسه- يتابع الجميع، مفرط الحركة أكثر من أي شخص. استمرت تعبئة الأغراض متكاتفين على إتمام الإعدادات بوتيرة سريعة، وبحلول فجر اليوم، تم الانتهاء من جميع التحضيرات اللازمة للرحلة المنشودة. بعدها تمنى كيت لو لم يكونوا سريعي الحركة؛ لأن العربية التي استُجرت لهذه الرحلة، لن تصل إلا بحلول الساعة التاسعة صباحًا، ولم يبقَ أي أمر لفعله سوى تناول الإفطار؛ لملء فراغ الساعة والنصف الباقية لاستكمال ما شرعوا فيه. نعم كان هناك كل هذا الوقت. وكان هناك باربرا أيضًا. من المؤكد أنها كانت مشغولة تمامًا، لكن انشغالها كان أفضل كثيرًا؛ حيث تسنى لكيت أن يساعدها، وهكذا سيمر الوقت أفضل من أي طريقة أخرى يمكن اختلاقها. لم يكن لدى باربرا أي اعتراض على ما رتب، فتابع كيت تأمل الفكرة التي خطرت على باله فجأة، وظل يفكر فيها طوال ليله، فبدأ يظن أن باربرا مغرمة به بكل تأكيد، وأنه كان مغرمًا بباربرا أيضًا لا جدال.

ولأن الحقيقة يجب أن تُصاغ بالكامل -مثلما يحتم الأمر الآن- بدت باربرا أقل حماسًا من بين جميع أفراد الأسرة في صخب هذه المناسبة، وعندما فتح كيت لها قلبه، وأخبرها بمكنونات صدره، وعن مدى سعادته وتحمسه، وكيف ستغمره الرحلة بالمتعة، لبثت باربرا أكثر حزنًا، وبدت أقل حماسًا أضعافًا مضاعفةً من ذي قبل!

قالت باربرا: «لم تكن في المنزل منذ فترة طويلة يا كريستوفر...». من المستحيل وصف كم كانت غير مكترثة البتة وهي تتحدث -: «لم تكن في المنزل منذ فترة طويلة، لتكون سعيدًا هكذا، لأنك سترحل مرة ثانية.. حسب ما أعتقد».

رد كيت: «ليست السعادة في الرحلة، بل لغرض الرحلة.. لإعادة الآنسة نيل! لرؤيتها مرة ثانية! يغمرنى مجرد التفكير في هذا الشأن بسعادة عارمة! وأحسب أنني سعيد أيضًا لأنك ستقابلينها أخيرًا يا باربرا».

لم تعبر باربرا على الإطلاق عن أنها تشعر بالرضى عن هذه النقطة، لكنها عبرت عن مكنون مشاعرها بكل وضوح مومنة برأسها الصغير، جاعلة كيت متعجبًا، محبطًا متسائلًا بمتهى البساطة عن سبب تكلفها لهذا البرود حيال هذا الشأن تحديدًا.

قال كيت، بينما يفرك يديه: «عندما تقابلينها، ستقولين إن لها وجهًا آية في الجمال والنقاء، وإنه أكثر الوجوه التي رأيته طوال حياتك إشراقًا.. أنا متأكد تمامًا أنك ستقولين كذلك».

أومأت باربرا برأسها مرة أخرى.

قال كيت: «ما خطبك يا باربرا؟».

صاحت باربرا: «لا شيء!». ثم توجهت باربرا، لم يكن توجههما فظًا، لم يكن عبوسًا، لم تكن مقطبة الحاجبين، بل كان توجهًا كافيًا لجعل شفيتها تشبهان الكرز أكثر من أي وقت مضى.

لا توجد مدرسة يلتحق بها الطالب وتسير بهذا النهج السريع، لكنها المدرسة التي أصبح فيها كيت تلميذًا، منذ أن قَبَّلَ باربرا.

فهم الآن المغزى مما تقصده باربرا، وتعلم درسه كله مرة واحدة، وحفظه عن ظهر قلب، فما هي إلا كتاب، مفتوح أمامه، واضحة مثل طباعته.

قال كيت: «لست غاضبة مني يا باربرا، أليس كذلك؟».

- أوه! كلاً أبداً يا عزيزي، لماذا يُفترض أن تكون باربرا غاضبة؟
بأي حق تكون غاضبة؟ وما المهم سواء أكانت غاضبة أم لا؟ مَنْ يهتم
لأمرها ويفكر فيها!

قال كيت: «مَنْ! أنا أهتم يا باربرا.. وأفكر فيك بكل تأكيد».

لم تدرك باربرا لأي سبب قال بكل تأكيد، من أين له تلك الثقة!
ظن كيت أنه يجب عليها أن تدرك السبب، فهل ستسمح لنفسها
بالتفكير ثانية؟

هل ستفكر ثانية؟ بالتأكيد لا؛ لقد أصرت على عدم إدراكها لأي
سبب بالطبع، وأنها لا تفهم ما قصده كريستوفر على الإطلاق. إضافة
إلى أنها أكدت على أنهم يحتاجونها أعلى الدرج في ذلك الحين، وأنه
لزام عليها أن تصعد لهم، وأن... .

أعاق كيت طريقها، واحتجزها برفق وقال: «لا يا باربرا.. دعينا
نفترق ونحن على الأقل أصدقاء. لطالما كنت أفكر فيك، في أوقات
ضعفي ومخني.. فلولاك لكنت أكثر بؤساً وكمداً مما كنت عليه.

التفكير فيك هو ما جعل ما مررت به هيناً».

يا إلهي! كم تكون باربرا جميلة حينما تحمر وجنتاها، وترتجف مثل عصفورة صغيرة خائفة.

قال كيت: «إنني أقول لك الحقيقة يا باربرا.. أؤكد لك أنها الحقيقة كاملة، لكنها ليست بنصف القوة التي أردت توضيحها لك.. عندما قلت لك: إنني سأكون سعيداً لرؤية الأنسة نيل، لأنني أحب أن أراك سعيدة بما يسعدني.. هذا ما في الأمر - أما بالنسبة إليها يا باربرا، يمكن لي أن أموت في سبيل خدمتها، وأكاد أجزم أنك إذا كنت تعرفينها مثلما أعرفها، ستفكرين مثلما أفكر.. أنا متأكد يا باربرا».

تأثرت باربرا بما قال، وشعرت بالأسف على تعاملها الجاف غير المكثرث.

قال كيت: «كما تلاحظين، لقد اعتدت التفكير فيها والحديث عنها على أساس كونها ملاكاً. عندما أتطلع إلى رؤيتها مجدداً، أفكر في سرورها وتبسمها مثلما اعتادت حين رؤيتي، أتذكر كيف كانت تمد يدها وتقول: ها هو صديقي المخلص كيت، أو أيّاً من تلك الكلمات التي اعتادت أن تثني بها عليّ. أفكر في رؤيتها سعيدة مع أصدقائها، وأنها تعيش كما ينبغي لها أن تعيش، وتنال ما تستحق فعلاً. عندما أفكر في نفسي، لا أرى نفسي سوى خادمها المخلص القديم، شخص يعزها بود حقيقي وإخلاص لكونها سيدته العظوفة النقية الطيبة، شخص كان ولا يزال - نعم كان ولا يزال - على استعداد تام ليُعرض نفسه لأي مخاطر لخدمتها. أحياناً، يساورني الخوف ويتمكنني، ماذا لو عادت

ولديها أصدقاؤها، وقد نستني، أو تتذكرني ولكنها تخجل من معرفة صبي بسيط مثلي، أو ربما تحدثني ببرود، حينها سينفطر قلبي ويسحق مرات مضاعفة عما يمكنني التعبير عنه يا باربرا. لكنني حينما أفكر مرة ثانية، أشعر بيقين أنني ارتكبت خطأ فادحاً في حكمي عليها على هذا النحو.. ولا يسعني سوى أن أتعلم في التفكير مرات ومرات، فنتابني المخاوف ذاتها مثل أول مرة.. لا أتمنى الآن إلا أن أراها مجدداً، كما كانت، دون أي تغيير. عندما أتمنى ذلك، وأتذكر كيف كانت، أشعر كما لو أنني سأحاول أبد الدهر إسعادها، وأكون لها دائماً ما يفترض عليّ أن أكون كما لو كنت لا أزال خادمها. إذا كنت الأفضل لخدمتها -أظن أنني لست بالأسوأ- سأكون ممتناً حقاً وسأحبها وسأكرمها أكثر.. هذه هي الحقيقة الصادقة الواقعية يا حبيبي باربرا.. أقسم لك أنها كذلك!..

لم تكن باربرا متقلبة المزاج أو غريبة التصرفات هكذا من قبل، لكنها شعرت بأن نفسها ملأى بالندم، وقد توارت وراء دموعها. إلى أي حال أدت بقية المحادثة، لن يتسع لنا الوقت للتوقف والاستفسار؛ فقد تعالت أصداء قعقعات عجلات العرب في تلك اللحظة، وتبعتها رنة جرس مدوية عند بوابة الحديقة، تسببت في وجود حالة من الهرج والمرج في أركان البيت كافة، التي سادها الهدوء لوقت قصير، لتعج بالصخب مرة أخرى وتنبض بها الحياة والحيوية بعشرة أضعاف.

بالتزامن مع حزم وتعبئة لوازم السفر، وصل السيد تشوكستر في عربة أجرة، ومعه أوراق وأموال خاصة بالرجل الأعزب، سلمها إليه يداً بيد. وبعد أن أدى واجبه، تأقلم مع الطبع الأسري السائد، تسلى بتناول

فطور منتقى، يشاهد ويتابع نقل الأشياء إلى العربية بلا مبالاة أنيقة.

قال للسيد هابيل جارلانند: «ما لي أرى الصبي موجودًا معكم هذه المرة يا سيدي! لقد ظننت أنه لم يكن في الرحلة الأخيرة، لأن وجوده من المتوقع ألا يكون مقبولًا بالنسبة للجاموس العجوز».

تساءل السيد هابيل: «بالنسبة لمن يا سيدي؟».

خبجل السيد تشوكستر من نفسه إلى حد ما، ورد قائلاً: «أقصد الرجل العجوز».

قال السيد هابيل متبسمًا: «لقد قرر موكلنا أن يصطحبه معه الآن.. لم نعد بحاجة إلى اتخاذ هذه الاحتياطات بعد الآن؛ لأن والدي على صلة حميدة بسيد نبيل يحوز على الثقة الكاملة لمن نبحت عنهما، وسيكون ذلك ضمانًا كافيًا على صدق النوايا وطبيعة المهمة الودية».

خاطب السيد تشوكستر نفسه، بينما ينظر من نافذة العربة: «آه! دائمًا ما يكون أي شخص غيري.. حتى الصبي، صار من الطبيعي أن يحتل مكانة أرقى مني. حسنًا.. على الرغم من إثبات عدم أخذه للورقة النقدية فئة الخمسة جنيهات، ليس لدي أدنى شك في أنه لا يزال يطمح لأمر من هذا القبيل. لطالما قلت لنفسني هذا، من قبل أن - أن تخرج بوقت طويل.. يا لها من فتاة جميلة ذات طلعة بهية! أقسم بروحي أنها فتاة رائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى!».

إنها باربرا من كانت مصدر إطراءات السيد تشوكستر.. بينما كانت واقفة بالقرب من العربة - وقد صار كل شيء مجهزًا ومستعدين

جميعاً للرحيل - تحمس السيد فجأةً لمتابعة إجراءات النقل والتعبئة، وشمله اكتراث قوي، دفعه إلى الترحل المباشر من العربة، وقد مشى في الحديقة متبخرًا، ثم وقف على مسافة مناسبة؛ يرمقها بنظرات غرامية. اعتمادًا على خبراته العظيمة في معرفة الجنس الآخر، وإلمامه بكل الحيل الصغيرة التي تجد له الطريق الأسرع لاجتذاب قلوبهن، وقف السيد تشوكستر، يضع يده على خصره، ويتلمس بالأخرى شعره المسترسل.. من الجدير بالذكر أن هذا الفعل -غالبًا ما يصحبه صفير عذب- هو السلوك المفضل في الأوساط المهذبة لمعرفة منجزه الهائل.

على كل حال، هذا هو الفارق بين القرية والمدينة، حيث لا ينتبه أي شخص لأي ملاحظة ولو طفيفة إلى تلك التلميحات الدسيسة. في ذلك الوقت، كان البؤساء كلهم مشغولين في توديع المسافرين، وتقبيلهم، يلوحون لهم بالمناديل، وبكافة الإيماءات وسلوكيات الوداع المألوفة. الآن! كان الرجل الأعزب والسيد جارلاند في العربة والحوذي على سرج الفرس، وكيث متدثرًا ملتحفًا في المقعد الخلفي، بينما كانت السيدة جارلاند والسيد هابيل ووالدة كيث وجايكوب الصغير ووالدة باربرا -تقف بعيدًا لكن مرئية، ترعى الرضيع المتيقظ دائمًا- يلوحون جميعًا وينحنون ويصيحون بإيماءات صادقة: «وداعًا!!»، «إلى اللقاء!». يظهرون قدر ما تمكنوا عواطف جاشت في صدورهم بكل حرارة. وبحلول الدقيقة الأخرى، غابت العربة بعيدًا عن مجال رؤيتهم، وظل السيد تشوكستر باقيًا وحده في المكان، الذي رأى منه كيث يقف عند

المقعد الخلفي متأجج الحماس، يلوح بيده إلى باربرا، يا مَنْ تنظر إليه
السيدات الرقيقات باستحسان من عرباتهن في الحقائق أيام الأحاد-
تلوح لكيت بيدها!

كم كان السيد تشوكستر مشدوفاً لما رأى، متأثراً بهذه الحقيقة
الرهيبة، يقف راسخاً في مكانه لا يحرك طرفاً، كم لو أن جذوراً نبتت له
في الأرض، يحتج ويجادل نفسه عما إذا كان كيت أمير الجنة الأشرار
أم إمبراطوراً مغولياً مغروراً، يتابع بصحو كيف آل ذلك الظرف المقرز
إلى عودته إلى القرية من أجل الشلن، وذلك ما كان أمراً غريباً، يحيد هذا
عن غرضنا، لندعه يتابع هو ما أراد، وتتابع نحن تلك العجلات الدوارة،
التي تشق الطريق، وتحمل المسافرين في رحلتهم المكفهرة الباردة.

لقد كان يوماً عصيباً مريراً. تهب الرياح عاصفة، تندفع تجاههم
عاتية، تجرف الأرض، وترجف الصقيع الأبيض على الأشجار
والأجسام، وتديره في الهواء كالغبار.. وبالرغم من ذلك، كم كان
كيت غير عابئ بحال الطقس! تمثلت الحرية والانطلاق والانتعاش
في هذه الرياح، دع الرياح تعصف كما تشاء، ولا تقلل سرعة هبوبها،
فلقد كان مُرحباً بها. بينما تجتاح سحب الصقيع الأفق، تزعزع الأغصان
الجافة وفروع الأشجار والأوراق الذابلة، ومن ثم ترمي بها بعيداً بسرعة
شديدة، بدت كأنها تظهر بعض التعاطف معهم؛ جعلت كل ما يلوح
في الأفق حولهم سريعاً وفي عجالة، مثلهم. كلما اشتدت العواصف،
كلما حققوا تقدماً أفضل. قد كان صراهم ومقاتلتهم للمضي قدماً،
وقهر تلك الأشياء المترامية الواحد تلو الآخر واستباقهم، محفزاً جيداً،

فأن تراهم يشقون طريقهم، يستجمعون القوة والغضب وهم يتقدمون،
تنحني للحظة بينما يتقدمون في صفير الرياح، لترفع رأسك ثانية وتنظر
إليهم، فتراهم مسرعين، تخفت المسافة ضجيجهم الأجش، وتنكمش
الأشجار السامقة أمامهم.

طوال اليوم، عصفت الرياح دون هدنة. وعندما هبط الليل، كان نديًا
صافيًا نجومه ساطعة، لكن الرياح لا تزال تهب، والبرد نافذ للأجساد.
أحيانًا -مع قرب نهاية الرحلة الطويلة- لم يستطع كيت منع نفسه من
تمنيّ الدفء، لكنهم حينما توقفوا لتغيير الأحصنة، تمتع بالدفء، لدرجة
أنه شعر بضخ الدم يغزو أطراف أصابعه وينبض فيها؛ فقد حظى برخص
طويل، يدفع الأحصنة القديمة في حماس، ويشد الأحصنة الجديدة
بقوة مهتاجة، يركض مرةً أخرى ذهابًا وإيابًا، حتى ربط الخيول -ورغم
ذلك، شعر أن البرد لو انخفض درجة واحدة، ولم يعد يشعر به قارسًا،
سيفقد نصف بهجة الرحلة ومجدها، صعد إلى مكانه واثبًا، يغني في
مرح لأصوات العجلات وهي تتحرك بهم بعيدًا، تاركين وراءهم أناس
المدينة نائمين في أسرتهم الدافئة، يتابعون مضيّهم على طول طريقهم
الوحيد.

في هذه الأثناء، كان السيدان بالداخل يشعران بالنعاس، ولا يريدان
أن يغلبهما، فقررا تمضية الوقت في تجاذب أطراف حوار. ولأنهما
كانا مضطربين مترقبين، انصب موضوع حديثهما بطبيعة الحال على
رحلتهم، كيف تم التحضير لها سريعًا، وعلى مسعاهما الذي يتوقان
إليه، وعلى الآمال المرجوة، والمخاوف المخشية. كان لديهما من

السالف الكثير، ومن الأنف القليل - وربما لم ينتابهما أكثر من ذلك القلق غير المحدد، الذي لم ينفصل أبدًا عن بصائص الأمل المنبثق فجأة، وعن التوقع المرنو إليه.

خلال إحدى وقفات حديثهما، بعد أن جثم الليل، التفت الرجل الأعزب، الذي كان يعهد إلى الصمت والتفكير أكثر فأكثر تدريجيًا، وقال فجأة لرفيقه:

«هل أنت مستمع جيد؟».

رد السيد جارلاندي مبتسمًا: «أظن أنني مثل معظم الرجال الآخرين.. أكون مستمعًا جيدًا، إذا كنت مهتمًا، وإذا لم أكن، فيجب عليّ أن أظهار بكوني كذلك.. لم تسأل؟».

قال صديقه: «أريد أن أحكي لك حكاية صغيرة على طرف لساني.. وسوف أجرب ما قلته في هذا الشأن.. إنها موجزة للغاية».

ساد صمت دون رد، فوضع يده على رदन السيد العجوز وتابع قائلاً ما يلي:

«كان يوجد شقيقان، بينهما ساد الود، وما كنَّاه من الحب في قلبيهما كان وفيرًا، على الرغم من تفاوت العمر بينهما -حوالي اثنتي عشرة سنة-، لم يكونا مكترئين البتة بهذا الأمر.. أو لست متأكدًا تمامًا، ربما من أجل هذا السبب، أحبا بعضهما أكثر. على الرغم من تباعد السن بينهما، وجد التنافس بينهما مجالًا، وصارا منافسين لبعضهما في وقت قريب. فقد استقر الحب الأقوى والأعمق لقلبيهما على امرأة واحدة.

«كان الشقيق الأصغر هو أول مَنْ اكتشف الأمر الواقع -تواجدت عدة أسباب لحساسيته ويقظته- لن أخبرك عن البؤس الذي روعه، وأي عذاب روح عرفه، وكيف تداعت صحته، واضطرب عقله. لقد كان طفلاً مريضاً.. ومكث شقيقة إلى جانبه صابراً ومراعياً له في عز صحته وقوته، ينكر ذاته، لا يكثر بحاله مرات ومرات، يتوقف عن ممارسة الرياضة التي أحبها؛ ليجلس بجوار أريكته، يحكي له حكايات قديمة، حتى ينساب النور في شحوب وجهه، ويضيء بتوهج نادر، ويحمله بين ذراعيه إلى المروج الخضراء؛ حيث يرعى الولد المسكين وهو يتأمل إشراقة اليوم الصيفي، ويرى كل ما كان نضراً صحيحاً -عدا نفسه- كان له -في كل الأحوال- كالمرضة الحنونة المخلصة.. لن أسهب في الحديث عما فعله معه، وعما قدمه له، ليجعل هذا المخلوق الضعيف المسكين يحبه، وإلا لن أنتهي من حكايتي اليوم. عندما حانت اللحظة الفارقة لتنافسهما، كان قلب الشقيق الأصغر، غاصاً بعواطف ذكريات تلك الأيام.. عززته السماء بوحدة من الأفكار الرجولية ليعوض شقيقه عن تضحيات الشباب المتهورة. فرحل.. رحل ليتيح لأخيه السعادة. ولم تتخطَّ الحقيقة شفاهه مطلقاً، غادر البلاد دون أي نية للعودة، آملاً أن يموت في الخارج.

«تزوجها الشقيق الأكبر. إنها ناعمة في الجنة قبل وقت طويل، تركته مع ابنة رضيعة.

«إذا كنت رأيت من قبل معرض صور لأحد العائلات، ستذكر كيف تظهر ملامح نفس الوجه والشكل عبر الأجيال -غالباً ما تظهر

عليهم جميعاً باعتدال- وكيف يمكنك تتبع نفس الفتاة الجميلة من خلال سلسلة طويلة من الصور الشخصية -لم تكبر أبداً ولم تتغير قط- ملاك السلالة الحسن- تقف إلى جانبهم في كل الانتكاسات- وتعفو عن ذنوبهم.

«عاشت الأم مرة أخرى في هذه الفتاة. ومن صورتها التي تتنفس، يمكنك أن تحكم بأي إخلاص وتفانٍ رعى ذلك الشخص -الذي خسر والدتها بالكاد حين نصرته- تلك الفتاة ولم يتخلَّ عنها. نمت ونبضت بها الأنوثة، وأعطت قلبها لمن لم يعرف قيمتها. حسناً! لم يستطع والدها رؤية حزنها ومعاناتها. وظن أنه ربما يكون شخصاً جيداً أكثر مما أعتقد. أو بالتأكيد سيصبح كذلك يوماً ما، مع زوجة مثلها.. فوضع يده في يديهما، ووافق على زواجهما.

«بسبب البؤس الجرم الذي لحق بها بعد هذا الشمل، بسبب الإهمال البارد والتوبيخ غير المستحق الذي غمرها به، بسبب كل الفقر المدقع الذي أحاطها به، بسبب صعوبات وعراقيل ونضالات حياتهم اليومية، التي قد يكون ذكرها فظاً موجعاً للقلب، وكتمانه مروّعاً.. عاشت تفني روحها، تكد وتكدح، بروح سمحة، وحدهن السيدات القادرات على ذلك الفعل. ضاعت أموالها وممتلكاتها، كاد والدها أن يركع أمام يد زوجها متوسلاً إليه -كانوا يعيشون تحت سقف واحد- يشاهد وهنها وحزنها وسوء معاملتها في كل لحظة، لكنها لم تندب مصيرها لأي أحد سواه. مريضة محاطة بمودته ورعايته، توفيت بعد أن صارت أرملة بثلاثة أسابيع تقريباً، تاركة في كنف والدها طفلين يتيمين. أكبرهما كان

صبيًا عمره ما بين عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، والأخرى طفلة رضيعة ثانية، بنفس الضعف، وفي نفس العمر، ولها نفس الشكل والحجم.. كما لو كانت هي نفسها عندما ماتت والدتها الشابة.

«مع مرور الزمن وهن الشقيق الأكبر، جد هذين الطفلين، وطعن في السن، لم يكن شقاؤه من ثقل السنين أكثر مما كان من وطأة الأحزان. ومع طلل ما تبقى من ممتلكاته، بدأ في التجارة - الصور أولاً، ثم التحف القديمة النادرة. لقد كان مولعًا بمثل تلك الأمور منذ أن كان صبيًا، حينما طعن في السن وفرت له ثقافته وأذواقه موردًا للرزق، على الرغم من أنه غير ثابت ومقلق للبال.

«قد شابه الصبي أبيه في الشخصية والتفكير، وشابهت الفتاة والدتها، عندما كان يحثم الرجل العجوز على ركبته، ويرى عينيها الصافيتين الزرقاوين، يشعر كما لو أنه استيقظ من حلم بائس، وأن ابنته تقف أمامه وهي طفلة صغيرة مرة أخرى. ولم يمر وقت طويل وأبى الصبي الضال العيش معه، تحت سقف واحد، وبحث عن أصدقاء أكثر ملاءمة لذوقه. ومن بعدها عاش الرجل العجوز والطفلة وحدهما معًا.

«حينها نبض حبه لمن توفيتا - من كانتا الأعز والأقرب إلى قلبه - لتلك المخلوقة الرقيقة، يرى وجهها أمامه باستمرار، ساعة من بعد أخرى، خلال كل التغيرات التي مر بها في ذلك الوقت، خلال كل المعاناة التي شهدتها وعرفها، وكل ما تكبدته الطفلة من معاناة عندما كان يستنزفه الشاب الجشع غليظ القلب ويأخذ كل أمواله، مثلما كان يفعل والده بالضبط مع والدتها، لدرجة أنه في بعض الأحيان كان يأخذ

جميع ما يحتكما عليه من مال ويتركهما في عوز وضيق وحرمان، ومن بعدها تخبط الأفكار في عقله، هاجمته، وجثمت في ذهنه، وصار لديه خوف موحش من الفقر والعوز. لم يكن يفكر في نفسه. بل كان خوفه كله على الطفلة، كان كشبح مفزع يطارده في بيته ليلاً ونهاراً.

«في ذلك الوقت، كان الشقيق الصغير قد سافر إلى عدة بلدان، مرتحلاً طوال حياته. نقم على نفيه الطوعي، لكنه تحمل -لم يخلُ تحمله قط من الآلام- توبيخ وإهانة نفسه على فعله، وقد أرق قلبه وأثقله، وألقى بظلال حزينة على دربه. كان التواصل بينه وبين أخيه الأكبر صعباً غير مؤكد، عادةً ما كان يفشل، ومع ذلك لم يكن منقطعاً تماماً -وبصرف النظر عن الفجوات والفترات الزمنية بين كل فاصل من المعلومات- استطاع أن يعرف كل ما أخبرتك به الآن.

«تزوره أحلام حياتهما السعيدة -كانت سعيدة بالنسبة له على الرغم من أنها كانت ملأى بالألم ومسؤولية الرعاية- حينما كان يضع رأسه على وسادته كل ليلة، يرى نفسه صبيّاً مرة أخرى، منعماً إلى جوار أخيه. لذا، بأقصى سرعة لديه حسم شؤونه، حول كل ما امتلكه من بضائع إلى أموال، وبثروة جلييلة تكفي لكليهما، وبقلب مفتوح، وبيد ممدودة، وبأطراف مرتجفة مثلما كانت عند حملته له، وبعاطفة متأججة تحملها وعاشها كالرجال، وصل ذات ليلة عند باب أخيه!».

اهتز صوت الراوي ورجف وتوقف عن استكمال سرد حكايته.

قال السيد جارلاندا، ضاغطاً على يده بعد لحظة صمت: «لا ترهق نفسك؛ فالبقية أنا أعلمها».

قال صديقه: «نعم! دعنا نُنج أنفسنا من وطأة التكملة.. أنت عالم بكل النتائج المحزنة لبحثي. على الرغم من أننا كرسنا كافة الجهود اللازمة، وتحرينا الحكمة واليقظة، لكن دون طائل.. يبلغنا ذات مرة أنه تمت رؤيتهما مع اثنين مرتحلين من مؤدبي العروض المساكين.. وبعدها اكتشف الرجلان نفسيهما مكانهما، وعندما نذهب إلى مكانهما فعلاً، نكتشف أننا تأخرنا، وأنهما رحلا.. أرجوك ادع معي ألا نكون متأخرين هذه المرة أيضاً!».

قال السيد جارلاندا: «لا يمكن أن نكون متأخرين.. سننجح هذه المرة بكل تأكيد».

رد الآخر: «إنني أدعو وأتمنى من كل قلبي.. لكني.. لكني كلما حاولت تصديق حدوث ما أتمنى، كلما وجدت ثقلاً يقبع على صدري يكتم أنفاسي، ويشبط عزيمتي.. إن الحزن الذي يملكني يا صديقي العزيز لا يوضح سبباً ولا يثمر أملاً..».

قال السيد جارلاندا: «إن ما تقوله لا يفاجئني.. أحسب أنها نتيجة طبيعية للأحداث التي تذكرتها وذكرتها من توك، وللمكان الموحش وللوقت الكئيب، وقبل كل شيء أجواء هذه الليلة البرية المكفهرة.. يا لها من ليلة كثيبة بالفعل! اسمع! يا لها من ريح صرصر عاتية!».



الفصل السبعون

انتهى اليوم، ولا يزالون يمضون في طريقهم. منذ أن تركوا البيت، وهم يتوقفون للضرورة القصوى فقط وعلى مسافات متباعدة؛ من أجل الراحة وتناول أي وجبة خفيفة، كانوا يتأخرون بشكل متكرر، خاصة في الليل، حينما كانوا ينتظرون الخيول الجديدة. لكنهم لأي سبب آخر لم يتوقفوا البتة، كان الطقس لا يزال عاصفًا، وما برح الطريق أكثر وعورة وانحدارًا. وقد هبط الليل مرة أخرى قبل أن يصلوا إلى وجهتهم.

جلس كيت متلحفًا بحرارة تصوراته عن النهاية السعيدة لهذه الرحلة، مستمتعًا بأجواء المغامرة، فقد وجد طريقته التي يحافظ من خلالها على دورته الدموية، فمرت كل العواصف القاسية والبرد القارس بأمان؛ كانت تشمله الإثارة تجاه كل شيء، فلم يكن لديه وقت كافٍ للالتفات إلى المشقات. سرعان ما تلاشى ضوء النهار القصير للشتاء، وأسدل الليل ظلامه مرة أخرى، ولا يزال أمامهم أميال عديدة للسفر.

غسق الليل، وهبت الرياح عاصفةً، وقد أمسى صوت عويلها وأنينها البعيد خافتًا ولكن أكثر كآبةً، وبينما كانت تهب في الطريق، وتدفق وسط العلائق الجافة خفية على كلا الجانبين، بدت كأنها أشباح عاتية،

يحدث وشاحها حفيفاً بينما تحوم في الأفق. لكنها تدريجياً بدأت تهدأ حتى رحلت بعيداً، وندفت السماء بالثلج من بعدها.

سرعان ما تساقط الثلج سميكاً، وسرعان ما غطى الأرض، وامتد عمقه لعدة بوصات، انسل السكون الكثيب متوغلاً في شتى الآفاق. صارت العجلات المقعقة غير صاخبة، وأمسى اهتزاز حدودات الأحصنة العالي الرنان مكتوماً وكثيباً. كأن الحياة النابضة لتقدمهم قد خمدت وزالت، وانتزع الموت الزوام سرها.

يظل على عينيه بيده من الثلوج المتساقطة، تجمدت رموشه، وحجبت عنه الرؤية.. يحاول كيت أن يلمح أي قبس من أضواء متلاثلة، يستبشر منه على اقترابهم من أي مدينة غير بعيدة. حينها استطاع أن يلمح أشياء كافية لوقته، لكنَّ أيّاً منها لم يكن صحيحاً. الآن! لاح له على مرمى بصره برج كنيسة، وحينما يقترب يتبين له أنه كان شجرة، أو حظيرة، أو ظلاً على الأرض، أو انعكاسات ضوئية لمصابيحهم الخاصة. والآن! كان هناك حوذيون، وسابلة، وعربات، يتحركون أمامهم، يلتقون بهم في الطرق الضيقة، وعندما يقتربون منهم، يتحولون إلى ظلال أيضاً. ثم يتضح جداراً عالياً، ثم طلل، ثم قمة سطح جملوني شاهقة عبر الطريق، وعندما يجتازون الطريق على امتداده، يتضح أنها ما كانت إلا الطريق نفسه. تظهر انعطافات غريبة وجسور وصفحات مياه تموج هنا وهناك، تربكهم، تجعل الطريق غير مؤكد مقلقاً لهم، لكنهم لا يزالون على الطريق المقفر نفسه؛ فعندما مروا بها، كان مثلها كمثل الأشياء الأخرى، تحولت إلى أوهام مبهمة قاتمة.

حين وصولهم إلى مبنى لتبديل الخيول كان معزولاً - كانت أطرافه خدرة تماماً- ترجل ببطء من مقعده؛ ليستفسر عن طول المسافة التي يجب عليهم قطعها للوصول إلى نهاية رحلتهم. في مثل تلك الأماكن النائية، يعتبر وقت وصولهم، ساعة متأخرة من الليل، وعادةً ما يكون الناس نائمين، لكنَّ صوتاً أجابه من نافذة علوية قائلاً: عشرة أميال. لبثت العشرة دقائق التي انتظروها غرار الساعة، وظهر أخيراً شخص، يقود الخيول التي طلبوها مرتجفاً، وبعد ملاحظة قصيرة، انطلقوا مرة أخرى في طريقهم.

كان طريقهم يمتد عبر الحقول، عَجَّ بعد قطعهم أول ثلاثة أو أربعة أميال منه بحطام عربات، وغصَّ بحفر ونتوءات، غطاها الثلج كلها، أمست كأشراك عديدة للخيول مذبذبة الخطى، فأجبرتها على السير ببطء. بات من المستحيل للرجال الذين انزعجوا كثيراً، أن يظلوا جالسين في العربة ويتحركوا بمثل هذا البطء، فترجل الثلاثة رجال، ومشوا خلف العربة في تهادٍ. لاحت المسافة لا نهائية، وصار السير لهم أكثر مشقة. وبينما كان كل منهم يفكر ويُسّر داخل قرارة نفسه شكاً بأن الحودي قد ضل طريقه، دق جرس كنيسة، على مقربة يسيرة، معلناً منتصف الليل، وتوقفت العربة. على الرغم من أنهم كانوا يتحركون في هوادة، عندما توقفت العربة عن سحق الثلج أسفل عجلاتها، عمَّ الصمت مذهلاً، كما لو أن الضجيج الصاخب استبدل على حين غرة بسكون مثالي.

ترجل عن حصانه، وقال وهو يطرق على باب نزل صغير: «هذا هو المكان أيها السادة.. إن الساعة الثانية عشرة والنصف صباحاً، هنا تُعتبر جوف الليل».

كانت الطرقات مدوية، واستغرقت وقتاً طويلاً، لكنها عجزت عن إيقاظ النزلاء النائمين. حل الصمت المهيّب كما كان من قبل. رجعوا خطوات قليلة إلى الوراء، ونظروا إلى النوافذ، التي كانت مجرد بقع سوداء في واجهة المنزل البيضاء. لم يُلح أي ضوء. ربما كان النزل مهجوراً، أو قد مات النائمون؛ فلا يظهر أي ملمح حياة فيه أو حوله.

تهامسوا معاً في تضارب غريب، غير راغبين في مقاطعة أصوات الأصدقاء الكثيرة التي تتردد في كل مكان مرة ثانية.

قال الأخ الأصغر: «دعونا نمضِ قداماً، ونترك هذا الرفيق الجيد لإيقاظهم، إذا استطاع. فلن يهدأ لي بال، إلاّ حينما أتأكد أن الألوان لم يفت، وأننا لم نتأخر هذه المرة. هيا! باسم الرب! دعونا نذهب».

فعلوا ما سأل، تاركين الحوذي، يستعلم عن خدمات المبيت التي يقدمها النزل، ويجدد طرقاته. رافقهما كيت يحمل قفصاً، كان يعلقه في العربة منذ أن غادروا المنزل، فمذ أن تركته، لم ينسَ كيت رعايته أبداً، فكان مثلما تركته بالضبط. وظن أنها ستسر من فورها إذا رأت عصفورها.

انحدر الطرق بسلاسة إلى الأسفل، مضوا في طريقهم قُداماً، وغابت الكنيسة التي تلتف القرية الصغيرة من حولها عن مجال رؤيتهم، والتي سمعوا جرسها معلناً الساعة. لكن صوت الطرقات الذي دوى مجدداً في الأفق، ولا يزالون يسمعون بوضوح رغم ابتعادهم، أصابهم بالاضطراب. تمنوا لو تذرع الرجل بالصبر وأمسك عن طريقه، أو لو كانوا أخبروه ألا يكسر الصمت حتى يعودوا.

لاح برج الكنيسة القديمة أمامهم مرةً أخرى، مكسّواً بوشاح شبحي باللون الأبيض البارد النقي، وبعد لحظات قليلة، وصلوا بالقرب منه. كان مبناها جليلاً -رمادياً قديماً- حتى وسط المرج الطبيعي المكسو بندف الثلج البيضاء. توارت مزولة شمسية قديمة أعلى برج الحرس، وبالكاد كانت معروفة للعيان. بدا الليل لوقته حالاً كئيباً، كما لو أن نهاراً لن يشرق ثانية بعد هذه الليلة المغممة.

كانت البوابة على امتداد أيديهم، لكنها أفضت إلى العديد من الممرات عبر ساحة الكنيسة، وبالتأكيد لجأوا إلى الوقوف للتشاور مرة أخرى، حيال أي الممرات سوف يسلكون.

كان شارع القرية -إذا أمكن تسميته شارعاً؛ عبارة عن تعنق أكواخ فقيرة مختلفة الأشكال والأعمار بغير نظام، يظهر بعضها بالواجهة الأمامية وبعضها الآخر عكاساً، وبعضها له قمم جلمونية تميل نحو الطريق، ذات علامات إرشادية تشير هنا وهناك، أو أكواخ تعترض منتصف الطريق - على مقربة يسيرة. لاح من نافذة غرفة ليست ببعيدة ضوء خافت، فركض كيت من توه إلى ذلك المنزل، ليسأل عن طريقهم.

جاء الرد بعد أول صيحة من رجل عجوز، ظهر لوقته ناظراً من نافذة الباب، يلف حول حنجرتة دثاراً كحماية من البرد، وسأل: مَنْ بالخارج في تلك الساعة المتأخرة من الليل ويريده؟

قال متذمراً: «إنه طقس قارس وليلة غير مناسبة بالمرة لمناداتي.. ليست تجارتي من النوع الذي يتطلب نهوضي من السرير. إن الأعمال

التي تريدها مني الناس قارسة البرودة، وخاصةً في هذا الموسم.. قل لي ماذا تريد؟».

قال كيت: «لم أكن لأجعلك تنهض من السرير، إذا كنت أعرف أنك عجوز ومريض».

كرر الآخر مستنكرًا بفظاظة: «عجوز! كيف لك أن تعرف أنني عجوز؟ ربما لست عجوزًا كما تعتقد يا صديقي. وبالنسبة إلى نعتك إيَّايَ بالمريض، فيمكنك أن تجد شبابًا كثيرين حالتهم أسوأ مني. فالشفقة وكل الشفقة.. ليست حينما أكون قويًا ومخلصًا لسنواتي، بل أقصد أن الشفقة كلها على مَنْ يجب عليهم أن يكونوا لطفاء وضعفاء..»، ثم قال العجوز المريض بعد وهلة: «أرجو منك المَعذرة، إذا تحدثت معك بحدّة في بادئ الأمر. إن عينيَّ لا تريان بوضوح في الليل - ليس بسبب عمري أو مرضي، هما لم تكونا على الإطلاق - لذا لم ألحظ أنك غريب».

قال كيت: «أرجو منك المَعذرة؛ لأنني جعلتك تنهض من السرير، لكنَّ هذين السيدين الواقفين عند بوابة الكنيسة، غريبان أيضًا، وقد وصلا من توهما من طريق سفر طويل ورحلة شاقة، ونريد أن نصل إلى بيت القسيس، فهل من الممكن أن تدلنا؟».

أجاب العجوز الواهن في صوت مرتجف: «ربما أكون قادرًا على أن أقتادك بنفسي إلى هناك لو كنا في الصيف المقبل، لقد كنت القندلفت على مدار خمسين عامًا. على كل حال، اتبع الطريق جهة اليمين يا صديقي. هذا هو طريق الوصول إليه - أمل أنك لا تحمل أخبارًا سيئة لسيدنا العزيز!».

شكره كيت، وأجابه إجابة سريعة بالنفي، وحينما انطلق عائداً، جذب انتباهه صوت طفل، فنظر إلى الأعلى من توه، ورأى مخلوقاً صغيراً في النافذة المجاورة.

صاح الطفل بجدية: «ما هذا؟ ما الأمر؟ هل تحقق حلمي؟ أرجوك قل لي.. أيُّ منكما يقول لي.. أي أحد مستيقظ يخبرني!». قال القندلفت، قبل أن ينطق كيت: «يا لك من ولد مسكين! ما الأمر يا عزيزي؟».

صاح الطفل مرة أخرى بصوت منفعل يرتعد له قلب أي مستمع: «هل تحقق حلمي؟ لا! مستحيل.. لا يمكن أن يحدث هذا.. هل من الممكن أن يحدث.. هل من الممكن!». قال القندلفت: «أظن أنني عرفت قصده.. لم يحدث شيء، عد الآن إلى سريرك مرة أخرى أيها الولد المسكين!».

تنهد الطفل في يأس وقال: «عرفت أن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً.. كنت متأكداً من قبل أن أسأل! لكن الليلة واللييلة الماضية متشابهتان.. لا أستطيع أن أنام؛ أرى حلمًا بشعاً متكرراً».

قال العجوز في لين ورفق: «حاول أن تنام.. كلُّ له أوان فيه يرحل». قال الطفل: «لا لا! لا تقل رحيل.. أفضل أن يكون حلمًا بشعاً كما هو، ما دام مقتصرًا على الأحلام فقط، ولا يجد طريقه للواقع.. أنا لا أخشى رؤيته في نومي. لكنني حزين.. حزين جداً جداً».

باركه العجوز، ورد عليه الطفل، والدموع تترقرق في عينيه: «ليلة

طيبة». وأمسى كيت بمفرده مرة ثانية. سارع بالعودة، متأثراً مهرولاً لما سمعه، ولو أن سلوك الطفل أوضح من أي قول، بين المعنى المحجوب عنه. سلكوا المسار الذي أشار إليه القندلفت، وقریباً وصلوا أمام سور بيت القسيس. التفتوا حولهم، ناظرين أمامهم على مبعدة يسيرة، رأوا انبعاث ضوء واحد وحيد من بين أطلال بعض البنايات. كان ينير عبر ما بدا لهم كأنها مشربية، لاح لهم محاطاً بظلال الجدران كنجم لامع. كان متلاًئلاً مشرقاً كالنجوم التي تتوسط السماء أعلى رؤوسهم، وحيداً دون حراك مثلها، بدا كأنه ضوء ينتمي إلى مصابيح السماء، وينير الأفق معها.

قال الأخ الأصغر: «ما هذا الضوء؟».

قال السيد جارلانند: «أحسب أنه الطلل الذي فيه يعيشان، فلا أرى أي طلل آخر في هذه الناحية».

رد الأخ على عجل قائلاً: «لا يمكن أن يكونا مستيقظين حتى هذه الساعة المتأخرة...».

تدخل كيت من توه، متوسلاً إليهما؛ كي يسمح له بأن يشق طريقه إلى ذلك الضوء الساطع، ويتأكد ما إذا كان هناك أي شخص، بينما ينتظرانه عند البوابة. بعد أن حصل على الإذن الذي يتوق إليه، ركض منقطع الأنفاس بحماس من فوره، ولا يزال يحمل قفص العصفور في يده، متجهاً مباشرةً صوب مقصده.

لم يكن من السهل حمل القفص والعدو بتلك السرعة وسط القبور،

لزم عليه من وقت إلى آخر أن يسير ببطء أو أن يحيد عن مساره قليلاً. غير مكترث بأي عقبة أو عرقلة، كان يندفع بقوة حماسية إلى الأمام دون تهايد، حتى وصل على مسافة بضع ياردات من النافذة. اقترب من الجدار بهوادة قدر استطاعته، ثم أزاح بملابسه في رفق اللبلاب الذي اكتسى بالثلج الأبيض؛ واسترق السمع. لم يكن هناك أي صوت بالداخل، حتى الكنيسة نفسها لم تكن أكثر هدوءاً. لا! والأدهى أن الصمت قد ساد في كل أركان المكان، لدرجة أنه تأكد من أنه لا يسمع حتى صوت أنفاس أي نائم، إذا كان هناك أي أحد من الأساس.

أن يجدوا ضوءاً منيراً في ذلك المكان، في تلك الساعة من الليل، ولا يوجد أي أحد بالقرب منه، كان الأمر غريباً.

لم يستطع رؤية أي شيء عبر النافذة؛ كانت الستارة مسدلة على الجزء السفلي منها، ولم يُلحَ من خلالها أي ظلال. أن يضع قدمًا من بعد قدم على الجدار؛ كي يحاول النظر من الجزء العلوي، أمر فيه القليل من الخطر والكثير من الإزعاج، وربما احتمال لترويع الطفلة، إذا كان مسكنها بالفعل. يستمع مرة وأخرى، يستمع مرارًا وتكرارًا، ولا يزال الصمت الكثيب مهيمناً.

برح مكانه ببطء وبخطوات حذرة، يطوف حول الطلل بخطوات محسوبة، ثم جاء أخيراً أمام الباب. طرقه. لم يكن هناك أي إجابة. لكن ضوضاء غريبة صدرت من الداخل. كان من الصعب تحديد ماهيتها. شابته أنيناً لشخص متألم، لكنها لم تكن كذلك؛ لكونها منتظمة جداً وذات وقع ثابت. والآن! بدا له كأنه لحن أغنية مجهول، ثم بدا له نحيباً.

لكنه ذو الصوت نفسه، لا يتغير ولا يكبح. لم يكن مشابهاً لأي صوت سمعه على الإطلاق، شاب رنينه شأن يتتزع من الصدر الطمأنينة، شأن مرعب مخيف غير مألوف.

بهت مما سمع، وتجمد الدم في عروقه، أكثر من أي وقت مضى حينما كان وسط الصقيع والثلوج، لكنه طرق الباب مرة أخرى. لم يردّ عليه أحد بأي إجابة، ولا يزال الصوت يتردد دون انقطاع. بسط يده على المزلاج بهدوء، وأسند ركبته على الباب. على الرغم من أنه كان موصداً من الداخل، ببعض الضغط، دار حول مفصلاته. رأى وميض النيران على الجدران القديمة، ومن ثمّ جسر على الدخول..



الفصل العاوي والسبعون

كان توهجًا كثيبًا لحطب مشتعل - لم يكن ضوء فانوس أو شمعة مشتعلة داخل الغرفة - كشف له عن شخص، يجلس أمام المدفأة، يدير ظهره إليه، منحني فوق الضوء المرتعش. بدا في جلسته، كشخص يتقفى الحرارة. لقد كان فعلاً، لكن الغرض من موضعه لم يكن كذلك البتة. لم يكن جسده المنحني أو ظهره المقوس مقشعراً يرتجف من البرد القارس في الخارج، لم تكن يداه ممدوتين باحثتين عن الدفء. كان يهتز في مقعده للأمام وللخلف، محدثاً ذلك الصوت الكئيب الذي سمعه، مع انكماش أطرافه على بعضها، وتنكيس الرأس، وطي الذراعين على الصدر، وإحكام قبضة يديه.

أغلق الباب وراءه بعد دخوله مباشرة، باصطدام قوي، جعله ينخلع من مكانه. لكن الجالس لم يحرك ساكناً، لم يتكلم، ولم يلتفت أبداً لينظر، ولم يعبر بأضعف الإيماءات عن سماعه للضوضاء أو لصفعة الباب. كانت هيئة الجالس هيئة رجل عجوز، شابته رأسه الأشيب في لونها رماد الجمر المتفتت الذي كان يحرق فيه. هو نفسه والضوء الخافت والنيران الخامدة والغرفة الرخيمة والعزلة والحياة الفانية والكآبة سيان.. رماد وتراب وطلل وخراب!

حاول كيت التحدث، وفعلاً لفظ ببعض الكلمات، بالكاد كان يعرفها. لا يزال أنين البكاء يتردد، لا يزال الجالس على كرسيه مهتزاً، لا يزال متخذاً نفس الشكل المنكوب، دون تغيير، غافلاً عن حضوره. كانت يده على المزلاج ثانيةً، عندما تبدى له وجه الشخص، حينما انكسرت خشبة، وسقطت، وحينما سقطت استعر اللهب، وانعكس على وجهه الضوء. عاد حيثما كان واقفاً من قبل، يتقدم خطوة بطيئة، ثم يتبعها بأخرى. ثم أخرى، حتى رأى وجه الشخص واضحاً. نعم! متجعداً كما كان، عرفه جيداً من توه.

جثم على ركبتيه من فوره، وأمسك بيده صائحاً: «سيدي! تحدث إليّ يا سيدي العزيز!».

التفت الرجل العجوز نحوه ببطء، وتمتم بصوت واهن: «وها هي أخرى! كم عدد الأرواح التي تحوم حولي في هذه الليلة!».

- لا وجود لأي أرواح هنا يا سيدي. لست سوى خادمك المخلص. أنا متأكد أنك تعرفني، أليس كذلك؟ الآنسة نيل - أين هي؟ أين الآنسة نيل؟

صاح الرجل العجوز: «تقول كل الأرواح نفس الكلام.. تسأل كل الأرواح نفس السؤال. كل الأرواح!».

أصر كيت على سؤاله: «أين هي يا سيدي؟ من فضلك أخبرني يا سيدي - إنها ليس... قل لي أين هي يا سيدي العزيز!».

- إنها نائمة بعمق - نائمة بعمق هناك.

- الحمد والشكر للرب .

رد الرجل العجوز: «نعم الحمد والشكر له! لقد صليت الكثير والكثير والكثير من المرات طوال هذه الليلة، عندما وجدتها نائمة.. وهو أعلم بذلك وبحالي - أنصت! هل تنادي؟».

- لم أسمع أي صوت.

- بل سمعت، وتسمعها الآن.. أتريد أن تقول لي إنك لا تسمع ذلك؟

وقف يتحرى السمع مرة أخرى.

صاح بابتسامة انتصار: «ولا تسمع ذلك أيضًا؟ هل يمكن لأي شخص أن يعرف ذلك الصوت مثلي؟ صه! صه!».

أوماً إليه ليصمت، وهوَد إلى غرفة أخرى. بعد غياب قصير - سمعه خلاله يتهامس بلهجة ناعمة مهدئة - عاد، يحمل مصباحًا في يده.

قال هامسًا: «إنها لا تزال نائمة.. كنت محققًا. إنها لم تنادِ - إلا إذا فعلت ذلك في سباتها. لقد نادتني وهي نائمة قبل الآن يا سيدي، بينما كنت جالسًا إلى جوارها، أرنو إليها، رأيت شفيتها تتحركان، وعرفت على الرغم من عدم صدور أي صوت منهما، أنها كانت تتحدث عني.. خشيت أن يزعج الضوء عينيها، ويقلق منامها، فأحضرتة إلى هنا».

كان حديثه أقرب إلى التمتمة إلى النفس، من التحدث إلى الزائر، لكنه عندما وضع المصباح على الطاولة، رفعه مرة أخرى، كما لو كان مُسَيَّرًا من قِبَل بعض الذكريات أو مدفوعًا بالفضول، وقربه من وجهه.

لكن اللحظة لم تكتمل، كما لو أنه نسي ما انتوى فعله، فاستدار، ووضعه مرة ثانية.

قال: «إنها نائمة في سلام.. ولا عجب! نثرت لها الملائكة الثلج، كست به كل الأرض، لدرجة أن أثقل الخطى صارت أخفت وقعاً، حتى الطيور ساكنة هادئة، لا تريد أن تقلق منامها. لقد اعتادت إطعامها يا سيدي. إن لم تكن تشعر بالبرد القارس أو الجوع، تهرب تلك العصفير الخجولة منا دوماً. لكنها لم تهرب منها قط!». .

توقف ليتحرى السمع مرة أخرى، كان بالكاد يتنفس من بعد أن كتم أنفاسه، ينصت لفترة طويلة، طويلة جداً. بعد أن مضى وهمه، فتح صندوقاً قديماً، وأخرج منه بعض الملابس في حنوٍ ولطفٍ، كما لو كانت كائنات حية، وبدأ يتلمسها ويملس عليها بيده.

قال متممًا: «لماذا أنتِ راقدة في سريركِ يا عزيزتي نيل، بينما ينتظرك توت أحمر خارج بابكِ لتقطفيه؟ لماذا أنتِ راقدة هناك في هذا الخمول الجم والسكينة، بينما يأتي أصدقاؤكِ الصغار متسللين، يقفون عند الباب ويصيحون: أين نيل - أين نيل الجميلة؟ ومن بعدها ينوحون ويتحبون؛ لأنهم لا يرونكِ! لطالما كانت مع الأطفال حنونة لطيفة. كان أكثرهم شقاوةً يهدأ ويطيع حديثها - لديها روح لينة وطريقة ناعمة تتعامل بها معهم!». .

لم يقوَ كيت على الحديث. وقد فاضت عيناه بالدمع.

صاح الرجل العجوز: «هذا فستانها الصغير، المفضل لديها!». .

ضمه إلى صدره، يرت عليه يديه المجدتين: «كم ستفتقده حينما تستيقظ! لقد أخفوه هنا أثناء اللهو، لكنها ستستيقظ وتأخذه - حتمًا ستستيقظ وتأخذه. أبدًا لن أزعج وأرهق عزيزتي، ولو من أجل ثروات العالم الواسع أجمع. انظر! انظر إلى زوجي الحذاء! انظر كيف هما مهترتان! لقد احتفظت بهما ليدكرها برحلتنا الطويلة الأخيرة. انظر كيف كانت تطأ الأرض بقدميها الصغيرتين العاريتين. لقد أخبروني فيما بعد أن الحجارة كدمتهما وجرحتهما وأنزفتها. لكنها لم تخبرني بذلك قط. أبدًا لم تفعل! فليبارك الرب روحها! أتذكر حينها، كانت تمشي خلفي يا سيدي؛ كي لا أرى كيف كانت تعرج وتتألم، ومع ذلك تأخذ بيدي؛ لأتوكأ عليها، تحنو عليَّ بيديها، وتقتادني عبر الطريق».

قبلهما بشفتيه، وأعادهما بحذر مرة أخرى، وهو لا يزال يتمتم إلى نفسه، و من وقت لآخر ينظر بحزن إلى الغرفة التي زارها مؤخرًا:

«لم تكن تريد الاستلقاء في سريرها، كانت في حالة جيدة. يجب أن نتحلى بالصبر. عندما تصبح في حالة جيدة مرة أخرى، ستنهض باكراً، كما اعتادت، وتجول هنا وهناك في الصباح المشرق. غالبًا كنت أحاول تقفي أثرها، لكن قدميها الصغيرتين لم تكونا تتركان أثراً على الأرض الندية، لترشداني. من هذا؟ أغلق الباب من فورك. أسرع! - أليس لدينا ما يكفي للتعامل معه، حتى نتكبد معاناة إخراج الجُرف الثلجي، ونحافظ على إبقائها دافئة!».

قد فُتح الباب بالفعل؛ لدخول السيد جارلاند وصديقه، وفي صحبتهما شخصان آخران. كانا المعلم والعاذب حامل البكالوريا.

وتقدم أولهما يحمل مصباحًا في يده. بدا أنه كان هنا، لكنه ذهب إلى كوخه لتجديد مصباحه الخافت، في اللحظة التي أتى كيت فيها ووجد الرجل العجوز يجلس بمفرده. هدا مرة أخرى؛ فور رؤية هذين الصديقين، ونحى غضبه تمامًا - إذا جاز استعمال هذا التعبير، فلم يكن سوى وهن وحزن - الذي تحدث به حين فتح الباب، وعاد إلى موضع جلسته الأول، منحسرًا منكس الرأس، ملتاغًا، ينكمش في نفسه شيئًا فشيئًا، يتمتم بصوته الكئيب الشارد.

لم يحرك طرفًا، أو أعار انتباهًا لوجود الغريبين. لقد رآهما، لكنه كان خاويًا من أي تعبير أو دهشة. ظل الأخ الأصغر واقفًا على مبعده، بينما سحب العازب حامل البكالوريا كرسيًا إلى جوار الرجل العجوز، وجلس بجانبه. وبعد صمت طويل، جسر على الحديث.

قال بلطف: «تمضي ليلة أخرى، ولست نائمًا في سريرك! أرجو أن تأخذ بعين الاعتبار الوعد الذي أبرمته معي. لماذا لا ترتاح قليلًا؟».

رد الرجل العجوز: «رحل عني النوم.. رحل كل شيء معها!».

قال العازب حامل البكالوريا: «حينما تنهض، سيؤولمها إذا عرفت أنك كنت مستيقظًا طوال ذلك الوقت. هل تريد أن تسبب لها آلامًا؟».

- لست متأكدًا، لو أن هذا سيتسبب في نهوضها. لقد نامت لفترة

طويلة. ومع ذلك أجسر على قول أنه نوم هانئ سالم.. أليس كذلك؟

رد العازب حامل البكالوريا: «بالطبع هو كذلك.. إنه كذلك

فعلاً!».

قال الرجل العجوز متلعثمًا: «هذا جيد! والاستيقاظ...».

- سالم مُسعد أيضًا.. أكثر بهجة من أن يصفه لسان، أو يخطر على قلب بشر.

راقبوه وهو يقوم متسللاً على أطراف أصابع قدميه إلى الغرفة الأخرى، التي أخذ منها المصباح من قبل. سمعوه يتحدث مرة أخرى عبر الحوائط المصمتة. نظروا في وجوه بعضهم، لم تكن وجنتا أيٍّ منهم خالية من هطول الدمع. عاد مرة أخرى، يهمس بأنها لا تزال نائمة، لكنه ظن أنها تحركت. قال: إن يدها هي التي تحركت، قليلاً.. بل قليلاً جداً جداً، لكنه متأكد تمام التأكد أنها تحركت لتلمس يده. كان يعرف أنها كانت تفعل ذلك قبل الآن، حتى وإن كانت حينها في أعرق نومها. وعندما قال ذلك، ارتدى على كرسيه مرة أخرى، لطم براحته كفيه على رأسه، ورفع صوته بعويل لا يمكن أن ينسى أبد الدهر.

أوماً المعلم المسكين إلى العازب حامل البكالوريا بأنه سيأتي من الجانب الآخر؛ ليتحدث إليه. فتحا تشابك أصابعه معاً بلين، من بعد أن لوى بينهما شعره الرمادي، وأمسكا بها بين يديهما بكل رفق.

قال المعلم: «سيستمع إليّ.. أنا متأكد. إذا طلبنا منه سواء أنا أو أنت، فسوف يستمع إلينا. كانت تفعل هي في كل الأوقات».

صاح الرجل العجوز: «سأستمع إلى أي صوت كانت تحبه.. أنا أحب كل ما أحبته!».

رد المعلم: «أعلم أنك ستفعل.. أنا متأكد.. أريدك أن تفكر فيها،

فكر في كل الصعوبات التي تخطيتموها معاً، فكر في كل المعاناة التي مررتما بها سالمين، فكر في كل الأحزان والآلام التي شاركتماها معاً، فكر في كل المحن والمصائب، ومن بعدها تدبر كل السرور المنعم بالسلام الذي عرفتماه معاً».

- إني فاعل.. إني فاعل.. لا أفكر في أي أمر آخر.

لا أريدك أن تفكر في أي شيء آخر هذه الليلة.. لا تفكر في أي شيء سوى الأشياء التي تجبر قلبك المحزون يا صديقي العزيز، أريدك أن تشرح قلبك بالعواطف القديمة وأوقاتكم معاً. لو كان بإمكانها أن تتحدث معك، ل قالت لك نفس الكلام. وباسمها أنا أتحدث الآن.

قال الرجل العجوز: «مشكور لتحدثك بهدوء، على أي حال لن نوقظها.. كم سيسعدني أن أرى عينيها مرة أخرى، وأرى ابتسامتها! يرتسم الآن على محياها ابتسامة حانية، لكنها ثابتة لا تتغير. كم أود أن أراها تمشي أمامي جيئةً وذهاباً. حريٌّ أن يكون ذلك في رحاب جنات نعيم. على أي حال لن نوقظها».

قال المعلم: «دعنا لا نتحدث عنها في نومها، دعنا نتحدث عنها كما اعتادت أن تكون في أوقات سفركما معاً -أو أبعد من ذلك- كما اعتادت أن تكون في البيت، في البيت القديم الذي رحلتما عنه معاً، عندما كانت متلهلة الوجه بالسعادة، دعنا نتحدث عنها في أوقات فرحها وسرورها».

صاح الرجل العجوز، ينظر إليه بعينين شاخصتين: «لطالما كانت

مبتهجة الوجه، متبسمة الأسارير.. لكنَّ شيئاً شاب ابتهاجها منذ البداية، بإمكانني أن أتذكر، على الرغم من طبيعتها الباشة».

استأنف المعلم كلامه: «لقد سمعنا أنها ورثت ذلك وورثت ببساطة فضائلها الجمّة من والدتها. هل يمكنك التفكير فيها وتذكرها؟».

حقد فيه بعينه الشاخصتين مليّاً، ولم يومئ بأي إجابة.

قال العازب حامل البكالوريا: «أو أن تتذكر ما كان قبلها.. لسنوات عديدة، أثقلها الحزن وأعتتها ردحاً طويلاً، ومع ذلك لم تنسَ ذكراها، لم تنسَ ما ساهم في جعل هذه الطفلة عزيزة على قلبك قريبة منك من بعد موتها، قبل حتى أن تعرف سجاياها أو تطلع على قلبها! قل! إن بإمكانك أن تعيد ذكرياتك إلى الأيام الخوالي، إلى سن الحداثة، على عكس هذه الزهرة الجميلة، حيث لم تمضِ مطالع الصبا وحدك. قل! إن بإمكانك أن تتذكر طفلاً أحببته حبّاً جمّاً في قديم الزمان، وكنت نفسك طفلاً أيضاً. قل! إن لديك أحّاً، قد يكون الزمن قد وارى ذكراه، لم تره لسنين طويلة، هجرك قبل ردحٍ طويلٍ، والآن عاد أخيراً، وهو في أمس الحاجة ليكون إلى جانبك، يود أن يريحك ويعزيك...».

خر الأخ الأصغر جائئاً على ركبتيه أمامه وصاح: «ويكون لك كيفما كنت له فيما مضى.. أن يكون يدك اليمنى، من أجل أن يوفيك حقك، حق ما قدمته له قديماً يا أخي العزيز، أن يحتويك بكل ود وعطف وحب، لم ينقطع أبداً، على الرغم من المحيطات التي ماجت بينكما.. ويشهدك على حقيقته وعواطفه التي لم تتغير على مر تلك الأيام، وخلال سنوات عزله وأساه. قل لي كلمة واحدة يا أخي، تبين أنك تعرفني، لا

لا يا أخي! قل لي هل يوجد أسعد من أيام طفولتنا، عندما كنا مجرد طفلين ساذجين، وظننا أننا سنمضي حياتنا معًا، كنا عزيزين مخلصين لبعضنا، مثلما سوف نكون من الآن فصاعدًا!».

نظر الرجل العجوز من وجه إلى آخر، يحرك شفتيه، لكن الصوت لا يخرج من بينهما.

استأنف الأخ الأصغر قائلاً: «يا له من وثاق متين سيربط بيننا! إذا جُمع شملنا مرة أخرى. بدأ حبنا وصادقتنا في الطفولة، عندما كانت الحياة كلها أمامنا، وسوف نستكملها معًا ما دمنا برهنا على ذلك.. وما نحن إلا أطفالاً صغاراً في النهاية. كم من أرواح هائمة عديدة، من بعد اقتناص الثروة والشهرة والسعادة عبر التجوال في العالم، يبحثون عن ملاذ للراحة، يأوون حيث لفظوا أنفاسهم الأولى، يسعون عبثاً لإحياء ذكريات طفولتهم، ليكونوا أطفالاً مرة أخرى قبل موتهم، وعلى الرغم من أننا كنا أقل منهم حظاً في السنوات الأولى لحياتنا، سنكون أكثر سعادة في مشاهدتها الختامية، سوف نريح عقلينا مشمولين بأفكارنا الصببانية، نعود إلى بيتنا بلا رجاء استحوذ على سنين عمرنا، لا نعيد ذكريات موجعة قد تناسيناها، نعيد فقط اشتياقنا وودنا القديم الذي نكنه إلى أحداً الآخر.. لا نحتفظ بشيء من أطلال الحياة، غير ما أحببناه فعلاً في البداية، حينما كنا أطفالاً.. وحتى...»، أضاف بنبرة مختلفة: «حتى لو كان ما أخشى ذكره يا أخي العزيز - حدث أو مترقب حدوثه (حاشا وكلا.. فلتحننا السماء وتعافنا!) لن ننفصل أبداً أحداً عن الآخر، وليجبرنا هذا في مصيبتنا المفجعة».

بينما كانت تُلفظ تلك الكلمات، وتتردد على مسامعه، هُوَد الرجل العجوز مترنحًا، يخطو للأمام في وهن خطوة بخطوة نحو الغرفة الداخلية. يشير هناك وهو يرد بشفتين مرتجفتين:

«إنها مؤامرة بينكما لفطر قلبي.. فإنك لست بفاعل لما تقول أبدًا.. إنك لن تفعل ما دمت حيًّا. لم يكن لديَّ أقارب أو أصدقاء سواها - لم يكن لديَّ، ولن يكون لديَّ. كانت لي كل حياتي، كانت لي كل أناسي.. باكرًا على الرحيل يا فتاتي».

لَوَّح لهم بيده، وهُوَد إلى داخل الغرفة مناديًا عليها بلطف. تجمع مَنْ تركهم معًا، وبعد أن تهامسوا بقليل من كلمات لم تنطق بسهولة، غير مسترسلة متقطعة جاشت خلالها العواطف والأحزان، تبعوه. تحركوا بلطف، لم يكن لوقع أقدامهم أي صوت، بل ارتفعت أصوات نحيب من بين جمعهم كله، واعتلاها أصوات جِداد متكبدة لمرارة الفاجعة، حزينَة.

لقد ماتت، ماتت مفترشة سريرها الصغير، راقدة في سلام.. فما برح السكون المهيب عجبًا الآن..

لقد ماتت، وكم تبدت سجاياها الحسان أشد حسنًا ورواءً، منزهة عن كل ألم ومعاناة، أرمى للأنظار، تُسكِّن الناظرين. بدت مخلوقة حديثة الخلق من يد الخالق، منتظرة ليُنْفَخ فيها الروح، لم تَبْدُ كَمَنْ عاشت وتكبدت آلامًا، وفاضت روحها.

زينت أريكتها بكساء من أوراق الأشجار الخضراء مثورة عليها

توت شتوي، جُمعت في ركنها المفضل: «عندما أموت، ضعوا بقربي شيئاً أحبَّ النور، ودائماً أستظل بالسماء الحانية». كانت تلك كلماتها قبل موتها.

لقد ماتت، ماتت العزيزة الصبورة اللطيفة الكريمة، ماتت نيل. يرتجف عصفورها المسكين في قفصه -عصفور ضعيف صغير، كان يمكن أن تسحقه ضغطة واحدة من إصبع- وصامتاً كان قلب خليلته الطفلة، لن يرجف ولن يرتجف ثانيةً إلى الأبد. أين آثار ما شهدته من الهموم باكرًا؟ أين توارت معاناتها؟ أين اختفى إعيائها! كل قد رحل.. مات الحزن معها، وولد السلام والهدوء والسعادة، وصور في هدوء وجمال وسكينة استرخاءها العميق.

فلا عجب! تكمن هي في كل مكان دون تغيير. نعم. دائماً ما يتبسم مثل هذا الوجه النقي الجميل عند المدفأة القديمة، مر مثل حلم، عبر بؤس ومأسٍ وهموم، دائماً ما يتبسم عند باب المعلم في الليالي الصيفية، وقبل إشعال نيران المدفأة في ليالي البرد الشتوية، دائماً ما يتبسم إلى جانب سرير الصبي المحتضر، دائماً ما يتبدى نفس المظهر السمع اللطيف.. هكذا تتبدى لنا الملائكة في جلالها، بعد الموت.

أمسك الرجل العجوز ذراعها المتراخية، وضمَّ يدها الصغيرة بشدة إلى صدره، يرجو الدفء. كانت تلك هي يدها التي مدتها إليه بابتسامتها الأخيرة.. اليد التي توكأ عليها واقتادته طوال ترحالهم. بين الفينة والفينة، يضغط بها على شفتيه، ثم يعاود ضمها إلى صدره، ويغمغم بأنها صارت أكثر دفئاً الآن، وبينما كان يقول ذلك، ينظر بحسرة مهلكة

إلى أولئك الذين وقفوا حوله، كأنه يتوسلهم لمساعدتها متضرعاً.

لقد ماتت، ولن تنفع مساعدة، ولا حاجة لها إليها. فلن تشهدها بعد الآن الغرف القديمة التي دبت فيها دبيب الحياة، وإن كانت غرفتها الخاصة تداعت أسرع - والحديقة التي رعتها - والأعين التي سُرّت لرؤياها - وساعات التفكير الطويلة الصامتة - والمسارات التي سلكتها آخر مرة بالأمس القريب.

انحنى المعلم ليقبلها على خدها، وانفضت دموعه وانهمرت، قائلاً: «لا تقنط من عدالة السماء. لقد وسعت رحمتها كل شيء. فكّر أي مكان في الأرض قد يضاهي ولو جزءاً من العالم الذي رفرت تجاهه روحها الفتية في رحلتها المبكرة، وقل لي! إذا كانت هناك أي أمنية، يمكن التعبير عنها بعبارات شعائرية مهيبة فوق هذا السرير، يمكن أن تعيدها إلى الحياة، من منّا يمكن له أن ينطق بها!».



الفصل الثاني والسبعون

حينما طلع الصباح، وأصبح بإمكانهم التحدث بهدوء عما فطر قلوبهم، ورزحهم في أسى مفرط، سمعوا كيف أودت بها المنية.

لقد ماتت منذ يومين. كانوا مجتمعين جميعاً حولها، يعلمون أن النهاية كانت تقترب. توفيت بعد فترة وجيزة من الفجر. في وقت مبكر من تلك الليلة، كانوا جالسين حولها يقرأون لها ويتحدثون معها، ومع مرور الساعات، غلبها النعاس، ونامت. سمعوا ما كانت تتمم به بصوت ضعيف في أحلامها، كانت مع الرجل العجوز في إحدى رحلاتهما، لم تظهر في الحلم أي مشاهد مؤلمة، بل على النقيض تمامًا، كانت محاطة بجميع من ساعدوها وعاملوها بلطف؛ لبثت تلفظ بحرارة: «فليباركك الرب!». استيقظت.. وقالت لهم إنها لم تحلم بتجوالها أبدًا سوى هذه المرة، وإن ألحانًا عذبة كانت تُعزف طواله في شتى نواحي السماء. يعلم الله. ربما كان الأمر كذلك فعلاً.

فتحت عينيها أخيرًا، من نوم هادئ جدًا، وتوسلت إليهم ليقبلوها مرة أخرى. بعد أن لبوا رغبته، التفتت إلى الرجل العجوز، تعتلي

وجهها ابتسامة حنونة، قالوا عنها إنهم لم يروها من قبل ولا يستطيعون نسيانها، وبعدها طوقت بذراعيها عنقه في حنوٍ. ولم يدركوا في بادئ الأمر أنها ماتت.

كثيراً ما تحدثت عن الأختين، قالت عنهما إنهما كانتا لها صديقتين مقربتين جداً. تمت لو كان بالإمكان إخبارهما كم كانت تفكر فيهما! وكيف كانت ترنو إليهما حينما كانتا تمشيان معاً، بجانب النهر ليلاً. وددت أن ترى كيت العزيز، لطالما أعربت عن هذه الرغبة مرات عديدة مؤخراً. تمت لو أن هناك أحداً بإمكانه أن يخبر كيت بمدى حبها له. ومن بعدها لم تعبر عنه بخاطرة أو بكلمة، إلا وتضحك بروح ضحكاته القديمة المرححة الصافية.

أما بالنسبة إلى البقية، فإنها أبداً لم تتذمر أو تشتكي، تتحدث بتعقل رزين وبسلوك هادئ لا يتغير - يذكر أنها يوماً من بعد يوم صارت تجاههم أكثر وداً وامتناناً- تلاشى كل شيء كضوء في الأمسيات الصيفية.

مع أول خيوط النهار، أتى الطفل -صديقها الصغير- يحمل أزهاراً مجففة، متوسلاً إياهم أن يضعوها على صدرها. إنه ذاك الطفل الذي دلف إلى نافذته، ولم يحول نظره عنها طوال الليل، وتحدث إلى القندلفت، تبينوا آثار قدميه الصغيرتين في الثلج، حيث اعتاد أن يتسلل ليلاً بالقرب من الغرفة التي كانت فيها ترقد؛ ليطمئن عليها قبل أن يأوي إلى فراشه. ربما كان لديه وهم، ولم يستطع تحمل فكرته، حيال أنهم تركوها هناك بمفردها.

أخبرهم بحلمه مرة أخرى، وأخبرهم عن استعادتهم إياها، تمامًا كما كانت من قبل. رجاها متوسلاً إليهم بشدة؛ ليراها، أبرم وعوداً، قائلاً إنه سيلتزم الصمت تمامًا، وإنه لا داعي للخوف من أن يتناهب الفزع؛ فقد جلس بجوار أخيه الصغير يومًا كاملاً وهو ميت، وأنه شعر بالفرح؛ لأنه كان قريباً منه في تلك اللحظات الأخيرة. دعوه يفعل ما تمنى، وقد كان صادقاً فيما وعد، وبطريقته الطفولية كان لهم جميعاً مثلاً يُحتذى به.

حتى ذلك الوقت، لم يتحدث العجوز مع أي أحد -سواها- ولم يبرح مكانه، ماکثاً بجانب السرير. لكنه عندما رأى عزيزها الصغير، تحرك كما لم يروه يتحرك هكذا من قبل، وأوحت حركة جسده، كما لو كان يستدعيه ليقترّب. وبعدها، مشيراً إلى السرير، خر باكيًا، وفاضت عيناه بالدمع لأول مرة، حينما تبصر الواقفون، أن رؤية هذا الطفل، كان فيه براء لحالته، تركاهما بمفردهما معاً. هدأه الطفل بحديث عنها كان طفولياً تشتمله البراءة، وأقنعه بأخذ قسطٍ من الراحة، وبالمشي ولو قليلاً في الخارج، وأن يفعل ما يُطلب منه. وعندما حل اليوم، الذي سينقلونها فيه تحت الثرى، بعيداً عن أعين الوري، أخذه بعيداً؛ حتى لا يشهد الوقت الذي سيأخذونها من أحضانه إلى الأبد.

أحاطوا سريرها بأوراق الشجر وبتوت طازج. وافق يومهم يوم الأحد -كان يوماً مشرقاً صافياً، بارداً بعد ظهيرة- بينما كانوا يمشون في شوارع القرية، أفسح لهما السائرون مجاًلاً، يحيونهم بتحيات معزية. وصافح بعضهم الرجل العجوز بعطف، ووقف بعضهم خالعين

قبعاتهم، بينما كان يمر أمامهم، وصاح الكثيرون بعد أن مضى في طريقه طويلاً داعين: «أعانه الله!».

توقف الرجل العجوز عند الكوخ الذي سكنته والدته مرشد طريقه، وسألها: «أيتها الجارة.. قولي لي لماذا يرتدي أغلب الناس اليوم ثياباً سوداء؟ لقد رأيت عصابة أو شريط حِداد على كل واحد تقريباً».

قالت المرأة: إنها لا تعرف شيئاً.

قال: «كيف! فأنتِ نفسكِ ترتدين نفس اللون أيضاً! أرى أن كل النوافذ مغلقة، ولم تكن كذلك مطلقاً عدا اليوم.. ماذا يعني هذا؟».

قالت المرأة: إنها لا تعرف سبباً.

قال الرجل العجوز على عجل: «يجب أن نعود.. يجب أن نعرف ما هذا!».

صاح الطفل من فوره، محتجراً إياه: «لا لا! ألا تتذكر وعدك لي! إن طريقنا نحو الممر الأخضر القديم، حيث وجدتني أنا وهي أكثر من مرة، نصنع تلك الأكاليل لحديقتها. فلا، لن نعود!».

قال الرجل العجوز: «حسناً! لكن أين هي الآن؟ قل لي».

رد الطفل: «ألا تعرف؟ ألم تتركها من تونا؟».

- صحيح صحيح. إنها حيث تركناها.. أليس كذلك؟

وضع يده على جبينه، ينظر حوله بإبهام، ثم بدا كأن فكرة قد خطرت على باله فجأة، فإذ به يعبر الشارع، ودخل إلى بيت القندلفت. كان هو وصديقه الأصم جالسين أمام النيران، وقد نهضا معاً ليتبينوا من أتى. أشار

الطفل لهما بيده على عجل. كانت إشارة لحظية، لم يكشفها ماهيتها،
لكن منظر العجوز ونظراته، كانت كافية لتفسير كل شيء.

قال بحماس مضطرب: «هل - هل ستدفن أحدًا اليوم؟».

رد القندلفت: «لا لا! مَنْ يجب أن ندفنه يا سيدي؟».

- اممم.. مَنْ! أنا لا أعرف مَنْ! أنا في الواقع أسألك مَنْ.

رد القندلفت باعتدال: «إنها عطلة أيها السيد الطيب.. ليس لدينا أي

عمل نقوم به اليوم».

التفت الرجل العجوز إلى الطفل وقال: «حسنًا! سأذهب معك

أيما أنت ذاهب.. لكنك متأكد مما أخبرتني به.. أليس كذلك؟ إنك لا
تخدعني! لقد تغيرت، تغيرت منذ آخر مرة رأيتني فيها».

صاح القندلفت: «امض في طريقك معه يا سيدي، ولترعاكما

السماء!».

قال الرجل العجوز في خنوع: «حسنًا! أنا مستعد الآن لأذهب معك

يا ولدي.. هيا بنا! هيا..».

وهكذا سلّم بأخذه بعيدًا طوعًا!

دق الجرس -الجرس الذي سمعته ليلاً وصباحًا، واستأنست به،

وغمر روحها بسعادة شعائرية، كما لو كان صوتًا تنبض به الحياة- قرع

الناقوس بنغمة جنازية لا ترحم، من أجلها، من أجل جمالها وحسنها

وطيبتها. أتى الطاعنون في السن، والكهول، واليُفْعان، والقُصْر،

والأطفال، والرضع مَنْ لا حول لهم -أتوا بمختلف الهيئات، متكئين

على عكاكيزهم، ناعمين بالصحة والقوة، مضطربين خجلاً، أو في فجر سنواتهم الأولى - مجتمعين، ملتفين حول قبرها. كان من بينهم الأجداد من ضعفت قدرات حواسهم وخفت نور أعينهم، والجدات ربما تكون المنية قد وافتهن منذ عشر سنوات لكنهن ما زلن مسنات، والأصم، والأعمى، والأعرج، والمشلول، وغيرهم من الأموات الأحياء بمختلف الأشكال والهيئات؛ لرؤية إغلاق قبر باكر عن أوانه. يحجز الموت أرواحاً داخل القبور، وما زال يحوم ويزحف فوقها.

حملوا جثمانها على طول الطريق المكدس بالناس، نقيّاً كندف الثلج الذي غطاه، سريع الزوال، فلا يبقى على الأرض سوى لحظات عابرة. وعند الرواق، حيثما جلست، عندما أرشدتها رحمت السماء إلى أرضها السلام، مرت مرة أخرى أخيرة، واستقبلتها الكنيسة القديمة بظلها الهادئ.

حملوا جثمانها إلى ركن رخيم، كانت تجلس فيه مرات ومرات عديدة تتأمل ما حولها، ثم وضعوا ما حملوا على الرصيف بهدوء. انساب الضوء عليه من نافذة ملونة، وقد كانت الأشجار خارجها تصدر حفيفاً لم يسمع في أي وقت مضى في الصيف، وكانت الطيور ترفرف مغردة بأعذب الألحان طوال النهار. ومع كل دفقة نسيم، تتحرك معها أفرع الأشجار، التي تنساب من بينها أشعة الشمس، متلاثلة على قبرها. من أرض إلى أرض، من رماد إلى رماد، من طين إلى طين! ألقت الأيادي الشابة أكاليلها، وسمعت أصوات النواح والتنهدات المختنقة بالعبرات. خر بعضهم جاثمين - لم يكونوا بالعدد القليل أبداً- وبكوا

جميعهم في حزنهم صادقين.

انتهى القداس، تفرق المعزون، واقترب القرويون، يرنون إلى قبرها قبل إعادة وضع الحجر. قال أحدهم متذكراً كيف كانت تجلس في نفس المكان، وكتابها موضوع على حجرها، بينما كانت رانية إلى السماء بملامح وجه متألمة. وقال الآخر كم من مرة كان يتعجب، متسائلاً كيف أن طفلة رقيقة حساسة مثلها، جريئة جداً؛ فكيف لم تَخَفُ أبداً من الدخول إلى الكنيسة بمفردها ليلاً، وأحبت رغم سكون كل شيء حولها البقاء هنا بمفردها، فضلاً عن تسلقها لدرج البرج، دون أي ضوء سوى ضوء القمر الذي كان ينير لها من ثلمات الحائط القديم السميك. ثم ارتفعت همسات من بين كبار السن، تفيد بأنها كانت ترى الملائكة وتتحدث معهم.. فعلت الهمهمات من بينهم جميعاً، بعد أن تذكروا كيف كان شكلها، كيف كانت تتحدث وتتعامل، وتدبروا موتها المبكر، فصدقوا على ما قيل. وهكذا، تابعوا بشرائط معقودة؛ ينظرون إلى قبرها، ثم يفسحون المجال لآخرين، وينفضون، حتى بقت ثلاث أو أربع مجموعات تتهامس فيما بينهم، إلى أن خلت الكنيسة من الجميع مع مرور الوقت، عدا القندلفت والأصدقاء المحزونين.

شهدوا المدفن مغطىً، والحجر محكمًا غلقه. رأوا غروب الشمس وإطباق الليل، دون أن يداهم أي صوت حرمة سكون المكان، شهدوا ضوء قمر ليلتهم المنير على الضريح والنصب التذكاري، وعلى العمود والجدار والقوس، تراءى لهم أن ضوءه كان متمركزاً على قبرها بالأخص - شهدوا في ذلك الوقت الهادئ تناغم الأشياء الخارجية

وأفكارهم الداخلية مع تأكيدات الخلود، شهدوا الآمال والمخاوف
الدنيوية وقد واراها التراب أمامهم.. بقلوب قاتنة هادئة، رحلوا تاركين
الطفلة مع خالقها.

كم هي قاسية تلك العظة التي نعتبر بها من هذه المينات! دع أولي
الألباب يعتبرون.. فما هو إلا درس على الجميع تعلمه لا إهماله؛ فهو
الحقيقة الكونية. حينما يذوق الأبرياء و الصغار الموت، مقابل كل نمط
هش لكل روح مرثية يُطلق سراحها، تُبعث مئات الفضائل، على شكل
رحمة وإحسان ومحبة تسع العالم وتباركه. مع كل دمة يذرفها البشر
المحزنون على مثل هذه القبور الخضراء، يُروى الخير ويُزهر، وترع
الطبيعة الحانية. ينبثق نور يضيء عتمة مسعى أحدهم، فيتحول طريقه
الحالك ضياءً يرشده إلى الجنة.

عندما عاد الرجل العجوز إلى البيت، كان الوقت متأخرًا؛ ففي طرق
عودتهما، عرج الطفل معه إلى بيته، وبيعض التظاهر، وبسبب حاجته
للراحة لمشقات لياليه الأخيرة، والنعاس الذي غلبه، نام مستغرقًا بجانب
المدفأة. كان منهكًا تمامًا، وحرصوا جميعًا على عدم إيقاظه. ظل نائمًا
لفترة طويلة، وعندما استيقظ أخيرًا، كان القمر منيرًا في السماء.

مكث الأخ الصغير غير مرتاح لغيابه الطويل، شاخص العينين تجاه
الباب، مرتقبًا مجيئه، حتى ظهر أخيرًا في الممر مع مرشده الصغير.
سارع بالتقدم إليهما من فوره، مستسمحًا شقيقه بحنان، ليتوكأ على
ذراعه، وهوّد معه إلى البيت بخطوات بطيئة مرتجفة. وفور ما دخل،
عرج إلى غرفتها مباشرة دون هدنة. لم يجد ما تركه فيها، عاد بمظهر

مشت ونظرات مضطربة إلى الغرفة التي كانوا فيها مجتمعين. اندفع من فوره إلى كوخ المعلم، ينادي عليها، فاتبعوه عن كثب، وبعد أن بحث عبثاً، أعادوه إلى بيته.

وبكلمات حنونة مشفقة أقنعوه بأن ينزل على مشيئتهم، وبينهم يجلس، ليسمع ما يجب أن يخبروه. لجأوا إلى كل حيلة ممكنة ليمهدوا عقله من أجل استيعاب ما سوف يُقال، وعهدوا إلى العديد من الكلمات الحماسية؛ موضحين نعيم ما فيه تسكن، ثم.. أخبروه أخيراً بالحقيقة. وفي نفس الدقيقة التي خرج فيها الخبر من بين شفاههم، طُرح على الأرض لا حراك فيه مثل مَنْ خر صريعاً. ولعدة ساعات، تداهمهم فيها خيبات أمل كبيرة في بقاءه، كان الحزن يلزمهم طوالها، استعاد وعيه أخيراً.

إذا كان هناك أحد لم يعرف أبداً معنى الشرود الذي يتبع الموت -الشرود المهلك- فيهيمن الخراب ولو على أكثر العقول رشداً، يستحوذ الأسى على الروح، ويدهم النفس الشعور بالفقد لشيء محبب مألوف مع كل خطوة تطؤها الأقدام، وشعور بنقصان لن يكتمل إلى الأبد، معنى العلاقة الواصلة بين كل شيء مادي وإن كان صغيراً بالذاكرة، فتصبح كل روح كانت تحرس البيت المأهول نصباً تذكارية، وتصبح كل الغرف قبوراً.. إذا كان هناك أحد لم يختبر هذا الشعور في حياته الخاصة، لن يمكنه أبداً فهم ولو بصورة طفيفة، كيف كان الرجل العجوز هزياً شاحباً، شاردًا في تأملات مبهمة لعدة أيام طال بقاؤها، يفتش هنا وهناك يبحث عن شيء لن يعثر عليه أبداً، لا يهنأ بوهلة من راحة.

مهما كانت قوة الفكرة أو الذكرى التي استبقاها، كانت كلها مرتبطة بها. لم يفهم أبداً، وغير بادٍ أنه مكتثر البتة بشقيقه. كان يقابل كل كلمة عزاء، كل تربيته حب، كل اهتمام، بفتور غير مسبوق. إذا حدثوه عن هذا الشأن أو أي شأن آخر - باستثناء شأن واحد-، يسمعهم بصبر لبعض الوقت، ثم يندفع باحثاً كما كان من قبل ودون هوادة.

أما حيال هذا الشأن الواحد، الذي استحوذ بالكلية على ذهنه، وعلى أذهانهم جميعاً، فكان من المستحيل الخوض في ذكره. ماتت! كيف تنطق هذه الكلمة، التي لن يتحمل قلبه سماعها! كيف وأبسط تلميح عنها سيطرحه مغشياً عليه، لا يحرك أي طرف، مثل أول مرة قيلت فيها تلك الكلمة أمامه. لا يمكن لأحد على وجه الأرض، أن يقول أي أمل كان يتشبث به، أو يعيش عليه، لكن أمله في العثور عليها مرة أخرى، كان للجميع واضحاً- كان أملاً مبهمًا خافتاً لازمه، تثقل وطأته من يوم لآخر، ويرزحه تحت وطأة الإعياء والهزال يوماً بعد يوم، وتتعدد له غصص قلبه ألماً وحزناً.

استحثوهم على الابتعاد عن مشهد الحزن الأخير، نصحوهم بأن يغيروا المكان؛ فربما سيعافيه هذا الفعل ويهدئ من روعه. استمع شقيقه إلى رشد أولئك الذين اعتبرهم حاذقين في مثل تلك الأمور لاعتيادهم عليها، وقد أتوا ورأوه. وبعد أن تقدم بعض منهم على الفور، وتحدثوا إليه، حينما وافق على التحدث، وشاهدوه وهو يهود جيئةً وذهوباً صامتاً بمفرده وحيداً. قالوا إن الانتقال به أينما يشاؤون، لن يجدي نفعاً؛ فسوف يحاول جاهداً الوصول إلى هذا المكان مرات ومرات. سيفر عقله إلى

هذا المكان. حتى إن أبقوه تحت ناظرهم عن كذب، وطوقوه بالحراسة المشددة، أو احتجزوه سجينًا، إذا واثته أي فرصة للهروب، سوف يهرب ويعود أدراجه حتمًا إلى ذلك المكان، أو يموت على الطريق.

لم يعد للولد الذي حاز معه على تقدم في البداية، أي تأثير عليه. أحيانًا كان يسمح للطفل بأن يسير بجانبه في الطريق، قلما كان يلاحظ وجوده سوى تلك المرات التي مد فيها إليه يده، أو توقف ليقبّل وجنته، أو يربت على رأسه. وأحيانًا أخرى كان يحثه على الرحيل -ليس بقسوة- ويرفض أن يبقى قريبًا منه. لكنه سواء أكان بمفرده أم برفقة هذا الصديق اللين المطواع، أو مع أولئك الذين يودون إحاطته بالتعزية وراحة البال مقابل أي توضيحات يقدمونها، أو كانت الأفكار قد هاودتهم وتمكنوا من ابتكار أي وسائل لطمأنته، كان في جميع الأوقات متشابهًا -زاهدًا كاسف البال لم يعد لديه أي رغبة أو حب للحياة الدنيا- رجلًا منفطر القلب.

في يوم ما بعد مدة طويلة، وجدوا أنه استيقظ باكراً، ورحل حاملاً حقيبتة على ظهره، يتوكأ على عصاه بيده، وأن قبعته التي اعتادت اعتمارها، وسلّة صغير اعتادت على حملها مليئة بحاجياتها، قد اختفت. وحينما استفاقوا على غيابه، وتأهبوا لملاحقته، أتاهم طالب مرتعباً قال إنه رآه، ولكن في لحظة سابقة، جالساً في الكنيسة، تحديقاً على قبرها.

سارعوا إلى هناك، ثم عرجوا ببطء إلى الباب، رأوه على مبعدة يجلس كشخص منتظراً حدوث أمر بفارغ الصبر. حينها لم يزعجوه، بل مكثوا يراقبونه طوال ذلك اليوم. حينما هبط المساء، قام عن مجلسه،

وعاد إلى البيت، ثم أوى إلى فراشه متممًا إلى نفسه: «ستأتي غدًا!».
وحينما حل غده المنتظر، لبث هناك مرة أخرى منذ أول خيوط الفجر،
حتى تسلل المساء، وعند عودته، مال إلى الراحة متممًا: «ستأتي غدًا!».
ومن ذاك اليوم فصاعدًا، كل يوم، وطوال اليوم، ينتظرها عند قبرها.
كم عدد الرحلات الجديدة التي تجوب أنحاء الريف الخلابة، في أماكنه
باعثة الراحة، وتحت سمائه الفسيحة، ويكثر فيها التجوال بين حقوله
وأيكاته، ومساراته غير الموطوءة بكل خوف وحافر! - كم عدد ألحان
هذا الصوت القابع في الذاكرة! كم عدد اللمحات الوامضة للشكل
والفساتين المرفرفة والشعر الذي يتموج بانسيابية مبهجة مع دقات
النسيم! - كم عدد الرؤى التي حدث وتذكرها، وتمنى أن تحدث
ولمحاها في باله! كم مرة تصور كل تلك الأمور أمامه في الكنيسة
القديمة الرخيمة الباهتة! لم يخبر أبدًا أي أحد بأفكاره أو أين ذهب.
يجلس معهم في المساء، شارد الذهن، غارقًا في تأمله الذي يضيء عليه
رضى سرّيًا، كان لهم مرثيًا، يرى نفسه معها هائمًا يفكران أي رحلة
سيقومان بها قبل أن يهبط الليل مرة أخرى، ولا يزالون يسمعون يتهامس
في صلواته: «يا رب! دعها تأتي غدًا!».

حانت المرة الأخيرة في يوم لطيف في الربيع. لم يعد في ساعته
المعتادة، فهرعوا جميعًا للبحث عنه. وجدوه مستلقيًا ساكنًا وافته المنية
على حَجَرها. وضعوه في سلام إلى جانبها، في أكثر الأماكن التي أحبها،
وفي الكنيسة التي صُلّي فيها كثيرًا، وعاش فيها سرور خيالاته... يدًا بيد،
الطفلة والرجل العجوز، راقدان معًا في سلام وإلى الأبد.

الفصل الثالث والسبعون

بَكْرَةَ سَحْرِيَّةٍ، دَارَتْ وَدَارَتْ مَعَهَا الْأَحْدَاثُ، قَادَتْ الْمُؤَرِّخَ إِلَى ذَاكَ الْمَكَانِ الْبَعِيدِ، وَآلَتْ إِلَى أَنْ تَتَرَجَّعَ فِي وَتِيرَتِهَا وَتَتَوَقَّفَ. تَسْكُنُ دُونَ حَرَاكَ قَبْلَ الْمَغْزَى، فَتَعْقُبُ مَا كَانَ هُوَ النِّهَايَةِ.

لَمْ يَبْقَ سِوَى مَنْ كَانُوا مَحَوْرَ الْحَشْدِ الصَّغِيرِ، مَنْ نَقَلُونَا مَعَهُمْ طَوَالَ ذَاكَ الطَّرِيقِ، وَبَسِيرَتُهُمْ تَنْتَهِي الرِّحْلَةَ.

كَانَ مِنْ أَهْمِهِمْ بَرَّاسٌ وَسَالِيٌّ، كَتَفًا بِكَتَفٍ، لَفَتَا انْتِبَاهُنَا الْمَهْذَبَ.

السَّيِّدُ سَامِبِسُونُ.. كَمَا عَلِمْنَا بِالْفِعْلِ فَقَدْ تَمَّ احْتِجَازُهُ، بَعْدَ أَنْ اسْتَدْعَاهُ الْقَاضِي، وَإِذَا طَوَّلَ مَدَّةَ إِقَامَتِهِ، الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَوْلَ أَوْ قُوَّةٍ فِي رَفْضِهَا أَوْ عَدَمِ الْانْصِيَاعِ لَهَا، كَانَ فِي وَضْعٍ مَيُّوْسٍ مِنْهُ، وَبَقِيَ تَحْتَ الْحِرَاسَةِ الْمَشْدُدَةِ لِرَدْحٍ مِنَ الْوَقْتِ، وَبِسَبَبِ اهْتِمَامِ مُضَيِّفِهِ الْكَرِيمِ بِهِ، رَاقِبَهُ عَنْ كُتُبٍ، حَتَّى صَارَ مَنْعَزَلًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ عَنِ الْمَجْتَمَعِ، لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ أَجْلِ التَّدْرِيبَاتِ فِي السَّاحَةِ الْمَرْصُوفَةِ. حَسَنًا! فِي الْوَاقِعِ، كَانَتْ سُلُوكِيَّاتُهُ الْوُدُودَةُ الْخَجُولَةُ، وَانْكَمَاشُهُ فِي نَفْسِهِ مَفْهُومَةً مِنْ قَبْلِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانَ عَلَيْهِ التَّعَامُلُ مَعَهُمْ، وَشَعَرُوا بِالْغَيْرَةِ الْحَاقِقَةِ مِنْ غِيَابِهِ، طَلَبُوا نَوْعًا مَا مِنَ السَّنَدَاتِ الْوُدِيَّةِ، لِيُعْهَدُوا إِلَيْهِ بَاثْنَيْنِ مِنْ مَدِيرَاتِ الْمَنْزَلِ

المحترفات مقابل خمسمائة جنيه، قبل أن يسمحوا له بترك رحابهم وحسن وفادتهم - على ما يبدو أنهم شكوا في أن يعود مرة أخرى، إذا حدث وأطلق سراحه تحت أي ظرف من الظروف. صُدم السيد براس من مزحتهم الساخرة، وحاول بقدر ما استطاع الإفلات من تهكماتهم، فبحث جاهداً بين دائرة علاقاته الكبيرة، ووصل إلى زوج من أصدقائه، كانت ثروتهما مجمعة لا تقل عن النصف بنس ولن تزيد عن الخمسة عشر بنساً، وعرضها عليهم على أنها كفالة - وهذه هي الكلمة المرححة التهكمية التي اتفق عليها الطرفان في النهاية.. وبعد أربع وعشرين ساعة من الهزل والفكاهة رفض هؤلاء السادة ما عرضه، وأفاد السيد براس بموافقته على البقاء، حتى استدعته مجموعة من الأرواح المختارة تُدعى بهيئة المحلفين الكبرى - مَنْ كانوا في المزحة - إلى المحاكمة للمثول أمام اثني عشر آخرين بسبب تهم الحنث باليمين والاحتيال المنسوبة إليه، وأعلنوا بنشوة فرح متألفة أنه مذنب - ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل طالت نشوة الفرح جحافل الجماهير العريضة، وقرّنت إحالته إلى مبنى المهرجين مَنْ هم على شاكلته، متجهًا لنقله بالعربة، ودَّعوه بتحيات متنوعة، قذفه البعض بالبيض الفاسد، والبعض الآخر بأشلاء الميتة، راغبين جميعهم في تمزيقه إربًا إربًا، مما زاد من هزلية الوضع إلى حد كبير، ما جعله يطلق سراح روحه المهذارة في أشد استمتاع، بلا أدنى شك.

من أجل انتشاء أطول مع هذا المزاج المرح، طالب مستشار السيد براس القانوني، بتخفيف الحكم، مستنجدًا برأفة القانون التي تُطبق على

المعترفين بجرائمهم، فما برح أن جرّم نفسه منخدعًا بضمانات السلامة ووعود العفو. بعد المفاوضات الرسمية حيال تلك النقطة مع آخرين - كانت لهم طبيعة حاسمة، لا تسعهم المزايدة في روح الفكاهة - أُحيل إلى القضاة لاتخاذ قرار في شأنه، وفي هذا الوقت، نُقل سامبسون إلى مقره السابق. وأخيرًا، تم تحصيل بعض النقاط لصالح سامبسون، والبعض الآخر ضده؛ فكانت الخاتمة أنه بدلًا من ترحيله قسرًا لبعض الوقت إلى بقاع أجنبية، سُمح له بالتنعم في بلده الأم تحت شروط معينة غير ذات أهمية.

يحق له أن ينعم بتلك الشروط لمدة سنوات، حيث ينتقل إلى قصر فسيح، يقيم ويسكن فيه سادة آخرون عالة على المجتمع، ممّن يرتدون زيًا رماديًا مثاليًا، وبعد فترة يتحول إلى الأصفر، وتُحلق رؤوسهم، ويعيشون بشكل كامل على العصيدة والحساء الخفيف. كان مطلوبًا منه أيضًا أن يشاركهم في تدريباتهم، يصعد دون توقف درجات سلم لا نهائية، وخشية أن تكون ساقاه غير معتادتين على هذا الجهد، حُرّي به أن يربط على كاحله تميمة أو حُلّية حديدية. بعد أن تم الترتيب لهذه الشروط، نُقل ذات مساء إلى مسكنه الجديد، مستمتعًا مع تسعة من السادة الآخرين، وسيدتين، بامتياز نقلهم إلى مكان تقاعده في إحدى العربات الملكية الخاصة.

وعلاوةً على هذه العقوبات التافهة، تم دحض وجوده وشطب اسمه من لائحة المحامين، دائمًا ما يكون هذا المحو في الأوقات الأخيرة تكيّتًا وإهانةً عارمةً، وضمانًا لسلطة ممنوحة لبعض البسطاء العظماء

- يبدو أن هذا هو الحال، بينما تبقى العديد من الأسماء عديمة الجدوى في أفضل سجلاتها دون تدخل.

الآنسة سالي براس.. تضاربت الشائعات حيال فرارها إلى الخارج. قال البعض بثقة: إنها نزلت إلى أرصفة السفن متنكرة في ملابس رجال، وصارت بحارًا، وتهامس البعض الآخر بإبهام أنها تجندت سرًا في الكتيبة الثانية في سلاح المشاة، فقد رأوها ذات مساء، تؤدي خدماتها بالزي الرسمي، منحنية على بندقيتها تنظر من كشك حراسة في حديقة سانت جيمس. راج الكثير من تلك الهمسات بشأن تلك التداولات، لكن الحقيقة الواقعية ظهرت وبينت أنه بعد مرور خمس سنوات، لم يكن هناك أي دليل مباشر يفيد رؤيتها على الإطلاق طوال تلك المدة، شوهد شخصان بئسان أكثر من مرة يتسللان عند الغسق من أوغل خبايا (سانت جايلز)، يمشيان على طول الشارع، بخطوات متعثرة وأرجل مرتجفة وهيئة مرتعبة، ينظران طوال الوقت في كل الطرق والممرات وفي وجار الكلاب، يبحثان عن فضلات الطعام، أو أي بقايا منثورة. لم يُلمح هذان الشخصان سوى في تلك الليالي الشتوية الباردة الحالكة، عندما تتجرأ الأرواح المجسدة للمرض والعلل والقحط، والأطياف المفزعة، التي ترقد طوال الأوقات الأخرى في المخابئ الوخيمة القذرة للندن، وعلى القناطر، وفي الأقبية والسراديب المظلمة، على التسلل إلى الشوارع. فقد همس من عرفوا أن هذين كانا سامبسون وأخته سالي، ويُقال إنهما حتى وقتنا الحالي، أحيانًا ينسلان في الليالي الغاسقة، ولهما المظهر البغيض نفسه، بالقرب من سواعد السابلة المرتعدين.

بعد بحث لم تثمر نتائجه إلا بعد مرور بضعة أيام، عُثِر على جثة كويليب على الشاطئ بالقرب من المكان الذي جُرفت نحوه. كان الافتراض العام أنه انتحر -يتراءى أن يكون ذلك طبقاً للطريقة التي مات بها أمراً مستحسنًا- وأُعلن قرار المحكمة بناءً على ما تمت الإفادة به. تُرك ليُدفن بوتند مغروس في قلبه في منتصف مفترق أربعة طرق مهجورة.

وتردد بعد ذلك، أنه تم الاستغناء عن هذه المراسم الرهيبة الهمجية، وأن الجثة سُلمت سرّاً إلى توم سكوت. لكن الأفاويل في هذا الصدد انقسمت أيضاً، وقيل: إن توم عند منتصف الليل حفر وأخرجها، ونقلها إلى مكان أشارت إليه الأرملة. من المحتمل أن كلتا القصتين كان أصله في حقيقة بسيطة وهي أن توم ذرف دموعاً طوال البحث، وفعلاً كان ذلك ما فعل، وهو ما بدا أمراً غير عادي. علاوةً على ذلك، أظهر رغبة قوية في الاعتداء على هيئة المحلفين، فتم قمعه وإبعاده عن المحكمة، التي أظلم نافذتها الوحيدة، واقفاً على رأسه على حافتها، إلى أن مال بقدميه بمهارة مبتعداً بفضل شماس كنيسة متحفظ.

وبسبب أنه أُلقيَ في رحاب العالم الفسيح بعد موت سيده، قرر أن يشق عالمه على يديه ورأسه، وبناءً عليه بدأ يتشقلب بحثاً عن قوت يومه. وجد أن جنسيته الإنجليزية ستكون عقبة لا تُقهر تحول بينه وبين مسعاه -على الرغم من أن فنه كان مفضلاً ذا شهرة عالية- اعتمد لنفسه اسم فتى إيطالي، تعرف عليه، وبعد ذلك اشتمل بنجاح استثنائي باهر، يتشقلب وسط جحافل الجماهير.

لم تغفر السيدة كويليب الشابة لنفسها أبدًا الخداع الوحيد الذي اقترفته، وقد أثقل كاهلها، وأحزن ضميرها، ولم تتكلم عنه أو تفكر فيه دون أن تذوق مرارة الدموع. لم يكن زوجها من ذوي القربى، فصارت غنية. لولا أنه كان بلا حول ولا قوة، ربما كادت أن تكون من المدقعين. وبعد أن تزوجت للمرة الأولى بإيعاز من والدتها، وشهدت ما آل إليه حالها، قررت ألا تسمع لأي أحد على الإطلاق سوى نفسها في خيارها الثاني. وقد وقع على شاب أنيق ذكي بالحد الكافي؛ وضع شرطاً تمهيدياً وهو أن السيدة جينيون من وقته فصاعداً ستكون خارج حياتهما، فعاشا معاً بعد زواجهما حياة هنيئة لم يزد الشجار فيها عن المعدل الطبيعي، ناعمين في حياة مرحلة بأموال القزم الميت.

استأنف السيد والسيدة جارلاند والسيد هابيل حيواتهما بنفس المنوال الذي عرفناه - باستثناء أن تغييراً قد حدث بالنسبة إلى سكان البيت ستعرفه فيما بعد - وعندما حان الوقت المناسب، صار الأخير شريكاً لكاتب العدل، وبسبب هذه المناسبة، أقاموا حفلاً راقصاً، وعشاءً، وأسرفوا في الملذات.. وحدث أن أكثر الشابات تورداً بالحياء شوهدت على الإطلاق دُعيت إلى ذلك الحفل الراقص، وحدث أن السيد هابيل قد وقع في غرامها. كيف حدث هذا؟ كيف تلاقيا؟ كيف اكتشفا حبهما؟ أو أي منهما لفت نظر الآخر حيال اكتشافه لأول مرة! لم يعلم أحد. لكن ما كان مؤكداً، أنهما تزوجا في الوقت المناسب، وما كان مؤكداً أيضاً أنهما كانا أسعد السعداء، وما لم يُقْلَ يقيناً عن كل ذلك، أنهما استحقا ذلك فعلاً. ومن المبهج أن أكتب أنهما كونا أسرة؛

لأن أي تكاثر للخير والإحسان، لن يكون بالإضافة الهيئة للمجتمع الأرستقراطي، ولن يكون موضوعاً عابراً لابتهاج البشرية جمعاء.

بكل وقار حافظ المهر على استقلالية شخصيته ومبدئه المعهود حتى آخر لحظة في حياته، وقد كانت طويلة بشكل غير معتاد، صار كأنه بار^(٢٧). المهور. ركض جيئةً وذهاباً بعربته الصغيرة بين السيد والسيدة جارلاند وابنه، وعندما كان الكبار والصغار يجتمعون معاً في كثير من الأحيان، صارت لديه حظيرة خاصة في البيت الجديد، مشى فيها خبيئاً كيفما حلا له بجلاله المدهش. تنازل ولعب مع الأطفال، الذين كبروا بالقدر الكافي ليحوزوا على صداقته، فصار معهم يركض هنا وهناك في المرعى الصغير مثل الكلب، على الرغم من أنه كان مسترخياً معهم لدرجة كبيرة، وسمح لهم بحرية في التعامل كالملاطفة والتربيت، أو حتى النظر إلى حدوده أو التعلق في ذيله، لم يسمح لأحد منهم قط أن يمتطيه أو أن يستحنه على السير، مبيناً أنه حتى المعرفة والألفة يجب أن يكون لها حدودها، وأن هناك نقاطاً بينهما شديدة الجدية لا يمكن العبث بها.

حينما انتقل العازب الطيب حامل البكالوريا ليعيش مع السيد جارلاند عند وفاة الكاهن، لم يكن غير قابل لإنشاء صداقات ودية في حياته اللاحقة، فقد كوّن معه صداقة حميمة، لدرجة أنه خضع بشكل ودي إلى أن يسوقه بيديه دون أقل مقاومة. توقف عن العمل لمدة سنتين أو ثلاث سنوات قبل وفاته، لكنه عاش في ترف، وكان آخر فعله - كسيد نبيل عجوز غضوب - هو ركل طبيبه.

(٢٧) توماس بار: رجل إنجليزي عاش ١٥٢ عاماً.

تعافى السيد سوفيلىر من مرضه ببطء شديد، ومع أول استلام لمعاشه، اشترى للماركية من فوره مخزوناً من الملابس الأنيقة، وألحقها بالمدرسة من توه، وفاءً للنذر الذي أوجبه على نفسه حينما كان على سريريه محمومًا. وبعد أن أسهب في التفكير لبعض الوقت عن اسم قيّم يليق بها، قرر باستحسان أن يسميها: «صوفرونيا سفينكس». لكونه حسن الوقع على الأذن، ولطيف، علاوة على أنه يضمني إحياءً دلاليًا بالغموض. وبهذا الاسم، أعدت الماركية بالدموع للالتحاق بالمدرسة التي اختارها، فلم تلبث سوى القليل، وقد هزمت كل منافسيها، وانتقلت قبل انقضاء فترة طويلة إلى درجة أعلى. لن يكون إلاّ عدلاً ذكر أنه على الرغم من أن نفقات تعليمها أبقت السيد سوفيلىر في ظروف صعبة لمدة ست سنوات متتالية، إلا أنه لم يتباطأ عن دفعها قط، ولم تقل حماسه بشأنها مطلقاً، بل دفع مكافآت بالقدر الكافي؛ يتوق دائماً إلى سماع أخبار تقدمها بشغف واهتمام كبير، أثناء زيارته الشهرية للمربية، التي لطالما كانت تنظر إليه على أنه رجل أدب ذو عادات غير نمطية، صاحب موهبة مذهلة غير مسبوقه في الاقتباس.

باختصار، يمكننا القول بأن السيد سوفيلىر أبقي الماركية في تلك المؤسسة إلى أن بلغت من العمر تسعة عشر عاماً كاملة - حسب أفضل التقديرات - وأصبحت حسنة المظهر وذكية ذات خلق حسن، وحينها بدأ يفكر بجدية فيما يجب عليه فعله بعد ذلك. في إحدى زيارته الدورية، بينما كان يدور هذا السؤال في ذهنه، أته الماركية بمفردها، بدت مفعمة بالحياة، مبتهجة الأسارير أكثر من أي وقت مضى. خطر

على باله -ليس للمرة الأولى- ماذا لو يتزوجها، كم سيعيشان مع بعضهما سعداء مرتاحين! لذا، سألها ريتشارد، وبناءً على ردها، الذي لم يكن أبدًا بالرفض، تزوجا ذات يوم في أسبوع، أمد السيد سوفييلر بداعٍ مستمر للتدبر في فترات عديدة لاحقة، أنه لطالما كانت هناك شابة جميلة مدخرة له طوال ذلك الوقت وبعد كل شيء.

بعد أن انتهى شهر العسل، تملك فيلا صغيرة في هامبستيد، وجد في حديقتها غرفة تدخين، سمح لغابط العالم المتحضر بأن يسكنها. أوى السيد تشوكستر إلى هذا الملجأ بانتظام كل أيام الأحد؛ ليقضي يومه هناك -عادةً يبدأ بوجبة الإفطار- حينها كان المتعهد الأكبر بنقل أخبار العامة والمعلومات العصرية.

كنمت في قرارة نفسه لبضع سنوات عداوة بغضاء نحو كيت؛ معلناً أن رأيه فيه وقتما كان من المفترض أنه سرق الخمسة جنيهات كان ولا يزال سديداً، بل أصرَّ عليه أكثر حين إعلان براءته الكاملة من ارتكاب الجريمة؛ بقدر ما كان إثبات إدانته سيدل على الجرأة والتجاسر، صارت براءته دليلاً آخر على تصرفاته الماكرة الغادرة. لكنه رويداً رويداً تصالح معه في النهاية، بل حدث ما هو أكثر من ذلك، فقد أجَّله في محاباة؛ كشخص تائب أصلح من نفسه، وبالتالي يجب أن يُغفر له. لكنه أبداً لم ينسَ ما حدث في أمر الشلن ولم يعذره، مع العلم أنه إذا كان قد أتى ليتحصل على شلن آخر، لكان فعله في نظره عملاً جيداً بما فيه الكفاية، لكن عودته للعمل من منطلق عطيته السابقة كانت في نظره وصمة على شخصيته الأخلاقية التي لا يمكن أن تمحوها توبة أو ندم.

كثيرًا ما تجلّى السيد سوفييلر - ذو النظرة الفلسفية والفكر التأملّي - في غرفة التدخين، وشغل عقله في كثير من تلك الفترات بمناقشة نفسه في السؤال الغامض المتردد على عقله بخصوص والدي صوفرينا. على الرغم من أن صوفرينا افترضت أنها يتيمة، حاول السيد سوفييلر تدبر شتى الأحداث وإن كانت طفيفة وربطها ببعضها، لدرجة أنه فكر في أن الآنسة براس غالبًا ما كانت تعرف أين تكمن الحقيقة، وخاصةً أنه كثيرًا ما سمع من زوجته عن مقابلاتها الغريبة مع المدعو كويليب، وقد خامرته الشكوك المختلفة، لكنه رأى أن ذاك الشخص وإن كان لا يزال على قيد الحياة، لن يتمكن أيضًا من حل اللغز. عمومًا، لم تكن تلك التكهّنات مصدر إزعاج؛ فقد كانت له صوفرينا زوجة مبهجة عطوفة حنونة، وكان لها ديك - باستثناء الخصومات العرضية التي كانت تندلع بينه وبين السيد تشوكستر، وفضلت أن تشجعها بدلًا من معارضتها - زوجًا محببًا أنيسًا. لعبا معًا الكريبيج مئات الآلاف من المرات. ودعونا نضيف على شرف ذكر ديك، أنه على الرغم من أننا دعوناها باسم صوفرينا، لم يكن يدعوها منذ البداية وإلى النهاية سوى بالماركيزة، ومع كل ذكرى سنوية لليوم الذي استيقظ فيه مبروءًا من علته ووجدها في غرفته، كان يعد عشاء كبيرًا تمجيدًا لفضلها، ويدعو إليه السيد تشوكستر.

بالنسبة لمن لم ترتق ذكراهم إلى النسيان، أولئك المقامرين، إسحاق ليست وجول والمتضامن معهما جيمس جروفر، فقد استكملوا حياتهم بنفس النهج، وبنجاحات متفاوتة، حتى فرّقهم إفلاس تدابيرهم الحماسية، وشتتهم في مختلف الاتجاهات، وتسبب في تعرض

مسيرتهم المهنية لبطش يد القانون التي طالتهم جميعًا. لكن أساس هذه الهزيمة الشنعاء، كان شريكًا جديدًا صعب المراس انضم إليهم -الشاب فريدريك ترينت- الذي أصبح الأداة اللاواعية التي أدت إلى عقوبتهم وعقوبته على حد سواء.

أما بالنسبة إلى الشاب نفسه، فقد قام بأعمال شغب كثيرة في الفترة القصيرة التي قضاها بالخارج، خلالها عاش معتمدًا على ذكائه - يُقصد أنه اعتمد على الفارق الوحيد الذي ميزه عن الحيوانات الضارية، لكنه أساء استخدامه، فزح في مكانة أسفل منها بكثير. لم يمض وقتٌ طويلٌ، حتى تعرف على جثته غريب، صادف أنه كان في زيارة لتلك المستشفى في باريس، التي يُعهد إليها بالغرقى، على الرغم من الكدمات والتشوهات التي قيل أن مشاجرات مسبقة سببتها. لكن الغريب تحفظ في أقواله، وعاد إلى البيت، ولم يذع أو يكثرث البتة.

الأخ الأصغر، أو وفقًا لما هو مألوف لنا أكثر، الرجل الأعزب. حاول الرجل الأعزب جاهدًا أن يصطحب معه المعلم المسكين ويتشله من حياة الفقر ومعيشته بمفرده، ويجعله خليله ورفيقه. لكن المعلم القروي المتواضع كان خجولًا منطويًا، لا يجذب صخب العالم، ولا يجسر على خوض تلك المغامرة، علاوةً على أنه صار منتميًا إلى مسكنه في ساحة الكنيسة القديمة. سعيدًا بهدوء مدرسته، وسكون مكانه، بجانب ضريح الصغيرة، واصل نهج حياته في سلام، مشمولًا بفضل امتنان صديقه الصالح له -إذا كان هذا القول الموجز كافيًا لم يعد المعلم المسكين بعد.

أما عن صديقه -الرجل الأعزب- أو الأخ الأصغر، فعانى من غصص محزنة في قلبه، لكنها لم تضعفه ولم تُلقِ به في ظلمات الكآبة، أو تلحقه بحياة الرهينة. بل جاب العالم على ذكراهما. لفترة طالت مدتها، صاحبته السعادة، سعى في دروب الرجل العجوز والطفلة، طاف في تلك الأماكن التي خطوا عليها -بقدر ما استطاع تتبع تلك الأماكن من روايتها الأخيرة- يقف في المكان الذي وقفا فيه، مشمولاً بعواطف متأججة، يتعاطف مع ذكرى المآسي التي عايناها، يبتهج مع ذكرى أسعدتهما. لم ينسَ أبداً في رحلة بحثه عن أولئك الذين أوجدوا للفرح طريقاً لقلبيهما. التقى بالأختين من المدرسة -من ذكرت أنهما كانتا صديقيها العزيزتين- وقد كانتا بلا أصدقاء -السيدة جارلي من معرض أعمال الشمع - كودلين والقصير، لقد وجدهم جميعاً.. وثق في؛ لم يكن الرجل الذي أطعم نيران الفرن طي النسيان أبداً.

راجت قصة كيت عبر البلاد وإلى الخارج، وصار له جمهور يدعمونه، وتعويضاً عما حدث له، توافدت عليه عروض لتأمين حياته المستقبلية. حينها لم يأخذ بعين الاعتبار كافة تلك العروض، ولم يخطر على باله قط أن يترك خدمة السيد جارلاند، لكنه بعد جدال وإقناع طويل كان بنفس الجدية من السيد نفسه، بدأ يفكر في إمكانية حدوث مثل هذا التغيير في الوقت المناسب. تم تأمين وظيفة له، مال إليها عقله، وخطفت بسببها أنفاسه، قد وفرها له بعض السادة النبلاء، ممن ظنوا في بادئ الأمر أنه مذنب مدان بالجريمة التي نسبت إليه، وتصرفوا بناء على هذا الاعتقاد. ومن خلال الوكالة نفسها، تم تأمين حياة والدته من

العوز، وأنعموا عليها بحياة سعدت فيها. وهكذا، كما قال كيت فإنَّ كربتة الكبرى كانت مصدر نعيمه اللاحق.

لكن السؤال هنا، هل ظل كيت شابًا عازبًا طوال هذا الوقت، أم تزوج؟ بالطبع تزوج، ومَن يجب أن تصير له زوجًا غير باربرا؟ لكن أفضل ما كان في الأمر، أنهما تزوجا سريعًا، وسرعان ما أصبح جايكوب الصغير عمًّا، قبل أن تُغطى ربله ساقيه -التي ذكرت في تاريخ روايتنا- بينطلون من الجوخ. لكن هذا لم يكن الأفضل؛ لأنَّ مَن كان رضيعًا صار عمًّا أيضًا. تجاوزت سعادة والدة كيت ووالدة باربرا بفضل تلك المناسبات العظيمة حدود الوصف، وقويت علاقتهما أكثر فأكثر من بعد هذا الموضوع، أو من قبله بمراحل، ومن ذلك الوقت فصاعدًا، عاشتا معًا متناغمتين في انسجام وأمان الصداقة. ألم يذهبا جميعًا للاستمتاع بعروض مسرح أستلي.. ألم تستمر والدة كيت في قول: «إن ذلك سيقودهم إلى الذنوب والمهلكات»، بينما كانوا في طريقهم، وأن حيلة كيت الأخيرة قد لاقَت نفعًا في هذا الصدد، فيتساءل بما سوف يشعر المدير إذا علم ذلك عندما يمرون بمنزله!

عندما بلغ ابنا كيت سن السادسة والسابعة، شابها باربرا إلى حد كبير، ويا لجمال باربرا وحسن حفظهما! لأنهما كانا في غنى عن أن يكونا صورة طبق الأصل من عمهما جايكوب الصغير أو أن يشبهاه في تلك الأوقات البعيدة، عندما علَّموه ماذا يعني المحار. بالطبع كان أحدهما اسمه هابيل -الابن بالمعمودية للسيد جارلاندر- والآخر ديك؛ تيمناً بالسيد سوفييلر صاحب الفضل الكريم. غالبًا ما كانا يحقدان فيه؛

يرجوان منه أن يقص عليهما حكاية الأنسة نيل الجميلة التي ماتت. فيفعل، وحينما ينتهي يصرخان؛ متمنين أن يقص عليهما المزيد، ويستأنف حكايتها، ويقص عليهما كيف ذهبت إلى الجنة، مثل باقي الأخيار الصالحين، وماذا لو حاذيا حذوها، سيتمكنان من رؤيتها، يتمنيان لو كانا معها ذات يوم، وتعرفا عليها كما فعل عندما كان صغيراً. فيخبرهما كيف اكتنفته وقت حاجته، وكيف علمته عندما كان فقيراً ليتعلم، وكيف اعتاد الرجل العجوز أن يقول: «عادةً ما تضحك لكيت»، فيكفكان دموعهما، ويتسمان متخيلين ضحكتها، وتتهلل وجوههم جميعاً ببغته بفرحة شاملة.

أحياناً كان يصطحبهما إلى الشارع الذي عاشت فيه، لكن التعديلات الجديدة غيرت من معالمه كثيراً، فلم يبرح كما كان. منذ فترة طويلة، هُدم البيت القديم، ورُصف مكانه طريقاً واسعاً عريضاً. في البداية كان يخط لهما بعضا المكان الذي كان منتصباً فيه. لكنه مع مرور الوقت، صار غير متأكد من مكانه، ولم يعد بإمكانه سوى أن يقول إنه كان بالجوار في مكان قريب من هنا، محدثاً نفسه بأن تلك التعديلات مربكة إلى حد بعيد.

فمثل تلك التغيرات التي طرأت، والأشياء التي سُويت، كمثل القصة التي سُردت!!

تمت

